الرؤية القرآنية للعالم

دليلٌ للحياة في عالمٍ منكسر

رحلةٌ موضوعيّةٌ عبر القرآن الكريم للإنسان المعاصر

Rogiest Riyad Georges Hubert

فهرس المحتويات

المقدمة.....14

المحور 1: أسس الإيمان: الأركان الخمسة من منظور قرآني.....16

الفصل 1 – الأساس – نحن عبيد الله.....16

1.2 الآيات القرآنية.....17

1.3 تأمل في الحديث.....19

1.4 الطبقة التأملية.....19

1.5 الخاتمة.....20

الفصل 2 – معنى الشهادة وثقلها.....21

2.1 الملاحظة.....21

2.2 الآيات القرآنية.....23

2.3 تأمل في الحديث.....24

2.4 الطبقة التأملية.....25

2.5 الخاتمة.....25

الفصل 3 – الصلاة – العمود الفقري للرؤية القرآنية.....26

3.1 الملاحظة.....26

3.2 الآيات القرآنية.....27

3.3 تأمل في الحديث.....35

3.4 الطبقة التأملية.....35

3.5 الخاتمة.....36

الفصل 4 – الزكاة والصدقة – العطاء حياة.....37

4.1 الملاحظة.....37

4.2 الآيات القرآنية.....38

4.3 تأمل في الحديث.....42

4.4 الطبقة التأملية.....42

4.5 الخاتمة.....44

الفصل 5 – أهمية القربان – فعلُ تسليمٍ وتضحية.....44

5.1 الملاحظة.....44

5.2 الآيات القرآنية.....45

5.3 تأمل في الحديث.....46

5.4 الطبقة التأملية.....46

5.5 الخاتمة.....48

الفصل 6 – رمضان – صيام بلا تقوى؟.....48

6.1 الملاحظة.....48
6.2 الآيات القرآنية.....50
6.3 تأمل في الحديث.....52
6.4 الطبقة التأملية 53
6.5 الخاتمة 54
الفصل 7 – الحج والعمرة – بين الفرض، والتأجيل، والتحول الداخلي 54
7.1 الملاحظة.....54
7.2 الآيات القرآنية.....55
7.3 تأمل في الحديث 56
7.4 الطبقة التأملية 56
7.5 الخاتمة 57
57الفصل 8 – الابتلاءات – الثبات في قلب العاصفة 57
8.1 الملاحظة.....57
8.2 الآيات القرآنية.....59
8.3 تأمل في الحديث 62
8.4 الطبقة التأملية 63
8.5 الخاتمة 64
الفصل 9 – الاكتئاب، والضعف النفسي، والسكينة عبر القرآن 65
9.1 الملاحظة.....65
9.2 الآيات القرآنية.....66
9.3 تأمل في الحديث.....**68**
9.4 الطبقة التأملية 69
9.5 الخاتمة 70
الفصل 10 – التوبة والأمل 70
10.1 الملاحظة.....70
10.2 الآيات القرآنية.....71
10.3 تأمل في الحديث.....72
10.4 الطبقة التأملية.....73
10.5 الخاتمة.....74
الفصل 11 – ثقافة العيب وشرف العائلة.....74
11.1 الملاحظة.....74
11.2 الآيات القرآنية.....75
11.3 تأمل في الحديث.....76

11.4 الطبقة التأملية.....76
11.5 الخاتمة.....77
الفصل 12 – الحسد، والكِبر، والغرور 78
12.1 الملاحظة.....78
12.2 الآيات القرآنية.....78
12.3 تأمل في الحديث.....80
12.4 الطبقة التأملية.....80
12.5 الخاتمة.....81
الفصل 13 – العين، والخرافة، وحمايتنا الحقيقية – التوكل والذكر.....81
13.1 الملاحظة.....81
13.2 الآيات القرآنية.....82
13.3تأمل في الحديث.....83
13.4 الطبقة التأملية.....83
13.5 الخاتمة.....84
الفصل 14 – النفاق – مرض الوجوه المزدوجة.....84
14.1 الملاحظة.....84
14.2 الآيات القرآنية.....85
14.3 تأمل في الحديث.....86
14.4 الطبقة التأملية.....86
14.5 الخاتمة.....87
الفصل 15 – الفردانية والأنانية – أزمة النفس 88
15.1 الملاحظة.....88
15.2 الآيات القرآنية.....89
15.3 تأمل في الحديث.....90
15.4 الطبقة التأملية.....91
15.5 الخاتمة.....92
الفصل 16 – القناعة غنى القلب الراضي 92
16.1 الملاحظة.....92
16.2 الآيات القرآنية.....93
16.3 تأمل في الحديث.....94
16.4 الطبقة التأملية.....95
16.5 الخاتمة.....95
الفصل 17 – الصبر والشكر الصبر في أوقات الابتلاء، والشكر في أوقات الرخاء 96

17.1 الملاحظة.....96
17.2 الآيات القرآنية.....97
17.3 تأمل في الحديث.....99
17.4 الطبقة التأملية.....99
17.5 الخاتمة.....100
الفصل 18 – الإخلاص – الصدق لله وحده.....100
18.1 الملاحظة.....100
18.2 الآيات القرآنية.....101
18.3 تأمل في الحديث.....102
18.4 الطبقة التأملية.....102
18.5 الخاتمة.....103
الفصل 19 – الصدق – أن تعيش منسجمًا مع كلماتك.....103
19.1 الملاحظة.....103
19.2 الآيات القرآنية.....104
19.3 تأمل في الحديث.....105
19.4 الطبقة التأملية.....105
19.5 الخاتمة.....106
الفصل 20 – الثبات – البقاء على طريق الله رغم كل شيء.....107
20.1 الملاحظة.....107
20.2 الآيات القرآنية.....107
20.3 تأمل في الحديث.....108
20.4 الطبقة التأملية.....109
20.5 الخاتمة.....109
الفصل 21 – القول السديد – قوة الكلمة الصادقة.....110
21.1 الملاحظة.....110
21.2 الآيات القرآنية.....110
21.3 تأمل في الحديث.....112
21.4 الطبقة التأملية.....112
21.5 الخاتمة.....113
الفصل 23_التربية الإسلامية في العصر الحديث.....120
23.1 الملاحظة.....120
23.2 الآيات القرآنية.....121
23.3 تأمل في الحديث.....122

23.4 الطبقة التأملية.....123
23.5 الخاتمة.....125
المحور 3 – التربية، والأسرة، والمجتمع.....125
الفصل 24 – الطريق إلى الزواج.....125
24.1 الملاحظة.....125
24.2 الآيات القرآنية.....127
24.3 تأمل في الحديث.....129
24.4 الطبقة التأملية.....130
24.5 الخاتمة.....134
الفصل 25 – هدف الزواج في الرؤية القرآنية للعالم.....135
25.1 الملاحظة.....135
25.2 الآيات القرآنية.....136
25.3 تأمل في الحديث.....137
25.4 الطبقة التأملية.....137
25.5 الخاتمة.....138
الفصل 26 – الاستعداد للزواج في الرؤية القرآنية للعالم.....139
26.1 الملاحظة.....139
26.2 الآيات القرآنية.....141
26.3 تأمل في الحديث.....143
26.4 الطبقة التأملية.....143
26.5 الخاتمة.....145
الفصل 27 – التحديات والمسؤوليات داخل الزواج.....146
27.1 الملاحظة.....146
27.2 الآيات القرآنية.....148
27.3 التأمل في الحديث.....154
27.4 الطبقة التأملية.....155
27.5 الخاتمة.....158
الفصل 28 – الطلاق – بين الرحمة والحدود.....159
28.1 الملاحظة.....159
28.2الآيات القرآنية.....161
28 .3 التأمل في الحديث.....163
28.4 الطبقة التأملية.....164
28.5 الخاتمة.....166

الفصل 29 – تعدد الزوجات في الإسلام.....167
29.1 الملاحظة.....167
29.2 الآيات القرآنية.....168
29.3 التأمل في الحديث.....169
29.4 الطبقة التأملية.....170
29.5 الخاتمة.....171
الفصل 30 – زواج القاصرات – بين العادة، والصدمة، والعدالة.....172
30.1 الملاحظة.....172
30.2 الآيات القرآنية.....173
30.3 التأمل في الحديث.....174
30.4 الطبقة التأملية.....175
30.5 الخاتمة.....176
الفصل 31 – تربية الأطفال – أمانة منسية.....177
31.1 الملاحظة.....177
31.2 الآيات القرآنية.....179
31.3 التأمل في الحديث.....181
31.4 الطبقة التأملية.....182
31.5 الخاتمة.....183
الفصل 32 – برّ الوالدين – بين التوقير وسوء الاستعمال.....184
32.1 الملاحظة.....184
32.2 الآيات القرآنية.....185
32.3 التأمل في الحديث.....187
32.4 الطبقة التأملية.....189
32.5 الخاتمة.....190
الفصل 33 – الثقافة مقابل الإسلام – بين العادة والوحي.....191
33.1 الملاحظة.....191
33.2 الآيات القرآنية.....192
33.3 التأمل في الحديث.....193
33.4 الطبقة التأملية.....193
33.5 الخاتمة.....194
الفصل 34 – المسجد – بين الجماعة والفراغ.....195
34.1 الملاحظة.....195
34.2 الآيات القرآنية.....196

34.3 التأمل في الحديث 197
34.4 الطبقة التأملية 198
34.5 الخاتمة 198
الفصل 35 – حفظ القرآن والمدارس القرآنية – بين الشرف والفراغ 199
35.1 الملاحظة 199
35.2 الآيات القرآنية 200
35.3 التأمل في الحديث 202
35.4 الطبقة التأملية 203
35.5 الخاتمة 204
الفصل 36 – غزة – ضمير الأمة 204
36.1التدمير المنظّم لغزة 204
36.2 الآيات القرآنية 210
36.3 التأمل في الحديث 212
36.4 الطبقة التأملية 212
36.5 الخاتمة 214
الفصل 37 – المادية وسلوك الاستهلاك – عندما يصبح الامتلاك صنمًا 215
37.1 الملاحظة 215
37.2 الآيات القرآنية 218
37.3 التأمل في الحديث 220
37.4 الطبقة التأملية 220
37.5 الخاتمة 221
الفصل 38 – العدالة الاجتماعية واللامساواة – الأمة وضعفاؤها 222
38.1 الملاحظة 222
38.2 الآيات القرآنية 222
38.3 التأمل في الحديث 223
38.4 الطبقة التأملية 224
38.5 الخاتمة 225
الفصل 39 – الإعلام، وصناعة الصورة، والتأثير – من الذي يتحكم في بصرك؟ 225
39.1 الملاحظة 225
39.2 الآيات القرآنية 226
39.3 التأمل في الحديث 227
39.4 الطبقة التأملية 228
39.5 الخاتمة 229

الفصل 40 – الإدمان وسائل التواصل الاجتماعي، الألعاب، المواد الإباحية.....230
40.1 الملاحظة.....230
40.2 الآيات القرآنية.....232
40.3 التأمل في الحديث.....234
40.4 الطبقة التأملية.....234
40.5 الخاتمة.....235
الفصل 41 – الهوية في الغرب كيف تحافظ على هويتك الإسلامية في مجتمع علماني؟.....236
41.1 الملاحظة.....236
41.2 الآيات القرآنية.....237
41.3 التأمل في الحديث.....237
41.4 الطبقة التأملية.....238
41.5 الخاتمة.....238
الفصل 42 – الرأسمالية والفردانية – المال ووهم الأمان.....239
42.1 الملاحظة.....239
42.2 الآيات القرآنية.....241
42.3 التأمل في الحديث.....243
42.4 الطبقة التأملية.....244
42.5 الخاتمة.....245
الفصل 43 – الاقتصاد الإسلامي – النزاهة والمساءلة.....245
43.1 الملاحظة.....245
43.2 الآيات القرآنية.....248
43.3 التأمل في الحديث.....250
43.4 الطبقة التأملية.....253
43.5 الخاتمة.....254
الفصل 44 – وحدة الأُمّة الفرقة مرض، والوحدة دواء.....255
44.1 الملاحظة.....255
44.2 الآيات القرآنية.....255
44.3 التأمل في الحديث.....256
44.4 الطبقة التأملية.....257
44.5 الخاتمة.....258
الفصل 45 – التعامل مع أتباع الديانات الأخرى التوازن بين الثبات على الإيمان والعدل مع الآخر.....259
45.1 الملاحظة.....259
45.2 الآيات القرآنية.....260

45.3 التأمل في الحديث 238
45.4 الطبقة التأملية 260
45.5 الخاتمة 262
الفصل 46 – العلم – مفتاح المسؤولية الدنيوية والنمو الديني 262
46.1 الملاحظة 262
46.2 الآيات القرآنية 264
46.3 التأمل في الحديث 266
46.4 الطبقة التأملية 267
46.5 الخاتمة 268
الفصل 47 – متساويان في القيمة، لا متماثلان – أدوار الرجال والنساء في القرآن 268
47.1 الملاحظة 269
47.2 الآيات القرآنية 270
47.3 التأمل في الحديث 271
أ. المرأة والعمل – ماذا يقول الإسلام؟ 273
ب. سفر المرأة – بين الفقه القديم والواقع المعاصر 274
47.4 الطبقة التأملية 274
47.5 الخاتمة 274
الفصل 48 – الزنا والإغراء الجنسي – تطبيع الشهوة 275
48.1 الملاحظة 275
48.2 الآيات القرآنية 276
48.3 التأمل في الحديث 279
48.4 الطبقة التأملية 280
48.5 الخاتمة 281
الفصل 49 – الحجاب والرؤية القرآنية للعالم 281
49.1 الملاحظة 281
49.2 الآيات القرآنية 282
49.3 التأمل في الحديث 283
49.4 الطبقة التأملية 284
49.5 الخاتمة 285
الفصل50 – LGBTQ+ بين الرحمة والوعي بالحدود 285
50.1 الملاحظة 285
50.2 الآيات القرآنية 286
50.3 التأمل في الحديث 288

50.4 الطبقة التأملية.....288
50.5 الخاتمة.....290
الفصل 51 – البيئة وحقوق الحيوان خلافة الإنسان: المسؤولية تجاه الأرض 291
51.1 الملاحظة.....291
51.2 آيات قرآنية.....292
51.3 تأمل حديثي 293
51.4 البعد التأملي.....294
51.5 الخاتمة.....295
من نور إلى نور 296
محيط من المعرفة.....297
مسؤوليتنا المشتركة.....298
مسرد المصطلحات المهمة.....299
مصادر اجتماعية ونفسية 300
الخاتمة – الرؤية القرآنية للعالم في حيّز التطبيق 301
دعوة إلى المسؤولية 302

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

إن ديننا الإسلامي العظيم دعانا إلى النظر والتأمل والتدبر في آيات الله سبحانه وتعالى، والاقتداء بما جاء في سنة الهادي البشير محمد صلى الله عليه وسلم، لأن القرآن الكريم والسنة النبوية مليئة بالجواهر الثمينة التي تبني حياة الإنسان وتجعل له الأفضلية والخلافة في كل شيء.

القارئ الكريم إن ما تراه الآن بين يديك وُلد من أحاديث الطريق، أحاديث مع الشباب، والأمهات، وكبار السن. في السهول القاحلة في تشاد[1]، وفي القرى المنسية في إفريقيا، وفي زحام مخيمات اللاجئين. رأيت أطفالًا يبتسمون في دور الأيتام في لومبوك[2]، وصليت مع كبار السن في مساجد نائية[3] في إندونيسيا، وسمعت التكبير يعلو تحت وابل القصف في غزة.

وبوصفي عالماً في اللاهوت[4]، وحافظاً للقرآن الكريم، ومعلماً للتربية الإسلامية في بلجيكا[5]، لم يكن بوسعي أن أكتفي بالنظرية، سافرت وأصغيت وبنيت وتقاسمت، لا لكي أغيّر العالم، بل لكي أفهمه في ضوء القرآن الكريم، وقد جعلني عملي كناشط في أكثر من 45 بلداً أن أقف وجهاً لوجه أمام الواقع الخام، أمام الأسئلة العميقة التي يطرحها الشباب، والمربون في المجتمعات في أنحاء العالم.

وما تعلمته خلال تلك السنوات الماضية هو: إن كثيرًا من الناس لا يفهمون القرآن كما أُريد له أن يُفهم، ويخلطون بين الثقافة والوحي، ومن هنا تنشأ الإحباطات، وسوء الفهم، وقبل كل شيء، مسافة كبيرة بين الإنسان والرسالة الإلهية.

وهذا الكتاب الذي بين أيديكم هو جوابي لكثير من الأسئلة التي تطرأ على عقل الكثير من الناس، إنه رحلة موضوعية في الرؤية القرآنية للعالم، وعدسة ننظر من خلالها إلى موضوعات كثيرًا ما يُسكت عنها مثل: أثر الزنا في عصر فرط الاستثارة، وعزلة الشباب الذين يبحثون عن المعنى والانتماء، ومثل ثقافة العيب التي تُورَّث جيلًا بعد جيل، واللامبالاة الروحية في مجتمعنا تجاه معاناة غزة. وفي كل فصل تُعرض آيات من

---

[1]. تشاد: بلد تقع في قارة أفريقيا، وتقع عند مفترق الطرق بين شمال ووسط أفريقيا تحدها من الشمال ليبيا، ومن الشرق السودان، وهي خامس أكبر دولة في أفريقيا من حيث المساحة.

[2]. لُومبوك: جزيرة تقع في مقاطعة نوسا في أندونيسيا وهي جزء من سلسلة جزر، وتتخذ شكلاً دائرياً مع ذيل تقريباً، ويبلغ قطرها حوالي 70 كم.

[3]. نائية: تعني البعيدة أو المعزولة.

4. علم اللاهوت: هو الدراسة المنهجية للطبيعة الإلهية، العقائد الدينية، وعلاقة الله بالكون والإنسان.

[5]. بلجيكا: دولة ذات نظام ملكي في أوروبا الغربية، عضو مؤسس في الإتحاد الأوروبي، عاصمتها بروكسل.

القرآن، مصحوبة دائمًا بإضاءات من التفاسير الكلاسيكية، مثل تفسير ابن عاشور[6]، والقرطبي[7]، والرازي[8]. وإلى جانب ذلك أستعين أيضًا بأحاديث مختارة بعناية، تعزّز رسالة الفصل من غير أن تُثقله.

وما يميز هذا الكتاب هو الطبقة التأملية التي تلي ذلك في كل مرة. ففيها أترجم هذه المعاني إلى واقع ملموس في التربية، والتعليم، والعمل المجتمعي. ويُختتم كل فصل بخلاصة قصيرة واضحة تدعو إلى العمل والمحاسبة الذاتية.

وأود أن أذكر أن هذا الكتاب لا يدّعي الإحاطة الكاملة. ولكي أبقيه ميسورًا للقارئ، اخترت في كل فصل مجموعة محدودة من الآيات، والأحاديث، وأقوال العلماء. وأنا مدرك لوجود مصادر أخرى كان يمكن أن تكون ذات صلة. لكنني اخترت ما بدا أكثر مناسبة لسياق هذا العمل ورسالته.

لقد كُتب هذا الكتاب للمعلمين، والطلاب، والعاملين في المجال الإنساني، والشباب، والآباء، والباحثين، لكل من يجرؤ على التفكير، ويجرؤ على الإحساس. إنه دعوة إلى ألّا نكتفي بتلاوة القرآن، بل أن نفهمه، ونعيشه، ونطبقه، حتى في النقاشات الصعبة التي طالما تجنبها مجتمعنا.

نسأل الله أن يبارك هذا العمل، وأن يفتح قلوبنا لكلامه، وأن يجعل هذه الصفحات مصدر هداية، وشجاعة، وتجديد. آمين آمين آمين.

---

[6] ابن عاشور: هو الشيخ محمد الطاهر بن عاشور حمل مشروعاً فكرياً متكاملاً يقوم على ترشيد الخطاب الديني وربطه بمقاصد الشريعة ومصالح الناس، وهو صاحب كتاب التحرير والتنوير.

[7] القرطبي: محمد بن أحمد بن أبي بكر، ولد في قرطبة في الأندلس، يعتبر من كبار المفسرين، فقيهاً محدثاً، ومن أشهر كتبه الجامع لأحكام القرآن.

[8] الرازي: أبو بكر محمد بن يحيى بن زكريا الرازي، من علماء العصر الذهبي، صاحب كتاب مفاتيح الغيب.

المقدمة

إنَّ القرآن الكريم ليس مجرد كتابٍ للعبادة، بل هو وحيٌ يقدّم رؤيةً كاملةً للعالم، إطارًا يجد فيه الإنسان، والحياة، والموت، والعدالة، والمعرفة، والجنس، والاقتصاد، والتعايش مكانهم الصحيح. وفي القرون الأولى من الإسلام، قادت هذه الرؤية إلى حضارة، وإلى توازن، وإلى إنسانية. أما اليوم، فإن كثيرًا من المسلمين، صغارًا وكبارًا، يعيشون حالةً متزايدة من الاغتراب: بين ما ورد في القرآن، وبين ما يختبرونه في حياتهم اليومية. وهذا الاغتراب ناتج عن عوامل متعددة. فمن جهة، هناك نقص في الشرح السياقي، والتعليم الموضوعي. ومن جهة أخرى، تسود في كثير من المجتمعات ثقافةُ صمتٍ خانقة، تصبح فيها الموضوعات المعقّدة، أو المزعجة، أو الحساسة غير قابلة للنقاش. وهذا يؤدي إلى تسطيحٍ ديني، وازدواجيةٍ في المعايير، وانسحابِ الشباب، لا تمردًا، بل حيرةً.

ومن خلال أسفاري الكثيرة مع Gardens of the Sincere، رأيت أمرًا لافتًا. فنحن نواصل توزيع الطرود الغذائية، وذبح الأضاحي، وتقديم الملابس، ودعم المستشفيات؛ وهذا عملٌ نبيل، نعم. لكن الأمر كثيرًا ما يشبه محاولة تجفيف الماء بينما الصنبور ما زال مفتوحًا. لماذا يوجد كل هذا العدد من الأيتام؟ ولماذا نستمر في إطعام أجيالٍ كاملة من دون تغيير؟

في بعض القرى ترى الناس ينتظرون ببساطة لحمهم في العيد، من دون أي جهد، لأنهم يعلمون أنه سيأتيهم في كل الأحوال. وهكذا تتغير العقلية. تصبح الصدقة عادةً من جهة المتلقي، من دون أن نُمكّن الناس من أن يصبحوا قادرين على الاكتفاء بأنفسهم. علينا أن نفعل أكثر من مجرد العطاء؛ علينا أن نضع الناس في مسار العمل، وأن نعيد إليهم ثقتهم بأنفسهم، وأن نعالج الأسباب لا الأعراض فقط.

ولهذا نؤمن أيضًا بالتغيير البنيوي على المدى الطويل. فإلى جانب الإغاثة المباشرة، والتوعية من خلال كتب مثل هذا الكتاب، نريد بصفتنا مؤسسة أن نستثمر في إنشاء مراكز تدريب، ومدارس، بل وحتى جامعات؛ أماكن تُصاغ فيها الأجيال القادمة برؤية واضحة، ومناعة فكرية، وعمق روحي. لأنه لا يمكننا تغيير المستقبل إلا إذا غيّرنا العقليات.

وهنا يعود القرآن إلى الواجهة من جديد. فمن دون تغيير داخلي في الوعي، وفي الإحساس بالمسؤولية، وفي التربية، لن يتغير شيء. إن العمل الخيري ثمين، لكنه لا يكون ذا قيمة كاملة إلا حين يبني الإنسان ويوجهه.

لقد نشأ هذا الكتاب من قناعة عميقة: أن القرآن يقدم رؤيةً للعالم، لا مجرد مجموعة من الطقوس أو الأحكام، بل إطارًا كاملًا لفهم الحياة وتشكيلها.

وبدلًا من مقاربة تقليدية بحسب السور أو الموضوعات المنفصلة، يختار هذا العمل رحلةً موضوعية عبر القرآن: من الأسرة إلى المجتمع، ومن الروحانية إلى الالتزام، ومن الصراع الداخلي إلى المسؤولية المجتمعية. وينطلق كل فصل من ملاحظات معاصرة، غالبًا ما تستند إلى تجارب شخصية في بلجيكا، وإفريقيا، وآسيا، ثم يتعمق من خلال آيات من القرآن، تُدعَّم بإضاءات من علماء كلاسيكيين مثل ابن عاشور، والقرطبي، والرازي.

ونحن نتناول موضوعات نادرًا ما تحظى بالاهتمام في المساجد أو في التعليم:

- تطبيع الزنا في عالمٍ يفيض بالمثيرات.
- الصمت حول الفراغ الروحي وأزمات الهوية لدى الشباب.
- سوء فهم تعدد الزوجات وأدوار الجنسين.
- الفشل المجتمعي في مواجهة معاناة الأمة، كما في غزة.
- التوتر بين الثقافة والدين، بين التقليد والحقيقة.

ولا يظهر القرآن الكريم في هذا الكتاب بوصفه كتابًا رمزيًا يوضع على الرف، بل نورًا، وعدسةً، ودليلًا يجرؤ على أن يجيب عن أصعب الأسئلة.

وهذا العمل موجّه إلى الشباب، والآباء، والمربين، والأئمة، والعاملين في المجال الإنساني، والمدرسين، والطلاب إلى كل من لا يريد أن يكتفي بتلاوة القرآن، بل يريد أن يفهمه، ويعيشه، ويطبقه، حتى حين يكون الأمر صادمًا أو غير مريح. فحين نجرؤ على النظر إلى نقاط ضعفنا، عندها فقط يمكننا أن نبني أمة لا تؤمن فحسب، بل تعيش ببصيرة، ورحمة، وقوة.

نسأل الله أن يسهم هذا العمل في رفع الوعي، ونشر المعرفة، وقبل كل شيء: في العودة إلى كلام الله بوصفه دليلًا للعقل والقلب.

المحور 1 (أسس الإيمان) الأركان الخمسة من منظور قرآني:
الفصل 1 – الأساس – نحن عبيد الله

في زمنٍ تُعدّ فيه الحرية أعلى قيمة، تبدو كلمة "**عبد**" قاسية، وقديمة، بل ومحرجة أحيانًا. ومع ذلك فهي جوهر هويتنا كمؤمنين. فالقرآن الكريم يعلّمنا أننا لسنا ملكًا مستقلًا لأنفسنا، بل نحن عبادٌ لذاك الذي خلقنا. قال تعالى: ﴿**إياك نعبد وإياك نستعين**﴾[9] وقال أيضاً: ﴿**قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾[10]

ومعنى العبودية لله هو أن نخضع خضوعًا كاملًا لإرادته، استسلامًا، وطاعةً، ومحبةً، وافتقارًا. إنها شرف وليست مذلة. لأن العبودية لله هي الحرية الحقيقية الوحيدة، التحرر من الأصنام، ومن الشهوات، ومن ضغط المجتمع، ومن العبودية الداخلية للدنيا.

1.1 الملاحظة:

خلال رحلاتي في إفريقيا وآسيا، رأيت شبابًا يضيعون ساعات طويلة في هواتفهم الذكية، وعائلاتٍ تتشاجر بسبب المال، وشبابًا لا يؤدون الصلاة لكنهم يعرفون كل شيء عن الصيحات الحديثة، والألعاب، وإحصائيات كرة القدم. وحتى في بلجيكا، أرى شبابًا مسلمين يظنون أنفسهم "أحرارًا"، بينما وقتهم، وأفكارهم، وهويتهم تخضع للخوارزميات[11]، والإعجابات، والترفيه.

وخلال زيارة إلى ماليزيا[12]، تحدثت مع شاب حديث الزواج، يعمل سائقَ سيارة أجرة. قال لي: "ليس لدي وقت للصلاة، يجب أن أعمل". لكن من خلال حديثنا اتضح أنه يجد وقتًا ليقود ساعات إضافية، بإرادته، لا لضرورةٍ حقيقية. فماذا يقول ذلك عن أولوياتنا؟

ومن واجبنا هنا كدعاة إلى الله تعالى أن نقف أمام هؤلاء الشباب ونقدم لهم يد العون والمساعدة من أجل فهم ديننا الصحيح، وتطبيق ما جاء في كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم.

---

[9] سورة الفاتحة، آية (5).

[10] سورة الأنعام، آية (162).

[11] الخوارزميات: هي مجموعة من الخطوات الرياضية والمنطقية المتسلسلة والتي تصمم لحل مشكلة معينة أو انجاز مهمة محددة، وسميت بذلك نسبة إلى العالم أبو جعفر الخوارزمي الذي كان أول مَن ابتكرها.

[12] ماليزيا: هي دولة اتحادية ملكية دستورية، تقع في جنوب شرق آسيا، تعد واحدة من أبرز الوجهات السياحية والتعليمية في العالم بفضل تنوعها الثقافي الفريد وطبيعتها الاستوائية الساحرة.

وفي قرية قرب واغادوغو[13] في بوركينا فاسو[14]، وصلنا لنذبح الأضاحي ونوزع اللحم. فبقي رجال القرية جالسين في الظل، بينما كنا نحن وأفراد فريقنا نقوم بالذبح والتوزيع. وقالوا إن الجو شديد الحرارة. هذا الموقف، انتظار أن يقوم الآخرون بالعمل، هو عَرَضٌ لعقلية تعيق التغيير.

وفي أوغندا[15] التقيت رجلًا كان يطلق على نفسه لقب إمام. كان لديه بئر ماء من Gardens of the Sincere، وقد بُني كاملًا بالفعل من خلال التبرعات، ووُضعت عليه لوحة باسمٍ آخر، ثم ادعى أمام متبرع جديد أنه هو الذي أنجزه بنفسه. هذا ليس فقرًا، بل هو استغلالٌ روحي.

هذه العبودية خادعة لأنها تبدو طبيعية. لكن كل عادة تُضعف علاقتنا بالله هي قيدٌ يلتف حول قلوبنا.

1.2 الآيات القرآنية:

الآية الأولى: قال تعالى: ﴿**وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون**﴾[16]

- يؤكد ابن عاشور: أن هذه الآية تلخّص الغاية القصوى من وجود الإنسان: العبادة. ووفقًا له، لا تعني العبادة مجرد شعائر كالصلاة أو الصيام، بل تعني خضوعًا داخليًا عميقًا وطاعةً لله في كل جانب من جوانب الحياة. ويقول إن هذه الآية تضع الأساس الوجودي للحياة: فغاية الخلق هي الارتباط الروحي بالخالق، لا النجاح المادي.[17]
- ويرى الرازي: أن الله في هذه الآية يفنّد بوضوح كل رؤية بديلة للحياة. فليست الأموال، ولا اللذة، ولا المكانة، ولا السلطة هي ما تدور حوله الحياة، بل العبادة. كما يوضح أن قوله: "ليعبدون" يشير أيضًا إلى معرفة الله، استنادًا إلى الأثر: "العبادة هي المعرفة"

ويتابع الرازي بقوله: تبدأ العبادة الحقيقية بمعرفة أسماء الله وصفاته وآياته، مما يقود إلى المحبة، والخشية، والتسليم.[18]

---

[13] مدينة واغادوغو: هي عاصمة بوركينا فاسو وأكبر مدنها، وتعد المركز الإداري والاقتصادي والثقافي للبلاد.

[14] بوركينا فاسو: دولة تقع في منطقة غرب أفريقيا، ضمن دول الصحراء الكبرى، ويعني اسمها أرض الرجال النزهاء أو الشرفاء.

[15] أوغندا: دولة تقع في شرق أفريقيا في منطقة البحيرات العظمى، وتُعرف دولياً بلقب لؤلؤة أفريقيا نظراً لطبيعتها الخلابة وتنوعها البيئي الفريد.

[16] سورة الذاريات، آية (56).

[17] انظر: التحرير والتنوير، تفسير سورة الذاريات.

[18] انظر: مفاتيح الغيب، تفسير سورة الذاريات.

• أما القرطبي: فيفسر هذه الآية على أنها تذكير بالأولوية الحقيقية في الحياة. فهو يقول إن العبادة هي الغاية التي من أجلها سُخّر كل ما في الكون للإنسان، كالغذاء، والهواء، والأرض، لكن الإنسان نفسه خُلق لله. ويؤكد أن العبادة يجب أن تكون باطنية وظاهرية معًا، فلا تكون مجرد طقوس بلا قلب، ولا مجرد حالة روحية بلا عمل. ويحذر من أن من نسي سبب وجوده هذا فقد أضاع حياته.[19]

إن غاية الحياة هي العبادة، لا بوصفها قيدًا، بل بوصفها تحقيقًا لمعنى الوجود. فالعبادة أكثر من طقوس، إنها أسلوب حياة يقوم على الاعتراف، والمحبة، والطاعة، والإخلاص لله. ومن يتجاهل هذه الغاية سيظل ينتقل من هدف إلى آخر، دون أن يبلغ الرضا الحقيقي.

الآية الثانية: قال تعالى: **﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾**[20]

• يرى ابن عاشور: أن هذه الآية تمثل خلاصة التفرغ الكامل لله. ويؤكد أن هذا التعداد، الصلاة، والنسك، والحياة، والموت، يشمل دورة الوجود الإنساني كلها.
وبالنسبة له، فهذا يعني أن كل فعل، سواء كان دنيويًا أو تعبديًا، يجب أن يُؤدَّى في وعيٍ بالله. فلا يتعلق الأمر بالعبادة داخل المسجد فقط، بل كذلك بخيارات الحياة، وكيفية مواجهة الموت، وحتى بالنيات.[21]

• ويقول الرازي: إن هذه الآية هي إعلانٌ خالص للتوحيد. فكل ما له قيمة، من الشعائر إلى الوجود كله، مكرّس بالكامل لله.
ويلاحظ أن كلمة "نسكي" تشير إلى أعمال الذبح والنسك، لكنها قد تُفهم أيضًا على نحو أوسع بأنها تشمل كل أوجه التفرغ والبذل، بل وحتى المعاناة والتضحية.
ويشدد الرازي كذلك على أن الآية تتضمن نفيًا للشرك: فلا شيء في الحياة أو الموت يكون لغير الله.[22]

• أما القرطبي: فيرى في هذه الآية التعبير الأقصى عن الإخلاص. ويقول إنها ردٌّ على جميع أشكال الوثنية والنفاق. وبحسبه، تعلّم هذه الآية أن كل نفسٍ يتنفسه المؤمن، وكل عمل يعمله، وكل حلمٍ يحمله، وحتى الطريقة التي يموت بها، ينبغي أن تكون ملوّنة بنية إرضاء الله.
كما يشير القرطبي إلى أن في الآية بُعدًا نبويًا، فهي رسالة من النبي ﷺ إلى قومه، ودرسٌ لكل مسلم بعده.[23]

---

[19] انظر: الجامع لأحكام القرآن، تفسير سورة الذاريات.

[20] سورة الأنعام، آية (162).

[21] انظر: التحرير، تفسير سورة الأنعام.

[22] انظر: مفاتيح الغيب، تفسير سورة الأنعام.

[23] انظر: الجامع، تفسير سورة الأنعام.

هذه الآية تذكّرنا بأن الإسلام ليس جزءًا من الحياة، بل هو الحياة نفسها. فالتسليم الحقيقي يعني أن تكون حتى خططنا، وخياراتنا، ونجاحاتنا، وإخفاقاتنا في سبيل الله. وحين تكون هذه الجوانب كلها لله، تصبح الحياة ذات معنى، ومنسجمة، ومبعثةً على السكينة الداخلية.

1.3 تأمل في الحديث:

الحديث الأول:

قال رسول الله ﷺ: **"تَعِسَ[24] عَبْدُ الدِّينَارِ، تَعِسَ عَبْدُ الدِّرْهَمِ، تَعِسَ عَبْدُ الْخَمِيصَةِ[25]، تَعِسَ وَانْتَكَسَ، وَإِذَا شِيكَ[26] فَلَا انْتَقَشَ[27]"**[28]

التأمل: يحذّر النبي ﷺ أن مَن يُعلّق قلبه بالمال أو بالترف يصبح عبدًا لهذه الأشياء. وهذا النوع من العبودية غير مرئي، لكنه حقيقي بقدر حقيقية قيود الماضي. وهذا بالضبط ما نراه اليوم: شبابًا يبحثون عن هويتهم في الماركات، والمال، والشهرة، بل وحتى في الإعجابات على وسائل التواصل الاجتماعي، فيخسرون بذلك عبوديتهم لله.

المعنى العام للحديث: العبارة تُمثل مثلاً عربياً يُضرب للشخص الخائب العاجز، ويتضمن الحديث الدعاء على مَن جعل الدنيا والمال أكبر همه ومبلغ علمه، وهو دعاء لمن وقع في محنة أو مصيبة أو شدة ألا يجد مخرجاً منها ولا يجد مَن يعينه عليها.

ويبين الحديث أن مَن عاش عبداً للمال ستنقلب أموره ويُسد في وجهه باب الفرج حتى في أبسط الأمور كإخراج الشوكة.

1.4 الطبقة التأملية:

إن رسالة العبودية الحقيقية تمسّ كل بُعد من أبعاد وجودنا. ففي عالمٍ يُقاس فيه النجاح غالبًا بالشعبية، أو بالامتلاك، أو بالراحة، يدعونا القرآن الكريم لا للبحث عن هويتنا في أعين الناس، بل في صلتنا بخالقنا. فالعزة الحقيقية لا تكمن في كيف يراك العالم، بل في كيف تعبُد الله.

---

[24] التعس: هو الهلاك.

[25] الخميصة: كساء أو ثوب يُصنع من الحرير أو الصوف.

[26] شيك: أي أصابته شوكة في جسده.

[27] انتقش: أي لم يجد مَن يُخرج تلك الشوكة له بالمنقاش، وهي الأداة المستخدمة لإخراج الأشواك.

[28] صحيح البخاري حديث رقم (2887).

وفي التربية، يعني ذلك أن نُفهِم أبناءنا منذ الصغر أن هويتهم لا تبدأ من شخصٍ مشهور، أو بطلٍ رياضي، أو مؤثرٍ على وسائل التواصل، بل تبدأ من الله. فالطفل الذي يعرف من يعبد، ينشأ بثبات، وثقة بالنفس، واتجاه واضح. لا لأنه أفضل من غيره، بل لأنه يعرف من أين جاء، وإلى أين يمضي.

وفي التعليم أيضًا، لا ينبغي أن يكون مفهوم العبودية أمرًا ثانويًا. فالتوحيد ليس مجرد مادة نظرية، بل هو لبّ ما نحن عليه. والتعليم الإسلامي لا ينبغي أن يكتفي بإخبار الشباب عن الطقوس أو الأحكام، بل يجب أن يصوغهم كمؤمنين واعين يحملون حياتهم عن اقتناع.

وفي حياتنا الروحية، ينبغي أن نسأل أنفسنا باستمرار: مَن الذي أخدمه حقًا؟ راحتي؟ شهواتي؟ توقعات الناس؟ أم ربي؟ لأننا ما دمنا مقيّدين بأهوائنا، أو بالكسل، أو بالعادات الثقافية، فإننا نظل أسرى لأنفسنا، حتى لو شعرنا أننا أحرار.

إن التحرر الحقيقي لا يبدأ إلا حين نتعلم أن نُشكّل قلوبنا على طاعة الله. لا بالقهر، بل بالمحبة. وحينها لا نصبح عبيدًا للأنظمة، ولا للموضات، ولا للمخاوف، بل عبادًا واعين، ونبني معًا أمةً ليست اتكالية، بل مسؤولة. أمةً لا تسير مع الريح، بل تهدي بالنور.

1.5 الخاتمة:

قبل أن نتحدث عن موضوعات مثل الزنا، أو الهوية، أو التربية، أو غزة، يجب أن نفهم أولًا أمرًا بالغ الأهمية: نحن عباد الله. وهذه هي قاعدة إيماننا. فإذا نسينا ذلك، فلن نفهم سائر القرآن على وجهه الصحيح.

فحين ترى نفسك عبدًا لله، ستعيش بطريقة مختلفة. لن تختار بعد ذلك ما يبدو مريحًا فقط، أو ما يفعله الناس من حولك، بل ستسأل أولًا: "ماذا يريد الله مني؟" وعندها فقط تستطيع أن تتخذ الخيارات الصحيحة. وعندها فقط تعيش بهدف.

وهذا الدرس الأول ليس تحذيرًا قاسيًا، بل هو جرس تنبيه. إنه يريد أن يوقظك. ويريد أن يذكّرك بأن قيمتك ليست في المال، ولا في الإعجابات، ولا في الحرية المزعومة، بل في صلتك بالله. فالعزة الحقيقية والحرية الحقيقية لا تنالها إلا حين تعيش كما يريد الله.

انظر إلى قول الله تعالى في كتابه: ﴿ **سبحان الذي أسرى بعبده ليلًا...** ﴾[29]

[29] سورة الإسراء، آية (1).

لقد سمّى النبي ﷺ هنا "**عبدًا**"، ولم يسمّه "قائدًا" أو "بطلًا". لأن هذه هي أسمى منزلة يمكن أن ينالها الإنسان. فإذا فهمنا ذلك، سنكون أقوى. وسننظر إلى الحياة نظرة مختلفة. وعندها نبني معًا أمةً تعيش بالاقتناع، والمحبة، والقوة، متصلة بالله، ومتصلة بعضها ببعض. نسأل الله أن يعيننا على أن نكون من عباده حقًا، بكل قلوبنا.

الفصل 2 معنى الشهادة وثقلها:

2.1 الملاحظة:

إن الشهادة – "لا إله إلا الله، محمد رسول الله" – هي مفتاح الإسلام، وبوابة الدخول إلى الإيمان. ومع ذلك نلاحظ أن الكثير ينطقون بهذا المفتاح، لكنهم لا يمسكون به بوعيٍ حقيقي أبدًا.

وفي الواقع العملي، أرى بوصفي معلمًا للتربية الإسلامية وعاملًا ميدانيًا أن كثيرًا من الشباب مسلم لأن آباءهم مثلهم. لقد تلقّوا تربيةً إسلامية ثقافية: تعلّموا الصلاة، وشيئًا من العربية، وصيام رمضان، وأكل الحلال. لكن ذلك كان في كثير من الأحيان من غير تعمق، ولا اختيارٍ واعٍ مدروس. لقد قُدِّم لهم الإسلام بوصفه هوية، لكنه نادرًا ما قُدِّم لهم بوصفه قناعةً واعية.

وفي المقابل، نجد المسلمين الجدد الذين دخلوا الإسلام يتذكرون حتى الساعة التي نطقوا فيها بالشهادة. لقد قالوها عن وعي، وعن تفكير، ومن رغبةٍ عميقة في المعنى والحقيقة. وفي الغالب ترى أن إسلامهم أرسخ جذورًا، لقد كان اختيارًا فعّالًا نابعًا من القناعة.

وخلال مشاريعنا في أماكن مثل مدغشقر[30]، لاحظنا أن بعض الناس ينطقون بالشهادة من أجل طردٍ غذائي، أو كيس أرز، أو نوعٍ من المساعدة. لا لأنهم مقتنعون، بل لأنهم يريدون شيئًا. لكن الشهادة ليست وسيلة مقايضة. إنها عهدٌ مع الله.

وخلال مشروع إنساني في الفلبين[31]، بنينا مسجدًا في منطقة كان سكانها تاريخيًا مسلمين قبل الاستعمار الإسباني. سبحان الله، كان التفاعل هائلًا. فبعد محاضرة ألقيتُها هناك، أسلم أكثر من ثلاثين شخصًا. وهذا يبيّن مدى أهمية التفكير الاستراتيجي في مشاريعنا: فالمسجد ليس مجرد مكان للصلاة، بل أيضًا مركز لإعادة اكتشاف الهوية الحقيقية. فإذا عرفت أين تبني مسجدًا، فقد تفتح بذلك أبوابًا لعودة مجتمعات كاملة إلى إيمانها الأصلي.

---

[30] مدغشقر: دولة جزرية في المحيط الهندي، قبالة الساحل الجنوبي الشرقي لأفريقيا، تشتهر بتنوعها البيولوجي الفريد.

[31] الفلبين: دولة تقع في جنوب شرق آسيا وغرب المحيط الهادي، تتميز بتنوعها الثقافي الهائل وطبيعتها الاستوائية الخلابة، وشواطئها التي تُصنف كأجمل شواطئ العالم.

وفي زماننا هذا، ما زالت قوة الشهادة ظاهرة. ففي كل أسبوع يدخل أناس في الإسلام، أحيانًا بعد سنوات من البحث، أو التأمل الداخلي، أو الجوع الروحي. وهذا أمر مؤثر وملهم. لكن في الوقت نفسه يظهر تحدٍّ جديد: ماذا يحدث بعد الدخول في الإسلام؟

إننا للأسف نرى أن بعض المسلمين الجدد، مباشرة بعد نطقهم بالشهادة، يقعون في جماعات متشددة أو جامدة، تُغرقهم بالقواعد، والأوامر، والنواهي، من غير أن تترك لهم مجالًا للبناء، أو الفهم، أو النمو التدريجي. بعضهم يُقذف مباشرة في مسائل الفقه، وأحكام اللباس، والخلافات بين المدارس، قبل أن يفهم أساس التوحيد أو يتعلم الصلاة. وقد رأيت ذلك بنفسي: أحد الداخلين في الإسلام انسحب تمامًا بعد بضعة أشهر، بعدما غمره الإرباك والضغط والاضطراب.

إن الشهادة بداية رحلة، وليست نهاية الطريق. وكل رحلة تحتاج إلى صبر، وتوجيه، ومساحة. ويجب أن يُمنح المسلمون الجدد فرصة النمو خطوةً خطوة، وفق وتيرتهم الخاصة، مع فسحة للأسئلة، والأخطاء، واكتشاف طريقهم في الإيمان.

ونرى كذلك ظاهرةً متكررة: ففي لحظة الدخول في الإسلام، يُغمر الشخص بالأحضان، والثناء، والدموع، لكن بعد بضعة أيام... يعود كل واحد إلى حياته، ويُترك المسلم الجديد وحده. بلا توجيه، وبلا مجتمع، وبلا صداقة. ولهذا فمن الضروري جدًا أن نستثمر في الاستقبال، والمتابعة اللاحقة، من خلال المساجد، والجمعيات، والمبادرات التي تدعم الوافدين الجدد دعمًا منهجيًا ومستمرًا. لا في اللحظة العاطفية للشهادة فقط، بل في الأشهر والسنوات التي تليها، في فهم القرآن الكريم، ودمج الإيمان في الحياة اليومية، وبناء هوية روحية سليمة. "إن نطق الشهادة ليست مجرد صيغة تُقال، بل هي اختيار حياة."

وفي الختام، تسود في كثير من المجتمعات الإسلامية فكرة أن جميع غير المسلمين يذهبون تلقائيًا إلى النار. وغالبًا ما يتعلم الأطفال ذلك على أنه حقيقة مطلقة، من غير تفصيل، ولا سياق. لكن إذا رجعنا إلى القرآن الكريم وإلى زمن الوحي، نلاحظ أمرًا مهمًا:

إن الآيات التي تتحدث عن عقوبة الكافرين موجَّهة في المقام الأول إلى أناس مثل قريش:

- الذين سمعوا الرسالة، • ورأوا النبي ﷺ بأعينهم، • وعرفوا الحق،
- لكنهم رفضوا الإيمان تكبرًا أو حفاظًا على مصالحهم.

أما في زماننا، فالوضع مختلف. فكثير من الناس في العالم لم يتعرفوا على الإسلام حقًا، فضلًا عن أن يعرفوه معرفةً صافيةً أصيلة. وبعضهم لم تصله إلا صورة مشوهة عنه من خلال الإعلام، أو الحروب، أو النماذج السيئة. فهل يجوز لنا بعد ذلك أن نقول بسهولة إنهم "كفار" بالمعنى الذي قصده القرآن الكريم؟

2.2 الآيات القرآنية:

الآية الأولى: قال تعالى: **﴿الله لا إله إلا هو، له الأسماء الحسنى﴾**[32]

• ابن عاشور: تؤكد هذه الآية التوحيد، أي الألوهية الفريدة لله، بوصفه جوهر الإيمان. فهو المنطلق الذي تنبني عليه كل أفعال المؤمن.[33]

• الرازي: يوضح أن النفي في "لا إله" ثم الإثبات في "إلا الله" يعني رفضًا كاملًا لكل الآلهة الأخرى، أو لكل ما يُعطى أولويةً في الحياة على حساب الله[34].

• القرطبي: الشهادة لا تشمل الكلمات فقط، بل تشمل أيضًا القناعة والعمل. فمن نطق بالشهادة ثم تصرف وكأن هناك قوى متعددة تتحكم في حياته، فإنه لم يفهم حقيقتها[35].

الآية الثانية: قال تعالى: **﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا﴾**[36]

• ابن عاشور: الإيمان الحقيقي يأتي مع الثبات، بلا شك، وبلا سطحية. فالشهادة إذًا حالة داخلية راسخة[37].

• القرطبي: هذه الآية تنسجم تمامًا مع فكرة أن المؤمن الحق لا يعيش مترددًا بين عالمين، بل يكون ثابتًا مستقيمًا[38].

• الرازي: الشك غالبًا ما ينشأ من نقص في المعرفة. وهذا يبرز أهمية التعمق العقلي والمعرفي في معنى الشهادة.[39]

---

[32] سورة طه، آية (8).

[33] انظر: التحرير، تفسير سورة طه.

[34] انظر: مفاتيح الغيب، تفسير سورة طه.

[35] انظر: الجامع، تفسير سورة طه.

[36] سورة الحجرات، آية (15).

[37] انظر: التحرير، تفسير سورة الحجرات.

[38] انظر: الجامع، تفسير سورة الحجرات.

[39] انظر: مفاتيح الغيب، تفسير سورة الحجرات.

الآية الثالثة: قال تعالى: ﴿**إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ**﴾[40]

• يوضح ابن عاشور أن هذا الوصف لا يتعلق بمن يجهلون الحقيقة أو لم تصلهم، بل يتعلق بمن يرفضونها عن وعي رغم قيام الأدلة الواضحة[41].

• ويلاحظ الرازي أن الكفر المذكور هنا مقترن بالكبر والرفض المتعمد بعد المعرفة[42].

• ويشير القرطبي إلى أن القرآن يفرّق بين من عرفوا الحق ثم رفضوه، وبين من بقوا في الجهل أو وقعوا تحت التضليل.[43]

وقد كتب العلماء مثل ابن تيمية[44]، والغزالي[45]، وابن عاشور، عن هذه المسألة. وبعضهم فرّق بين:

• الدعوة المُبَلَّغة، أي الرسالة التي وصلت بوضوح، • والعذر بالجهل، أي قيام العذر بسبب عدم المعرفة.

فمن لم تصله الرسالة على وجهٍ واضح، أو لم يسمع إلا نسخةً مشوهة منها، فلا يجوز، بحسب هؤلاء العلماء، أن يُحكم عليه ببساطة بأنه "**كافر**" في الآخرة. ولذلك، فليس من شأننا أن نحكم على من يدخل الجنة ومن يدخل النار. فذلك راجع إلى الله وحده، "أعدل العادلين وأرحم الراحمين". ولهذا ينبغي ألّا ننظر إلى الشهادة على أنها مجرد تذكرة إلى الجنة، بل على أنها فعل تسليمٍ مختار عن وعي. وهو أمر لا يُعرض على جميع الناس بالطريقة نفسها ولا في الظروف نفسها.

2.3 تأمل في الحديث:

الحديث الأول:

قال النبي ﷺ: "**مَنْ مَاتَ وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّه لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ دَخَلَ الْجَنَّةَ**"[46]

---

[40] سورة الأنفال، آية (55).

[41] انظر: التحرير، تفسير سورة الأنفال.

[42] انظر: مفاتيح الغيب، تفسير سورة الأنفال.

[43] انظر: الأحكام، تفسير سورة الأنفال.

[44] ابن تيميه: أبو العباس تقي الدين أحمد بن عبد الحليم الدمشقي، عالم مسلم فقيه مجتهد ومحدث ومفسر ومن كبار علماء أهل السنة والجماعة، وأحد أبرز العلماء المسلمين في النصف الثاني من القرن السابع.

[45] الغزالي: أبو حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي الشافعي، أحد أعلام عصره، وأحد أشهر علماء المسلمين في القرن الخامس الهجري، لقب بحجة الإسلام، كان فقيهاً وأصولياً وفيلسوفاً، شافعي المذهب.

46. صحيح مسلم، حديث رقم (26).

التأمل: الكلمات المفتاحية في هذا الحديث هي "يعلم". فالأمر لا يتعلق بمجرد النطق، بل بالفهم، والإدراك، والاعتراف. فبدون علم، تصبح الشهادة مجرد صوت.

الحديث الثاني: قال النبي ﷺ: **"مَنْ قَالَ لِأَخِيهِ: يَا كَافِرُ، فَقَدْ بَاءَ بِهَا أَحَدُهُمَا، فَإِنْ كَانَ كَمَا قَالَ، وَإِلَّا رَجَعَتْ عَلَيْهِ."**[47]

التأمل: يعلّمنا هذا الحديث أن نكون حذرين في إطلاق الأحكام على إيمان الآخرين. فليس إلينا أن نقرر المصير النهائي لأحد. الله وحده هو الذي يعلم قلب الإنسان، وظروفه، ونيته. والتسرع في الحكم قد يكون خطرًا حتى على أرواحنا نحن.

المعنى العام للحديث: هو تحذير شديد من خطورة تكفير المسلمين، ومعناه: أن مَن وصف أخاه بالكفر، فإن كان المقول له كافراً في الباطن فقد صدق القائل، وإن لم يكن كذلك ورجع القائل بالتكفير لأخيه المسلم، فإن إثم هذا القول الباطل والكذب يرتد ويعود على القائل نفسه.

2.4 الطبقة التأملية:

إن النطق بالشهادة ليس صيغةً سحرية تضمن النجاة، بل هو اختيار واعٍ للاعتراف بالله وحده وعبادته.

وفي التربية، يعني هذا أننا لا نعلّم الأطفال كلمات "لا إله إلا الله" فحسب، بل نساعدهم أيضًا على فهم ما تعنيه هذه الكلمات حقًا: محبة الله، وطاعته، والافتقار إليه، ورفض كل أشكال الشرك، سواء جاءت في صورة أصنام، أو صيحات، أو شهوات. ويجب أن نمنحهم مساحة للأسئلة والشكوك، من غير أن نخيفهم. فالشهادة ليست سيفًا نُدين به الآخرين، بل جسرًا إلى الرحمة والبصيرة. ونحن نعلّم أبناءنا أن الله سبحانه وتعالى من صفته العدل، وأن الحكم على من ينجو ومن لا ينجو يختص به وحده، لا بنا.

وفي التعليم الإسلامي، يجب أن تكون دروس التوحيد ومعنى "لا إله إلا الله" في صميم المنهج. لا على أنها نظرية جافة، بل على أنها أسلوب حياة. فالإسلام الثقافي الخالي من القناعة يؤدي إلى فراغ روحي. ولذلك ينبغي أن نفتح المجال لتجديد الإيمان، على أساس المعرفة والمحبة، لا على أساس العادة أو ضغط الجماعة. وكذلك في الدعوة والعمل المجتمعي: لا تحكم على الناس الذين لا تعرف قصتهم. فالكثير لم يسمعوا بالإسلام في صورته النقية، ولم يروه على حقيقته. فاقترب منهم بلطف واحترام. ودع أخلاقك تكون هي الدعوة. وفوق

[47] صحيح البخاري، حديث رقم (6103).

ذلك كله: كن متواضعًا. فكونك قد عرفت الإيمان ليس إنجازًا منك، بل هو نعمة من الله. والنعمة لا تولّد الكِبر، بل تولّد المسؤولية.

2.5 الخاتمة:

إن الشهادة هي أساس هويتنا كمسلمين. لكن الأساس يجب أن يكون متينًا. فإذا بُني على العادة، أو الثقافة، أو الانتهازية، فإنه سينهار عند أول عاصفة من الشك أو الابتلاء. فقط من يختار الله سبحانه وتعالى عن وعيٍ وبصيرة سيبقى ثابتًا روحيًا.

إن الشهادة ليست سلاحًا لإقصاء الآخرين، بل نورًا نحمله. إنها تتعلق بالاعتراف بالله تعالى، ومحبة رسالته، واتباع النبي ﷺ، لا بوصم من يعيشون بطريقة مختلفة.

وحين نفهم أن القرآن كان يخاطب أناسًا عرفوا الحق ثم رفضوه، فإننا ندرك أيضًا أن ليس كل غير مسلم يدخل في هذه الفئة. فكثيرون لم يسمعوا حقيقة الإسلام أصلًا، أو لم يسمعوا إلا صورة مشوهة عنه.

فلنعد إذًا إلى الشهادة كما تعامل معها الصحابة: بالشكر، والمسؤولية، والمحبة للإنسانية. ولنتجنب أن نبني بكلماتنا جدرانًا، في مواضع ربما أبقى الله فيها أبوابًا مفتوحة.

الفصل 3 (الصلاة) العمود الفقري للرؤية القرآنية:

3.1 الملاحظة:

لا يوجد ركن في الإسلام يُذكر كثيرًا كما تُذكر الصلاة، ومع ذلك لا يوجد أيضًا ما يُهمَل مثلها. ففي كثير من أنحاء العالم، من بلجيكا إلى اليابان[48]، ما تزال الصلاة واحدة من أكبر مواطن الضعف. فكثيرون لا يصلّون أصلًا، أو يصلّون على فترات متباعدة. وحتى من يصلّي، فكثيرًا ما يصلّي من باب العادة، بلا تأمل، وبلا صلة، وبلا فهم.

إن التلاميذ في الصف يعلنون بفخر أنهم مسلمون – الحمد لله! – لكن حين يبدأ الحديث عن الصلاة، يعمّ الصمت. وقبل فترة قصيرة، كنت أقف أمام مسجد تركي، فرأيت بعض تلاميذي السابقين عند الباب. وكانت الصلاة قائمة. فقلت: "تعالوا إلى الداخل." فأجاب أحدهم: "سأصلي لاحقًا في البيت." لكن من يدري هل فعل ذلك حقًا؟ يبدو أن الجميع يبحث عن عذر لتأجيل الصلاة أو حتى لتجنّبها.

[48] اليابان: دولة تقع شرق آسيا عند مفترق الطرق بين المحيط الهادي وبحر اليابان وبحر الصين الشرقي، سميت بذلك لوقوعها في أقصى شرقي العالم، ومعناها مصدر الشمس.

ومن خلال تجربتي كمدرس للتربية الإسلامية، أسأل كل عام من في الصف: من منكم يصلي الصلوات الخمس يوميًا؟ وفي كل عام تكون الإجابة صادمة: بالكاد 20 إلى 25 في المئة من التلاميذ، وغالبًا ما يكون هؤلاء من الوافدين الجدد من بلدان مثل الصومال[49] أو أفغانستان[50]. أما الجيل الثالث من المسلمين؟ فقد فَقَدَ إلى حد كبير صلته بالصلاة.

ماذا نقول عن أولئك الشباب الذين يقرؤون الفاتحة[51] كل يوم، لكنهم لا يملكون أي فكرة عن معناها؟ كيف يمكنك أن تقول إنك تجري حوارًا مع الله، وأنت لا تفهم حتى ما تقوله؟ بالنسبة لكثيرين، اختُزلت الصلاة إلى تمرين جسدي بلا مشاركة روحية، وكأنها مجرد "كارديو"[52].

والكثير من الشباب، بل وحتى الكبار، يعانون اليوم من أنواع متعددة من الإدمان، من اللعب المتواصل، والتمرير المستمر على الشاشات، والتدخين، إلى مشاهدة المحرمات، أو ملاحقة الشهوات. وما لا يدركه الكثير هو أن الخطوة الأولى نحو العلاج ليست العلاج النفسي، ولا الدواء، ولا برامج إزالة السموم، بل الصلاة. فمن أقام الصلاة على وجهها الصحيح، وفي وقتها، وبفهم، وبصلة صادقة بالله، سيلاحظ أن الروح تجد السكينة، وأن الضمير يستيقظ، وأن الذنوب تبدأ تَثقُل في قلبه. فالصلاة ليست واجبًا يأتي إلى جانب المشكلة، بل هي بداية الحل. وما دامت الأقدام لم تثبت بثبات على سجادة الصلاة، فسيظل القلب يتأرجح بين الشهوة والفراغ.

3.2 الآيات القرآنية:

الآية الأولى: قال تعالى: ﴿**إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا إِلَّا الْمُصَلِّينَ**﴾[53]

• يقول ابن عاشور: إن كلمة "هلوعًا" تشير إلى صورة مكثفة من الشهوة القلقة والخوف المتوتر، أي إلى إنسان لا يحتمل الشدائد ومدمن على الراحة. لكن القرآن يقدّم استثناءً واضحًا: "إلا المصلين"، أي إلا الذين يصلّون[54].

---

[49] الصومال: دولة عربية تقع في منطقة القرن الأفريقي في شرق أفريقيا، تتسم تضاريسها بالتنوع بين الهضاب والسهول والمرتفعات.

[50] أفغانستان: دولة إسلامية تقع في جنوب آسيا، تحدها إيران والصين وباكستان.

[51] سورة الفاتحة: أعظم سور القرآن الكريم، وأول سورة في كتاب الله عز وجل، وتسمى أم القرآن والسبع المثاني، تشمل مقاصد الدين الأساسية.

[52] كارديو: أنشطة بدنية ترفع معدل ضربات القلب وتزيد ضخ الدم، مما يعزز اللياقة ويحرق السعرات الحرارية مثل: نط الحبل، المشي، الركض، ركوب الدراجة...

[53] سورة المعارج، آية (19_22)

[54] انظر: التحرير، تفسير سورة المعارج.

• ويرى القرطبي: أن هذه الآية ترسم ملامح نفسية للإنسان: مذعورًا وبخيلًا، وأن الصلاة هي العلاج الذي يعيد تشكيل هذا الطبع.[55]

• ويشرح الرازي أن الصلاة تروّض الأنا. فهي تنظّم الحياة، وتجعلنا صابرين في أوقات الابتلاء، وشاكرين في أوقات السعة. ومن يصلّي حقًا، يتعلم ألّا يعود منقادًا لنزواته[56].

وهذا يعني أن المسلم لا يبني رؤيته للعالم فقط على ما يشعر به اليوم أو على ما يملكه، بل على الحقيقة الكبرى: حقيقة الآخرة، وحقيقة الأمة، وحقيقة الخطة الإلهية. ومن يصلّي، يسمو على نفسه.

الآية الثانية: قال تعالى: ﴿**ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ**﴾[57]

• يرى ابن عاشور أن كلمة "دائمون" تحمل بُعدًا أعمق من مجرد المحافظة على أوقات الصلاة. فهي تشير إلى دوام العناية والانتباه والتفرغ للصلاة. هؤلاء هم الذين لا يفرّطون في صلواتهم أبدًا، مهما كانت ظروفهم أو بيئتهم. فالصلاة تشكّل العمود الفقري لحياتهم اليومية[58].

• ويشرح القرطبي أن هذه الآية جزء من سلسلة آيات يعدد الله فيها صفات المؤمنين الصادقين. ووفقًا له، فإن "دائمون" تشمل أيضًا: الصلاة بخشوع، وإقامة الفرائض على وجهها الصحيح، وأداء النوافل، والشعور بأهمية الصلاة بوصفها صلةً بالله[59].

• ويلاحظ الرازي أن ذكر "دائمون" يدل على اتصال روحي مستمر. فهؤلاء الناس لا يبحثون عن أعذار لترك الصلاة. بل على العكس، الصلاة هي مرساتهم الأخلاقية. وحتى عندما يضيّع الآخرون الصلاة، يظلون هم محافظين عليها بإخلاص[60].

ثم يواصل رب العالمين هنا الحديث عن الذين يثبتون على صلاتهم، وما هي الصفات الخُلُقية التي تنشأ عنها، صفات المؤمن الصادق.

---

[55] انظر: الجامع، تفسير سورة المعارج.

[56] انظر: مفاتيح الغيب، تفسير سورة المعارج.

[57] سورة المعارج، آية (23).

[58] انظر: التحرير، تفسير سورة المعارج.

[59] انظر: الجامع، تفسير سورة المعارج.

[60] انظر: مفاتيح الغيب، تفسير سورة المعارج.

الآية الثالثة: قال تعالى: ﴿**وَٱلَّذِينَ فِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ مَّعۡلُومٞ**﴾[61]

• يشير ابن عاشور إلى وعيٍ بأن المال أمانة من الله، وأن على الإنسان أن يشاركه مع غيره.

• ويؤكد القرطبي أن هذه الآية تبرز المسؤولية الاجتماعية في الاقتصاد الإسلامي، فالمؤمن لا يفكر في نفسه فقط.

• ويبين الرازي أن كلمة "معلوم" تشير إلى الزكاة وإلى الصدقة التطوعية المنتظمة.

الآية الرابعة: قال تعالى: ﴿**للسائل والمحروم**﴾[62].

• يوضح ابن عاشور أن الله يذكر نوعين من الفقراء: من يسأل، ومن لا يجرؤ على السؤال، ليحذرنا من أن نحكم على حاجات الناس من ظاهرهم فقط.

• ويشرح القرطبي أن هذه الآية دعوة إلى العطاء ببصيرة ورحمة: لا أن نستجيب فقط للفقر الظاهر، بل أن ننتبه أيضًا للحاجة الخفية.

• ويبين الرازي أن "المحروم" قد يكون في كثير من الأحيان أشد فقرًا من السائل، لكنه يُغفل ويُنسى.

الآية الخامسة: قال تعالى: ﴿**وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوۡمِ ٱلدِّينِ، وَٱلَّذِينَ هُم مِّنۡ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشۡفِقُونَ، إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمۡ غَيۡرُ مَأۡمُونٖ، وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِفُرُوجِهِمۡ حَٰفِظُونَ، إِلَّا عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ فَإِنَّهُمۡ غَيۡرُ مَلُومِينَ، فَمَنِ ٱبۡتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡعَادُونَ، وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِأَمَٰنَٰتِهِمۡ وَعَهۡدِهِمۡ رَٰعُونَ، وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمۡ قَآئِمُونَ، وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ يُحَافِظُونَ**﴾[63]

• يوضح ابن عاشور أن هذه الآيات تبين أن الإيمان الحقيقي بالآخرة يقود إلى سلوك أخلاقي في الدنيا، وأن "مشفقون" لا تعني الخوف فقط، بل أيضًا التأثر العميق والتواضع، وحتى الأتقى لا يملك ضمانًا مطلقًا بالأمان، وهذه الآيات تجعلنا متواضعين ويقظين، كما أنهم يضبطون رغباتهم الجنسية ضمن الحدود المباحة، وأن الإسلام يعترف بحاجات الإنسان، لكنه يضع لها حدودًا واضحة، وأن كل سلوك جنسي خارج هذه الحدود اعتداء على الطهارة، كما أن حفظ الأمانة انعكاس لقلبٍ مستقيم، وأن الشهادة الصادقة تحفظ

---

[61] سورة المعارج، آية (24).

[62] سورة المعارج، آية (25).

[63] سورة المعارج، الآية (26_34).

الحق والمجتمع، وهذا يشير إلى الصلاة الدقيقة، الواعية، والمخلصة.[64]

- ويقول القرطبي إن من يؤمن بالبعث، سيكون تلقائيًا عادلًا في أفعاله، وإن الروحانية الحقيقية تتضمن دائمًا عنصر الخوف، فيكون توازنًا أمام الكبر أو التراخي، ولا يجوز لأحد أن يعتبر نفسه "آمنًا"، فالتعالي قاتلٌ خفي للإيمان، وهذا علامة على ضبط النفس وتقوى الله، وهو ثمرة من ثمرات التقوى، والوفاء داخل الزواج هو أساس الاستقرار الأخلاقي، وعدم وجود ذلك دلالة على الانحلال الأخلاقي وفقدان الانضباط الروحي. ويواصل حديثه بقوله إن من يفي مع الناس، يكون في الغالب وفيًّا أيضًا في صلاته، وإن الثبات في الشهادة مرتبط ارتباطًا وثيقًا بالصدق في الصلاة، وتقدم الصلاة بوصفها تتويجًا لجميع الأعمال؛ فمن حفظها حفظ نفسه[65].
- يشرح الرازي أن الإيمان بيوم القيامة هو المحرّك الأخلاقي وراء الصدقة والعفة، وأن هذا الخوف يحقق التوازن في الحياة الدينية ويُبقي الإنسان يقظًا في أداء الواجبات، كما تهدف إلى تحفيز الوعي المستمر، وأن الأمان الحقيقي يكمن في دوام الالتزام، وأن العفة نتيجة للنقاء الروحي الذي تقويه الصلاة، ويواصل حديثه بأن هذا الاستثناء يُظهر رحمة الله ونظامه في آنٍ واحد، والسلوك الخاطئ يدمّر الأثر الروحي للصلاة، وأن الوفاء بالعهود من علامات الإيمان الحقيقي، وهذا يتطلب شجاعةً ووضوحًا أخلاقيًا. المقصود هنا ليس مجرد أداء الصلاة، بل إبقاؤها حيةً في القلب.[66]

صفات من يصلّي حقًا

هذه الآيات من سورة المعارج لا تصف مجرد مؤمن، بل تصف أعمق ملامح من كانت صلاته حقيقية. لا الصلاة بوصفها عادة، بل بوصفها تحوّلًا. فهم يعطون، من خشيتهم لله، من غير أن يطلب منهم أحد. ويؤمنون حقًا بيوم القيامة. ويعيشون بعفة، ويحفظون عهودهم، ويشهدون بالحق. وفوق ذلك كله: يحفظون صلاتهم، لا في أدائها فقط، بل في معناها أيضًا.

---

[64] انظر: التحرير، تفسير سورة المعارج.

[65] انظر: الجامع، تفسير سورة المعارج.

66 انظر: مفاتيح الغيب، تفسير سورة المعارج.

ومع ذلك، فإننا نرى اليوم، من إفريقيا إلى آسيا وأوروبا، ملايين المسلمين الذين يصلون منذ عشر، أو عشرين، أو حتى ثلاثين سنة، خمس مرات في اليوم، وغالبًا في المسجد. لكن تلك الصلاة لا تترك أثرًا يُذكر في أخلاقهم، ولا في سلوكهم، ولا في تعاملهم مع الآخرين. فهم يغتابون، ويخدعون، ويبخلون، ويغضبون، ويظلمون، ولا يرون في ذلك مشكلة ما داموا لا يزالون يصلّون.

وهذه واحدة من أكبر مواطن الألم في أمتنا اليوم: صلوات بلا وعي، وطقوس بلا أخلاق، واستسلام بلا تحوّل. لكن الله لم يشرع الصلاة بوصفها تمرينًا جسديًا، بل بوصفها تربية. وهذه الآيات تذكرنا بحقيقة واضحة: إذا لم تكن الصلاة تغيّرك، فربما أنت تصلّي بجسدك، لكنك لا تصلّي بقلبك.

من هنا ومن هذا المقام أشد على الأيادي التي تسعى إلى غرس القيم والمبادئ الإسلامية في نفوس الكثير ممن دخلوا في الإسلام، وتقدم لهم يد العون والمساعدة في فهم الدين على حقيقته وتطبيقه على أرض الواقع دون انحراف أو تحييد عن الحقائق التي جاءت واضحة في كتاب الله عز وجل وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم.

الآية السادسة: قال تعالى: ﴿**وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ**﴾[67]
نزلت هذه الآية عندما تحولت القبلة من بيت المقدس[68] إلى الكعبة[69]. وقد تساءل بعض الصحابة عمّا سيحدث لصلواتهم التي كانوا قد أدّوها من قبل باتجاه بيت المقدس.

• يوضح ابن كثير[70] أن كلمة "إيمانكم" في هذه الآية تشير إلى الصلاة.

• ويضيف القرطبي أن الله سمّى الصلاة هنا إيمانًا ليؤكد مكانتها وقيمتها، فهي البرهان المركزي على الإيمان الحقيقي.

• ويشدد الرازي على أن هذه الصياغة تبيّن أن الإيمان لا يكتمل بلا صلاة؛ فالصلاة هي البرهان المحسوس على قناعةٍ داخلية غير مرئية.

---

[67] سورة البقرة، آية (143).

[68] بيت المقدس: اسم تاريخي وديني لمدينة القدس وأرض فلسطين المباركة، ويطلق المسمى بشكل خاص ليقصد به المسجد الأقصى المبارك في قلب المدينة، وهو مسرى النبي محمد صلى الله عليه وسلم، وهو ثاني مسجد وضع على الأرض، وأولى القبلتين، وثالث الحرمين، ويعني الطهارة والتنزيه.

[69] الكعبة: بيت الله الحرام ووضع للناس لعبادة الله الواحد الأحد، تقع في قلب المسجد الحرام في مدينة مكة المكرمة، وهي قبلة المسلمين في صلواتهم، ومهوى أفئدتهم ومقصد الحجاج والمعتمرين.

[70] ابن كثير: عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير الشافعي الدمشقي محدث ومؤرخ ومفسر وفقيه، من أشهر كتبه في التفسير البداية والنهاية وتفسير القرآن العظيم.

فالكلمة الواردة هنا حرفيًا هي "**إيمانكم**"، لكن العلماء متفقون على أن المقصود بها: صلواتكم التي أديتموها.

الآية السابعة: قال تعالى: ﴿**فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِي ٱلدِّينِ**﴾[71]

- يؤكد ابن عاشور أن هذه الآية تبيّن أهمية الأعمال الظاهرة بوصفها شرطًا للأخوّة الدينية. فالإيمان لا ينبغي أن يستقر في القلب فقط، بل يجب أن يظهر في إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة. وعندها فقط يُعتبر المرء مؤمنًا كامل الانتماء إلى الجماعة[72].
- ويرى القرطبي أن غياب الصلاة يُحدث انقطاعًا في رابطة الأخوة. فهذه الأخوة ليست شعورًا عاطفيًا أو ثقافيًا فحسب، بل هي أخوة دينية مشروطة. ومن لا يقيم الصلاة لا يمكنه أن يعدّ نفسه أخًا في الدين، مهما كان أصله أو ادعاؤه[73].
- ويشرح الرازي أن هذه الصياغة تثبت أن أعمالًا كالصلاة والزكاة ليست عناصر اختيارية، بل هي لبنات أساسية في الإيمان. وهي الحد الفاصل بين الهوية الإسلامية والإقصاء عنها. فالجماعة الدينية في الإسلام تقوم على التزام مشترك بأعمال الطاعة[74].

الآية الثامنة: فال تعالى: ﴿**فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُوا ٱلشَّهَوَٰتِ ۖ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا**﴾[75]

- يوضح ابن عاشور أن "**أضاعوا الصلاة**" لا تعني أنهم تركوا الصلاة كليًا، بل أنهم أخّروها عن وقتها، وأهملوها بلا اكتراث ولا عناية. وهذا وحده شكلٌ من أشكال الخسارة.
- ويؤكد القرطبي أن تضييع الصلاة أدى إلى الانحلال الأخلاقي. فمن لا يحفظ صلته بالله عبر الصلاة، يسهل أن يقع فريسةً للشهوات.
- ويرى الرازي أن ضياع الصلاة هو المدخل إلى الانحدار الروحي. وأن قوله: "فسوف يلقون غيًا" يشير إلى

---

[71] سورة التوبة، آية (11).

[72] انظر: التحرير، تفسير سورة التوبة.

[73] انظر: الجامع، تفسير سورة التوبة.

[74] انظر: مفاتيح الغيب، تفسير سورة التوبة.

[75] سورة مريم، آية (59).

الضلال، وإلى وادٍ مخصوص في جهنم، بحسب بعض الصحابة، عقوبةً لمن ترك الصلاة.

في هذه الآية، يرتبط ترك الصلاة ارتباطًا مباشرًا بالانحراف عن الإيمان[76].

الآية التاسعة: قال تعالى: ﴿**ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ**﴾[77]

• ابن عاشور: يضع الله الصلاة مباشرة بعد الإيمان بالغيب بوصفها مظهرًا مرئيًا للإيمان.

• الرازي: الصلاة هي أول عمل ظاهر تظهر فيه القناعة الداخلية للمؤمن.

• القرطبي: الصلاة هي محور الأعمال؛ وبدونها يكون سائر الإيمان ضعيفًا وغير مكتمل.[78]

الآية العاشرة: قال تعالى: ﴿**ٱتۡلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۗ وَلَذِكۡرُ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تَصۡنَعُونَ**﴾[79]

• ابن عاشور: الصلاة لا تُشكّل الفرد فقط، بل تُشكّل المجتمع أيضًا. ويجب أن تقود إلى تغيير أخلاقي، لا إلى تكرارٍ طقسي مجرد.

• القرطبي: الصلاة وسيلة تطهير. فإذا أُدّيت على وجهها الصحيح، منعت من الفواحش والمنكرات. فهي ليست مجرد طقس، بل قوة أخلاقية مكوّنة. وإذا كان الإنسان يصلّي ومع ذلك يستمر في السلوك المنحرف، فثمّة خلل أساسي في فهمه للصلاة أو في أدائها.

• الرازي: عبارة "ولذكر الله أكبر" تعني أن الوعي بالله أثناء الصلاة أهم من الحركات الظاهرة نفسها.[80]

الآية الحادية عشر: قال تعالى: ﴿**قَالُوا لَمۡ نَكُ مِنَ ٱلۡمُصَلِّينَ**﴾[81]

• يوضح ابن عاشور أن كون تركهم للصلاة ذُكر أولًا، يدل على أن إهمال الصلاة هو مفتاح الانحدار الروحي والانهيار الأخلاقي.

---

[76] انظر: الجامع والتحرير ومفاتيح الغيب، تفسير سورة مريم.

[77] سورة البقرة، آية (3).

[78] انظر: الجامع والتحرير ومفاتيح الغيب، تفسير سورة البقرة.

[79] سورة العنكبوت، آية (45).

[80] انظر: الجامع والتحرير ومفاتيح الغيب، تفسير سورة العنكبوت.

[81] سورة المدثر، آية (43).

• ويرى القرطبي أن هذه الآيات تثبت أن الصلاة هي الحد الأدنى المطلق لحفظ الإيمان، وأن إهمالها، خصوصًا إذا كان عن وعي، علامة على لا مبالاة عميقة تجاه الله.

• ويشدد الرازي على أن الصلاة هي الجسر بين الإنسان وربه. ومن يقطع هذا الجسر عمدًا، يقطع نفسه عن الهداية، والتطهير، والحماية الأخلاقية.[82]

الصلاة مرآة: المحاسبة الذاتية وضبط النفس، الصلاة ليست مجرد طقس، بل لحظة مواجهة داخلية. خمس مرات في اليوم يُوقَف المؤمن ليراجع أفعاله، ونياته، واتجاه حياته. وهذا يجعل الصلاة مرآةً روحية: "فيما أنا مشغول؟ من الذي أعبده حقًا؟ ما حال قلبي؟"

الآية الثانية عشر: قال تعالى: ﴿**قَدۡ أَفۡلَحَ مَن تَزَكَّىٰ وَذَكَرَ ٱسۡمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ**﴾[83]

• يشير ابن عاشور إلى أن "تزكى" لا تعني السلوك الخارجي فقط، بل تعني أيضًا التطهير الداخلي، والصلاة هنا أداة عملية ملموسة لهذا التطهير.

• ويرى القرطبي في تفسيره أن هذه الآية تؤكد اقتران الذكر بالعبادة العملية بوصفه مفتاح الفلاح، حيث تكون الصلاة التعبير العملي عن الطهارة الباطنية.

• ويشدد الرازي على أن الصلاة لا تطهّر الأفعال فقط، بل تُدرّب القلب أيضًا على مراقبة نفسه، وعلى اليقظة تجاه الذنوب.[84]

وأثناء السجود، يصبح المؤمن في أكثر حالاته صِغَرًا، وفي أكثرها قربًا من الله. وهذه هي اللحظة التي تكون فيها المحاسبة الذاتية في أنقى صورها. فالصلاة بهذا المعنى مدرسة لضبط النفس: تعلّم الانتظار، وتعلّم التوقف، وتعلّم قول "لا" للنفس.

وقارن ذلك بأنواع الإدمان التي تصيب كثيرًا من الشباب اليوم، من الألعاب ووسائل التواصل الاجتماعي إلى المحتوى المحرم والتدخين. فالخطوة الأولى نحو التحرر ليست نظامًا صارمًا، ولا مجرد شعور بالذنب، بل صلاة منتظمة واعية. لأن القلب الذي يعود إلى ربه خمس مرات في اليوم، يتعلم مع الوقت أن يضع حدودًا لرغباته.

---

[82] انظر: الجامع والتحرير ومفاتيح الغيب، تفسير سورة المدثر.

[83] سورة الأعلى، آية (14).

[84] انظر: الجامع والتحرير ومفاتيح الغيب، تفسير سورة الأعلى.

3.3 تأمل في الحديث:

الحديث: قال النبي ﷺ: **"الْعَهْد[85] الَّذِي بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمُ[86] الصَّلَاةُ فَمَنْ تَرَكَهَا فَقَدْ كَفَرَ"[87]**

التأمل: يصف النبي ﷺ الصلاة بأنها المعيار الفاصل لحقيقة الإيمان. فإذا استقامت الصلاة، استقامت سائر الأعمال، وإذا فسدت الصلاة، فسد الإيمان. ويوم القيامة ستكون الصلاة أول ما يُحاسَب عليه العبد، فهي مرآة حياتنا الروحية.

المعنى العام للحديث: يشير إلى الميثاق الذي يميز بين المسلم وغيره، والذي به يحقن الدم وتُعصم الأموال، فالمسلم يحافظ على هذا الميثاق بأدائه للصلاة.

أي أن ما بيننا وبينهم من المنافقين والكفار من أعمال ظاهرة تجعلهم تسري عليهم أحكام الإسلام هي الصلاة، أي ما يفصلنا عنهم ويوضح أعمالنا لله سبحانه وتعالى هي الصلاة، فإذا صلحت صلاة الشخص صلح عمله كله، وإذا فسدت صلاته فسد عمله كله.

3.4 الطبقة التأملية:

التربية – أعطِ الصلاة معناها من البداية

يجب ألّا نعلّم الأطفال فقط كيف يصلّون، بل قبل ذلك لماذا يصلّون. فالحركات الظاهرة في الصلاة مهمة، لكن من دون وعي ومحبة تبقى فارغة. علّموهم معنى الكلمات التي ينطقون بها، وحكمة الآيات التي يتلونها. دعوهم يفهمون أن الصلاة ليست عقوبة، بل لقاء مع ربهم، ولحظة سكينة، وأمان، ومعنى. فإذا تربّى الأطفال على هذا منذ الصغر، فلن تكون الصلاة بالنسبة إليهم عبئًا، بل شوقًا.

التعليم – ثبّت الأساس في المسار التعليمي

إن المدرسة بلا صلاة كالجسد بلا نبض. ويجب أن يكون تفسير السور الأساسية مثل الفاتحة، والعصر، والإخلاص جزءًا ثابتًا من المنهج الإسلامي. لا بصورة سطحية، بل بعمق. من خلال تحليل اللغة، والموضوعات، وقبل كل شيء: تطبيقها في حياة الشاب اليوم. فمن خلال التعليم نستطيع أن نترجم القيم الأساسية للصلاة، من استسلام، ونظام، ووعي، إلى أسلوب حياة ملموس.

---

[85] العهد: الميثاق، الاتفاق.

[86] بينهم: المنافقون، وقيل الكفار.

[87] سنن الترمذي، حديث رقم (2621).

العمل المجتمعي – فعّل المسجد كمختبر روحي

يجب أن تكون مساجدنا، وأنشطتنا الموجهة إلى الشباب، أكثر من مجرد أماكن للصلاة أو مراكز اجتماعية. ينبغي أن تُعاد تربيتها لتصبح مراكز للنمو الروحي. تحدّثوا بصراحة عن أهمية الصلاة، لا بلغة التخويف، بل بلغة الفهم، والتجربة، وخدمة القلوب. شاركوا القصص، والصراعات، والنصائح. واصنعوا مساحة يجرؤ فيها الشباب على أن يقولوا: "أنا أجد الصلاة صعبة"، من غير أن يُدانوا، وفيها يبحثون معًا عن طريق التعافي.

إن الصلاة ليست عادة ولا واجبًا شكليًا. إنها حبل الحياة. فهي تشكّل فكرنا، وسلوكنا، ورؤيتنا للعالم. تروّض أهواءنا، وتمنحنا السكينة، وتعلّمنا التواضع. وإذا اختزلنا الصلاة إلى سلسلة من الحركات أو إلى طقس ثقافي، فإننا نفقد القدرة على الثبات والاتزان في الحياة.

توقف قليلًا واسأل نفسك: ماذا تقول صلاتك عنك؟ ليس فقط هل تصلّي، بل كيف تصلّي؟ هل صلاتك مستعجلة أم واعية؟ آلية أم حيّة؟ إن الصلاة ليست مجرد فريضة، بل هي مرآة. مرآة تكشف حقيقة علاقتك بالله. فعندما تكون مشتتًا في صلاتك، فكثيرًا ما تكون كذلك في حياتك أيضًا. وعندما تؤجل الصلاة باستمرار، فربما تؤجل أيضًا مسؤوليات أخرى مهمة. لكن حين تُصلح صلاتك، بالعناية، والسكينة، والمحبة، والتسليم، ستلاحظ أن أمورًا أخرى تبدأ كذلك في الاستقامة: أخلاقك، وصبرك، وأولوياتك.

إن الصلاة مرساة في أوقات العاصفة، وجرس تنبيه في أوقات الغفلة، ومصدر قوة حين تضعف. فإذا فقدت تركيزك قليلًا في الحياة، فارجع أولًا إلى صلاتك. فهناك تبدأ كل إعادة بناء.

3.5 الخاتمة:

الصلاة عمود الدين، وهي الركيزة الأساسية للإسلام التي لا يستقيم دينه بدونها، إن الصلاة ليست مجرد ركن من أركان الإسلام، بل هي عموده الفقري. ورد هذا المعنى في عدة أحاديث نبوية شريفة، أعظمها حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه حيث قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "**رأس الأمر الإسلام، وعموده الصلاة، وذروة سنامه الجهاد في سبيل الله**"[88] فالإسلام كالبناء، والصلاة هي العمود الذي يرتكز عليه، وهي أول ما سيسأل الله عنه العبد يوم القيامة، حيث قال النبي صلى الله عليه وسلم: "**أول ما يُحاسب به العبد الصلاة...**"[89] والكثير من الأحاديث التي تتحدث في هذا المقام، فالصلاة هي اللقاء اليومي بين العبد وربه. وهي ما يُبقي القلب حيًا، ويروض الأنا، ويغذّي الروح. ويبيّن القرآن الكريم أن الذين يضيّعون الصلاة يهبطون

[88] سنن ابن ماجه، حديث رقم (3973).

[89] سنن النسائي، حديث رقم (3991).

تدريجيًا إلى الشهوات والخسارة. وتؤكد الأحاديث أن الإيمان من دون صلاة ليس إلا ظلًّا باهتًا. ومن حفظ الصلاة فقد حفظ روحه، وشرفه، ومكانته في الآخرة. فالصلاة ليست عبئًا، بل هدية. وليست عادة، بل رحلة روحية. وليست مجرد واجب، بل امتياز.

أول ما يحاسب عليه العبد من أعماله يوم القيامة الصلاة، وهذا بالنسبة لحق الله عز وجل، فإن صلحت فقد أفلح ونجح وإلا فعلى العكس خاب وخسر والعياذ بالله.

الفصل 4 (الزكاة والصدقة) العطاء حياة:

4.1 الملاحظة:

خلال سنوات عملي مع Gardens of the Sincere، الناشطة في أكثر من 45 بلدًا، أرى المفارقة نفسها تتكرر مرة بعد مرة. فعندما نعرض بئر ماء مع وضع اسم المتبرع، أو أضحية مع فيديو مخصص، تتدفق التبرعات بسهولة. أما عندما نتحدث عن بناء مدرسة، أو دعم مزرعة، أو مشاريع مستدامة من دون "اسم ظاهر"، فإن الحماس غالبًا ما يفتر.

فكثير من الناس يظنون أن الزكاة والصدقة تتعلقان بالمال فقط. لكن الله يعلّمنا غير ذلك. فالعطاء أوسع من المال. ففي سورة الحديد يدعونا الله إلى أن ننفق مما جعلنا مستخلفين فيه. وقد يكون ذلك وقتك، أو طاقتك، أو علمك، أو حضورك إلى جانب مريض؛ فكل تضحية صادقة لها وزنها. وقد رأيت أن الكثير يعطون الصدقة بدافع العاطفة، لكنهم لا يملكون أي تصور عن الطبيعة الواجبة للزكاة، فضلًا عن أن يحسبوا أموالهم سنويًا. وهذه الجهالة تقوّض آلية العدالة الاجتماعية التي أودعها الله في المجتمع.

ونرى اليوم أيضًا في الحملات أن بعض المتبرعين يطالبون بوضع أسمائهم على الآبار، أو المباني، أو المدارس، بل إن بعضهم يسأل أحيانًا لماذا لم يُكتب اسمه بحجم أكبر. ومن خلال تجربتنا في Gardens of the Sincere، لاحظنا مدى أهمية تكرار التذكير بالإخلاص والتواضع مع المتبرعين.

الزكاة تطهير لنفس المسلم من الجشع والشح والبخل وحب تخزين المال، الزكاة تطهير للمال وزيادة فيه وتنمية بالبركة، كما أنها تزيد من حسنات المسلم وأجره في الآخرة، الزكاة تطهير للقلوب كي تشعر بالآخرين، فتدفع لتساعد الكثير ممن هم بحاجة إلى المال.

فالتبرع ليس صفقةً للأنا، بل هو فعل عبادة. نحن نعيش في زمن ينفق فيه كثير من الناس المال بسهولة على أنفسهم: آلاف اليوروهات[90] على السفر إلى الخارج أو الإجازات الفاخرة، وعشرات الآلاف على السيارات، ومئات الآلاف على البيوت. لكن عندما يتعلق الأمر بالإنفاق في سبيل الله، كدعم غزة، أو دور الأيتام، أو آبار المياه، أو التعليم الإسلامي، يصبح الأمر فجأة ثقيلًا على النفوس. ويتجلى هذا بشكل مؤلم خصوصًا عند أصحاب الأعمال. فكثير منهم ينفق أموالًا أكثر على رعاية نادٍ لكرة القدم أو على الإعلانات من إنفاقه على مشروع خيري ينقذ الناس فعلًا. وحتى إذا كان بإمكانهم الاستفادة ضريبيًا من خلال تبرع قابل للخصم، فإن الكثير منهم يُمسكون بأيديهم عن العطاء، وكأن المال المخصص للترف أمر بديهي، أما المال المخصص للصدقة أو الزكاة فقد صار عبئًا، وهذا السلوك يكشف أمرًا أعمق: نحن، كمجتمع، أصبحنا منشغلين بالاستهلاك أكثر من الإسهام. فالغنى ليس نعمة إذا لم يُستخدم في الخير. بل قد يتحول إلى ابتلاء. الله لا ينظر إلى مقدار ما تملك، بل إلى ما تفعل بما تملك. لقد حان الوقت لننظر إلى أنفسنا بصدق. هل نحن كرماء فقط مع أنفسنا؟ أم أننا نستثمر أيضًا فيما له وزن عند الله؟ فالربح الحقيقي ليس سيارة جديدة ولا رحلة جديدة، بل مدرسة ساهمتَ في بنائها، أو بئرًا أنقذتَ به الناس، أو طفلًا تعلّم الصلاة بفضل دعمك.

4.2 الآيات القرآنية:

الآية الأولى: قال تعالى: ﴿**آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ**﴾[91]

• يوضح ابن عاشور أن قوله: "مما جعلكم مستخلفين فيه" يشير إلى الطبيعة المؤقتة للملك. فكل ما نملكه هو في الحقيقة أمانة مودعة عندنا.

• ويؤكد الرازي أن هذه الآية تكشف الاختبار الحقيقي للإيمان: أن تعطي مما تحب.

• ويشير القرطبي إلى المسؤولية الملازمة للملك: فهو ليس حقًا مطلقًا، بل تكليف[92].

---

[90] اليورو: العملة الرسمية لعشرين دولة، تُعرف مجموعة هذه الدول باسم منطقة اليورو، أو الأورو، أو الآيرو، يعتبر ثاني أكبر العملات وأكثرها تداولاً في سوق الصرف بعد الدولار الأمريكي.

[91] سورة الحديد، آية (7).

[92] انظر: الجامع والتحرير ومفاتيح الغيب، تفسير سورة الحديد.

الآية الثانية: قال تعالى: ﴿**مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ ۗ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ**﴾[93]

في هذه المجموعة من الآيات الكريمة، يضع الله سبحانه وتعالى، الإنفاق مباشرة بعد الإيمان بالحياة والموت، وبعد آية الكرسي، وبعد قصص القدرة الإلهية الخارقة، مثل قصة الرجل الذي أماته الله مائة عام ثم بعثه.

• يرى ابن عاشور في هذه الآية صورة قوية للبركة والزيادة. فالمضاعفة هنا ليست حسابية فقط، بل روحية؛ إذ يمنح الله أضعافًا لا يمكن تصورها.

• ويؤكد القرطبي أن النية هي الأساس هنا. فالمسألة ليست في الكمية، بل في الإخلاص، وفي توقيت العطاء، وفي حاجة المتلقي.

• ويقول الرازي إن هذه الآية تبيّن أن العطاء لا يعني الخسارة، بل يعني الاستثمار في الأبدية. وكأنك تبذر في أرض خصبة، والله يتكفل بالحصاد.[94]

الآية الثالثة: قال تعالى: ﴿**الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى ۙ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ ۚ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ**﴾[95]

• يوضح ابن عاشور أن هذه الآية لا تتحدث فقط عن الصدقة المادية، بل أيضًا عن أخلاق العطاء. فالعطاء يجب أن يكون نقيًا، من غير نية للهيمنة على الآخر أو إذلاله. وكلمة "منًّا" تشير إلى من يستعمل كرمه لاحقًا أداة للسلطة أو مصدرًا للفخر.

---

[93] سورة البقرة، آية (261).

[94] انظر: الجامع والتحرير ومفاتيح الغيب، تفسير سورة البقرة.

[95] سورة البقرة، آية (262).

• ويؤكد القرطبي أن "الأذى" قد يتخذ صورًا خفية أيضًا: نظرة، أو عبارة مثل: "أتذكر ما فعلته من أجلك؟"، أو ذكر العطاء علنًا أمام الناس. وكل ذلك يهدم القيمة الروحية للهبة تمامًا. بل إن القرطبي يعدّه من الأعمال التي تُبطل الأجر.

• ويحلل الرازي الأثر النفسي لهذا السلوك: فإتباع الصدقة بالأذى يسلب المتلقي كرامته، وهذا يناقض مقصد الإحسان نفسه. فالله لا ينظر فقط إلى أصل العطاء، بل إلى الطريقة التي يُعطى بها.[96]

الآية الرابعة: قال تعالى: ﴿**فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ، وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ، فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ**﴾[97]

• يعدّ ابن عاشور العطاء أول مفتاح من مفاتيح التزكية؛ أي تطهير النفس.

• ويرى القرطبي أن هذه الآية تبين أن السخاء يقود إلى انشراح روحي وتيسير.

• ويشدد الرازي على الصلة بين التقوى والإنفاق: فمن خاف الله حقًا، لن يكون بخيلًا[98].

ويعلّمنا القرآن الكريم أن العطاء ليس خسارة، بل هو استثمار في أرواحنا وفي مستقبلنا. فالثروة التي أوكلت إلينا ليست ملكًا مطلقًا، بل أمانة نحن مسؤولون عنها مؤقتًا. كما قال الله تعالى في كتابه العزيز: "**وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه**"[99]، فالبركة كامنة في العطاء، لا في كميته فقط، بل خصوصًا في النية، والنقاء، والستر. وصورة حبة القمح في الآية الكريمة في قوله تعالى: ﴿**مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة، والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم**﴾[100]تعلّمنا أن الله يضاعف أعمالنا بطرق لا نستطيع أن نحيط بها، ما دامت خالية من الكبر، والمنّ، والإذلال، فطريق الأنبياء ليس طريق التفاخر بالإحسان، بل طريق العطاء بخوفٍ من الله، وإيمانٍ، وثقة. وفي سورة الليل نرى أن من يُعطي بتقوى وإيمان بالحسنى، فإن الله ييسره إلى اليسر، إلى الخير، إلى الرفعة، فالسخاء،

---

[96] انظر: الجامع والتحرير ومفاتيح الغيب، تفسير سورة البقرة.

[97] سورة الليل، آية (5_7).

[98] انظر: الجامع والتحرير ومفاتيح الغيب، تفسير سورة الليل.

[99] سورة الحديد، آية (7).

[100] سورة البقرة، آية (261).

إذًا، ليس مجرد لفتة اجتماعية، بل هو طريق روحي من طرق التزكية، ومن القوة، ومن الاتصال الحقيقي بالله، إنه الجسر بين المال ورضا الله، حيث قال تعالى: ﴿**وما تنفقوا من خير فإن الله به عليم**﴾[101]

الزكاة: الركن المنسي:

الزكاة لغة: النماء والزيادة، كذلك تعني الطهارة، والبركة والصلاح.

اصطلاحا: حق واجب في مال مخصوص لطائفة مخصوصة في وقت مخصوص، وتعتبر الركن الثالث من أركان الإسلام. والزكاة تطهير مالي واجب سنويًا.

- وهي 2.5% من المال المدّخر الذي مرّ عليه عام كامل، إذا بلغ النصاب نحو 85 غرامًا من الذهب.
- وليست أمرًا رمزيًا فقط، بل هي فريضة ملزمة، في منزلتها كمنزلة الصلاة.

الأصناف الثمانية المستحقة للزكاة كما جاء في القرآن الكريم حيث قال تعالى: ﴿**إنما الصدقات للفقراء والمساكين، والعاملين عليها، والمؤلفة قلوبهم، وفي الرقاب، والغارمين وفي سبيل الله، وابن السبيل، فريضة من الله، والله عليم حكيم**﴾[102].

الفقراء والمساكين: المحتاجون الذين لا يجدون كفايتهم من المال.
العاملون عليها: المكلفون بجمع وتوزيع أموال الزكاة، مثل:**Gardens of the Sincere**
المؤلفة قلوبهم: حديثو العهد بالإسلام أو مَن يُرجى تأليف قلوبهم.
في الرقاب: المكاتبون من العبيد الساعين لشراء حريتهم.
الغارمون: المثقلون بالديون العاجزون عن سدادها.
في سبيل الله: دعم المجاهدين أو مصالح الأمة العامة.
ابن السبيل: المسافر المنقطع الذي نفذت نفقته.

"في سبيل الله" ووفقًا ليوسف القرضاوي، يمكن أن يشمل هذا أيضًا المشاريع التعليمية مثل بناء المدارس، وتدريب الأئمة، والمساجد، بل وحتى الإعلام، ما دام ذلك في خدمة الدعوة وتقوية الأمة.

[101] سورة البقرة، آية (273).
[102] سورة التوبة، آية (60).

4.3 تأمل في الحديث:

الحديث: قال رسول الله ﷺ: **"مَا نَقَصَتْ صَدَقَةٌ مِنْ مَالٍ، وَمَا زَادَ اللَّهُ عَبْدًا بِعَفْوٍ إِلَّا عِزًّا، وَمَا تَوَاضَعَ أَحَدٌ لِلَّهِ إِلَّا رَفَعَهُ اللَّهُ"**[103]

التأمل: هذا الحديث يفنّد خوفًا شائعًا، وهو أن العطاء قد يجعلنا أفقر. لكن الحقيقة هي عكس ذلك تمامًا. فالصدقة مصدر بركة، وعزة، ورفعة روحية. وفي عالمٍ يقيس كل شيء باليورو وبالملكية، يعلّمنا النبي ﷺ أن الغنى الحقيقي يكمن في العطاء، والعفو، والتواضع.

المعنى العام للحديث: ينفي النبي صلى الله عليه وسلم بأسلوب القسم والتوكيد أن تكون الصدقة سبباً في نقصان المال، والنقصان هنا له معنيان: حسي في الدنيا، حيث يبارك الله في المال المتبقي ويخلف على المتصدق أضعاف ما أنفق، ومعنوي في الآخرة وهو النماء والبركة والأجر والثواب الذي يدخره الله للمتصدق.

4.4 الطبقة التأملية:

يجب ألّا يُعلَّم إعطاء الزكاة والصدقة بوصفه واجبًا دينيًا فحسب، بل بوصفه أسلوب حياة يبدأ من **التربية**، ويتعمق في التعليم، ويتجسد في العمل المجتمعي. ينبغي أن نعلّم الأطفال منذ الصغر أن العطاء لا يتعلق دائمًا بالمال. فمن لا يملك مالًا، يمكنه مع ذلك أن يتصدق بوقته، واهتمامه، وابتسامته، ومساعدته في البيت، أو دعمه لصديق. وهذا يصوغ شخصيتهم، إذ يتعلمون أن الكرم ليس نتيجة الغنى، بل ثمرة قلبٍ نقي.

وفي التعليم، ينبغي أن يكون هناك مجال لدروس عملية حول كيفية عمل الزكاة. لا النظرية فقط، بل أمثلة حقيقية: كيف تحسب زكاتك؟ ما هو النصاب؟ كيف تُؤخذ الديون والمدخرات بعين الاعتبار؟ متى يجب أن تُعطى؟ ولمن؟ ولماذا؟ يجب أن يتعلم الشباب أن الزكاة ليست مبلغًا رمزيًا يُؤدَّى كيفما اتفق، بل هي تطهير روحي ومسؤولية اجتماعية. ومن يفهم ذلك يطوّر أيضًا وعيًا ماليًا يتجاوز المصلحة الشخصية.

وفي مجتمعاتنا، يجب أن نوسّع الوعي بمعنى "في سبيل الله". فكثير من الناس يحبون العطاء للحاجات المباشرة: الطعام، والماء، والملابس. وهذا جميل. لكن لا بد من إعطاء مزيد من الاهتمام للمساعدة البنيوية المستدامة. فبناء المدارس، وإطلاق المشاريع الزراعية، ودعم المراكز الطبية، وتدريب الشباب ليصبحوا عاملين ومفكرين مستقلين، كل ذلك أيضًا من "في سبيل الله". فطريق الله ليس فقط طريق الإغاثة عند الحاجة، بل هو

[103] صحيح مسلم، حديث رقم (2588).

أيضًا طريق التقدم. وما دمنا لا نشرح هذا لمتبرعينا، فسنبقى حبيسي دائرة معالجة الأعراض فقط. ولهذا، فإن مهمتنا، كمربين، وكمعلمين، وكقادة مجتمعيين، هي أن نكوّن أناسًا يعطون ببصيرة. أناسًا يفهمون أن الصدقة الحقيقية لا تكتفي بالتخفيف، بل تُحدث تغييرًا. فمن فهم معنى "في سبيل الله" سيعطي برؤية، ويبني بإخلاص، ويستثمر وهو يرجو أن يضاعف الله له ذلك في الدنيا والآخرة.

وفي Gardens of the Sincere، نحن لا نؤمن بالحلول المؤقتة، بل بالحلول المستدامة للفقر البنيوي وللاعتماد على الآخرين في أنحاء العالم. فمهمتنا النهائية هي أن نجعل الناس قادرين على الاكتفاء بأنفسهم. وهذا يعني: الاستثمار في التعليم، والمدارس، والجامعات، والمجتمعات القادرة على أن تحمل نفسها بنفسها عبر الأجيال.

ولتحقيق ذلك، نحن بحاجة إلى تمويل بنيوي دائم. ولهذا نريد أن نعمل على هياكل وقفية: مشاريع مستدامة مثل المزارع، حيث لا يجد الناس العمل فقط، بل يتعلمون أيضًا كيف يُنتجون بأنفسهم. كأن تكون لهم زراعتهم الخاصة، ومواشيهم الخاصة، بل وحتى تطوير علامتنا التجارية الخاصة، بجودةٍ، وبمعايير حلال، وبملكيةٍ يفخر بها المجتمع. نحن نؤمن أن المسلمين لا ينبغي أن يكونوا مستهلكين فقط، بل يجب عليهم قبل ذلك أن يكونوا منتجين. فبهذا وحده يمكننا أن نعالج جذور اللامساواة البنيوية والعجز عالميًا. كما قال النبي ﷺ:
"المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كل خير."[104]
وهذا ينطبق حرفيًا ومعنويًا: قويًّا في الإيمان، والعلم، والفاعلية، والقدرة الاقتصادية، وهذا هو الاتجاه الذي نريد أن نسير إليه: أمة قوية، لا تعتمد على غيرها، بل تحمل غيرها. وأول هذا الطريق يبدأ بالزكاة والصدقة، حين تُوجَّهان برؤية واستشراف للمستقبل.

المعنى العام للحديث: لا تقتصر القوة في الإسلام على قوة البدن فحسب، بل تشمل قوة الإيمان والعلم والطاعة وقوة الشخصية والإرادة في فعل الخير، فالمؤمن القوي أكثر نفعاً لدينه ومجتمعه وأمته، لذا فهو أحب إلى الله ومع ذلك في كل منهما خير لاشتراكهما في أصل الإيمان.

فهذا الحديث أصل عظيم في الأخلاق والمعاملات لما فيه من خصال عظيمة تزيد العبد رفعة وبركة في الدنيا والآخرة، وهي الصدقة، العفو، والتواضع، كما وضحها النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث.

[104] صحيح مسلم، حديث رقم (2664).

4.5 الخاتمة:

إن الزكاة والصدقة ليستا مجرد أعمال روحية أو طقوس رمزية، بل هما العمود الفقري للعدالة الاجتماعية في الإسلام. وهما تذكّراننا بأن المال مسؤولية لا امتياز، وأن الثروة لا تكتسب قيمتها إلا حين تُشارك، وأن العبادة الحقيقية لا تقف عند الصلاة، بل تمتد إلى أعمال الرعاية، والتضامن، وتحمل المسؤولية تجاه الأمة.

ومن يعطي ببصيرة وإخلاص، لا يطهّر قلبه من البخل فحسب، بل يرفع الآخر أيضًا في كرامته. فإعطاء الزكاة ليس منّةً على الفقراء، بل هو حقهم. ومن تجاهل ذلك، فقد نقض أحد الأعمدة التي تقوم عليها بنية المجتمع الإسلامي.

وفي زمن اللامساواة العالمية، والحروب، والجوع، والثروات الفاحشة، يصبح من واجبنا أن نستخدم ما نملك بوعي. لا في الإسراف والترف، بل في خدمة الخير. ومؤسسات مثل Gardens of the Sincere تحاول أن تقوم بهذا تحديدًا: أن تبني جسورًا بين من يملكون ومن يحتاجون. ومن خلال مشاريع مستدامة مثل آبار المياه، والمدارس، والزراعة، والإغاثة الطارئة، تتحول عطيتك إلى عزٍّ، وأمل، ومستقبل. فمهمتنا ليست أن نعطي فقط، بل أن نبني. أن نبني عالمًا تحيا فيه العدالة. وأن نبني جيلًا يعرف معنى العطاء. وأن نبني إرثًا يبقى طويلًا بعد رحيلنا. نسأل الله أن يفتح أيدينا وقلوبنا، وأن يجعلنا من الذين يعطون ببصيرة، ونقاء، وإخلاص ومحبة.

الفصل 5 (أهمية القربان) فعلُ تسليمٍ وتضحية:

5.1 الملاحظة:

القربان، أي الأضحية في عيد الأضحى، هو أحد أقوى الشعائر التي تجمع بين الصلة بالله، وروح الجماعة، ومعنى التضحية. لكنني ألاحظ في الواقع العملي فروقًا كبيرة بين المجتمعات في التعامل معه. ومن خلال تجربتنا في Gardens of the Sincere، نرى كيف أن الجالية التركية تأخذ القربان بجدية كبيرة. بل أحيانًا بصرامة لافتة، إلى درجة أنهم يتصلون بنا ونحن ما زلنا في طور الذبح في إفريقيا، ويسألون: "هل ذُبح حيواني بالفعل؟ لأنني أريد أن أصلي ركعتي الأضحية." مع أن بعضهم لا يحافظ أصلًا على الصلوات اليومية. وهذا يبين أن القربان يُفهم أحيانًا بطريقة معزولة، منفصلة عن الإطار الأوسع للعبادة والطاعة، وعلى الجانب الآخر، هناك مجتمعات تُهمل القربان بحجة: "إنه مجرد سنة، ونحن أصلًا لم يعد يُسمح لنا بالذبح في بلجيكا." لكن السنة المؤكدة للنبي ﷺ ليست شيئًا يُستهان به. وفي زمن أصبحت فيه مؤسسات مثل مؤسستنا تُمكّن الناس من المساهمة في جزء من بقرة في إفريقيا مقابل 80 يورو فقط، لم يعد هناك عذر.

5.2 الآيات القرآنية:

الآية الأولى: قال تعالى: ﴿**فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ**﴾[105]

• ابن عاشور: تربط هذه الآية الصلاة مباشرةً بالنحر، مما يجعل هذه الشعيرة متجذرة في التفرغ لله. فهي ليست مجرد عملية ذبح، بل تعبير عن التسليم الكامل.

• القرطبي: يرى أن هذا الأمر تأكيد على المكانة الخاصة للنبي ﷺ ولأمته، حيث تجتمع الصلاة والنحر بوصفهما رمزين للشكر والخضوع.

• الرازي: يشدد على أن الصلاة والنحر معًا يمثلان تطهير الجسد بالفعل، وتطهير النفس بالنية.[106]

الآية الثانية: قال تعالى: ﴿**لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنكُمْ**﴾[107]

• ابن عاشور: جوهر هذه الآية يكمن في النية. فالمقصود ليس الفعل المادي في ذاته، بل وعي التسليم لله. فالأضحية ترمز إلى أن المؤمن مستعد لأن يترك كل شيء لله، كما كان إبراهيم عليه السلام مستعدًا لأن يضحي بابنه.

• القرطبي: يؤكد أن القربان عمل تطهيري. لا يطهّر المال فقط، بل يطهّر الأنا والتعلق بأمور الدنيا. ومن أهمل قربانه بدافع الكسل، فقد فوّت على نفسه فرصة سنوية للتزكية الداخلية.

• الرازي: يرى أن هذه الآية تشير أيضًا إلى قاعدة عامة في العبادة: فالله لا يريد القرابين المادية في ذاتها، بل يريد روح التسليم والتقوى المصاحبة لها. فإذا قدّمت الأضحية بلا تقوى، فلن يبقى منها إلا اللحم.[108]

5.3 تأمل في الحديث:

---

[105] سورة الكوثر، آية (2).

[106] انظر: الجامع والتحرير ومفاتيح الغيب، تفسير سورة الكوثر.

[107] سورة الحج، آية (37).

[108] انظر: الجامع والتحرير ومفاتيح الغيب، تفسير سورة الحج.

الحديث الأول: قال النبي ﷺ: **"مَنْ كَانَ لَهُ سَعَةٌ وَلَمْ يُضَحِّ، فَلَا يَقْرَبَنَّ مُصَلَّانَا"**[109]

التأمل: هذه الكلمات قوية وصادمة. فالنبي ﷺ يربط ترك القربان طوعًا، مع القدرة المالية عليه، بنوع من الإبعاد عن الجماعة الروحية. وليس المقصود نفيًا جسديًا، بل تحذيرًا روحيًا: فالقلب قد ابتعد عن التسليم، وعن الرحمة، وعن سنة إبراهيم عليه السلام. ومن لا يضحي تكاسلًا أو إهمالًا مع قدرته على ذلك، فإنه يُظهر خللًا في أولوياته في علاقته بالله.

المعنى العام للحديث: مَن وجد قدرة على الأضحية ولم يضحي فلا يقربن مسجدنا، أي معناها يُحرم من الأجر، ففضل أيام العيد مفتاحها وأسها ولُبها مترتب على الأضحية.

الحديث الثاني: قال النبي ﷺ: **"مَا عَمِلَ آدَمِيٌّ مِنْ عَمَلٍ يَوْمَ النَّحْرِ أَحَبَّ إِلَى اللَّهِ مِنْ إِهْرَاقِ الدَّمِ، وَإِنَّهُ لَيَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِقُرُونِهَا وَأَشْعَارِهَا وَأَظْلَافِهَا، وَإِنَّ الدَّمَ لَيَقَعُ مِنَ اللَّهِ بِمَكَانٍ قَبْلَ أَنْ يَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ، فَطِيبُوا بِهَا نَفْسًا"**[110]

التأمل: يبين لنا هذا الحديث عِظَم الثقل الروحي للقربان. فالله لا ينظر إلى الذبح من جانبه المادي فقط، بل إلى إخلاص القلب قبل كل شيء. وفي زمن تغلب فيه الرمزية أحيانًا على الجوهر، تذكرنا هذه الرواية بأن الأضحية ليست مجرد عادة، بل فعل تسليم، ومحبة، واتصال بالله. إنها استثمار للآخرة قبل أن يصل الدم إلى الأرض.

المعنى العام للحديث: آدمي: ابن آدم، إهراق الدم: صبه، أن الأضحية عندما يُراق دمها تأتي يوم القيامة كما كانت في الدنيا من غير نقصان، ليكون بكل عضو منها أجر، وأن الذبيحة تُقبل عند الله قبل أن يقع دمها على الأرض، من أجل ذلك فلتكن أنفسكم بالتضحية طيبة مبادرة لها غير كارهة.

5.4 الطبقة التأملية:

القربان يعلّمنا أن نعطي ما نحب، كما كان إبراهيم عليه السلام مستعدًا لأن يضحي بابنه. لكننا نرى اليوم أن جوهر هذه الشعيرة يضيع أحيانًا في المظاهر، أو المكانة، أو السهولة. فبعض الناس لا يريدون إلا فيديو

[109] سنن ابن ماجه، حديث رقم (3123).

[110] سنن الترمذي، حديث رقم (1585).

لبقرتهم، أو لوحة باسمهم، أو صورة مع الحيوان، من غير تأمل حقيقي، ومع ذلك، يبقى القربان فرصة قوية لإعادة تشكيل أنفسنا:

• **الآباء والأمهات:** علّموا أبناءكم لماذا نضحي. لا تشرحوا لهم فقط ماذا نفعل، بل لماذا نفعله. اجعلوا منه لحظة تأمل عائلي.

• **المجتمعات:** شجعوا الناس على المشاركة في الأضحية بشكل جماعي، ولو كان ذلك رمزيًا، وأبرزوا معاني الوحدة والتضامن.

• **المؤسسات:** لا تركّزوا فقط على الظهور أمام المتبرعين، بل على التحول الروحي الذي يمكن أن يُحدثه القربان، في المعطي وفي المتلقي معًا.

رؤية المذاهب الفقهية والواقع في أوروبا:

لكن القربان في أوروبا يواجه قيودًا قانونية وتغيرات اجتماعية، وهذا يفرض إعادة نظر جديدة في كيفية عيش هذه العبادة وتطبيقها، وتختلف المذاهب الفقهية في حكم الأضحية:

• الحنفية يرون أن القربان واجب على مَن كان قادرًا ماليًا عليه.
• أما المالكية، والشافعية، والحنابلة، فيرونه سنة مؤكدة، وتركه مكروه، لكنه ليس بالضرورة معصية.

لكن الأهم من هذا الخلاف الفقهي هو المقصد الكامن وراء الأضحية: فهي شُرعت بوصفها تسليمًا روحيًا، وصورةً من صور التضامن الاجتماعي مع الفقراء. وفي سياقات مثل بلجيكا، حيث فُرضت قيود شديدة على الذبح الحلال، وحيث يقل عدد المحتاجين المحليين، يبرز السؤال: كيف نظل أوفياء لروح الأضحية؟

والعلماء يقدمون توجيهًا في ذلك:

• فبحسب ابن تيمية وبعض العلماء المعاصرين مثل الشيخ ابن عثيمين[111]، يُفضَّل الذبح في المناطق التي يصل فيها اللحم فعلًا إلى الفقراء.
• كما أن نقل اللحم إلى بلدان أخرى جائز، وله سوابق عند الصحابة.

[111] ابن عثيمين: الشيخ محمد بن صالح العثيمين، علامة إسلامي وفقيه سعودي، ويُعد من أبرز علماء أهل السنة والجماعة في العصر الحديث.

• وقد أشارت فتاوى متعددة، منها فتاوى المجلس الأوروبي للإفتاء، والشيخ القرضاوي[112]، إلى أن الذبح تحت الإلزام بالصعق إذا كان يُخلّ بشروط الحلال، فالأفضل تجنبه.

ولهذا يختار كثير من المسلمين أن يقدّموا أضحيتهم عبر مؤسسات موثوقة في إفريقيا أو الشرق الأوسط. وهذا لا يضمن فقط صحة التنفيذ، بل يحقق أيضًا أثرًا مباشرًا عند أشد الناس حاجة. وفي Gardens of the Sincere، تُنفَّذ كل أضحية وفق الشريعة، مع شفافية كاملة، وإشراف محلي، وتوزيع على الأشد فقرًا.

5.5 الخاتمة:

القربان ليس واجبًا شكليًا، ولا عادةً سنوية، ولا لحظةً تسويقية، بل هو اختبار للإخلاص والتسليم. وسواء كنت تملك الكثير أو القليل، وسواء كنت في بلجيكا أو في ماليزيا، فلكل أحد إمكانية المشاركة. فبمبلغ 80 يورو فقط، يمكنك أن تساهم بالفعل في قربان في إفريقيا وتطعم آلاف الناس. لكن الأهم من ذلك: أنك تغذي روحك أنت أيضًا. لأن من يضحي حقًا، بقلبه، وفعله، ونيته، يقترب أكثر من ربه، وكلما تقرب الإنسان من ربه بالطاعات، كان الله بقربه دوماً وقت الشدة ووقت الرخاء، وما يقدمه الإنسان لربه لا يؤخذ بشكله ولا لونه، وإنما ينظر إلى قلبه، لذا نجد ذلك في حديث النبي صلى الله عليه وسلم عندما قال: "**إن الله لا ينظر إلى صوركم وأجسادكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم.**"[113]
والمعنى الأساسي لهذا الحديث هو أن مقياس التفاضل والقبول عند الله عز وجل ليس بالمظاهر الخارجية، أو الأنساب أو الثروة، بل هو الإيمان الكامل في القلوب والنية الصادقة المرافقة للأعمال.

الفصل 6 (رمضان) صيام بلا تقوى:

6.1 الملاحظة:

نحن نعيش في زمنٍ نادرًا ما يُظهر فيه رمضان جوهره الحقيقي. فكثير من المسلمين يصومون، لكنهم لا يصلون. وما زالوا يسبّون، ويتحدثون في أعراض الناس، وينغمسون في البرامج والمسلسلات، ومباريات كرة القدم. يقول أحدهم: "أنا صائم، أما الصلاة؟ فسأقضيها لاحقًا." أو أسوأ من ذلك: "هناك مباراة في دوري

[112] القرضاوي: الشيخ يوسف عبد الله القرضاوي، عالم مصري ويُعد أحد أشهر فقهاء ودعاة الفكر الإسلامي المعاصر، أسس الإتحاد العالمي لعلماء المسلمين، واشتهر بمنهجه الفقهي القائم على الوسطية والتيسير.

[113] صحيح مسلم، حديث رقم (2564).

الأبطال هذه الليلة، لذلك يمكنني أن أترك الصلاة." أو ما هو أسوأ: "عندي مباراة اليوم، لذلك لن أصوم اليوم، وسأقضيه لاحقًا."

وغالبًا ما يُختزل رمضان إلى برنامج حمية، أو إلى احتفال ثقافي مليء بالطعام والزيارات الاجتماعية، من غير أن يمسّ جوهر هذا الشهر: التقوى، وضبط النفس، والمغفرة، والاتصال بالقرآن الكريم.

وفي التعليم الإسلامي ألاحظ أن كثيرًا من الشباب لا يعرفون أصلًا لماذا نصوم. فهم يعرفونه كطقس، لكنهم لا يعرفونه كتدريب روحي. وبعد رمضان؟ يعود كل شيء كما كان. لا تغيير، ولا نمو، ولا صلة جديدة بالله.

ونسمع أيضًا، مع الأسف، من يتعامل مع قضاء يوم من الصيام وكأنه أمر هيّن. لكن من أفطر عمدًا في رمضان من غير عذر شرعي، فقد ارتكب خطأً جسيمًا. وحتى صيام ستين يومًا ككفارة، كما في حال الجماع في نهار رمضان، لا يعوّض ذلك اليوم بالكامل. وهذا يبيّن كم هو ثقيل في الميزان ترك يوم واحد من الصيام.

وفي السابق، كان يُستعمل مصطلح "مسلم رمضان" لمن لا يظهر في المسجد إلا في هذا الشهر. وهذه الفئة ما زالت موجودة: إخوة وأخوات يغيبون بقية السنة، لكنهم في رمضان يملؤون صفوف الصلاة كل ليلة. وأنا شخصيًا أرى كل سنة وجوهًا تظهر من جديد لم أرها في المسجد منذ شهور طويلة. بل حتى بعض الأئمة الذين يقودون التراويح يختفون بعد ذلك، وكأن رمضان دور مؤقت يتقمصه الإنسان لبعض الوقت، ثم... صمت، لكن "مسلم رمضان" اليوم قد يكون شيئًا إيجابيًا نسبيًا. لأننا انحدرنا خطوة أخرى: فعدد متزايد من المسلمين يتركون رمضان يمر عليهم وكأنه شهر عادي. لا صيام، ولا مسجد، ولا قرآن. ولا أي علامة على انخراط روحي.

وفي أحد الأيام كنت في إسطنبول[114] خلال رمضان، وهي مدينة كانت يومًا رمزًا للعظمة الإسلامية. وما رأيته هناك كان صادمًا: أناس يأكلون ويشربون علنًا في وضح النهار، كأن رمضان غير موجود. وزرت المسجد في ساحة تقسيم[115] لصلاة التراويح، فلم أجد إلا بضعة صفوف، بينما كانت الشوارع في الخارج ممتلئة بالمتسوقين، والمثلجات، وصور السيلفي، والازدحام السياحي. وفكرت في نفسي: في هذه اللحظة نفسها، يوجد في مسجدٍ في غنت[116] عدد أكبر من الناس مما يوجد هنا، ماذا حدث؟ كيف انحرفنا إلى هذا الحد حتى

[114] إسطنبول: أكبر مدينة في تركيا، مدينة حديثة كانت تسمى قديماً بيزنطية، قسطنطينية، مركز اقتصادي وتاريخي وثقافي للبلاد، تمتد على مضيق البسفور، وتقع في أوروبا وآسيا، تعد مدينة كبرى.

[115] تقسيم: ميدان في إسطنبول في تركيا، يمثل مركز المدينة الحديثة، يوجد فيه نصب الجمهورية.

[116] غنت: خنت مدينة بلجيكية وعاصمة مقاطعة فلاندر الشرقية، تقع على بعد 50كم من بروكسل.

أصبح رمضان عند الكثيرين أقرب إلى الثقافة منه إلى العبادة؟ ومع ذلك ما إن يأتي عيد الفطر، حتى يقف أولئك الناس أنفسهم في الصفوف الأولى، بأجمل ثيابهم، مبتسمين وفخورين. لكن لماذا يحتفلون به؟ أبشهرٍ من الجهد، والعبادة، والانضباط الذاتي، والقرآن؟ أم لأن العيد أصبح ذروةً ثقافية لا تتطلب أكثر من الحضور والتقليد؟ يريد هذا الفصل أن يعود إلى جوهر رمضان: لا بوصفه ظاهرة ثقافية، بل بوصفه شهر التقوى، والتزكية، والصلاة، والصيام، والرجوع إلى الله. شهرًا تُفتح فيه أبواب السماء، لكن علينا نحن أن نختار الدخول.

6.2 الآيات القرآنية:

الآية الأولى: قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ**﴾[117]

- ابن عاشور: يوضح أن "لعلكم تتقون" هي الغاية النهائية من الصيام: تنمية كابح داخلي في النفس. فليس المقصود مجرد انضباط جسدي، بل تحوّل روحي.
- القرطبي: يقول: "الصيام مفتاح تزكية النفس. ولم يُفرض لأجل الجسد، بل لأجل القلب."
- الرازي: يلاحظ أن هذه التقوى لا تعني فقط الامتناع عن الطعام والشراب، بل أيضًا تهذيب اللسان، والعين، والقلب، والأفكار[118].

الآية الثانية: قال تعالى: ﴿**شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ**﴾[119]

- ابن عاشور: يربط بين نزول الوحي والصيام: فمن لا يسعى إلى فهم القرآن الكريم في شهر رمضان، فقد فاته جوهر الشهر.
- القرطبي: رمضان ليس شهرًا عاديًا، بل هو شهر الهداية، والحق، والعدل. ويصبح الصيام أعمق معنىً

[117] سورة البقرة، آية (183).

[118] انظر: الجامع والتحرير ومفاتيح الغيب، تفسير سورة البقرة.

[119] سورة البقرة، آية (185).

حين يقترن بالتأمل في القرآن.

• الرازي: يصف رمضان بأنه شهر استنارة، تتحرر فيه الروح من هيمنة الجسد.[120]

فبدل أن نضيّع الوقت في الطبخ، أو نتفليكس[121]، أو التمرير على الشاشات، ينبغي أن يكون هذا الشهر زمنًا لتجديد الصلة بالقرآن. لكن كم من البيوت تمتلئ في رمضان بالطعام والقيل والقال، بدل أن تمتلئ بالقرآن والذكر؟

الآية الثالثة: قال تعالى: ﴿**وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ...**﴾[122]

• ابن عاشور: يضع الآية عمدًا بين آيات الصيام، لأن قرب الله يُحَسّ به على وجه خاص في هذا الشهر.

• القرطبي: يقول إن قرب الله لا يحتاج إلى واسطة. فالدعاء صلة مباشرة بالرب.

• الرازي: يسمي هذه الآية قلب رمضان، اللحظة التي تنفتح فيها الروح وتتصل بمصدر الرحمة.[123]

الآية الرابعة: قال تعالى: ﴿**أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم فتاب عليكم وعفا عنكم**﴾[124].

• ابن عاشور: يوضح أن هذا الإذن تخفيف ورحمة من الله للمؤمنين. ففي بداية الإسلام، كان ممنوعًا على الصائم إذا نام ثم استيقظ ليلًا أن يجامع زوجته. فلما شقّ ذلك على الصحابة، أنزل الله هذا التيسير. ويرى ابن عاشور أن هذه الآية تظهر أيضًا أن الشريعة قائمة على الحكمة المتدرجة ومراعاة طاقة الإنسان. كما تعلّمنا هذه الخاتمة أن صفاء الصيام ينبغي أن ينعكس كذلك في العلاقة الحميمة وفي الحياة الأسرية، وهذه الاستعارة تؤكد الحماية، والقرب، والمحبة بين الزوجين.

---

[120] انظر: الجامع والتحرير ومفاتيح الغيب، تفسير سورة البقرة.

[121] نتفليكس: منصة عالمية رائدة تقدم خدمة بث ترفيهي عبر الأنترنت.

[122] سورة البقرة، آية (186).

[123] انظر: الجامع والتحرير ومفاتيح الغيب، تفسير سورة البقرة.

[124] سورة البقرة، آية (187).

• القرطبي: يؤكد أن هذا التخفيف علامة على علم الله بطبيعة الإنسان. وينقل عن بعض الصحابة كيف عبّروا عن حيائهم من أفعالهم قبل نزول هذه الآية، وكيف قابل الله صدقهم بالفتح والتيسير. ويقول أيضًا إن هذه الآية تبين كيف تراعي الشريعة في الإسلام الجانبين الجسدي والروحي للإنسان، ويشير إلى أن رمضان لا يعني أن نبتعد عن أسرنا، بل على العكس: هو شهر لتقوية الروابط.

• الرازي: يتناول الرازي لفظ "الرفث"، الذي يدل على العلاقة الجنسية، لكنه ذُكر في القرآن بطريقة محترمة. ويؤكد أن الإسلام يعترف بحاجات الإنسان، لكنه يحيطها بالأدب والتوقيت المناسب. كما يلاحظ أن هذه الآية لا تجعل ليالي رمضان خالية من مراقبة الله، بل تفتح مجالًا للمودة في إطار الحلال، ويشدد على التوازن بين التفاني الروحي والمسؤولية الأسرية. فمن يهمل أسرته من أجل العبادات، لم يفهم توازن الدين.[125]

وفي هذه الآية نرى انتقالًا من الزهد الروحي إلى اللين الأسري. فرَمضان ليس شهر إهمال الزوج أو الزوجة أو الأطفال. بل هو شهر اللطف المتبادل والمغفرة. فالرجال الذين يقضون الليالي في المسجد لكنهم يفقدون صبرهم في البيت، قد فاتهم المقصد. وكذلك النساء اللواتي يُنهكن أنفسهن في الطبخ حتى يفقدن المعنى الروحي.

6.3 تأمل في الحديث:

الحديث: قال النبي ﷺ: "**الصِّيَامُ جُنَّةٌ، فَإِذَا كَانَ أَحَدُكُمْ صَائِمًا فَلَا يَرْفُثْ[126] وَلَا يَجْهَلْ، فَإِنِ امْرُؤٌ قَاتَلَهُ أَوْ شَاتَمَهُ، فَلْيَقُلْ: إِنِّي صَائِمٌ.**"[127]

التأمل: يوضح هذا الحديث أن الصيام شُرع بوصفه تدريبًا روحيًا. لا ليمنع أجسادنا من الطعام فقط، بل ليهذّب أهواءنا قبل كل شيء. فكون الإنسان لا يأكل في النهار لا يعني تلقائيًا أنه ينمو روحيًا. وما دام الصيام لا ينعكس في السلوك، والكلام، وضبط النفس، فإنه لا يكون إلا حمية من الجوع.

المعنى العام للحديث: إذا تعرض الصائم للإعتداء سواء بالسب والشتم، أو بالقتال والخصومة فيعطي إشعاراً للنفس وتذكير لها بحرمة هذا الشهر، وإعلان للطرف الآخر بترك الرد بالمثل والتعفف عن المشاحنة، فالصوم

[125] انظر: الجامع والتحرير ومفاتيح الغيب، تفسير سورة البقرة.

[126] الرفث: الكلام الفاحش والبذيء، والجهل: الأفعال السيئة والمذمومة كالغضب.

[127] صحيح البخاري، حديث رقم (1894).

الحقيقي يتطلب من المسلم كف لسانه وبصره وجميع جوارحه عما حرم الله تعالى، لكي لا يخدش صومه أو يُبطل ثوابه العظيم.

لكننا نرى اليوم كثيرًا من العكس: أناس يصومون نهارًا، لكنهم لا يضبطون ألسنتهم، ويخاصمون، ويغتابون، وينفجرون لأتفه الأسباب. وقد شُرع الصيام ليحصّننا من هذه الميول.

يجب على المسلم في رمضان أن يقلّ كلامه، ويزيد تفكّره، ويقلّ شكواه، ويزيد شكره، ويقلّ أكله، ويزيد عطاؤه، ويقلّ نومه، ويزيد تلاوته للقرآن.

6.4 الطبقة التأملية:

رمضان ليس شهرًا تُنال فيه الأجور تلقائيًا بلا جهد. بل هو شهر التغيير الواعي. فمن امتنع عن الطعام والشراب فقط، لكنه استمر في الغيبة، والغضب، والكسل، والتفريط في الصلاة، أو الإدمان على الشاشات، فقد يكون أتم الصيام من الناحية الشكلية، لكنه أهمله من الناحية الروحية.

إن القرآن يعلّمنا أن غاية الصيام هي التقوى، أي الوعي بالله. وهذا ليس شيئًا ينشأ من تلقاء نفسه، بل شيء يُبنى من خلال المحاسبة الذاتية، والتسليم، والصلاة، والانضباط. فالصيام ليس جسديًا فقط، بل هو عاطفي، ونفسي، وروحي أيضًا. وهذا يتطلب صمتًا، ونقدًا للذات، وطلبًا للمغفرة، وسعيًا لإصلاح العلاقات المنكسرة.

ويجب أن ندعو الشباب، والآباء، وحتى جماعات المساجد، إلى أن يعيشوا هذا الشهر بطريقة مختلفة:

- لا كسلسلة من الولائم الاجتماعية، بل كفرصة للتجدد الروحي.
- لا كذريعة للكسل أو للسهرات المليئة بالألعاب والمسلسلات، بل كلحظة لضبط النفس والاتصال العميق بالقرآن الكريم.
- لا كواجب سنوي"، بل كتدريب داخلي نطهّر فيه ألسنتنا، وأعيننا، وقلوبنا.

ويعلّمنا القرآن الكريم أيضًا أن الله تعالى قريب لكن هذا لا يعني أننا نعيش هذا القرب تلقائيًا. فالقرب من الله يقتضي منا أن نقترب نحن أيضًا. وفي رمضان تُفتح أبواب الرحمة على مصراعيها، لكن من لا يدخل من الباب يبقَ خارجه.

ويسمي الحديث الصيام "جُنّة"، أي درعًا، وستراً ووقاية، لكن الدرع لا ينفع إلا إذا استُعمل. فالصيام بلا ضبط للنفس يشبه إسقاط الدرع في أرض المعركة. ولذلك فإن رمضان تدريب على الأخلاق: على الصبر، واللطف، والمسامحة، والانضباط، والتواضع.

ويجب أن نشرح للأطفال والشباب أن رمضان ليس فلكلورًا، ولا مناسبة عائلية فيها المشروبات الحلوة والموائد الممتلئة فقط. بل هو معسكر روحي جاد، غايته أن يغيّرنا عما كنا عليه. وماذا عن البيت؟ إن القرآن يوضح أن الروحانية لا تتوقف عند باب المسجد. فطريقة تعاملك مع أسرتك في رمضان جزء من تزكية نفسك أيضًا. فمن صام نهارًا ثم أهمل زوجه أو زوجته ليلًا، فقد أضاع التوازن. ومن أنهك نفسه في الطبخ أو أهمل شريكه من أجل مزيد من الصلاة، فقد غاب عنه المعنى الكلي. فرَمضان هو حبٌّ متوازن، وروحانية متزنة، وأسرة منسجمة.

6.5 الخاتمة:

رمضان ليس شهر التعب، ولا ضغط الطبخ، ولا التظاهر الروحي. بل هو شهر التزكية، والاتصال بالله، وإعادة البناء الداخلي. فالصيام شُرع ليعلّمنا ما هو الأهم حقًا: ترك الشهوات، وكفّ اللسان، وفتح القلب، واحتضان القرآن، فمن ملأ أيام رمضان بالجوع، لكنه لم يحفظ لسانه، ولم يغضّ بصره عن الحرام، وأهمل الصلاة، فقد فاته مقصد الصيام. ومن لم يفتح القرآن، ولم يقوّ أسرته، ولم يكثر من الدعاء، فقد فاتته حقيقة قرب الله، والتقوى هي ثمرة هذا الشهر. لكنها لا تظهر فقط في المسجد أو عند مائدة الإفطار، بل في طريقة تفكيرنا، وكلامنا، وحياتنا، قبل رمضان، وأثناءه، وبعده، وكما يختم القرآن الحديث في هذه الآيات بذكر المحبة والقرب داخل الأسرة، فعلينا نحن أيضًا أن نفهم أن رمضان ليس انسحابًا من العالم، بل تدريبًا على أن نعيش الحياة بعمقٍ أكبر، ومحبةٍ أصدق، واختياراتٍ أكثر وعيًا.

الفصل 7 (الحج والعمرة بين الفرض، والتأجيل)، والتحول الداخلي:

7.1 الملاحظة:

في الغرب، يؤجل كثير من المسلمين الحجّ عن وعي. وكثيرًا ما ينظرون إليه كأنه نوع من "الحيلة الدينية": "سأنتظر حتى أكبر في السن، وعندها تُغفر لي كل ذنوبي." وهذا المنطق خطير. فماذا لو أدركهم الموت قبل أن يؤدوا ما وجب عليهم؟ وكثيرًا ما يخبرني التلاميذ بقولهم:

أولًا الدراسة، ثم ادخار المال لشراء سيارة، ثم بيت، ثم الزواج، ثم الأولاد، وبعدها ربما الحج." وفي أثناء ذلك: سفرٌ سنوي إلى تركيا وغيرها، وإنفاقٌ على الرفاهية والاستجمام، مع أنهم في الحقيقة مستوفون لشروط أداء الحج، والواقع هو أن معظم الشباب في أوروبا قادرون ماليًا على الحج، لكنهم يؤجلونه بسبب اختلال الأولويات. ويُضاف إلى ذلك أن الأثر الروحي للحج أو العمرة يضيع في كثير من الأحيان. ومن خلال تجربتي كمرافق للعمرة، أرى كيف أن بعض الناس يعودون بعد رحلتهم، ثم خلال أشهر قليلة فقط يرجعون إلى عاداتهم القديمة. فتصبح الرحلة أحيانًا طقسًا خارجيًا من غير تحول داخلي، وتُطرح أيضًا اعتراضات أخلاقية، مثل قول بعضهم: "لا أريد أن أذهب الآن، لأن السعودية تستثمر في أمريكا التي تمد إسرائيل بالسلاح..." ومع أن هذه المخاوف الأخلاقية مفهومة، فإن الحج يظل فريضة عند جمهور العلماء، ما دام الإنسان مستوفيًا للشروط.

7.2 الآيات القرآنية:

الآية الأولى: قال تعالى: ﴿**وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ**﴾[128]

- يرى ابن عاشور أن هذا الوجوب موجَّه إلى كل مسلم قادر بدنيًا وماليًا، من غير تأخير غير مبرر.

فالتأجيل من دون عذر صحيح يدل على ضعف في الإيمان. ويؤكد أن أداء الحج يقوّي الصلة الداخلية العميقة بين العبد وربه، بوصفه تجسيدًا عمليًا للتوحيد.

- ويقول القرطبي إن الله قرن ترك الحج بالكفر من جهة كونه صورة من صور الجحود، وكأن الإنسان لا يقدّر أوامر الله حق قدرها.

- ويذكر الرازي أن "السبيل" لا يعني فقط القدرة الجسدية على الوصول، بل يشمل أيضًا الاستعداد الروحي. ومن يؤجل الحج يستخف بقيمة صلته بالله. كما يعتبر الحج تدريبًا على التوكل، من خلال مفارقة الراحة، والأهل، والترف.[129]

---

[128] سورة آل عمران، آية (97).

[129] انظر: الجامع والتحرير ومفاتيح الغيب، تفسير سورة آل عمران.

7.3 تأمل في الحديث:

الحديث الأول: قال النبي ﷺ: **"بُنِيَ الإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ: شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلٰهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، وَإِقَامِ الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، وَالْحَجِّ، وَصَوْمِ رَمَضَانَ"**[130]

التأمل: لم يُذكر الحج في أركان الإسلام الخمسة بوصفه أمرًا زائدًا أو ثانويًا، بل هو جزء أساسي منها. والنبي ﷺ لم يؤجله، رغم أن حياته كانت مليئة بالابتلاءات. فما الذي يمنعنا نحن إذًا؟ الراحة؟ الخوف من التغيير؟ أم اختلال الأولويات؟

المعنى العام للحديث: هو أصل عظيم يوضح قواعد الدين، شبه النبي ﷺ الإسلام بالبناء العظيم الذي يقوم على دعائم وأركان، فإذا سقط أحد هذه الأركان اختل البناء أو سقط، ويدل الحديث على أن الإيمان ليس مجرد اعتقاد قلبي فحسب، بل هو قول باللسان واعتقاد بالجنان (القلب)، وعمل بالجوارح (الأركان العملية).

الحديث الثاني: قال النبي ﷺ: **"أَيُّهَا النَّاسُ... قَدْ فَرَضَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ الْحَجَّ فَحُجُّوا فقال رجل: أكل عام يا رسول الله؟ فسكت حتى قالها ثلاثاً، فقال رسول الله ﷺ لو قلت نعم لوجبت، ولما استطعتم."**[131]

التأمل: أكّد النبي ﷺ وجوب الحج، لكنه أظهر كذلك رحمة الله: فقد فُرض الحج مرةً واحدة فقط في العمر، لمن استطاع إليه سبيلًا. أما تأجيله بلا عذر صحيح فهو علامة على التهاون في أمر الدين.

المعنى العام للحديث: أجمع العلماء على أن الحج واجب على كل مسلم ومسلمة، عاقل، بالغ، قادر مالياً وجسدياً، ويملك زاداً وراحلة. وفي الحديث إعلان نبوي بوجوب الركن الخامس من أركان الإسلام، ويدل الحديث على أن الحج واجب على الفور أو التراخي لمن استطاع إليه سبيلا وأنه فريضة العمر مرة واحدة وما زاد فهو تطوع.

7.4 الطبقة التأملية:

الحج ليس رحلةً من أجل تذكار، ولا رمزًا للمكانة الاجتماعية، إنه انقلاب روحي على الأنا. فنحن جميعًا نرتدي اللباس نفسه (الإحرام)، ونقف في المكان نفسه (عرفة)، ونردد الكلمات نفسها (لبيك).

---

[130] صحيح البخاري، حديث رقم (8).

[131] صحيح البخاري، حديث رقم (7288)، صحيح مسلم، حديث رقم (1337).

إنه بداية جديدة قصوى، لكنه لا يكون كذلك إلا إذا اقترن بالتأمل والإخلاص، ومن خلال تجربتنا كمؤسسة، نرى أن الكثير ممن يذهبون في سن مبكرة يمرّون بتحول حقيقي. فلماذا ننتظر حتى سن الستين، بينما يمكن للقلب أن يتطهّر في الخامسة والعشرين؟ كما أن ظاهرة تحوّل العمرة إلى "رحلة مدينة دينية" تستحق الوقوف عندها. فوسائل التواصل الاجتماعي ممتلئة بصور السيلفي في لباس الإحرام. لكن أين الخشوع؟ أين الدعاء الصامت عند الكعبة؟ أين دمعة التوبة؟

7.5 الخاتمة:

الحج فريضة، وليس خيارًا فاخرًا. وتأجيله بلا سبب هو علامة على ضعف الأولويات. والتحول الداخلي هو الغاية، لا مجرد إكمال قائمة من الأعمال. فالعمرة والحج يحتاجان إلى إعداد القلب والروح، لا إلى المال فقط. وينبغي تشجيع الشباب على أدائهما في وقت مبكر من حياتهم. ولا يجوز أن يكون الانزعاج الأخلاقي سببًا لإهمال الواجبات؛ ﴿**وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ**﴾[132]

المحور 2 – النموّ النفسي والروحي

الفصل 8 (الابتلاءات) الثبات في قلب العاصفة:

8.1 الملاحظة:

نحن نعيش في هذه الدنيا وكأننا جميعًا على قوارب صغيرة وسط بحر هائج. لا أحد يُستثنى. بعض القوارب أكبر أو أشد متانة، وبعضها الآخر مثقوب ومتهالك. لكن العاصفة تصيب الجميع. صغيرًا كان أو كبيرًا. غنيًا أو فقيرًا. مسلمًا أو غير مسلم. لا أحد يخرج من الحياة سالمًا تمامًا من الجراح، وما رأيته خلال سنواتي كمعلمٍ للإسلام، وعاملٍ إنساني، ومسافر، هو أن الابتلاء يتجلى في صور متعددة، لكنه يُشعَر به في كل مكان بالثقل نفسه. فقد يكون طفلٌ لم يتجاوز الحادية عشرة من عمره، من غير صدمات كبيرة ظاهرة، يعيش صراعًا داخليًا مع نفسه ويتساءل: "ما فائدة هذه الحياة؟" و"لماذا أنا هنا؟" ومن غير أن يلحظه أحد، يعاني من فقدانٍ عميق للثقة بالنفس، من غير لغةٍ يعبّر بها عن ذلك، ومن جهة أخرى، أسمع كل أسبوع قصصًا عن بالغين يعانون منذ سنوات من مشاكل زوجية، أو وجدوا أنفسهم في طلاق صراعي مرير. بعضهم أسرى اكتئاب لا يفهمه أحد، وآخرون يعيشون حرفيًا كل يوم في خوف. وأعرف أشخاصًا لم يذوقوا النوم الجيد منذ أكثر من عشر سنوات، لأنهم يعتقدون أنهم يُزارون كل ليلة من الجن. وهناك إخوة وأخوات آخرون يعانون

[132] سورة آل عمران، آية رقم (97).

من مشاكل صحية تُربك حياتهم بالكامل: آلام مزمنة، أمراض نادرة، شلل، أدوية ثقيلة، وانهيارات نفسية... ثم هناك البُنى الكبرى التي يولد الناس داخلها. ففي إفريقيا مثلًا، رأيت كيف تقضي العائلات كل صباح ثلاث ساعات في طريقها لجلب الماء. فالحاجات الأساسية مثل الماء، والطعام، والمأوى، تستهلك من الوقت والطاقة ما لا يترك إلا القليل جدًا للتعليم، أو تنمية المواهب، أو النمو الشخصي. كل شيء يذهب نحو البقاء، وفوق ذلك تأتي الكوارث الطبيعية: زلزال في تركيا وسوريا، وتسونامي في إندونيسيا، وفيضانات في باكستان، وهزة مدمرة في المغرب، حرب غزة التي أبادت الحجر والشجر ناهيك عن الإنسان، وكل واحدة من هذه الكوارث تترك آلاف الناس بلا عائلة، ولا بيت، ولا أمل.

ثم هناك المآسي التي يفتعلها البشر عمدًا: بالحروب، والمناورات السياسية، والظلم المتعمد. سوريا، واليمن، والروهينغا[133]، والإيغور[134]، والسودان[135]، وغزة... أناس يُهجّرون، ويُقصفون، ويُجوَّعون، أو يُتركون في النسيان. وأحيانًا تنظر إلى العالم فتسأل نفسك: كم يستطيع الإنسان أن يحتمل حقًا؟

الإيمان: المرساة في العاصفة

إذا كنا صادقين، فلكل إنسان عاصفته الخاصة. كل واحد يحمل معه شيئًا خفيًا لا يراه الناس. أحدهم يصارع الفقد، وآخر يصارع اليأس. لكن ما يحدد هل سيغرق الإنسان أم لا، ليس حجم العاصفة، بل قوة المرساة. وفي الإسلام، تلك المرساة هي: الإيمان. الإيمان بالله، وبحكمته، وبتدبيره، ووعده.

الإيمان هو الذي يجعلك تبقى طافيًا. وهو الذي يجعلك تجتاز الأمواج من غير أن تفقد بوصلتك. وهو الذي يجعلك تفهم أن الحياة على الأرض لم تُخلق لتكون جنة، بل لتكون ابتلاء. وأن هذه الدنيا مؤقتة. وأن المصيبة ليست عقوبة بالضرورة، بل كثيرًا ما تكون وسيلة يطهّرنا الله بها، ويصوغنا، ويقرّبنا إليه.

ثبات غزة: مثال للعالم

ولعل أهل غزة هم أجمل مثال على ذلك. فعلى الرغم من العنف الوحشي، والحصار الطويل، وانعدام الأفق، فإنهم يظلون راسخين في إيمانهم. لا يكثرون الشكوى. ولا يستسلمون. ولا يغرقون في الشفقة على

[133] الروهينغا: هم أقلية عرقية مسلمة تعيش في ميانمار (بورما) تعدهم الأمم المتحدة من أكثر الأقليات اضطهاداً في العالم.

[134] الإيغور: قومية تركية مسلمة تعيش في آسيا الوسطى، يتمركز غالبيتهم شمال غرب الصين، يعتنقون الإسلام.

[135] السودان: دولة عربية تقع في شمال شرق إفريقيا، عاصمتها الخرطوم.

الذات. أطفالهم يحفظون القرآن بين الأنقاض. ونساؤهم يصلين وهن يعلمن أن القنبلة التالية قد تسقط في أية لحظة. ورجالهم يبكون في الدعاء وكأنهم على عتبة الآخرة.

إن قوتهم مدهشة إلى درجة أن أناسًا في الغرب يدخلون الإسلام فقط لأنهم رأوا صبرهم وتوكلهم. فهم يفقدون أفرادًا من عائلاتهم، لكنهم يحتفظون بكرامتهم. ويدفنون أبناءهم، لكنهم لا يفقدون رجاءهم. فما الذي يُبقيهم واقفين؟ لا المال. ولا الأمان. ولا المساعدة الدولية. بل الإيمان فقط بالله وحده، وأن الله سبحانه وتعالى لن يضيع صبرهم هباء منثورا، إنها الثقة بالله سبحانه وتعالى، وبنصر الله لهم فإما النصر وإما الشهادة في سبيل الله، هم يؤمنون بالآية العظيمة التي تنطبق عليهم، حيث قال تعالى: ﴿**وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَ�ٰجِعُونَ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ**﴾[136]

هذه الآية العظيمة في معانيها، الكبيرة في عوضها، تخبرنا أن الابتلاء سنة من سنن الحياة، يختبر الله بها صبر المؤمنين، وتتنوع بين الخوف والجوع ونقص الأموال والأنفس والثمرات وتُبشر الصابرين بأعظم الجزاء.

8.2 الآيات القرآنية:

الآية الأولى: قال تعالى: ﴿**مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ**﴾[137]

• يقول ابن عاشور إن هذه الآية تعلمنا أن كل ابتلاء، مهما صغر أو كبر، لا يقع إلا بإرادة الله. فليس الأمر صدفة، ولا فوضى عمياء. بل إن الله يقدّره لغرض: ليشكّل القلوب، أو يقوّي الأرواح، أو يمحو الذنوب.

• ويؤكد القرطبي أن إيمان الإنسان في تلك اللحظة أمر حاسم. فمن يؤمن بالله يجد السكينة في قلبه، لأنه يعلم أن الله لا يقدّر شيئًا بلا حكمة.

• ويرى الرازي أن هداية القلب هنا لا تعني فقط أن يفهم الإنسان أن الابتلاء من الله، بل أن يتعلّم أيضًا كيف يتعامل معه: بالصبر، والرجاء، والتسليم.[138]

---

[136] سورة البقرة، آية (155،156).

[137] سورة التغابن، آية (11).

[138] انظر: الجامع والتحرير ومفاتيح الغيب، تفسير سورة التغابن.

وعندما يُصاب الناس بمرض، أو فقد، أو ألم نفسي، أو خوف، فإن رد فعلهم الأول غالبًا ما يكون: "لماذا أنا؟" لكن هذه الآية تعلّمنا أن السؤال ليس "لماذا؟" بل "ماذا ستفعل بهذا؟" فالاختبار الحقيقي هو: هل ستبقى واثقًا بالله؟ وعندها يَعِد الله أن يهدي قلبك.

الآية الثانية: قال تعالى: ﴿**مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍۢ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِير لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ**﴾[139]

"ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها، إن ذلك على الله يسير. لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم، والله لا يحب كل مختال فخور."

• يوضح ابن عاشور أن هذه الآية تعلمنا كيف نعيش بتوازن: لا حزنًا مفرطًا عند الفقد، ولا تكبرًا عند النجاح. فكل شيء معلوم عند الله ومقدّر بإرادته.

• ويرى القرطبي في هذه الآية دعوة إلى التواضع: فالحياة ليست بالكامل في أيدينا. ومن يقبل ذلك يتحرر من الندم، ومن الزهو الفارغ.

• ويربط الرازي هذه الآية بمفهوم الرضا، أي الرضا بقضاء الله. ويقول إن من يبلغ هذا الرضا يرتفع فوق عواصف الدنيا.

وتذكرنا هذه الآية بأن حتى أشد ابتلاءاتنا كانت معلومة عند الله منذ زمن طويل، قبل أن نشعر بها. فهي ليست خطأ، ولا صدفة. بل جزء من قصة أكبر قد لا نُحيط بها كاملة، لكن الله يحيط بها إحاطةً تامة.

الآية الثالثة: قال تعالى: ﴿**وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ**﴾[140]

"ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات، وبشر الصابرين. الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون. أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة، وأولئك هم المهتدون."

---

[139] سورة الحديد، آية (22).

[140] سورة البقرة، آية (155_157).

• يقول ابن عاشور إن الله في هذه الآية صريح: الابتلاءات جزء من الحياة. لكنه يبين كذلك المفتاح: الصبر، والاعتراف الداخلي بأن كل شيء راجع إلى الله.

• ويؤكد القرطبي أن من يقول الكلمات بإخلاص في لحظة المصيبة، يُكافأ بالسكينة، والهداية، ومحبة الله.

• ويسمي الرازي هذه الآية أساسًا من أسس المرونة الروحية، لأنها تعلّمنا كيف يمكن للحزن أن يتحول إلى عبادة عندما نحمله ونحن متصلون بالله.[141]

فهذه الآية تعترف بألمنا. وهي لا تنكر واقع الفقد. لكنها تمنحنا كلمات ترفعنا من اليأس. لا: "لماذا حدث لي هذا؟" بل: "إنا لله وإنا إليه راجعون." وهذه الجملة ليست نظرية. بل هي انتقال داخلي من الذعر إلى التسليم.

الآية الرابعة: قال تعالى: ﴿**لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا**﴾[142]

• يبين ابن عاشور أن هذه الآية تُظهر عدل الله العميق ورحمته. فكل اختبار، وكل ألم، وكل تحدٍّ يمر به الإنسان، مهما بدا ثقيلًا، يقع ضمن حدود ما يستطيع احتماله، حتى لو لم يصدق هو ذلك. وهذا في الوقت نفسه عزاء ومسؤولية: فأنت قادر على التعامل معه. ولا تعني هذه الآية أن الابتلاء لا يبدو أبدًا فوق الطاقة، بل تعني أن الله لا يفرض على أحد واجبًا من غير أن يكون قادرًا على سلوك الطريق الصحيح فيه. فالابتلاء قد يكون قاسيًا: كالفقد، أو الإهانة، أو الجوع، أو الهجر... لكن الله لا يحاسبك على ما هو خارج عن قدرتك، بل على طريقة تعاملك مع الاختبار.

• ويشرح القرطبي أن "الوسع" لا يشير فقط إلى القوة الجسدية، بل أيضًا إلى الطاقة النفسية، والعاطفية، والروحية. فالله يعلم ما تطيقه. وإذا وقع هذا عليك، فمعناه أن في هذا الابتلاء أيضًا إمكانًا للنمو، والتطهير، والأجر. ولا ينبغي أن تُستعمل هذه الآية لتبرير المعاصي بقول: "كان الأمر أصعب من أن أتحمله." فعدل الله ينفي كل تكليف مستحيل حقًا، لكن الامتحان الحقيقي هو أن تبقى أمينًا لله في الشدة، لا أن تختار المعصية طلبًا للسهولة.

---

[141] انظر: الجامع والتحرير ومفاتيح الغيب، تفسير سورة البقرة.

[142] سورة البقرة، آية (286).

• ويؤكد الرازي أن هذه الآية تعترف أيضًا بالنفسية البشرية: فنحن كثيرًا ما نشعر بأننا غارقون، لكن الله لا يسمح بشيء إلا وفيه باب للخروج أو نوع من التخفيف. وهذه ليست دعوة إلى السلبية، بل إلى الثقة.[143]

فهذه الآية وعد واختبار في آن واحد. نعم، يجوز لك أن تشكو، وأن تبكي، وأن تتعثر. لكن لا يجوز لك أبدًا أن تقول: "لم يكن لدي خيار سوى السقوط في الخطأ." فخيار الصبر، والصلاة، والحق، يبقى دائمًا موجودًا. وحتى إذا بدا لك وكأنك تغرق، فإن الله لم يترك قاربك قط.

8.3 تأمل في الحديث:

الحديث الأول: قال النبي ﷺ: **"مَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يُصِبْ مِنْهُ"**[144]

التأمل: هذه الكلمة النبوية البسيطة لكنها عظيمة، تعلّمنا شيئًا يخالف منطق هذا العصر: أن المصيبة ليست بالضرورة عقوبة، بل قد تكون علامة محبة. فإذا أراد الله أن يطهرك، أو يرفعك، أو يقرّبك إليه، فإنه يبتليك، لا ليكسرك، بل ليصوغك.

المعنى العام للحديث: يصب منه أي يبتليه بالمصائب ليثيبه عليها، أو يوجه إليه البلاء فيصيبه، ليثبه عليه، وليطهره من الذنوب، ويرفع درجته، وفي الحديث بشارة عظيمة لكل مؤمن، لأن الإنسان لا ينفك غالباً من ألم بسبب مرض أو هم أو نحو ذلك، وأن الأمراض والأوجاع والآلام بدنية كانت أو قلبية، تُكفر الذنوب.

الحديث الثاني: قال النبي ﷺ: **"مَا يُصِيبُ الْمُؤْمِنَ مِنْ نَصَبٍ[145] وَلَا وَصَبٍ[146] وَلَا هَمٍّ وَلَا حُزْنٍ وَلَا أَذًى وَلَا غَمٍّ حَتَّى الشَّوْكَةِ يُشَاكُهَا إِلَّا كَفَّرَ اللَّهُ بِهَا مِنْ خَطَايَاهُ"**[147]

التأمل: هذا الحديث تذكير رحيم من النبي ﷺ بأن كل صورة من صور المعاناة، مهما كانت صغيرة، لا تضيع عند الله. ووفقًا للقرطبي، ففي هذا عزاء عميق: فالله يحتسب حتى وخزة الشوكة وسيلةً للتطهير. لا دمعة، ولا صداع، ولا ليلة أرق تذهب سدى.

---

[143] انظر: الجامع والتحرير ومفاتيح الغيب، تفسير سورة البقرة.

[144] صحيح البخاري، حديث رقم (5645).

[145] النصب: التعب والمشقة في البدن.

[146] الوصب: المرض والوجع الدائم.

[147] صحيح البخاري، حديث رقم (5642)، صحيح مسلم، حديث رقم (2573).

المعنى العام للحديث: كل ما يمر به الإنسان من ابتلاءات، سواء كانت بدنية (كالمرض والتعب) أو نفسية (كالهم والحزن) هي بمثابة كفارة لسيئاته ومحواً لذنوبه، ويدل الحديث على سعة فضل الله تعالى حيث جعل حتى الأمور البسيطة التي لا يكاد يشعر بها الإنسان كشوكة يتألم منها، سبباً في تخفيف ذنوبه.

8.4 الطبقة التأملية:

إن الابتلاءات في هذه الحياة ليست فوضى. وليست عقوبة بالضرورة. بل هي دعوات. ونداءات. وإشارات. فكل ابتلاء، مهما كان قاسيًا أو غير مفهوم، هو فرصة للتوقف والتفكر في موضعك من الله.

أحيانًا تأتي المصائب كالرعد. فجأة. مدمرة. كفقدٍ، أو تشخيصٍ طبي، أو أزمة. وأحيانًا تأتي كقطرات متتابعة قليل من التوتر كل يوم، أو الحزن، أو الوحدة، أو الرتابة. لكن سواء كانت عنيفة أو صامتة، فهي جميعًا تضغط على الموضع نفسه: روحك. وعندها يأتي السؤال: إلى أين تذهب بهذا الألم؟

يقدم القرآن جوابًا واضحًا على ذلك فيقول الله سبحانه وتعالى: ﴿**يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة، إن الله مع الصابرين**﴾.[148]

انتبه: لم يقل "استعينوا بالحلول" أو "بتفهم الناس". بل قال: الصبر والصلاة. لماذا؟ لأن هذين المفتاحين يرفعانك فوق اللحظة. ويضعان ألمك داخل الصورة الأكبر. فالصبر ليس انتظارًا سلبيًا. بل هو احتمالٌ نشط مقرون بالثقة. هو أن تقول: "يا رب، أنا لا أدري ما الحكمة من وراء هذا الأمر، لكنني لا أستسلم لليأس."

والصلاة ليست مجرد طقس. إنها حبل نجاة. مرساة. وسيلة للكلام، والبكاء، والسؤال مباشرةً إلى الله.

وإذا اتخذت هذا الموقف، تبدأ المعجزة. عندها تتحقق لك بشارة في قوله تعالى: ﴿**ومن يؤمن بالله يهد قلبه**﴾[149] فمهما أصابك، إذا آمنت، إيمانًا حقيقيًا، فإن الله يأخذ قلبك بيده. وعندها لا تنهار. ولا تتفتت. بل تثبت، حتى وإن امتلأت عيناك بالدموع. ثم تأتي مباشرة الآية التي بعدها ﴿**وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول، فإن توليتم فإنما على رسولنا البلاغ المبين**﴾[150].

---

[148] سورة البقرة، آية (153).

[149] سورة التغابن، آية (11).

[150] سورة التغابن، آية (12).

وترتيب هذا المعنى ذو دلالة عميقة. فالله يعلمنا أولًا: كل ما يصيبك يقع بإذني. ثم يقول: إذا آمنت، هديتُ قلبك. ثم يقول: فاتبعني واتبع رسولي، فعندها تكون لك الوجهة الصحيحة في كل عاصفة.

وهذا يعني أن في الحزن نفسه نوعًا من الطاعة. وحتى في الألم ما زال بإمكانك أن تختار: هل أبقى متصلًا بالله، أم أنصرف عنه؟ فالإيمان لا يظهر فقط في أوقات الرخاء، بل يجب أن يثبت نفسه في أوقات الابتلاء.

إذًا، القرآن لا يعلّمنا كيف نتجنب الألم، بل كيف ننمو من خلاله. ويبين لنا أن الابتلاءات، مثل النعم تمامًا، يمكن أن تكون هي أيضًا شكلًا من أشكال الهداية.

وعلى خُطى النبي ﷺ

لقد فقد النبي ﷺ أبناءً. ورأى أحبةً يموتون. وتعرض للتهديد، والسخرية، والجراح، والخيانة. وعرف الفقر، والجوع، والحزن. ومع ذلك كان أكثر الناس شكرًا وثباتًا. صلى. وبكى. وقال عند الفقد: "**إن العين تدمع، والقلب يحزن، ولا نقول إلا ما يُرضي ربنا**[151]."

ذلك هو الإيمان، تلك هي حقيقة النضج الروحي. ليس ألا تبكي أبدًا، بل أن تعرف إلى أين تذهب بدموعك. إلى من يعانون في صمت أكتب هذا أيضًا لمن يصارع في صمت. لذلك الفتى ابن الحادية عشرة الذي يظل ليلًا يفكر في معنى الحياة. ولتلك الأخت التي تشعر بأنها غير مرئية في زواجها. لذلك الأب الذي يعمل منذ سنوات بآلام ظهره ليطعم أسرته. وللأرملة الشابة التي لم تعد حياتها كما كانت منذ ذلك الصباح.

لكل تلك الأرواح التي تمشي في النهار بابتسامة، بينما تعصف في داخلها عاصفة، اعلم أن الله يعلم تلك العاصفة. واعلم أنه أقرب إليك من أي أحد. واعلم أن دموعك ليست ماءً ضائعًا، بل وسيلة للتطهير. حتى الشوكة التي تجرحك تمحو من ذنوبك، وإذا شعرت يومًا: "لم أعد أحتمل. أنا أنكسر." فتذكر: أن القلوب المنكسرة هي القلوب التي يقترب الله منها أكثر من غيرها.

8.5 الخاتمة:

نلاحظ في هذا الفصل أن لا أحدًا يُعفى من الابتلاء. الأطفال، وكبار السن، والأسر، والشعوب بأكملها، كلهم يحملون أثقالهم الخاصة. ورغم اختلاف الصور، يبقى الشعور واحدًا: تعب، وحزن، وخوف، وفقد، وظلم.

[151] صحيح البخاري، حديث رقم (13).

فالحياة على الأرض ليست جنة، بل ممر واختبار. ولا يمنحنا القرآن في هذه العاصفة وعدًا بالراحة، لكنه يمنحنا الاتجاه. فالله يعلمنا أن المصائب ليست علامة رفض، بل علامة عناية. كل ألم معلوم. كل دمعة مرئية. وكل ابتلاء يفتح بابًا إلى شيء أكبر، إذا اخترنا أن نقترب من الله من خلاله.

الإيمان ليس ورقة تأمين ضد المصاعب. وليس تذكرة إلى حياة سهلة. لكنه هو الشيء الذي يُبقيك واقفًا حين يبدو كل ما حولك كأنه ينهار. هو معرفتك أن معاناتك ليست منسية عند الله، حتى وإن لم يفهمها أحد من الناس، وأحيانًا، يكون هذا وحده هو الذي ينقذك. ليس حل المشكلة، بل المعنى الذي تعطيه لها. ليس انتهاء العاصفة، بل السكينة في قلبك بينما الرعد لا يزال يدوي.

انظر إلى غزة. انظر إلى الأطفال الذين يضحكون بنصف رغيف، انظر إلى النساء اللواتي يصلين تحت الركام. انظر إلى الآباء الذين يدفنون أبناءهم بالدموع وبالأمل معًا. إن قوتهم لا تأتي من هذا العالم. بل تأتي من فوق، من قوة الإيمان، فالإيمان لا يجعل المعاناة وقتًا ضائعًا، بل يجعلها سلّمًا يصعد بك إلى الله. وعلى هذا السلم، قد تتعثر أحيانًا، وقد تبكي كثيرًا، لكنك تظل تصعد. فالعاصفة ليست ما يدمرك. بل هي ما يشكّلك، ومن جعل الله مرساته، فلن يغرق أبدًا.

الفصل 9 (الاكتئاب، والضعف النفسي) والسكينة عبر القرآن:

9.1 الملاحظة:

نحن نعيش في عصرٍ أصبح فيه القلق الداخلي هو الغالب. ففي عالمٍ مليئ بالتقدم التكنولوجي، والراحة، والوفرة، تبقى الأرواح فارغة. وخصوصًا في الغرب، لكن أيضًا بشكل متزايد في البلدان الإسلامية، يواجه الناس مشاعر العبث، والاضطراب، والضغط النفسي، بل وحتى اليأس، ووفقًا لأرقام حديثة، فقد بلغ المعدل في بلجيكا سنة 2021 نحو 3.8 حالات انتحار في اليوم، مما جعل الانتحار السبب الرئيسي للوفاة بين مَن تتراوح أعمارهم بين 15 و45 سنة. وهناك محاولات أكثر من ذلك بكثير. وهذه الأرقام مقلقة جدًا. والأشد إثارة للقلق أن هذا الاتجاه صار ظاهرًا أيضًا داخل المجتمع المسلم، إن كثيرًا من الشباب يعانون في صمت. فبعضهم يشعر بانعدام القيمة إذا فقد عمله أو انتهت علاقته. وآخرون يسقطون في الاكتئاب حين يعجزون عن بلوغ مستوى معين من الحياة أو الحفاظ عليه، وخلال أزمة كورونا[152] رأينا كم أصبحنا ضعفاء نفسيًا:

[152] كورونا: فيروس من الفيروسات التي تسبب أمراضاً كنزلات البرد، والالتهابات التنفسية الحادة، وقد اشتق اسمه من شكل التاج الذي يظهر به تحت المجهر، وهو المرض الذي ظهر في عام 2019 وتسبب في جائحة عالمية.

فرغم امتلاء الثلاجات، ووجود الإنترنت، والراحة، والأمان، انهار كثيرون في الخوف والاكتئاب، لقد اعتدنا إلى درجة كبيرة على السهولة والسيطرة، حتى صار كل ابتلاء يبدو كأنه نهاية العالم، وفي هذا بالذات نتعرف على وصف القرآن الكريم: أن الإنسان خُلق على هلع، فابتلاء هذا العصر ليس بالضرورة هو الفقر، بل الفراغ الداخلي والاختلال الروحي، فالغرب لا يعاني من الجوع كما يعانيه الجنوب، بل من جوعٍ نفسي. والحل بحسب القرآن الكريم، لا يكمن في الحبوب أو المكانة، بل في إعادة الاتصال بالخالق، وفي كثير من البلدان الإفريقية والآسيوية، تسود فكرة أن الغرب جنة: مكانٌ للوفرة، والأمان، والرفاهية، والراحة. نعم، من الناحية المادية نادرًا ما يوجد نقص: ثلاجات ممتلئة، ورعاية صحية، وإنترنت، وتدفئة، وملابس، وحريات. لكن ما يُنسى كثيرًا هو أن الوفرة نفسها قد تكون ابتلاءً. ففتنة الغنى قد تكون أحيانًا أشد من ابتلاء الفقر.

ونرى اليوم الناس يركضون من "هدف" إلى آخر. شهرٌ للرياضة، ثم مهنة، ثم سفر، ثم علاقة، ثم نجاح مالي. إنهم يبحثون عن هدف، عن سبب يجعلهم ينهضون من السرير. بعضهم يركّز بصورة مهووسة على جسده ويقضي ساعات طويلة في صالة الرياضة، وآخرون، خصوصًا من النساء، ينفقن آلاف اليوروهات على المظاهر الخارجية، مثل: العناية بالبشرة، والأظافر، وقصات الشعر، والموضة. إنهم يحاولون ملء فراغٍ معين. لكن ما يفوتهم هو أن هذا الفراغ ليس فجوةً جسدية، بل عطشٌ روحي. وهذا العطش لا يمكن أن يُملأ إلا بعلاقتنا بالله سبحانه وتعالى.

9.2 الآيات القرآنية:

الآية الأولى: قال تعالى: ﴿**إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا، إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا، وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا،إِلَّا الْمُصَلِّينَ**﴾[153]

- ابن عاشور: الإنسان بطبيعته قلقٌ لا يثبت، وغير صبور، إلا إذا سلّم نفسه لله من خلال الصلاة. فالصلاة تهدئ القلب وتمنحه الانضباط.
- الرازي: تصف هذه الآيات الحالة الطبيعية للإنسان، وتوضح أن الصلاة تمثل قوةً مضادة لمخاوفه وبخله.
- القرطبي: هذا تشخيص نفسي للإنسان. فالصلاة هنا هي العلاج لروحٍ تضيّع نفسها في الهموم المادية.[154]

[153] سورة المعارج، آية (19_ 22).

[154] انظر: الجامع والتحرير ومفاتيح الغيب، تفسير سورة المعارج.

إن كل إنسان يحمل في داخله شيئًا يجب عليه أن يتغلب عليه. وكأن في داخل كل واحد منا عِلّةً باطنية، لا مرضًا ظاهرًا، بل تحديًا روحيًا يحتاج إلى عناية دائمة. وكما يحتاج المصاب بمرض مزمن إلى دوائه كل يوم ليبقى متوازنًا، كذلك تحتاج الروح إلى رعاية مستمرة: بالمحاسبة الذاتية، والصلاة، والاتصال بالله سبحانه وتعالى، والانضباط الأخلاقي. هذه هي حقيقة الإنسان: لا أحد متحرر تمامًا من الصراع الداخلي. لكن من يعترف بهذا الصراع ويتعامل معه بوعي، ينمو روحيًا ونفسيًا.

الآية الثانية: قال تعالى: ﴿**الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ**﴾[155]

• ابن عاشور: الطمأنينة الداخلية لا يمكن أن توجد من غير ذكر. فالله تعالى يسمي الذكر هنا شفاءً للروح.

والذكر هنا لا يعني فقط ترديد كلمات مثل "سبحان الله" أو "الله أكبر"، بل يعني الوعي الدائم بالله في القلب. وهذا الوعي إدراك أن الله يراك ويعلم ما تمرّ به، وهو ما يمنح السكينة. فالذكر باطني وظاهري معًا.

• الرازي: الناس يبحثون عن السكينة في المال، أو القوة، أو العلاقات، لكن السكينة الحقيقية لا تأتي إلا من خلال الاتصال بالله. ووفقًا للرازي، يشمل الذكر تلاوة القرآن، والصلاة، والدعاء، والتفكر في أسماء الله وصفاته. ويقول إن الروح تجد راحتها لأن الذكر يصل الإنسان بمصدر السكينة نفسه: الرحمن. ومن دون هذا الاتصال، يبقى الإنسان تائهًا.

• القرطبي: تعلّمنا هذه الآية أن الذكر ليس أمرًا زائدًا، بل هو حاجة حياتية أساسية للروح المؤمنة. ويسمي القرطبي الذكر "غذاء القلب". فبدون الذكر يقسو القلب ويصبح فارغًا. ويذكر أيضًا أن بعض الناس يطلبون السكينة من خلال المال، أو العلاج، أو العلاقات، لكن الله يقرر هنا بوضوح أن الذكر وحده هو الذي يمنح السكينة الحقيقية. فالذكر ليس مجرد حركة اللسان، بل حالة القلب التي تنير كل شيء.[156]

الآية الثالثة: قال تعالى: ﴿**وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ**﴾[157]

• ابن عاشور: يوضح أن كلمة "أعرض" هنا لا تعني مجرد الجهل، بل تعني اختيارًا واعيًا للابتعاد عن الله، أي موقفًا فعّالًا من اللامبالاة أو الإهمال. أما كلمة "ضنكًا" فهي تشير عنده إلى الضيق الوجودي، الإحساس

---

[155] سورة الرعد، آية (28).

[156] انظر: الجامع والتحرير ومفاتيح الغيب، تفسير سورة الرعد.

[157] سورة طه، آية (124).

بالفراغ الداخلي، والقلق، وانعدام المعنى، حتى لو كانت الحياة الخارجية مريحة. فليست المسألة فقرًا ماديًا بالضرورة، بل حياة بلا بركة، وبلا وجهة. ويرى ابن عاشور أن هذه سنة روحية: من نسي الله، خسر نفسه.

• الرازي: يشدد على أن الحياة من دون ذكر تصبح حياة بلا نور، كحال من تاه في كهف مظلم. ويسمي هذه "المعيشة الضنك" حتى عند من يعيشون في وفرة ونجاح، لأن الروح تشعر بفراغ لا يملأه شيء إلا الله. كما يشير إلى أعراض نفسية مثل الحزن بلا سبب، والخوف بلا مبرر، والاضطراب الدائم. ويربط الرازي بين الحشر أعمى وبين غياب البصيرة في الدنيا: فمن لم ير نور الله في حياته، سيُحشر أعمى في الآخرة.

• القرطبي: يقول إن "معيشةً ضنكًا" تشمل الجانب الدنيوي والروحي معًا. فحتى لو عاش الإنسان في ترف، فإن حياته تكون ضيقة إذا كان قلبه قاسيًا وضميره مضطربًا. ويذكر أن الذكر هو مقصد حياة المؤمن، وأن الانحراف عنه يولد احتكاكًا داخليًا مستمرًا. وتظهر هذه الآية أن الروح بحاجة إلى غذاءٍ واتجاه، ومن يحرمها من ذلك فقد ظلم نفسه. كما يذكر أن العمى يوم القيامة يمكن أن يكون رمزيًا وحقيقيًا معًا: عمى عن رحمة الله، وعمى عن الحق، وعمى حسي عقوبةً على العمى الروحي في الدنيا.[158]

لقد خُلق الإنسان وفي روحه توقٌ إلى الله. وإذا انقطعت تلك الصلة، نشأ الاختناق الروحي، وحياة بلا هدف، ولا سلام، ولا استقرار. وهذا "الضيق" الناتج عن حياة بلا ذكر يظهر اليوم في الاحتراق النفسي، والاكتئاب، والإدمان، والشعور بأن "كل شيء بلا معنى". وحتى مع وجود الغنى أو النجاح الخارجي، يبقى الداخل محرومًا من السكينة والمعنى. وهذه الآية تحذير: فالروح تحتاج إلى الذكر كما يحتاج الجسد إلى الأكسجين، فبينما تؤكد سورة الرعد أن اطمئنان القلوب يأتي من ذكر الله، تُظهر هذه الآية من سورة طه النتيجة المعاكسة: أن عيشة الضنك تأتي من الإعراض عن ذكر الله، وهكذا تتشكل أمامنا حقيقة روحية واضحة: الذكر = سكينة، إهمال الذكر = ضيق داخلي.

9.3 تأمل في الحديث:

الحديث: قال النبي ﷺ: "**عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ، إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَاكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ**"[159]

[158] انظر: الجامع والتحرير ومفاتيح الغيب، تفسير سورة طه.

[159] صحيح مسلم، حديث رقم (2999).

التأمل: إن القوة النفسية تنبع من الثقة الروحية. فالمؤمن الحق لا يعرف اليأس الكامل، لأنه يرى في كل حال فرصةً للقرب من الله. وهذه النظرة تحميه من الانهيار النفسي التام.

"السكينة الحقيقية ليست غياب المشكلات، بل حضور الثقة بالله."

المعنى العام للحديث: هذا الحديث قاعدة عظيمة في الرضا والتسليم، وأن كل ما يقدره الله ويقضيه للمؤمن، سواء كان ظاهره النعمة أو المحنة، فهو في مآله وعاقبته خير له. فهذه المنزلة العالية من الرضا والتسليم والثبات على طاعة الله في كل الأحوال، خاصة بأهل الإيمان الصادق وحدهم.

9.4 الطبقة التأملية:

إن الإنسان المعاصر لا يعاني بقدر ما يعاني من نقصٍ خارجي، بل من فقرٍ داخلي. فنحن نرى كيف يغرق الشباب والبالغون في صمتهم في مشاعر الفراغ، والخوف، وانعدام المعنى. جداولهم ممتلئة، وبيوتهم عامرة، وشاشاتهم لا تنطفئ، لكن قلوبهم خاوية. وهذا يكشف لنا حقيقةً بيّنها القرآن منذ قرون: أن الوفرة بدون القرب من الله ليست نعمة، بل ابتلاء.

والآيات التي ناقشناها تُعلّمنا أن الإنسان بطبعه قلقٌ غير مستقر. وهذا ليس خللًا في الخلق، بل دعوة إلى البحث عن المصدر الحقيقي للسكينة. وكما أن الجسد العطشان لا يرويه إلا الماء، كذلك لا ترتوي الروح إلا بالذكر؛ أي الحضور الواعي لله سبحانه وتعالى. والقرآن يرسم هذا التباين بوضوح: من يذكر الله يجد السكينة، ومن يعرض عنه يعيش ضيقًا خانقًا.

ولهذا أيضًا آثار تربوية. فعندما نربّي أبناءنا في ثقافة تتمحور حول الإنجاز، أو المكانة، أو المظهر، فإننا نزرع الاضطراب في قلوبهم. أما عندما نعلّمهم أن النجاح لا يكمن في الإعجابات، أو الشهادات، أو الممتلكات، بل في الارتباط بالله، فإننا نمنحهم مرساة داخلية. وفي مجتمعٍ تتزايد فيه حالات الاحتراق النفسي والاكتئاب، يمكن لجيلٍ ينشأ على الذكر، والصلاة، والتوكل، أن يصنع الفرق.

وبالنسبة للمؤمن، فإن المعاناة ليست دليلًا على العبث، بل فرصة للنمو. فالحديث النبوي يعلّمنا أن كل حال يمكن أن يكون خيرًا: الرخاء يقود إلى الشكر، والشدة تقود إلى الصبر. وهذا لا يعني أن المؤمن لا يعرف الحزن، بل يعني أنه لا يسقط فريسةً لليأس. فهو يرى في كل لحظة طريقًا إلى الله.

والخلاصة التأملية: هنا أن السكينة الحقيقية لا تُشترى، ولا تُنال من خلال مظاهر الترفيه أو المكانة. بل تكمن في القلب الذي يعيش مع الله، ويذكره، ويثق به. ومن دون هذا الأساس الروحي، تصبح حتى الوفرة خانقة؛ أما مع هذا الأساس، فإن حتى الفقر يمكن أن يُحتمل ويُعاش بمعنى.

ولهذا فإن الصلاة، كما يؤكد ابن عاشور، والرازي، والقرطبي، ليست طقسًا، بل دواء. إنها غذاء يومي للروح، ومن يهملها يحرم نفسه من الحماية ضد الفراغ الداخلي.

وهكذا يتعلم المؤمن أن ينظر إلى الحياة بعدسة مختلفة: لا بوصفها بحثًا لا ينتهي عن السيطرة والراحة، بل بوصفها رحلةً من الثقة والتسليم. وفي هذا التسليم بالذات يجد السكينة.

9.5 الخاتمة:

في زمنٍ أصبح فيه الجسد في مركز الاهتمام بينما تُهمل الروح، نرى كيف يسقط آلاف الناس كل يوم فريسةً للاضطراب الداخلي، والفراغ، وانعدام الأفق. لقد خُلق الإنسان وفي داخله حاجة روحية عميقة، عطش لا يمكن لأي هدف دنيوي، ولا أي تغيير جسدي، ولا أي مالٍ أو متاع أن يطفئه.

ويبين لنا القرآن أن السكينة الحقيقية لا تأتي إلا بذكر الله، وأن من يُعرض عن ذلك فسيعيش لا محالة حياةً ضيقة خانقة. فنحن لم نُخلق لنركض بلا وجهة من مشروع إلى مشروع، بل خُلقنا لنعبد الله، ونعرفه، ونتجه إليه فحياتنا كلها، من الصلاة إلى الأنفاس، ومن الحلم إلى الموت، هي لله.

إن الاكتئاب والأزمات الداخلية ليست علامات ضعف، بل تذكير بأن الروح تريد أن تُستدعى من جديد إلى مصدرها. ولا شك أن للعلاج، والدواء، والحديث مع الآخرين دورًا، لكن من دون إعادة الاتصال بالله يبقى شيءٌ أساسي مفقودًا، ولهذا فإن الحل ليس نفسيًا أو اجتماعيًا فقط، بل هو قبل كل شيء روحي. لأن القلب الذي ينسى الله ينسى في النهاية نفسه أيضًا. أما الروح التي تذكر الله، فإنها تجد السكينة، والاتجاه، والقوة، حتى في أحلك اللحظات.

الفصل 10 (التوبة والأمل):

10.1 الملاحظة: في مجتمعاتنا ترى وجوهًا مختلفة للإيمان. هناك من ينسى الله في حياته اليومية. وهناك من يسخر حتى مما هو مقدس. لكن هناك أيضًا من يؤمن فعلًا، ومع ذلك يظن في صمتٍ أنه لم يعد مرحبًا به عند ربه. يشعر بأنه صار بعيدًا جدًا، أو ملوثًا جدًا، أو مكسورًا جدًا بحيث لا يستطيع الرجوع.

وفي قلوبهم تتردد كلمات مثل: "لقد ارتكبت أخطاء كثيرة جدًا." أو: "بعد كل ما فعلته، لماذا يريدني الله أصلًا؟" وأحيانًا تكون أشد وقعًا: "لقد فات الأوان بالنسبة لي."

لكن هذا الشعور نادرًا ما يكون تواضعًا حقيقيًا. ففي كثير من الأحيان يكون يأسًا متخفيًا في صورة تواضع. واليأس ليس صورة من صور التقوى، بل هو نقص في الثقة برحمة الله اللامحدودة.

لقد علّمنا النبي ﷺ أن ما من ذنبٍ أعظم من مغفرة الله، ما دُمنا نتوجه إليه بصدق. ومع ذلك، يترك بعض الناس الصلاة لأنهم يظنون أنهم "ليسوا مسلمين صالحين". وآخرون يغلقون قلوبهم لأنهم يعتقدون أن ماضيهم قد حكم عليهم إلى الأبد. لكن القرآن يعلّمنا أنه ما دمت حيًا، فإن باب الرجوع ما زال مفتوحًا. ولا يُغلق الطريق إلى الله إلا عندما تفارق الروح الجسد. فالتوبة تفتح هذا الباب على مصراعيه، أما اليأس فإنه يغلقه. وهذا يجعلنا ندرك أن الله تعالى ليس ملجأً للطاهرين فقط، بل هو ملجأ المنكسرين الذين يريدون العودة إلى الله سبحانه تعالى.

10.2 الآيات القرآنية:

الآية الأولى: قال تعالى: ﴿**قُلْ يَا عِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ**﴾[160]

• يرى ابن عاشور أن هذه الآية من أرجى آيات القرآن. فالنداء: "يا عبادي" يدل على القرب والرحمة، حتى تجاه كبار المذنبين. كما أن لفظ "أسرفوا" يشمل حتى أعظم التجاوزات.

• ويؤكد القرطبي أن الآية موجهة إلى الذين يرون أنفسهم هالكين فهي دعوة للرجوع، مهما بلغ عمق السقوط.

• ويشير الرازي إلى كلمة "جميعًا" بوصفها دليلًا على أن ما من ذنب مستثنًى، إلا إذا وقع الإنسان في اليأس أو مات بلا توبة[161]. وهذه الآية ليست بابًا مواربًا فقط، بل دعوة مفتوحة للعودة، مهما بلغ بُعدنا.

الآية الثانية: قال تعالى: ﴿**يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ تُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا**﴾[162]

---

[160] سورة الزمر، آية (53).

[161] انظر: الجامع والتحرير ومفاتيح الغيب، تفسير سورة الزمر.

[162] سورة التحريم، آية (8).

• يوضح ابن عاشور أن "التوبة النصوح" أعمق من مجرد الندم العادي. إنها عودة نقية، صادقة، جذرية إلى الله، بلا نية مزدوجة، وبلا تأجيل.

• ويذكر القرطبي أربعة شروط لهذا النوع من التوبة: الندم، الإقلاع عن الذنب، العزم الصادق على عدم العودة، ردّ المظالم إن أمكن.

• ويرى الرازي أن هذا النوع من التوبة يحتاج إلى إصلاح داخلي حقيقي. فمن يقول: "أنا تبت" لكن لا يغيّر شيئًا في سلوكه، فإنه يخدع نفسه.[163]

الآية الثالثة: قال تعالى: ﴿**إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ**﴾[164]

• يقول ابن عاشور إن هذه الآية لا تتحدث فقط عن محو الذنوب، بل عن تحويلها إلى حسنات. فالسيئات لا تُتجاهل فقط، بل تتحول، مكافأةً على الرجوع الصادق.

• ويصف القرطبي هذا بأنه قمة رحمة الله. فالله لا يكتفي بالمغفرة، بل يكرم كذلك من عاد إليه بتوبة وإيمان.

• ويشير الرازي إلى أن هذه الآية تبعث فينا الأمل: فماضينا يمكن، بالتوبة، أن يصبح مصدرًا للأجر. فما كان يومًا ثقلًا، يمكن أن يصير، برحمة الله، جسرًا إلى الجنة.[165]

10.3 تأمل في الحديث:

الحديث: قال النبي ﷺ: "**لَلَّهُ أَشد فرحاً بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ حين يتوب إليه، مِنْ أَحَدِكُمْ كان على راحلته بأَرْضِ فَلَاةٍ فانفلتت منه وعليها طعامه وشرابه، فأيس منها، فأتى شجرة، فاضطجع في ظلها قد أيس من راحلته، فبينما هو كذلك إذا هو بها قائمة عنده...**"[166]

---

[163] انظر: الجامع والتحرير ومفاتيح الغيب، تفسير سورة التحريم.

[164] سورة الفرقان، آية (70)

[165] انظر: الجامع والتحرير ومفاتيح الغيب، تفسير سورة الفرقان.

[166] صحيح مسلم، حديث رقم (2747).

التأمل: تخيل رجلًا فقد جمله في صحراء خالية، وكان عليه طعامه وشرابه، فأيقن أنه هالك. ثم فجأة يجد جمله من جديد. إن فرحته ستكون هائلة. ومع ذلك، يقول النبي ﷺ إن الله أشد فرحًا بتوبتك. فالله ليس قاضيًا منتقمًا ينتظر سقوطك، بل ربًّا رحيمًا ينتظر عودتك.

المعنى العام للحديث: هذا يدل على فضل الله تعالى وإحسانه، وأنه تعالى يحب لعباده أن يتوبوا إليه، وأن يستقيموا على طاعته حتى يفوزوا بجنته ونعيمه، والفرح صفة من صفات سبحانه وتعالى مثل سائر الصفات كالرضا والغضب والرحمة... فكلها صفات تليق بالله جل وعلا.

10.4 الطبقة التأملية:

التوبة ليست نهاية الروحانية، بل هي في الحقيقة بداية الرحلة إلى الله. إنها المفتاح الذي يفتح الباب إلى حياة جديدة، حياة يعود فيها القلب إلى أصله. فبدون إدراك الذنب لا يوجد صدق، وبدون الندم لا توجد تزكية، لكن بدون الأمل لا توجد حركة إلى الأمام. وفي تربيتنا، لا ينبغي أن نقدم التوبة كإهانة للإنسان، وكأنها حمل ذنب يسحقه، بل كتحرر، وكصلة متجددة بخالقه ترفعه.

إن التوبة الحقيقية أكثر من مجرد كلمات تُقال؛ إنها كسر القيود التي تُمسك القلب في أسر الذنب، وفتح باب السكينة التي لا تمنحها أي مواساة دنيوية، وهي دليل على أن القلب ما زال حيًا، لأن القلب الميت لا يشعر بالندم. وقد علّمنا النبي ﷺ: **"كل بني آدم خطاء، وخير الخطائين التوابون."**[167]

وهذا يعني أننا في أسلوب حياتنا لا يجوز أن ندين الناس بماضيهم، ولا أن نسجن أنفسنا في العار، بل يجب أن نؤمن أن الله تعالى أعظم من كل أخطائنا. فالماضي قد يصوغنا، لكنه لا ينبغي أبدًا أن يقيّدنا؛ فباب التوبة يبقى مفتوحًا ما دامت الروح في الجسد استناداً إلى قول النبي صلى الله عليه وسلم: " **إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر**[168]"[169]

كل دمعة تخرج من ندم صادق هي خطوة أقرب إلى الله؛ وكل "أستغفر الله" تخرج بإخلاص هي سلاح ضد اليأس؛ وكل سجدة نعترف فيها بذنبنا قد تكون بداية حياة من نور.

---

[167] سنن الترمذي، حديث رقم (2499).

[168] يغرغر: ما دام واعياً ولم يُدركه الموت.

[169] سنن الترمذي، حديث رقم (3537).

إن الله سبحانه وتعالى يقبل من عبده التوبة والرجوع إلى الحق، والاعتراف بالذنب، والتبرؤ منه طوال حياته، ما دام واعياً، لا أن يكون في حالة الاحتضار، ففي هذه الحالة لا تُقبل توبته.

10.5 الخاتمة:

إن أكبر كذبة يوسوس بها الشيطان هي أن الأوان قد فات على الرجوع. لكن القرآن الكريم يقول بوضوح: "لا تقنطوا من رحمة الله." ويؤكد لنا النبي ﷺ: "لله أشد فرحًا بتوبة عبده من أحدكم يجد راحلته بعد أن فقدها في الصحراء." فمن كنت، ومهما فعلت، فما زال الباب مفتوحًا. لا لأنك أنت عظيم، بل لأن الله واسع الرحمة بلا حد. فاهتف بها في صمت، أو ابكِ بها بحرقة، أو دع قلبك يصرخ بها: يَا رَبِّ، ارْحَمْنِي وَاغْفِرْ لِي فالجنة ليست لمن لم يرتكب الخطأ قط، بل لمن انكسر وأذنب، ثم عاد وتاب.

الفصل 11 (ثقافة العيب) وشرف العائلة:

11.1 الملاحظة:

في كثير من المجتمعات، يلعب "ما سيقوله الناس" دورًا أكبر مما يقوله الله جل وعلا . فلا يُصَحَّح الشباب بدافع المحبة لله، بل يُعاقَبون خوفًا من الفضيحة. والمشكلات لا تُحل، بل تُخفى، ما دام العالم الخارجي لا يراها.

تُجبر بعض الفتيات على الزواج من أجل "إنقاذ" اسم العائلة. ويُشجَّع بعض الفتيان على الصمت عن الاعتداء أو العنف، لأن "علينا أن نحمي الشرف". بل إن بعض العائلات تذهب إلى حد ارتكاب ما يسمى بجرائم الشرف، لا انطلاقًا من مبدأ ديني، بل بدافع الكبرياء الثقافي.

لقد أخذت ثقافة العيب مكان التقوى. فأصبح ما يظنه الجيران، والأعمام، والمعارف، أهم مما يعلمه الله.

وهذا يؤدي إلى القمع، والنفاق، وأحيانًا حتى إلى سوء الاستعمال، حيث تُستر الأفعال، ويُعاقب الضحايا، ويبقى المذنبون في مأمن ما دام العالم الخارجي لا يرى "العار.

لكن القرآن الكريم هدم هذه الكذبة التي دمرت مجتمعات بأكملها، كما هدم غيرها وقضى عليها. فالإسلام لا يقوم على حفظ ماء الوجه أو السمعة، بل على الحق، والعدل، والطهارة، فليس السؤال: ماذا يظن الناس؟ أو ماذا يقول الناس؟ بل السؤال الحقيقي هو: مَن أنت؟ وماذا يعلم الله عنك؟

11.2 الآيات القرآنية:

الآية الأولى: قال تعالى: ﴿**إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ**﴾[170]

• ابن عاشور يؤكد أن حادثة الافتراء على عائشة رضي الله عنها، تكشف كيف يمكن للمجتمعات أن تنقاد وراء الشائعات، ومشاعر الشرف، والضغط الاجتماعي، بدلًا من أن تنقاد وراء الحقائق والعدالة.

• ويرى القرطبي أن الله في هذه الآية يحمي شرف امرأة حمايةً علنية، رغم الشائعات. ويشير إلى أن الله نفسه تدخل ليُظهر الحقيقة، وليدين ثقافة القيل والقال.

• ويقول الرازي إن رسالة الآية واضحة فالشرف ليس ما يقوله الناس عنك، بل ما يعلمه الله عنك ويثبته.[171]

الآية الثانية: قال تعالى: ﴿**وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ**﴾[172]

• يوضح ابن عاشور أن حتى النبي ﷺ ذُكّر بأن الخوف من رأي الناس لا يجوز أن يكون أقوى من الخوف من الله. وحتى هو ﷺ وُجّه إليه هذا التنبيه، تعليمًا للأمة.

• ويؤكد القرطبي أن الضغط الاجتماعي لا يجوز أن يمنع الإنسان من فعل الصواب. فهذه الآية تصحيح لكل تفكير ثقافي أو سياسي يصطدم بالهدي الإلهي.

• ويقول الرازي إن الآية تلخص جوهر الإخلاص: فتصرفك لا ينبغي أن تحدده نظرة الناس، بل حكم الله.[173]

إن الخوف من الله تعالى وخشيته مطلوبتان من الإنسان المسلم لما يترتب عليهما من إيمان عميق وثقة بالله، فمن كان مع الله كان الله معه، في الشدة وكذلك في الرخاء، لذلك فالتقوى هي الخوف من الجليل، والعمل بالتنزيل، والرضا بالقليل، والاستعداد ليوم الرحيل.

---

[170] سورة النور، آية (11).

[171] انظر: الجامع والتحرير ومفاتيح الغيب، تفسير سورة النور.

[172] سورة الأحزاب، آية (37).

[173] انظر: الجامع والتحرير ومفاتيح الغيب، تفسير سورة الأحزاب.

11.3 تأمل في الحديث:

الحديث: قال النبي ﷺ: **"فَمَنْ أَحَبَّ أَنْ يُزَحْزَحَ عَنِ النَّارِ وَيُدْخَلَ الْجَنَّةَ، فَلْتَأْتِهِ مَنِيَّتُهُ وَهُوَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَلْيَأْتِ إِلَى النَّاسِ الَّذِي يُحِبُّ أَنْ يُؤْتَى إِلَيْهِ"**[174]

التأمل: هذا الحديث يهدم كل ثقافة عيب قائمة على النفاق، والمظاهر، والخوف الاجتماعي. فالإسلام يعلّمنا:

* أن المعيار هو الإيمان والعدالة، لا حفظ السمعة أو الصورة أمام الناس.

* أن شرفك يكمن في صدقك مع الله وعدلك مع الناس.

* أن من عاش لله، لا يعش لأجل آراء الناس.

المعنى العام للحديث: النجاة الحقيقية تتطلب الموت على التوحيد والإيمان الصادق بالله واليوم الآخر حتى آخر لحظة في الحياة. ويتضمن الحديث قاعدة ذهبية في الأخلاق، وهي أن تعامل الناس بما تحب أن يعاملوك به من العدل والإنصاف والإحسان وحفظ الحقوق.

والحديث يدعو إلى أمرين **أساسيين:** الإيمان الصادق، وحُسن المعاملة.

11.4 الطبقة التأملية:

في كثير من المجتمعات، حلت ثقافة العيب محل الضمير. فأصبح الناس يخافون مما يظنه الناس، لا مما يعلمه الله. وقد أدى هذا التحول إلى مجتمع تبدو فيه السمعة أهم من الإخلاص، وتُخفى فيه الأخطاء بدل أن تُصحح.

وفي حياتنا الروحية، يجب أن نعود إلى التقوى، أي إلى وعي داخلي بالله يكون أقوى من ضغط الجماعة، أو شرف العائلة، أو الكبرياء الثقافي. فالحياء الحقيقي هو الحياء من الله، لا من الناس.

والتربية تبدأ في البيت:

• علّموا أبناءكم ألّا يسألوا: "ماذا سيقول الناس؟" بل أن يسألوا: "ماذا يقول الله في هذا؟"
• وشجعوهم على الصدق، حتى لو كانت له تبعات.

[174] صحيح مسلم، حديث رقم (1844).

وقال النبي ﷺ: "**إذا لم تستحي فاصنع ما شئت.**"[175]وهذا يعني أن الحياء حماية، لكن فقط إذا كان موجهًا إلى الله. أما الحياء من الناس وحده، فكثيرًا ما يقود إلى النفاق: أن يتظاهر الإنسان بأن كل شيء بخير، بينما الحقيقة عكس ذلك.

وسائل عملية لتقديم التقوى على ثقافة العيب:

1. ناقشوا الأخطاء في بيئة آمنة، حتى يتعلم الناس أن الاعتراف هو الخطوة الأولى نحو الإصلاح.
2. اختاروا العدالة بدل الصمت، وحلّوا المشكلات بصدق، حتى لو جلب ذلك "حرجًا" مؤقتًا.
3. احموا عائلاتكم بالحق، لا بالأكاذيب، حتى تصبح النزاهة أهم من الصورة.
4. كونوا قدوة في الصدق والرفق، فالأطفال يتعلمون مما يرونه أكثر مما يسمعونه.

فالله لا ينظر إلى مكانتنا، ولا إلى نسبنا، ولا إلى سمعتنا، بل ينظر إلى قلوبنا. ويوم القيامة، لن تكون الروايات التي يرويها الناس عنا هي التي تُحسب، بل أعمالنا.

11.5 الخاتمة:

الإسلام لا يعلّمنا أن نحمي "الشرف" على حساب العدالة.، بل على العكس: الشرف الحقيقي هو العدالة. ففي القرآن تُهدم منطقية الثقافة البشرية، ويُستبدل بها المعيار الإلهي: لا القبيلة، ولا المكانة، هما ما يجعلان الإنسان كريمًا، بل التقوى. ورأي الناس لا يحدد قيمتك، بل الله. ولا يجوز أن يكون الحياء من الناس عذرًا لإخفاء الحقيقة، فمن عاش لله، لا يحتاج إلى أن يخاف الناس. أما من عاش للناس، فسينتهي به الأمر حتمًا إلى أن يغفل عن الله. ولذلك لا يطلب الإسلام مظهرًا نقيًا، بل قلبًا نقيًا. فالشرف الحقيقي يعني أن تحمي ابنتك بالحق والعدل، وأن ترشد ابنك بالحكمة والرعاية، وأن تعترف بأخطائك أنت بشجاعة. ولا يعني أبدًا أن تُخفي الأمور لتحافظ على المظهر.

يجب أن نمتلك الشجاعة لنكسر منطق "شرف الثأر"، ونستبدله بالعدالة. ويجب أن يفسح الكبر المجال للتسليم لله. ويجب أن تتراجع المخاوف الثقافية أمام وعي داخلي بالله يكون أقوى من كل ضغط جماعي. فمن خاف الله، لا يحتاج أن يخاف أحدًا غيره. ويوم القيامة، لن تتكلم سمعتنا، بل ستتكلم أعمالنا. وفي ذلك الميزان العادل، لا قيمة لشرف يصنعه الناس، بل للشرف الذي يمنحه الله لمن كان صادقًا.

[175] صحيح البخاري، حديث رقم (3483).

الفصل 12 (الحسد، والكِبر، والغرور):

12.1 الملاحظة:

نحن نعيش في زمنٍ تكثر فيه الصفات المذمومة والتي نهانا عنا إسلامنا العظيم، حيث دعانا إلى الابتعاد عنها واستبدالها بالأخلاق الحميدة التي تمتع بها نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وفي هذا الوقت يُعجَب بالكبرياء، ويُسوَّق فيه الغرور على أنه ثقة بالنفس، ويُبرَّر فيه الحسد على أنه طموح. وقد وسّعت وسائل التواصل الاجتماعي المنصة التي يعرض فيها الناس حياتهم أمام الآخرين، من العطلات إلى العلاقات، ومن الملابس إلى الإنجازات. وفي ظل هذا القياس المستمر، تنمو ثقافة يمتلئ فيها القلب إما بالكبرياء أو بالحسد.

وغالبًا ما يتسلل الكبر والحسد من غير أن يُشعَر بهما. فبعض الناس يرفعون أنفسهم لأنهم "يعيشون حياة حلال"، فيدِينون غيرهم من هذا المنطلق. وآخرون يفعلون ذلك لأن لديهم علمًا أكثر، فينظرون باحتقار إلى مَن هم أبسط منهم. وبعضهم لأنهم أكثر شهرة، فيزدَرون مَن لا يعرفهم الناس. وهناك من يحسد في صمت سعادة غيره، أو نجاحه، أو حتى سكينته الداخلية. ويذكرنا القرآن بأن أول ذنب وقع في الخلق لم يكن قتلًا، ولا خمرًا، ولا زنا، بل كان الكِبر. فسقوط إبليس بدأ بفكرة واحدة مسمومة وردت على لسانه في كتاب الله عز وجل: ﴿**أنا خيرٌ منه**﴾ [176]وكانت لحظة الكِبر هذه وحدها كافية لطرده إلى الأبد من قرب الله، ولهذا فإن التزكية، أي تطهير النفس من الحسد، والكِبر، والغرور، ليست ترفًا ولا أمرًا زائدًا، بل هي شرط أساسي لمن أراد القرب من الله. لأن القلب ما دام ملوثًا بالحسد، فلن تنمو فيه محبة صادقة لله، ولا أخوة صافية مع الناس. ومن أراد أن يطهّر نفسه، فعليه أن يتعلم ألّا يقيس نفسه بالعالم، بل برضا الله سبحانه وتعالى. وألّا يقيس نجاحه بما يراه الناس، بل بما يراه الله في قلبه. لأن يوم القيامة لن ينفع عدد المتابعين، ولا المكانة، ولا المال، ولا الجاه، ولا المناصب، بل ما ينفع العبد هو الأخلاق الحسنة التي دعانا إليها الإسلام، والإخلاص والنية الصادقة مع الله جل وعلا.

12.2 الآيات القرآنية:

الآية الأولى: قال تعالى: ﴿**قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ**﴾ [177]

[176] سورة الأعراف، آية (12).

[177] سورة الأعراف، آية (12).

• يرى ابن عاشور أن قول إبليس هذا يمثل النموذج الأصلي للكبر الروحي: أن يُصدر الإنسان حكمًا على أساس الأصل أو الطبيعة، لا على أساس الطاعة.

• ويؤكد القرطبي أن إبليس لم يرفض من باب الجهل، بل من باب الاستعلاء. فجذر معصيته كان المقارنة، وعدم إدراك أن قيمة الطاعة أعلى من قيمة الأصل.

• ويرى الرازي في الآية دليلًا على أن الكبر قد يتسلل إلى مَن كانوا في موضع عبادة، كما كان إبليس قبل سقوطه. وأن هذا الكبر قد يكون سبب الهلاك، حتى مع وجود العلم، أو الشرف، أو المكانة.[178]

الآية الثانية: قال تعالى: ﴿**قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا، وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا**﴾[179]

• يقول ابن عاشور إن هاتين الآيتين تمثلان جوهر الإسلام الداخلي: فالفوز الحقيقي لا يكمن في المكانة، أو العلم، أو الإنجازات، بل في تطهير الباطن.

• ويؤكد القرطبي أن التزكية تعني إزالة أمراض القلب مثل الحسد، وتعظيم النفس، والرياء، والكِبر، والضغينة.

• ويسمي الرازي هذه الآية المعيار الفاصل بين النجاح والفشل يوم القيامة. فليست أعمالك في ذاتها هي التي تُوزن فقط، بل حال النفس الكامن وراءها.[180]

الآية الثالثة: قال تعالى: ﴿**يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيْرًا مِّنْهُمْ**﴾[181]

• يوضح ابن عاشور أن السخرية والازدراء ينبعان كثيرًا من كبرٍ داخلي وحسدٍ خفي. وهذه الآية تحرّم كل شكل من أشكال الشعور بالتفوق.

---

[178] انظر: الجامع والتحرير ومفاتيح الغيب، تفسير سورة الأعراف.

[179] سورة الشمس، آية (9، 10).

[180] انظر: الجامع والتحرير ومفاتيح الغيب، تفسير سورة الشمس.

[181] سورة الحجرات، آية (11).

• ويشدد القرطبي على أن حتى السخرية الخفيفة، كتعابير الوجه، أو الهيئة، أو المزاح الجارح، قد تكون علامة على قلب ملوث.

• ويقول الرازي إن هذه الآية تكشف الأعراض الاجتماعية للكِبر: السخرية، والغيبة، والطعن في الناس. أما العلاج، فهو التزكية، لا مجرد التهذيب الظاهري.[182]

12.3 تأمل في الحديث:

الحديث: قال النبي ﷺ: **"لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ"**[183]

التأمل: لم يتحدث النبي ﷺ هنا عن ذنوب مثل السرقة، أو الكذب، أو الزنا، بل تحدث عن الكِبر في القلب. فحتى ذرة منه تمنع دخول الجنة، لماذا؟ لأن الكِبر حاجز بين العبد وبين استسلامه لله. فمن ظن نفسه أفضل من غيره، بسبب علمه، أو نسبه، أو مظهره، أو لباسه، أو إنجازاته، أو مكانته الدينية، فإنه يغلق على نفسه باب التواضع الحقيقي، وهو جوهر العبودية.

المعنى العام للحديث: المراد بالكبر هنا، هو احتقار الناس وغمط الحق ورده ودفعه، وفي الحديث وعيد شديد بعدم دخول الجنة لكل مَن كان فيه شيء صغير من الكبر.

12.4 الطبقة التأملية:

الحسد والغرور مرضان من أمراض القلب. ينموان ببطء، وغالبًا في الخفاء، ثم ينتشران حتى يفسدا علاقتك بالله وعلاقتك بالناس. يجعلانك غير قادر على الفرح لنجاح أخيك أو أختك. ويجعلانك تفضّل النظر إلى الناس من فوق بدل أن تنظر إلى نفسك، وتختبئ خلف كلمات دينية أو مظاهر خارجية، بينما قلبك يعظّم نفسه، وفي طريق الروحانية، تكون التزكية، أي تطهير القلب، أمرًا لا غنى عنه. فهي تعني أن تستبدل الحسد بالرضا عمّا أعطاك الله، والكِبر بالتواضع، والغرور بالخشوع الصادق لله. لأن العلم، من غير تزكية، قد يقود إلى الكبر. والالتزام الديني قد يتحول إلى تعظيم للذات. وحتى الأعمال الصالحة قد تتحول إلى غيرة من غيرك إذا زادوا عليك، وفي التربية، ينبغي أن نعلّم الشباب أن الحياة ليست سباق مقارنة، بل رحلة وعي. لا ليظهروا

[182] انظر: الجامع والتحرير ومفاتيح الغيب، تفسير سورة الحجرات.

[183] صحيح مسلم، حديث رقم (91).

أنهم الأفضل، بل ليكونوا الأنقى. لا ليفوزوا دائمًا أمام الناس، بل ليبقوا صادقين، حتى حين لا يراهم أحد، وفي أسلوب حياتنا، يطلب الله تعالى منا أن نستمر في مساءلة أنفسنا:

- لماذا أريد أن أكون أفضل من غيري؟
- لماذا أشعر بالألم عند نجاح شخص آخر؟
- لماذا أسخر من الآخرين أو أستهزئ بهم؟
- لماذا أريد أن يراني الناس ويعترفوا بي؟

إن مفتاح الشفاء لا يكمن في أن تكبّر نفسك، بل في أن تكسرها لله. وكما ورد في مقولة شهيرة استخدمها الكثير من العلماء منهم الإمام الغزالي قاعدة أخلاقية وهي" مَن عرف نفسه فقد عرف ربه، فمن رأى عيوب نفسه، لم يعد لديه وقت ليعدّ عيوب الآخرين. ومن خاف الله، لم يعد يخشى أن يكون غيره فوقه.

12.5 الخاتمة:

الكِبر ليس أمرًا صغيرًا، بل هو أصل التمرد على الله. فمن ظن أن علمه، أو منصبه، أو ممارساته الدينية، ترفعه فوق الآخرين، فهو يحمل المرض نفسه الذي أسقط إبليس. أما المسلم الحق فلا ينظر إلى الناس من علٍ، بل ينظر إلى الأعلى، إلى الله، وإلى الداخل، ليطهّر قلبه، فليست مهمتنا أن نبدو أكبر، بل أن نصغر أمام الله. وليست مهمتنا أن نسبق الناس في المكانة، بل أن نسبق أنفسنا في التواضع.

إن الشرف الحقيقي هو التواضع، أن ينحني القلب قبل أن ينحني الرأس. والقوة الحقيقية هي الخشوع، أن تروّض الكبرياء حتى عندما تكون على حق. والانتصار الحقيقي هو الرضا، أن ترضى بما أعطاك الله من غير حسد لما أعطاه لغيرك، وَمن سلك هذا الطريق، طهّر نفسه، ووجد السكينة في التسليم. ومن يطهّر نفسه، كما قال الله: ﴿**قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا**﴾[184]

الفصل 13 (العين، والخرافة) وحمايتنا الحقيقية – التوكل والذكر:

13.1 الملاحظة: في كثير من الثقافات، وخصوصًا في إفريقيا، وآسيا، وكذلك في أوروبا بين المهاجرين، يُعدّ الإيمان "بالعين" متجذرًا بعمق. فكل ما يسوء، من المرض إلى مشاكل العلاقات أو خسارة المال، يُنسب كثيرًا إلى شخص "نظر إليك بحسد". وبصفتي إمامًا، يُطلب مني كثيرًا أن أقرأ القرآن الكريم على شخص يُظن أنه

[184] سورة الشمس، آية (9).

أُصيب بالعين أو بالسحر. وأنا أفعل ذلك بسرور، لأن القرآن شفاء. لكن ما لا أفهمه أحيانًا هو أن بعض الناس يتعاملون معي كما لو كنت نوعًا من السحرة. وكأن التلاوة وحدها ستغيّر كل شيء بطريقة سحرية، من غير محاسبة للنفس، ولا طلبٍ للمساعدة الطبية، ولا تعديلٍ للسلوك، ولا تقويةٍ للتوكل على الله.

وما نراه اليوم كثيرًا في العالم هو أن الناس أصبحوا يرون العين في كل شيء: في حادث سيارة، أو مرض، أو الرسوب في امتحان... ونتيجة لذلك، صاروا يلبسون التمائم[185]، والحلي، والعيون الزرقاء طلبًا للحماية. لأنهم يظنون أن الآخرين قد يُصيبونهم عمدًا بالعين، أو أن الأطفال والأحباب معرضون للخطر بسبب جمالهم، وفي إفريقيا سمعت أمهات يقلن: "انزعوا عنه ملابسه الجميلة، وإلا سيُصاب بالعين!" وفي آسيا كان الأطفال الرضع يحملون بقعًا سوداء أو خرزًا أزرق،[186] وفي أوروبا، تُستعمل أحيانًا آيات من القرآن الكريم على شكل تمائم، أو يُعلّق "العين الزرقاء" كما هو شائع عند بعض الأتراك. لكن كل هذا يميل إلى الخرافة، والخرافة تقترب خطرًا من الشرك إذا اعتقد الإنسان أن شيئًا أو شخصًا غير الله يملك التأثير في حياتنا.

13.2 الآيات القرآنية:

الآية الأولى: قال تعالى: ﴿**وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ**﴾[187]

- يقول ابن عاشور إن هذه الآية صورة بلاغية لشدة الحسد والبغضاء عند الكافرين. فهم ينظرون نظرة حادة شديدة، حتى يبدو كأنهم يستطيعون إسقاطه بنظراتهم. لكن هذا ليس إثباتًا لقوة سحرية، بل أسلوب بلاغي.
- ويؤكد القرطبي أن المقصود هنا مجاز، كما يقال في اللغة: "يأكله بعينيه". فليس في الآية دليل على أن النظرة تُحدث ضررًا ماديًا بذاتها من غير إرادة الله.
- ويرى الرازي أن العين لا يمكن أن يكون لها أثر إلا بإذن الله. فالآية تدعو إلى التوكل والثبات، لا إلى

[185] التميمة: أشياء مثل الخرز والطلاسم وتعلق على الرقبة أو في السيارة، ومدخل البيت، يكتب بها كلمات غير مفهومة اعتقاداً من الناس أنها قوة خفية تدفع الشرور كالحسد والعين، وقد تجلب الحظ والرزق.

[186] الخرزة الزرقا: تميمة تُصنع باللون الأزرق لترمز إلى المياه العذبة التي تمنح الحياة، يعتقد الكثيرون أنها تبعد الشر وتصد الحسد.

[187] سورة القلم، آية (51).

الارتياب والوسواس.[188]

أما "العين" كما يفهمها كثير من الناس اليوم، أي أن نظرة حسد قادرة بذاتها على الإضرار بصحة الإنسان، أو بمساره في الحياة، أو بنجاحه، مستقلةً عن مشيئة الله، فهذا إشكال عقدي كبير. لأن: لا أحد يستطيع أن يضرّ قدرك إلا إذا شاء الله ذلك، فكل شيء يقع بإذنه. والعين ليست قوة مستقلة بذاتها.

13.3 تأمل في الحديث:

الحديث: قال النبي ﷺ: "**اَلْعَيْنُ حَقٌّ، وَلَوْ كَانَ شَيْءٌ يُغَيِّرُ الْقَدَرَ لَكَانَتِ الْعَيْنُ**"[189]

التأمل: لكن انتبه هنا: حتى في هذا الحديث، لم يقل النبي ﷺ إن العين تغيّر القدر فعلًا. بل قال: "لو كان شيء..."، وهي عبارة شرطية. والمقصود هو تنبيه الناس إلى خطورة الحسد بوصفه مرضًا روحيًا، لا تأكيد وجود قوة شبه سحرية تستطيع أن تغيّر قدر الله.

المعنى العام للحديث: إثبات قاطع للقدر، فلا يمكن لأي شيء بما في ذلك العين، أن يغير قضاء الله وقدره، فما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن ليصيبك.

13.4 الطبقة التأملية:

ماذا يعني أن نعتقد أن نظرة، مجرد نظرة، يمكن أن تضر بصحتنا، أو بزواجنا، أو بنجاحنا؟ هذا يعني أننا أعطينا الإنسان سلطة، ولم نعطها لله. هذا يعني أننا جعلنا الخوف في مركز حياتنا، لا التوكل. فلو كانت نظرة الإنسان تملك فعلًا كل هذه القوة، فتأمل هذا المثال:

لو أن جميع المسلمين في الأرض نظروا بحقدٍ وحسد إلى مجرم حرب مثل نتنياهو، فهل كان سينهار فجأة؟ هل كان سيفقد جيشه؟ أو سلطته؟ لا. لأن الكون لا يعمل بهذه الطريقة. فما يقع إنما يقع بما أراده الله. فنظراتنا لا تملك قوةً سحرية. يمكننا أن ننظر إليه كل يوم بكراهية، لكن ذلك لا يغيّر شيئًا من قدره أو مما كُتب له. وحده الله يحدد متى يكون السقوط أو النصر.

---

[188] انظر: الجامع والتحرير ومفاتيح الغيب، تفسير سورة القلم.

[189] صحيح مسلم، حديث رقم (2188).

ولهذا يجب ألّا نصرف طاقتنا في الارتياب والاتهامات، بل في الدعاء، والإخلاص، والعمل الصالح، والتوكل. فإذا كنت تعتقد أن كل الناس يصيبونك بالعين، فعليك أن تسأل نفسك: هل أنا أعيش في الخوف أم في الثقة بالله؟ فالحماية لا تأتي من التمائم، بل من الأذكار، والقرآن، والتوكل.

13.5 الخاتمة:

العين موجودة، بمعنى أن الحسد قد يكون له أثر روحي، خاصةً إذا لم يحمِ الإنسان نفسه روحيًا. لكن هذا لا يعني أن نظرةً مستقلة عن إرادة الله يمكن أن تُحدث ضررًا. فمن اعتقد أن شخصًا يستطيع بعينه أن يحطم حياتك، فقد منح هذا الشخص قدرةً إلهية، وهذا من الشرك. **ولذلك يجب أن يكون تركيزنا على:**

* الحماية الروحية من خلال أذكار الصباح والمساء، * الإكثار من قراءة سورة الفلق، وسورة الناس، وسورة الإخلاص، * التحصين بكلمات الله التامات، وقراءة الرقية الشرعية، * الدعاء بالحماية من الحسد، * تربية الشباب على رفض الخرافة. فلنطهّر الإيمان من البقايا الثقافية التي لا علاقة لها بالقرآن. فالمشكلة ليست في عين جارتك، بل في ضعف التوكل على الله، وقلة العلم. إن الإسلام يعلّمنا أن نعمل، وأن نتوكل، وأن نرى الله وحده مصدر القوة. ومن اتخذ الله وليًّا وحافظًا، فلا شيء عليه أن يخافه.

الفصل 14 (النفاق) مرض الوجوه المزدوجة:

14.1 الملاحظة:

النفاق من أخطر أمراض هذا العصر. نحن نعيش في زمنٍ تتباعد فيه الكلمات عن الأفعال أكثر فأكثر. يتحدث الناس عن الإيمان، والعدالة، والتضامن، لكن أفعالهم تكشف عكس ذلك. يُتحدث عن الإسلام، بينما يقع خلف الأبواب المغلقة ظلم، وكذب، وفساد، وعلى وسائل التواصل الاجتماعي، يُعرَض الإيمان وكأنه مشهد، لكن المقصود في كثير من الأحيان هو المكانة والإعجابات، لا الإخلاص. وفي المسجد يُظهِر الإنسان التواضع، بينما يطغى في بيته الكبر. بعضهم يتحدث عن فلسطين، لكنه يظلم أسرته. والأسوأ من ذلك أن بعض القادة يستعملون اسم الإسلام، ثم يمارسون القمع، أو يسرقون أموال الأمة، أو يخونون أمانة الناس، وحتى في الأوساط الروحية، نرى من يدعون غيرهم إلى الطهارة، بينما قلوبهم ملوثة بالكبرياء، أو الحقد، أو الخداع. وهذا التناقض لا يدمر الفرد فقط، بل يدمر الثقة داخل المجتمع أيضًا، وقد كان أكثر ما حذّر منه النبي ﷺ هو النفاق، لأنه خطر يتسلل من الداخل، يصعب كشفه، وغالبًا ما يتخفى خلف كلمات دينية، فهو كالسوس الذي ينخر في عروق الشجر فتنهار بعد فترة وجيزة.

14.2 الآيات القرآنية:

الآية الأولى: قال تعالى: ﴿**يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُواْ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُواْ نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ**﴾[190]

• يقول ابن عاشور إن هذه الآية ترسم صورةً لواقع يوم القيامة: فالمنافقون حاولوا في الدنيا أن يبدوا كالمؤمنين، لكنهم كانوا يفتقرون إلى الصفاء الداخلي.

• ويشرح الرازي أن النور هنا رمز للإيمان الصادق. فالمنافقون لم يكن عندهم إلا ظاهر الدين، أما جوهره فكان غائبًا عنهم.

• ويؤكد القرطبي أن الجدار هنا رمز للفصل بين المظهر الخارجي والحقيقة الباطنة.[191]

الآية الثانية: قال تعالى: ﴿**يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ**﴾[192]

• يؤكد ابن عاشور أن المنافق لا ينكر علنًا، لكنه يعيش في الوهم، والسلبية، والشك.

• ويشرح الرازي الآية تكشف مراحل الانهيار الداخلي: خداع النفس، ثم التأجيل، ثم الشك، ثم الاغترار.

• ويشير القرطبي إلى أن المنافق لا يسلم لله حقيقةً من الداخل، بل يبقى كل شيء عنده مجرد تمثيل، حتى يفوت الأوان.[193]

---

[190] سورة الحديد، آية (13).

[191] انظر: الجامع والتحرير ومفاتيح الغيب، تفسير سورة الحديد.

[192] سورة الحديد، آية (14).

[193] انظر: الجامع والتحرير ومفاتيح الغيب، تفسير سورة الحديد.

الآية الثالثة: قال تعالى: ﴿**ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ۚ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ۗ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ**﴾[194]

• يقول القرطبي إن هذه الآية تقدم وصفًا كاملًا للتدين المقلوب: يُروَّج فيه للمنكر، ويُمنَع فيه المعروف.

• ويلاحظ ابن عاشور أن هؤلاء المنافقين لا يكتفون بالموقف السلبي، بل يمارسون تأثيرًا فعليًا.

• ويسمي الرازي حالهم "فسقًا"، مما يدل على أن نفاقهم يولد أفعالًا تفسد المجتمع وتهدمه.[195]

14.3 تأمل في الحديث:

الحديث: قال النبي ﷺ: "**آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلَاثٌ: إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ**""[196]
مثال من حياة النبي ﷺ: في غزوة تبوك[197]، في السنة التاسعة للهجرة، دعا النبي ﷺ المسلمين إلى البذل والخروج معه إلى الثغر. فبحث المنافقون عن الأعذار، وأمسكوا أموالهم، بل وحاولوا أيضًا أن يثبطوا غيرهم عن الخروج. تظاهروا بالولاء، لكن أفعالهم ومواقفهم كشفت حقيقة ما في قلوبهم.

التأمل: إن الاختبار الحقيقي للإخلاص يظهر عند البذل، والمشقة، وتحمل المسؤولية. فالنفاق ليس مجرد الوقوع في أخطاء، بل هو أن يؤدي الإنسان دورًا أمام الناس، بينما قلبه يحمل الخداع.

14.4 الطبقة التأملية:

تُظهر لنا هذه الآيات والحديث أن النفاق ليس مجرد مسألة تتعلق بالكفر القلبي، بل إنه يبدأ كثيرًا بفصلٍ خفي بين المظهر الخارجي والحقيقة الباطنة. فقد يبدو الإنسان مندمجًا في المجتمع، حاضرًا في الصلوات، ومواظبًا على المجالس الدينية، لكنه يحمل في داخله قلبًا فارغًا.

---

[194] سورة التوبة، آية (67).

[195] انظر: الجامع والتحرير ومفاتيح الغيب، تفسير سورة التوبة.

[196] صحيح البخاري، حديث رقم (33)، صحيح مسلم، حديث رقم (59).

[197] تبوك: كبرى مدن شمال غرب السعودية، كانت موطناً لأمم عديدة قبل الإسلام، تُعد منطقة تبوك البوابة الشمالية إلى الجزيرة العربية، وهي من المناطق الزراعية المهمة في المملكة.

ويعرض القرآن هذا المشهد بوضوح يوم القيامة: المنافقون يستعطفون المؤمنين ليأخذوا من نورهم، فيُقال لهم إن عليهم أن يبحثوا عن نورهم بأنفسهم. وهذا يعلّمنا أن الإيمان لا يُستعار ولا يُقلَّد، بل لا بد أن ينمو من الداخل، ويتغذى على الإخلاص والتفاني.

وفي زماننا، أخذ النفاق أشكالًا جديدة. فالشباب ينشأ في عالمٍ يبدو فيه العرض الخارجي أهم من الحقيقة الداخلية. وقد تصبح الإعجابات، والمتابعون، والاعتراف العلني، فتنةً خفية تدفع الإنسان إلى إظهار الدين أمام الكاميرا، بينما تضعف النية في الداخل. وهنا تبرز مهمة تربوية عظيمة: لا أن نغذي الواجهة، بل أن نربي القلب على الإخلاص.

ويبيّن حديث النبي ﷺ أن النفاق يظهر في ثلاث صفات أساسية: الكذب، ونقض الوعود، وخيانة الأمانة. فالمسألة لا تتعلق بالعقيدة المجردة فقط، بل بالشخصية والسلوك قبل كل شيء. والشباب الذين يعتادون الكذب، أو كسر المواعيد، أو خيانة الثقة، ينمون من حيث لا يشعرون في ظل النفاق.

أما سيرة تبوك، فتقدم مثالًا مؤلمًا لكنه بالغ الدرس: فالمنافقون أمسكوا أموالهم وجهدهم في وقت كانت الأمة بحاجة إلى البذل. ولم تكن مشكلتهم هي العجز، بل فقدان الصدق. فالامتحان الحقيقي للإيمان يظهر في أوقات المشقة والتضحية.

وبالنسبة إلينا اليوم، فإن هذا يعني أن الروحانية الحقيقية لا تُقاس بالكلام ولا بالأفعال العلنية، بل بكيفية تصرفنا عند الشدائد، والمسؤوليات، والتضحيات. فالنفاق ليس زلةً عابرة، بل هو أسلوب حياة: أن تمثل أمام الناس، بينما يحمل القلب نصًا آخر. ولا حماية من ذلك إلا بالمحاسبة الدائمة للنفس، وتزكية النوايا، والشجاعة في الاعتراف بالأخطاء، من غير الهروب إلى الكذب أو الأعذار الزائفة.

14.5 الخاتمة:

النفاق هو أكثر أمراض القلب تدميرًا. فهو يهدم الإيمان من الداخل، حتى وإن بقي المظهر الخارجي قائمًا. وقد حذّر القرآن من المنافقين مرارًا، بل أكثر مما حذّر من الكافرين الظاهرين، لأن ازدواجيتهم أخطر على المجتمع. فالإخلاص هو الذي ينجي، والرياء هو الذي يهلك. والنور يوم القيامة لا يُعطى إلا لمن كان صادقًا في هذه الدنيا. ولهذا يجب علينا أن نفتش قلوبنا كل يوم، وأن نزكّي أنفسنا، وأن نسأل الله أن يجعلنا من أصحاب الوجه الواحد، واللسان الواحد، والقلب الصافي.

ويبين القرآن والسنة أن هناك أنواع من النفاق. الأول هو النفاق الاعتقادي: أن يقول الإنسان إنه مؤمن، بينما لا يؤمن قلبه في الحقيقة. وهذا أخطر أنواع الكفر، ويؤدي إلى أسفل دركات النار، كما قال الله تعالى: ﴿**إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ**﴾[198]. وأما النوع الثاني فهو النفاق العملي: أن يكون الإنسان مؤمنًا، لكنه يتصرف بما يناقض هذا الإيمان. ويظهر ذلك في سلوكيات مثل الكذب، ونقض العهود، والبخل، والصدّ عن الخير، أو التهاون في الصلاة.

لكن ماذا يحدث إذا استمر هذا النفاق العملي؟ إن الآيات التي مرت سابقاً تبين أن المنافقين لن يكون لهم نور يوم القيامة. فقد ظنوا أنهم من أهل الإيمان، لكن التأجيل، والشك، والأماني الكاذبة، جعلتهم عميانًا. وسيقولون: "ألم نكن معكم؟" فيأتيهم الجواب القاسي: "بلى، ولكنكم فتنتم أنفسكم، وتربصتم، وارتبتم، وغرتكم الأماني." وفي آية أخرى يصف الله المنافقين بأنهم يأمرون بالمنكر، وينهون عن المعروف، وينسون الله. فتغدو قلوبهم فاسقة، متمردة على الطاعة، حتى يصلوا إلى حالٍ يلامس الكفر. ووفقًا للعلماء، ومنهم ابن عاشور والقرطبي، فإن الإنسان إذا استمر على هذه السلوكيات حتى انفصل قلبه تمامًا عن الإيمان، فإن النفاق العملي يتحول إلى نفاق اعتقادي. وعندها يكون صاحبه يوم القيامة من المنافقين الحقيقيين، ويُعامل معاملة الكفار. فما الذي نتعلمه من ذلك؟ إن النفاق يبدأ غالبًا صغيرًا: كذبة، أو صلاة مضيعة، أو وعد مكسور. لكن من استمر في الذنب بلا ندم، ومن لم يتعظ، وظل يقنع نفسه بأنه لا يزال مؤمنًا على خير حال، فهو معرّض في النهاية لأن يُحشر مع المنافقين. وهؤلاء لا نور لهم، ويُفصلون عن أهل الصدق، ويكشفهم الله بنفسه.

والحل واضح: الإخلاص، والتوبة، والمحاسبة المستمرة للنفس، ومجاهدة النفاق في القلب. وكما قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: "إن المؤمن الحقيقي يخاف من النفاق، حتى ولو كثرت حسناته.

الفصل 15 (الفردانية والأنانية) أزمة النفس:

15.1 الملاحظة:

في زماننا هذا، ترُفع الأنا إلى مرتبة المثال الأعلى. "اتبع قلبك." "اهتم بنفسك أولًا." "افعل ما يجعلك سعيدًا." لم تعد هذه مجرد شعارات بريئة، بل أصبحت أنماط حياة تتغلغل بعمق في التربية، والعلاقات، والتدين، وحتى في العمل المجتمعي والنشاط العام.

[198] سورة النساء، آية (145).

فالنفس البشرية لم تعد تُدرَّب أو تُضبط، بل صارت تُغذّى وتُشجَّع. وأصبحت المسؤولية تُرى عبئًا، والخدمة تُعتبر خضوعًا، والتضحية توصف بأنها شيء قديم. كثير من الناس يطالبون بالحقوق، لكنهم يرفضون الواجبات. يطالبون بالحرية، لكنهم يهملون الارتباط بالآخرين. وهذه الثقافة القائمة على الفردانية والأنانية خلّفت آثارًا عميقة على أسرنا، ومجتمعاتنا، وصلتنا بالله.

15.2 الآيات القرآنية:

الآية الأولى: قال تعالى: ﴿**إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي**﴾[199]

• يرى ابن عاشور أن هذه الآية تدل على أن النفس بطبيعتها غير مستقرة ومائلة إلى الشهوات. وأن رحمة الله وتدخله بالهداية هما وحدهما ما يمكن أن يطهراها. ويؤكد أن الإنسان لا يستطيع أن يضبط نفسه ضبطًا كاملًا بإرادته وحدها من غير معونة إلهية.

• ويشرح القرطبي أن "النفس الأمارة" هي أدنى درجات النفس وأخطرها. ويشير إلى أهمية التهذيب والذكر في ترويضها. فهذه النفس مرتبطة بشدة بالدنيا وبالشهوة.

• ويقول الرازي إن هذه الآية تبين أن الإنسان لا يملك سيطرة كاملة على نفسه. فبدون هداية الله، ستجرّه النفس باستمرار نحو المعصية. ويشدد على ضعف الإنسان، وعلى ضرورة التواضع أمام الله.[200]

الآية الثانية: قال تعالى: ﴿**وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ**﴾[201]

• يرى ابن عاشور أن هذه الآية تحذير روحي عميق: فنسيان الله يؤدي إلى اقتلاع الإنسان من جذوره الروحية. ومن نسي الله، ضاع منه هدفه، وبوصلته الأخلاقية، ومعرفته بنفسه.

• ويقول القرطبي إن معنى "أنساهم أنفسهم" هو أنهم فقدوا إدراك مصالحهم الحقيقية، وأضاعوا أرواحهم ونجاتهم. فأهملوا مسؤوليتهم تجاه أنفسهم، وتجاه الله، وتجاه المجتمع.

---

[199] سورة يوسف، آية (53).

[200] انظر: الجامع والتحرير ومفاتيح الغيب، تفسير سورة يوسف.

[201] سورة الحشر، آية (19).

• ويرى الرازي أن هذا نتيجة سلسلة مترابطة: فترك الذكر والعبادة يؤدي إلى قسوة القلب، ثم إلى العمى الروحي. و"نسيان النفس" يعني أيضًا اختزال الإنسان نفسه إلى جسدٍ بلا رسالة.[202]

الآية الثالثة: قال تعالى: ﴿**قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا**﴾[203]

• يؤكد ابن عاشور أن التزكية، أي تطهير النفس، هي الغاية النهائية للإيمان. وهي ليست مجرد مسار روحي داخلي، بل أيضًا مهمة أخلاقية واجتماعية: فمن طهّر نفسه، طهّر سلوكه، ونيته، وعمله.

• ويوضح القرطبي أن التزكية تعني تطهير النفس من الشرك، والنفاق، والحسد، والبغضاء، والأنانية، وسائر أمراض الباطن. أما "دساها" فتعني طمر النفس تحت الذنوب، والشهوات، والخمول.

• ويصف الرازي هاتين الآيتين بأنهما "قاعدة قرآنية كبرى": فالنجاح الحقيقي لا يأتي من الخارج، من المال أو المكانة، بل من الداخل. ويشير إلى عمق لفظ "دساها"، أي ليس مجرد إهمال النفس، بل دفنها عمدًا تحت طبقات الكبر والشهوة.[204]

وتُظهر هذه الآيات بوضوح أن الإنسان يحمل في داخله ميلًا إلى الذنب والأنانية، لكنه يملك أيضًا القدرة على تزكية نفسه. والقرآن يجعل من تزكية النفس هدفًا للحياة. فمن اتبع نفسه، انحدر إلى حياة من الشهوة، والكبر، والتمركز حول الذات. ومن ربّى نفسه، ارتقى إلى حياة من العدل، والتسليم، وتحمل المسؤولية.

15.3 تأمل في الحديث:

الحديث الأول: قال النبي ﷺ: "**الْمُجَاهِدُ مَنْ جَاهَدَ نَفْسَهُ فِي طاعة اللَّهِ**"[205]
التأمل: يعلّمنا هذا الحديث أن الصراع الداخلي ضد ميول الأنا هو الجهاد الأساسي. فليس القوي هو من يصرخ أو يتظاهر بالقوة، بل القوي هو من يملك غضبه، وكبره، وطمعه، وجبنه.

---

[202] انظر: الجامع والتحرير ومفاتيح الغيب، تفسير سورة الحشر.
[203] سورة الشمس، آية (8_9).
[204] انظر: الجامع والتحرير ومفاتيح الغيب، تفسير سورة الشمس.
[205] سنن الترمذي، حديث رقم (1621).

المعنى العام للحديث: هذا يعني جهاد النفس، وهذا الجهاد يحتاج إلى صبر فمن صبر على مجاهدة نفسه وهواه وشيطانه، غلبه، وحصل له النصر والظفر وملك نفسه، فصار عزيزاً ملكاً، ومَن جزع ولم يصبر على مجاهدة ذلك، غُلب وقُهر.

15.4 الطبقة التأملية:

يُبيّن القرآن والحديث أن أكبر عدو للإنسان لا يكون غالبًا خارجَه، بل في داخله: النفس. فبينما تعلّمنا الدنيا أن السعادة تكمن في اتباع الرغبات، يعلّمنا الإسلام أن الحرية الحقيقية تكمن في السيطرة على تلك الرغبات، وهذا يعني أن كل يوم هو ساحة صراع، لا فقط ضد الظلم خارجنا، بل قبل ذلك ضد الكسل، والكبر، والشهوة في داخلنا. ومَن لم يغلب أنانيته، فلن يثبت في الصلاة، ولن يكون عادلًا في معاملته، ولن يخلص في نيته. وفي زماننا، نرى كيف أن ثقافة الفردانية تغذي الأنا بدل أن تروّضه. فكل شيء يدور حول "أنا": وقتي، وحقوقي، وراحتي. **لكن القرآن يعلّمنا:**

• ضبط النفس بدلاً من تمجيد الذات. فالمؤمن القوي ليس من يترك نفسه تنطلق حيث شاءت، بل من يستطيع أن يكبحها.

• الخدمة بدلاً من المصلحة الشخصية. فأعظم الشرف ليس فيما تأخذه، بل فيما تعطيه.

• المسؤولية بدل السهولة.
فالزواج، والأسرة، والمجتمع، لا تنمو بالرغبات، بل بالتضحيات.

ولهذا، من الضروري أن نعيد إلى أسرنا ومجتمعاتنا لغة التزكية: لغة تطهير النفس. وهذا يعني أن نعلّم أبناءنا ليس فقط كيف ينجحون في المدرسة، بل أيضًا كيف يتعاملون مع غضبهم، وحسدهم، وكبرهم. وأن نهيّئ الشباب لا للعمل فقط، بل أيضًا لتحمل المسؤولية، والصبر، والتضحية.

وهذه هي الأزمة الحقيقية في عصرنا: ليست قلة المعرفة أو الوسائل، بل كثرة الأنا. والحل ليس في مزيد من الشعارات أو كتب تطوير الذات، بل في العودة إلى الله، والذكر اليومي، والصلاة، وتدريب النفس على الشكر، والصبر، والإخلاص.

15.5 الخاتمة:

الأنا ليس عدوًا نهزمه مرة واحدة، بل رفيقًا يتحدانا طوال حياتنا. والقرآن يعلّمنا أن النجاح يكمن في تزكية النفس، وأن الخسارة تكمن في إهمالها. وفي عالمٍ يضع "الأنا" باستمرار في المركز، يدعونا الإسلام إلى أن نرتفع فوق أنفسنا، فمن عاش لنفسه، بقي أسير الشهوة وعدم الرضا. ومن عاش لله، وجد السكينة، والاتجاه، والكرامة. فالمجتمعات الثابتة لا يبنيها أناس لا يفعلون إلا الأخذ، بل يبنيها أناس يروّضون أنفسهم ويتعلمون العطاء. نسأل الله أن يجعلنا من عباده الذين يزكون نفوسهم، ولا ينسون أنفسهم، ويفهمون أن أعظم جهاد ليس خارجنا، بل داخلنا

الفصل 16 (القناعة) غنى القلب الراضي:

16.1 الملاحظة:

القناعة هي مفتاح السكينة، لكنها في الوقت نفسه من أندر الصفات في هذا العصر. فنحن نرى اليوم ظاهرة لافتة في مجتمعاتنا: أناسًا لا ينقصهم شيء من الناحية الظاهرة، سقف فوق رؤوسهم، وطعام يومي، وأمان، ومع ذلك يواصلون طلب المساعدة، أو الهبات، أو الأشياء من الآخرين.

وأحيانًا يكونون من الأقارب في بلدان مثل باكستان،[206] أو الجزائر[207]، أو المغرب[208]، أو غيرها، يطلبون باستمرار من أقاربهم في أوروبا شيئًا: هاتفًا، أو مالًا، أو صدقة، وغالبًا من غير أن يراعوا حال من يعيش في الغرب. والأسوأ من ذلك: أنك إن لم تُحضِر شيئًا، انقطعت أخبارك عنهم. فالعلاقة لم تكن مبنية على المحبة أو القرابة، بل على التوقع. وهذا ليس فقرًا، بل عدم رضا.

لكن هذا المرض موجود عندنا أيضًا في الغرب. فليست رحلة واحدة كافية. ولا سيارة واحدة كافية. ولا مجاملة واحدة كافية. نريد مزيدًا من المال، ومزيدًا من الممتلكات، ومزيدًا من الحب، ومزيدًا من الانتباه، ومزيدًا من الإعجابات، ومزيدًا من التقدير، ولكننا لا نمتلئ أبدًا. قلوبنا متخمة بالحاجات، لكنها فارغة من الرضا، وحتى في العمل داخل Gardens of the Sincere نلاحظ هذا. أحيانًا نأتي لنهب بئر ماء، وقبل أن يكتمل المشروع نسمع طلباتٍ أخرى: مال، أو مسجد، أو طرودًا غذائية، أو المزيد... يوجد قليل من

[206] باكستان: معناها أرض الطهر، دولة في جنوب آسيا، تعتبر خامس دولة من حيث عدد السكان في العالم، عاصمتها إسلام أباد.

[207] الجزائر: دولة عربية ذات سيادة، تقع في شمال أفريقيا، تطل على البحر الأبيض المتوسط، عاصمتها وأكبر مدنها الجزائر.

[208] المغرب: دولة عربية ذات سيادة تقع في شمال أفريقيا وتطل على البحر الأبيض المتوسط، والمحيط الأطلسي، عاصمتها وأكبر مدنها الرباط.

الامتنان، وقليل من الاعتراف بما أُنجز بالفعل. وأحيانًا نقدم مشروعًا بدافع الرحمة الخالصة، فيُقال: "أهذا كل شيء؟" وعندها تتذكر تلك المرأة في تشاد التي أعطيناها كيسًا من الأرز... فبدأت تبكي من شدة الامتنان. لم تكن تملك شيئًا، لكن قلبها كان ممتلئًا. وآخرون كان عندهم كل شيء، لكن أرواحهم ظلت جائعة.

ولهذا فالقناعة ليست مسألة اقتصادية، بل حالة روحية. فلن يجد قلبك شيئًا يكفيه ما لم يمتلئ بالله. والقلب الذي يجد الله كافيًا، لا يشعر أبدًا بأنه يملك القليل.

16.2 الآيات القرآنية:

الآية الثانية: قال تعالى: ﴿**وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ**﴾[209]

• يذكر ابن عاشور أنها نزلت في سياق أناس أظهروا عدم الرضا عن التوزيع المادي. ويسمّي قوله: "حسبنا الله" صورة من صور الثبات الروحي: الاعتراف بأن الله كافٍ.

• ويشير القرطبي أن الرضا ليس استسلامًا سلبيًا، بل هو موقف من الثقة: فالله أعلم منك بما هو خير لك.

• ويسمّي الرازي الآية درسًا في العيش من غير يأس، فمن رضي بما أُعطي، عاش من غير مرارة وتكبر[210].

الآية الثانية: قال تعالى: ﴿**وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ**﴾[211]

• يقول ابن عاشور إن هذه الآية رسالة مباشرة إلى النبي ﷺ بألّا يتأثر بزينة الكافرين الظاهرة. فالقيمة الحقيقية ليست في الدنيا، بل في الآخرة.

• ويؤكد القرطبي أن التطلع إلى زينة الدنيا يصبح خطرًا حين يملأ القلب. وهذه الآية تعلّم ضبط النفس، حتى عند رؤية النجاح المادي.

---

[209] سورة التوبة، آية (59).

[210] انظر: الجامع والتحرير ومفاتيح الغيب، تفسير سورة التوبة.

[211] سورة طه، آية (131).

• ويسمي الرازي "زهرة الحياة الدنيا" لمعانًا مؤقتًا قد يخدع الروح. والقناعة هي الدرع ضد هذه الفتنة.[212]

الآية الثالثة: قال تعالى: ﴿**وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ**﴾[213]

• يوضح ابن عاشور أن الله يضيّق الرزق أو يوسّعه بحكمة، لا اعتباطًا. فكثرة المال تؤدي عند كثيرين إلى الكبر أو الطغيان.

• ويؤكد القرطبي أن هذه الآية نوع من الحماية: فقد يكون القليل أصلح لدينك. فالله يعلم مقدار المال الذي تستطيع روحك أن تتحمله.

• ويرى الرازي أن الغنى الحقيقي ليس فيما تملك، بل في كيفية تعاملك مع ما تملك. فالقناعة غنى بلا ملك، وكنز لا يفنى.[214]

وتُظهر هذه الآيات بوضوح أن الإنسان يحمل في داخله ميلًا إلى التطلع، والمقارنة، وعدم الاكتفاء، لكن الله يعلّمه أيضًا أن يربّي نفسه على الرضا. فمن ترك نفسه تجري وراء المزيد، انزلق إلى حياة من اللهاث، والحسد، والمرارة. ومن درّب نفسه على القناعة، ارتقى إلى حياة من السكينة، والاتزان، والثقة بالله.

16.3 تأمل في الحديث:

الحديث: قال النبي ﷺ: "**لَيْسَ الْغِنَى عَنْ كَثْرَةِ الْعَرَضِ، وَلَكِنَّ الْغِنَى غِنَى النَّفْسِ**"[215]

التأمل: إن الغنى الحقيقي لا يكمن في رصيدك البنكي، ولا في بيتك، ولا في سيارتك، ولا في مكانتك. بل يكمن في نفسك. فالقلب الراضي هو قلب يعرف السكينة. وقد تكون فقيرًا، لكنك تعيش كملك إذا كانت روحك شاكرة. وقد تكون غنيًا، لكنك تعيش في قلق إذا كانت نفسك لا تريد إلا المزيد.

المعنى العام للحديث: الغنى الحقيقي ليس بكثرة المال والمتاع، بل غنى القلب والقناعة، فالشخص الذي يرضى بما قسمه الله له هو الغني حقاً حتى لو كان ماله قليلاً.

---

[212] انظر: الجامع والتحرير ومفاتيح الغيب، تفسير سورة طه.

[213] سورة الشورى، آية (27).

[214] انظر: الجامع والتحرير ومفاتيح الغيب، تفسير سورة الشورى.

[215] صحيح البخاري، حديث رقم (6446).

16.4 الطبقة التأملية:

القناعة ليست شيئًا يولد مع الإنسان، بل هي صفة تحتاج إلى تربية وتشكيل. وفي مجتمع يطلب المزيد باستمرار، المزيد من المال، والمزيد من الأشياء، والمزيد من المكانة، يبدو أن "ما يكفي" لم يعد موجودًا أصلًا. ومع ذلك، فإن السكينة الحقيقية تكمن في القلب الذي يستطيع أن يقول: "الله كافينا."

لكن بدلًا من ذلك، تمتد أعيننا باستمرار إلى ما عند الآخرين. والتحذير الوارد في قوله تعالى: "ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجًا منهم" يبدو اليوم أكثر راهنية من أي وقت مضى. ففي عصر وسائل التواصل الاجتماعي، تتعرض الروح كل يوم إلى "زهرة الحياة الدنيا" عند الآخرين. رفاهية، وسفر، وسيارات، وانتباه، وإعجابات، كلها تُعرض بلا توقف. فتمتلئ النفس بالرغبات، لكنها تفرغ من القناعة. وفتنة المقارنة قاتلة للروح.

وهنا تبرز مهمة تربوية حاسمة. فالآباء الذين يكثرون من الشكوى أو يحسدون غيرهم، يزرعون في قلوب أبنائهم عدم الرضا. أما الآباء الذين يُظهرون الشكر، ويتحدثون برضا عمّا أعطاهم الله، فإنهم يربّون أبناءهم على رؤية مختلفة للعالم. فالامتنان يُتعلَّم في الحياة اليومية، لا في كتب النظريات.

وهذا يحتاج أيضًا إلى حدود. فالطفل الذي يحصل على كل ما يطلبه لا يتعلم القناعة أبدًا. وأحيانًا تكون كلمة "لا" المدروسة فعلًا من أفعال المحبة، لأنها تدرب النفس على أن تسكن فيما هو موجود بالفعل. ولا يقل عن ذلك أهمية أن نعلّم الأطفال أن هناك دائمًا من يملك أقل منهم. فمن تعلّم أن ينظر إلى من دونه بدل أن يظل دائمًا ينظر إلى من فوقه، وجد السكينة أسرع.

ومن ثم، فالقناعة ليست مسألة اقتصادية، بل حالة روحية. فالقلب الذي يجد الله كافيًا لا يعرف النقص. والتربية التي تعلّم الرضا تمنح الأطفال غنىً لا يمكن لأي مال أن يساويه.

16.5 الخاتمة:

القناعة ليست مسألة ما تملك، بل مسألة كيف ينظر قلبك إلى ما تملك. فالقرآن الكريم يعلّمنا أن من انبهر بزينة الحياة الدنيا سيبقى جائعًا أبدًا، بينما من وجد الله كافيًا نال غنىً داخليًا، حتى لو عاش في فقر.

وفي عالمٍ تجعل فيه الاستهلاكية، والمقارنة، والمثيرات المتواصلة أرواحنا قلقة، تصبح القناعة المفتاح المنسي للسكينة. وهي صفة يجب أن نعلّمها لأنفسنا، وأن نغرسها في أبنائنا بسلوكنا قبل كلامنا. فالامتنان يغذي القناعة، والقناعة تغذي السكينة، والسكينة تفتح الطريق إلى القرب من الله.

فالغنى الحقيقي إذًا، ليس في جمع المزيد، بل في القلب الذي يقول: "حسبنا الله." ويستكين لأمر الله ويرضى بما قسم الله ثم يزيد ذلك بالشكر. ﴿**وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ**﴾[216] فكن من هؤلاء، وستعيش أغنى من أصحاب المليارات في هذه الدنيا.

الفصل 17 (الصبر والشكر):

الصبر في أوقات الابتلاء، والشكر في أوقات الرخاء

17.1الملاحظة:

تتقلّب الحياة باستمرار بين الشدة واليسر. فلا أحد ينجو من الفقد، أو الحزن، أو المرض، أو الفقر. وفي الوقت نفسه، لا أحد يعيش من غير نعم: صحة، وعائلة، وطعام، وطمأنينة. ومع أن هذا التوازن في الوجود أمر طبيعي، فإن الناس كثيرًا ما يتفاعلون معه بصورة غير متوازنة.

فعند الابتلاء، يطغى الغضب، والشكوى، بل وأحيانًا اللوم الموجه إلى الله. أما عند الرخاء، فكثيرًا ما ينمو الكبر، أو اللامبالاة، أو النسيان. فيفقد القلب توازنه. نحن نتضرع إلى الله تعالى من أجل الرحمة، لكننا لا نحتمل الابتلاء. ونرغب في الرزق، لكننا ننسى واهب هذا الرزق. ونشكر إذا وقع شيء عظيم، لكننا نأخذ على أنها أمور بديهية ما يُهدى إلينا كل يوم:

الأكسجين، والماء، والنوم، وضوء الشمس، الليل، النهار، الصحة والقوة، كلها من نعم الله على الإنسان، فعليه أن يشكر الله على ما أنعم به عليه لينال أجر الشاكرين.

ويعلّمنا الإسلام أن هناك ركنين أساسيين لقلب قوي: الصبر في أوقات الشدة، والشكر في أوقات اليسر. وكلاهما من علامات قوة الإيمان. فمن فقد الصبر صار مريرًا. ومن نسي الشكر صار متكبرًا. أما من جمع بينهما، وجد التوازن، وعاش في سكينة، مهما كتب الله له.

17.2 الآيات القرآنية:

[216] سورة سبأ، آية (13).

الآية الأولى: قال تعالى:﴿**وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ**﴾[217]

• يصف ابن عاشور هذه الآيات بأنها إعداد نفسي مباشر للمؤمن لمواجهة الحياة. ويؤكد أن الله لم يقل: "إذا ابتُليتم"، بل قال: "ولنبلونكم"، أي إن الابتلاء جزء من الحياة لا محالة.

• ويشير القرطبي إلى أن الصبر هنا مرتبط بثلاثة أنواع من العطاء الإلهي: الرحمة، والصلوات، والهداية، وهي ثلاث بشارات عظيمة لمن ثبت.

• ويرى الرازي أن هذه الآيات تثبت أن الإيمان الحقيقي لا يظهر في الرخاء، بل في طريقة الاستجابة عند الفقد والابتلاء.[218]

الآية الثاني: قال تعالى: ﴿**وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ**﴾[219]

• يقول ابن عاشور إن هذا الوعد بالزيادة يشمل الزيادة الروحية والمادية معًا. فالشكر يفتح أبواب البركة في المال، والصحة، والسكينة، بل وحتى في الإيمان.

• ويوضح القرطبي أن الشكر أكثر من مجرد قول: "الحمد لله"، بل هو أيضًا عمل، وطاعة، وتواضع.

• ويشدد الرازي على أن كفران النعمة هنا ذُكر بوصفه صورة من صور الكفر، لا مجرد سوء أدب. فالشكر ليس خيارًا ثانويًا، بل واجب.[220]

الآية الثالثة: قال تعالى: ﴿**إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ**﴾[221]

• يصف ابن عاشور هذه الآية بأنها وعد فريد: ففي حين أن أعمالًا أخرى لها أجر معلوم، فإن الصبر بلغ من القيمة مبلغًا جعل أجره غير محدود.

---

[217] سورة البقرة، آية (155_157).

[218] انظر: الجامع والتحرير ومفاتيح الغيب، تفسير سورة البقرة.

[219] سورة إبراهيم، آية (7).

[220] انظر: الجامع والتحرير ومفاتيح الغيب، تفسير سورة إبراهيم.

[221] سورة الزمر، آية (10).

• ويذكر القرطبي أن الصبر له صور متعددة: الصبر على الابتلاء، والصبر على الطاعة، والصبر عن المعصية.

• ويرى الرازي أن من تعلّم الصبر امتلك أحد مفاتيح النجاح في الدين والدنيا معًا. فلا علم يثبت، ولا عبادة تكتمل، ولا زواج ينجح من غير صبر[222].

الآية الرابعة: قال تعالى: ﴿**فَٱصۡبِرۡ صَبۡرٗا جَمِيلًا**﴾[223]

• يوضح ابن عاشور أن "الصبر الجميل" هو الصبر الذي لا تصاحبه شكوى للخلق، ولا سخط، ولا تذمر، مع بقاء القلب موصولًا بالله. وقد وُجّه النبي ﷺ إلى أن يواجه رفض قومه بهذا النوع من الصبر الراقي الهادئ.

• ويعرّف القرطبي الصبر الجميل بأنه سكون القلب إلى ما قدّره الله، لا مجرد صمت اللسان. فهو صورة من صور السلام الداخلي وسط الابتلاء.

• ويميّز الرازي بين ثلاثة أنواع من الصبر:

1. صبر مع الشكوى، كما شكا يعقوب عليه السلام إلى الله.
2. صبر مع كتمان الضيق الداخلي.[224]
3. الصبر الجميل، وهو أعلى المراتب، حيث لا يبقى سخط ولا مرارة، بل تسليم وثقة فقط.

وفي هذه الآية دعوة عميقة إلى النضج الإيماني. فليس كل ابتلاء يحتاج إلى حركة ظاهرة. فبعض الابتلاءات تحتاج إلى صبر جميل، إلى تسليم لله بلا تذمر، وبلا سؤال: "لماذا أنا؟"، وبلا توجيه التهمة إلى النفس أو إلى الآخرين. وفي زماننا، كثيرًا ما يُفهم الصبر على أنه مجرد الاستمرار في الألم بصمت. لكن الصبر الجميل أعمق من ذلك بكثير. فهو:

• ليس تحمّلًا سلبيًا، بل تسليم فعّال.
• ليس كبتًا داخليًا، بل ثقة.
• ليس قناعًا للقوة، بل قلبًا يقول: "أنا أعلم أن ربي يراني."

---

[222] انظر: الجامع والتحرير ومفاتيح الغيب، تفسير سورة الزمر.

[223] سورة المعارج، آية (7).

[224] انظر: الجامع والتحرير ومفاتيح الغيب، تفسير سورة المعارج.

وتُعلّمنا هذه الآية أن هيئة صبرنا لها وزنها. فالمؤمن يُبتلى، لكن كيفية استجابته هي التي تحدد منزلته عند الله.

17.3 تأمل في الحديث:

الحديث: قال النبي ﷺ: **"عَجَبًا لأَمْرِ المُؤْمِنِ، إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ لَهُ خَيْرٌ ... إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ، فَكَانَ خَيْرًا لَّهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ، فَكَانَ خَيْرًا لَّهُ"**[225]

التأمل: بالنسبة للمؤمن، كل حالٍ ربح. فإن أُعطي، كان ذلك مع الشكر. وإن فَقَد، كان ذلك مع الصبر. فهو يرى يد الله في الرخاء وفي الابتلاء.

ولذلك فالصبر ليس مجرد احتمال للألم، بل هو إدراك لحكمة الله في الابتلاء. والشكر ليس مجرد حمد عند نعمة عظيمة، بل هو أيضًا شكر على الصغير، واليومي، وما نظنه أمرًا عاديًا.

المعنى العام للحديث: يتعجب النبي ﷺ من حال المؤمن، لأن كل ما يختاره الله له هو خير محض، في السراء يشكر الله فتزداد النعم وثواب الآخرة، وفي الضراء يصبر ويحتسب فيكون الصبر سبباً في تكفير الذنوب ورفع الدرجات.

17.4 الطبقة التأملية:

حياة المؤمن لا تدور حول تجنّب الابتلاء أو ملاحقة الرخاء، بل حول إيجاد التوازن بين الصبر والشكر. فهما جناحا القلب نفسه. ومن لا يشكر إلا في اليسر، سينكسر عند الشدة. ومن لا يعرف إلا الصبر في الألم، لكنه ينسى الشكر في النعمة، سيتصلب قلبه بالكبر. أما من ضمّهما معًا، وجد السكينة، مهما كتب الله له، ويعلّمنا الصبر الجميل أن الصبر ليس صمتًا مشدودًا على الألم، بل هو سلام داخلي. هو القلب الذي يسكن إلى ما قدّره الله ويقول: "أنا أعلم أن ربي يراني." وهذا ما يميز المؤمن عن غيره: ففي الوقت الذي يمرّ فيه الآخرون إلى المرارة أو الشكوى، يجد هو في تسليمه قوةً وثباتًا، أما الشكر، فهو أكثر من كلمات. إنه أسلوب حياة. هو أن ترى أن الأكسجين، والماء، والنوم، وضوء الشمس، نعمٌ عظيمة بقدر المال أو الصحة. وهو ألّا تنتظر حدثًا كبيرًا لتقول "الحمد لله"، بل أن تعترف بسيل النعم اليومي. ومن تعوّد هذا، عاش أخفّ روحًا، وأوسع صدرًا، وأقرب إلى الله.

[225] صحيح مسلم، حديث رقم (2999).

وفي التربية، يعني هذا أننا يجب أن نعلّم أبناءنا ألّا يشكوا فقط عند الخسارة، ولا يفرحوا فقط عند الربح، بل أن يدركوا أن الله حاضر في كل حال. فالطفل الذي يتعلم الصبر عند الإحباط، والشكر عند الهدية الصغيرة، ينشأ بقلب لا يعتمد على الظروف، بل على الله.

وقد قال النبي ﷺ: "عجبًا لأمر المؤمن، فإن أمره كله خير." وهذه هي خلاصة التربية الروحية: أن المؤمن يتعلّم أن لا شيء يقع عبثًا. ففي الرخاء يرى فرصة للشكر، وفي الشدة يرى فرصة للنمو. وهكذا تتحول كل حالة إلى مكسب، لأن الله حاضر في قلبها.

17.5 الخاتمة:

الصبر والشكر هما الركيزتان اللتان يقوم عليهما قلب المؤمن. أحدهما يحميه من المرارة عند الشدة، والآخر يحميه من الكبر عند النعمة. ومعًا يصنعان توازنًا داخليًا لا يتوقف على الظروف، بل يتجذر بالكامل في الله.

وبذلك يتعلم المؤمن أن قيمته لا تكمن فيما يملك أو يفقد، بل في كيفية استجابته. فكل حال يصبح فرصةً للاقتراب من الله. ومن جمع بين الصبر والشكر، عاش بقلبٍ مطمئن، وإيمانٍ قوي، ووجد في كل بلاء وكل نعمة طريقًا إلى قرب الله، قال تعالى: ﴿**إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ**﴾[226]

الفصل 18 (الإخلاص) الصدق لله وحده:

18.1 الملاحظة:

نحن نعيش في زمنٍ يجب أن يكون فيه كل شيء ظاهرًا: الإعجابات، والمشاهدات، والاعتراف، والتصفيق. وحتى في المجال الديني، نرى أناسًا ينجزون، وينشرون، ويتحدثون، لكن يبقى السؤال: لمن؟ هل هو حقًا لله، أم للمكانة، والتأثير، والسمعة؟ وحتى في رحلة من التسليم والتوبة مثل العمرة، نرى هذا التوتر حاضرًا. ففي حين أن الطواف يدور حول الذكر والتواضع، يتحول التركيز أحيانًا إلى الصور واللقطات المعدّلة بعناية من أجل وسائل التواصل الاجتماعي. ويقع الشباب في الحيرة بسبب ذلك: هل هذه عبادة، أم صناعة صورة؟ هل هذا اتصال بالله، أم ترويج للذات؟

والسؤال نفسه يطرح نفسه أيضًا في المشاريع الإنسانية، والحملات الدينية، والدعوة عبر الإنترنت. فالقلب يحتاج في كل مرة أن يختبر نفسه: لمن أفعل هذا حقًا؟ لله، أم للصورة التي يراها الناس عني؟ ويعلمنا القرآن

[226] سورة إبراهيم، آية (5).

أن أي عمل لا يُقبل إلا إذا أُدي بإخلاص. ولهذا بدأ النبي ﷺ رسالته بذلك التحذير الخالد: "إنما الأعمال بالنيات..." وهذه الكلمة اليوم أصدق من أي وقت مضى. وفي Gardens of the Sincere نؤمن أن نمونا، وحفظنا، وقوتنا، تنبع من كلمة واحدة جوهرية: الإخلاص. فبدون صفاء النية يفقد كل عمل قيمته. نحن لا نريد علاقات عامة بلا صفاء، ولا مشروعًا بلا عبادة، ولا فريقًا بلا نية نقية. لأن الله لا ينظر إلى الأرقام، ولا إلى الحملات، ولا إلى النتائج، بل إلى القلوب التي نعمل بها.

18.2 الآيات القرآنية:

الآية الأولى: قال تعالى: ﴿**إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ**﴾[227]

• يقول ابن عاشور إن هذه الآية تلخص جوهر الرسالة النبوية: ليست العبادة فقط، بل العبادة الموجهة لله وحده توجيهًا خالصًا، بلا مقاصد جانبية، وبلا نظر إلى الناس، وبلا رياء.

• ويذكر القرطبي أن الإخلاص شرط لقبول العمل: فمن عبد الله وهو يطلب معه شيئًا آخر، كلفت الانتباه أو الجاه، فقد أدخل الشرك في نيته.

• ويؤكد الرازي أن لفظ "مخلصًا" هنا يعني: خاليًا من الكبر، أو الدافع السياسي، أو تمجيد الذات. وعندها فقط تكون الديانة دينًا حقًا[228].

الآية الثانية: قال تعالى: ﴿**وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ**﴾[229]

• يلاحظ ابن عاشور أن الإخلاص ليس مجرد حالٍ في الصلاة، بل هو كذلك في العمل، والدعوة، والصدقة: فكل شيء يجب أن يُعاد توجيهه إلى الله.

• ويسمي القرطبي هذه الآية تكرارًا للرسالة الجامعة لكل الأنبياء: أن العبادة الخالصة هي أساس كل وحي.

• ويرى الرازي أن كلمة "مخلصين" تقتضي قطع كل نية أخرى، حتى الدوافع الخفية مثل طلب الاعتراف.[230]

---

[227] سورة الزمر، آية (2).

[228] انظر: الجامع والتحرير ومفاتيح الغيب، تفسير سورة الزمر.

[229] سورة البينة، آية (5).

[230] انظر: الجامع والتحرير ومفاتيح الغيب، تفسير سورة البينة.

18.3 تأمل في الحديث:

قال النبي ﷺ: "**إِنَّ اللَّهَ لَا يَقْبَلُ مِنَ الْعَمَلِ إِلَّا مَا كَانَ لَهُ خَالِصًا وَابْتُغِيَ بِهِ وَجْهُهُ**"[231]

التأمل: هذا الحديث واضح لا غموض فيه: فحتى أعظم الأعمال، كأن تبني مدرسة، أو تُطعم أسرة، تُرد إذا لم تكن النية خالصة. وعلى العكس من ذلك، قد يصير العمل الصغير عظيمًا جدًا إذا كان القلب نقيًا. فالإخلاص إذًا ليس تفصيلًا صغيرًا، بل هو مفتاح القبول. وبدونه يضيع كل الجهد يوم القيامة.

المعنى العام للحديث: لا يقبل الله سبحانه وتعالى عمل العبد إذا شارك فيه غيره.

18.4 الطبقة التأملية:

الإخلاص هو أكسجين العبادة. فمن دونه يفقد كل عمل قيمته، مهما بدا ذلك العمل عظيمًا أو مثيرًا للإعجاب. فبناء مسجد، أو تأسيس مدرسة، أو إطعام آلاف الناس، لا معنى له إذا كانت النية ملوثة. بينما قد يصبح العمل الصغير، كابتسامة، أو تقديم كوب ماء، أو كلمة طيبة، عظيمًا عند الله إذا كان القلب صافيًا.

وفي زماننا، اشتدت معركة الإخلاص. فالعالم يطالب بالظهور، والله يطالب بالصدق. والإعجابات، والمشاهدات، والأرقام تقيس النجاح في نظر الناس، لكن الله يزن القلوب. ولهذا صار خطر الرياء أدق من أي وقت مضى. فقد يختبئ في أفضل الأعمال: في صدقة، أو محاضرة، أو فيديو دعوي. وحتى العمرة قد تتحول إلى لحظة لصناعة الصورة إذا انتقلت النية من الله إلى الكاميرا.

إن التربية الروحية تعني أن نعلّم الشباب والمجتمعات أن يعيدوا ضبط البوصلة كل مرة بالسؤال: "لمن أفعل هذا؟" فهذا السؤال البسيط يفضح النفس. والجواب عليه هو الذي يحدد هل للعمل وزن عند الله، أم يتلاشى كالغبار في الريح.

وفي مشاريعنا ومؤسساتنا أيضًا، يبقى هذا جوهريًا. فقد تصل الحملة الإنسانية إلى آلاف الناس، لكن من دون إخلاص لا تكون إلا دعاية. وقد تحصد الكلمة الدينية التصفيق، لكن من دون إخلاص لا تكون إلا صوتًا. فالله لا ينظر إلى الكم، بل إلى السبب. وقد جعلها النبي ﷺ في غاية الوضوح: "إن الله لا يقبل من العمل إلا

[231] سنن النسائي، حديث رقم (3140).

ما كان له خالصًا وابتغي به وجهه." وهذا ليس شرطًا هامشيًا، بل هو الأصل. فمن لم يحفظ نيته، خسر كل شيء. ومن صفّى نيته، ربح حتى بالقليل.

ولهذا فالإخلاص ليس مجرد درس نتعلمه، بل هو أسلوب حياة. إنه حارس عبادتنا، ومفتاح القبول، ومصدر البركة في أعمالنا. ومن تعلّم أن يثبت هذا في قلبه، سيرى أن الله يحفظه، ويبارك عمله، ويصون اسمه، حتى من غير إعجابات، أو مشاهدات، أو اعتراف من الناس.

18.5 الخاتمة:

الإخلاص هو الجوهر الذي يمنح كل عمل ثقله عند الله. فمن دونه تفقد أعظم الجهود قيمتها، بينما يعظم العمل القليل بقلبٍ صافٍ. وفي زمن يبدو فيه الظهور أهم من الصدق، تصبح معركة النية من أعظم ابتلاءات المؤمن. وبالنسبة للشباب، والآباء، والمجتمعات، فالأمر نفسه: نجاح العبادة، أو المشاريع، أو المؤسسات، لا يُقاس بالأرقام أو الاعتراف، بل بقدر ما يكون خالصًا لله. وعندها فقط تنشأ البركة، والحفظ، والاستمرار. فمن حفظ نيته، حفظ إيمانه. ومن خلطها بالكبرياء، أو المكانة، أو السمعة، فقد أضاع الجوهر. ومفتاح القبول هو الإخلاص، ذلك السر بين العبد وربه.

وفي "Gardens of the Sincere " نختار النية قبل الصورة، والصفاء قبل الظهور، والله قبل كل شيء. والحمد لله، كان ذلك وسيبقى مصدر نمونا. نسأل الله أن يجعلنا من المخلصين، الصادقين له في العبادة، والعمل، والقول، والمقصد. آمين

الفصل 19 (الصدق) أن تعيش منسجمًا مع كلماتك:

19.1 الملاحظة:

في زمنٍ يكثر فيه التظاهر والأقنعة، أصبح الصدق الداخلي نادرًا، لكنه ضرورة للحياة. ومعناه أن يكون القلب، واللسان، والعمل، في انسجام. ما تقوله، تقصده فعلًا. وما تعد به، تفي به. وما تشعر به، تعيشه.

واسم Gardens of the Sincere لا يشير فقط إلى الإخلاص لله، بل أيضًا إلى الصدق فيما بيننا. فالصدق يجب أن يكون النغمة الأساسية في كل تعاون، وكل علاقة، وكل مؤسسة. وهذا يعني الصدق في الشراكة، والوضوح في العلاقات، والشفافية في المال والتنفيذ، وأن يكون من حولنا أناسًا لا يرتدون أقنعة.

لكن الواقع يبيّن أن هذا ليس أمرًا بديهيًا. ففي باكستان اكتشفنا أن شخصًا لم يكن ينجز العمل بأمانة، وكان يخفي نفقات ترفيهية. وفي غزة بدا أحد أفراد الفريق وكأنه وفيّ، لكنه لم يكن كذلك إلا لأجل المال. ومثل هذه التجارب تجرح بعمق، لكنها في الوقت نفسه تبيّن مدى مركزية الصدق كأساس.

والحمد لله، حين تمسكنا بالصدق، أرسل الله لنا في النهاية الأشخاص المناسبين. فالصدق يجذب الصادقين. وهذه سنة من سنن الأرواح: من كان صادقًا، جذب أهل الصدق؛ ومن عاش بالأقنعة، أُحيط بالأقنعة.

19.2 الآيات القرآنية:

الآية الأولى: قال تعالى: ﴿**مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُۖ وَمَا بَدَّلُواْ تَبْدِيلًا**﴾[232]

• يقول ابن عاشور إن هذه الآية ثناء على أولئك الذين لم يوفوا بعهدهم مع الله بالكلام فقط، بل بحياتهم كلها، سواء سقطوا شهداء أو ما زالوا ثابتين. فالصدق هنا يعني الثبات رغم الابتلاء، والضغط، والخوف.

• ويؤكد القرطبي أن "وما بدلوا تبديلًا" تشير إلى ثباتهم العملي المستمر: فلم ينحرفوا عن طريقهم، وأظهروا بمرور الزمن وفاءً ثابتًا لله.

• ويرى الرازي أن قوة لفظ "صدقوا" تكمن في أنهم لم يقطعوا عهدًا فقط، بل برهنوا عليه بالأعمال والصبر. وهذا ضد حال المنافق الذي يعد، ثم ينقض وعده حين تأتي المشقة.[233]

الآية الثانية: قال تعالى: ﴿**وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا**﴾[234]

• يوضح ابن عاشور أن صفة "صدق الوعد" مهمة حتى في الأمور الصغيرة؛ فقد قيل إن إسماعيل انتظر أيامًا في مكان الموعد. وهذا يدل على أسمى درجات الموثوقية الأخلاقية، حتى في تفاصيل الحياة اليومية.

• ويقول القرطبي إن الله مدح إسماعيل أولًا بكونه صادق الوعد قبل أن يذكر نبوته، لأن الوفاء بالوعد من أعظم علامات الصدق والسلوك النبوي.

---

[232] سورة الأحزاب، آية (23).

[233] انظر: الجامع والتحرير ومفاتيح الغيب، تفسير سورة الأحزاب.

[234] سورة مريم، آية (54).

• ويربط الرازي هذه الصفة بالتربية الروحية للنبي: فمن كان وفيًا في كلامه، كان وفيًا كذلك في الرسالة التي يحملها، ولذلك يربح ثقة الناس.[235]

19.3 تأمل في الحديث:

قال النبي ﷺ: "**عليكم بالصدق، فإن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة**"[236]

التأمل: طريق الصدق يقود خطوةً خطوة إلى الجنة. لا عبر الكلمات الكبيرة، بل عبر الثبات، والوفاء، والشفافية.

19.4 الطبقة التأملية:

الصدق أكثر من مجرد قول الحقيقة باللسان. إنه العيش بانسجام داخلي: أن يؤمن القلب، ويُثبت اللسان، وتتحرك الجوارح بما يوافق ذلك. إنه حالٌ لا يخدع فيه الإنسان نفسه، ولا يضلل الناس، ولا يعامل الله كأنه أمر ثانوي. فالصدق هو الجسر بين ما تقوله وما أنت عليه في الحقيقة.

ونحن نعيش اليوم في زمنٍ صار فيه المظهر أهم من الحقيقة الباطنة. فكثير من الناس يقولون كلامًا جميلًا، وينشرون نصوصًا دينية، ويتحدثون عن الأخلاق، لكن من ينظر إلى أفعالهم يرى شيئًا مختلفًا. وهذا ليس صدقًا، بل واجهة. وفي تربية أبنائنا، يبقى الصدق أمرًا حاسمًا. فعندما يرى الطفل أباه يقول له: "سنصلي معًا بعد قليل" ثم لا يفعل، فإنه لا يتعلم الصلاة، بل يتعلم الكذب. وعندما نخطب في المسجد عن الحقيقة، ثم نغتاب بعضنا، أو نشكو، أو نسيء استخدام أموال الناس، فإننا نقتل أخلاق جيل كامل.

وفي الإدارة، والقيادة، والتعاون، وإدارة التبرعات، يكون الصدق هو البوصلة. ومعناه: الشفافية في الميزانيات، والصدق عند الخطأ، وألّا نقدّم وعودًا فارغة للفقراء أو للمتبرعين. وفي "Gardens of the Sincere أصبحت بوصلتنا هي الصدق. فإذا كان الإنسان قادرًا على جمع المال الكثير، لكنه لا يتصف بالصدق، فإننا نفترق عنه، كما فعلنا في باكستان وغزة. فللصدق رائحة، يُعرَف بها. فهو ظاهر في نظرة الإنسان، وصوته، وحضوره، وسلوكه. ويترك أثرًا روحيًا يفوق ألف كلمة. والصدق يعني أيضًا: أن تكون نفسك دائمًا. سواء كنت

[235] انظر: الجامع والتحرير ومفاتيح الغيب، تفسير سورة مريم.

[236] صحيح البخاري، حديث رقم (6094)، صحيح مسلم، حديث رقم (1971).

في بيتك أو في بلد آخر، في صحبة الناس أو وحدك، قائدًا أو طالبًا، فإنك تحمل وجهًا واحدًا، لا قناعًا مزدوجًا.

وأتذكر لحظةً في بوركينا فاسو، حين ألقيت محاضرة أمام طلاب جامعيين. كنت أرتدي لباسًا عاديًا: قميصًا وبنطالًا، بلا لباس إمام تقليدي. وكان سائق السيارة قد كوّن حكمه مسبقًا، ورأيت ذلك في نظرته. فبالنسبة إليه، كان ينبغي للإمام أن يرتدي قميصًا طويلًا، ويضع قبعة، ويتصرف كأنه فوق الناس. لكنني ابتسمت، ولعبت مع الأطفال، وتصرفت بعفوية... ثم بدأت الكلام. عندها تغيّر كل شيء. لقد لمسهم المضمون. لا رغم بساطتي، بل بسبب صدقها.

هذا هو الصدق: أن تُبقى نفسك، في كل مكان. لا استعراض، ولا دور، ولا تمثيل. فالإسلام لا يطلب المظهرية، بل يطلب الصدق. وبالصدق تحديدًا تُلامَس القلوب. وقد عشت هذا في أماكن متعددة. فمن يجرؤ على أن يكون نفسه، مع ما فيه من نقص، لكن بلا كذب، يفتح أبوابًا إلى قلوب الآخرين.

19.5 الخاتمة:

الصدق هو الصفة التي تميز بها إبراهيم عليه السلام، والتي فرضها الله على أتباع محمد ﷺ. وهو خصلة روحية تجمع بين القوة والسكينة. قوة، لأنك لا تحتاج إلى التلاعب أو الاختباء خلف الأقنعة. وسكينة، لأنك لا تحتاج إلى أن تحافظ على نسخة ثانية من نفسك.

وقد مدح الله تعالى أهل الصدق فقال: ﴿**مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِ**﴾. فالصدق ليس ترفًا، بل أساس. فمن دونه ينهار كل جسر، وتفقد كل مؤسسة روحها، بل وتتحول أعظم أعمال الخير إلى غبار. فالله لا يقبل عمل الكاذبين، حتى لو رفعوا اسمه على لافتاتهم.

وغايتنا أن نبني Gardens of the Sincere: حدائق من الصدق والإخلاص، مواضع تشبه الجنة، لا وجود فيها للنفاق، ولا للوجوه المزدوجة، حيث تكون الوجوه واضحة والقلوب نقية. نسأل الله أن يجعلنا من أهل الصدق، الذين يقولون الحق، ويعيشون الحق، ويُختَم لهم بالحق. كما علّمنا أن ندعو: ﴿**وقل رب أدخلني مدخل صدق وأخرجني مخرج صدق**﴾[237].

[237] سورة الإسراء، آية (80).

الفصل 20 (الثبات) البقاء على طريق الله رغم كل شيء:

20.1 الملاحظة:

نرى كثيرًا من الناس يملكون نوايا جميلة، وعزائم صالحة، ولحظات دينية قوية، لكنهم مع ذلك يسقطون في الطريق. يبدأون الصلاة ثم يتركونها. ويبتعدون عن الذنوب ثم يعودون إليها. ويفتحون القرآن بحماس، لكن بعد أسابيع قليلة يختفي الانتظام.

لماذا يحدث هذا؟ لأن الثبات غالبًا غير موجود. ينقصهم نظام ثابت، وتجديد يومي للروح، ومجاهدة واعية للنفس والشهوات. ففي داخل كل واحد منا شيء يجرّه باستمرار إلى الأسفل. ويشير القرآن الكريم إلى ذلك في كثير من المواطن، فالشهوات مرض داخلي يجب مجاهدته كل يوم من جديد.

ونحن كثيرًا ما نحمي أنفسنا من الأعداء الخارجيين أو من الظروف، لكن أشد المعارك هي تلك التي نخوضها ضد كسلنا، وخمولنا، وميلنا إلى الذنب. ولا يتحقق التقدم الحقيقي إلا بالثبات: بأن نحافظ على الصلاة، ونواصل قراءة القرآن، ونراقب سلوكنا، ونعترف بأخطائنا، ولا نستسلم، حتى إذا تعثرنا.

وهذا لا يصدق فقط على الحياة الروحية، بل كذلك على ما سواها. ففي العمل، والزواج، والمشاريع، والدعوة، والقيادة: النجاح ليس لمن يبدأ بقوة، بل لمن يستمر رغم العوائق. والثبات هو الجسر بين النية والنتيجة.

فقليل دائم خير من كثير متقطع.

20.2 الآيات القرآنية:

الآية الأولى: قال تعالى: ﴿**يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ**﴾[238]

- يقول ابن عاشور إن هذه الآية لا تدعو إلى صبرٍ سلبي فقط، بل إلى موقف فعّال من المثابرة، واليقظة، والارتباط الروحي بالآخرين السائرين على الطريق نفسه.
- ويؤكد القرطبي أن معنى "ورابطوا" هو أن يبقى الإنسان مرتبطًا بالغاية الكبرى، لا فقط بالنتائج المباشرة.
- ويرى الرازي في هذه الآية أربع مراحل للنجاح:
  1. أن يضبط الإنسان نفسه،
  2. وأن يشجع غيره على الثبات،

[238] سورة آل عمران، آية (200).

3. وأن يبقى ثابتًا داخل الجماعة،

4. وأن يظل متصلًا بالتقوى.[239]

الآية الثانية: قال تعالى: ﴿**إِنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ وَٱسۡمَعُواْ وَأَطِيعُواْ وَأَنفِقُواْ خَيۡرٗا لِّأَنفُسِكُمۡۗ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ**﴾[240]

• يؤكد ابن عاشور على قوله: "ما استطعتم"، أي اتقوا الله بقدر استطاعتكم: فحتى ضيق الوسائل ليس عذرًا للاستسلام. ويصف هذه الآية بأنها خلاصة المسؤولية الروحية: فالله لا يكلّف بما لا يُطاق، لكنه يطلب منك أن تجاهد بحسب قدرتك. وهذا يقتضي وعيًا ومثابرة، لا كسلًا.

• ويقول القرطبي إن هذه الآية تنبهنا إلى أن أكبر ما يصرف الإنسان عن الثبات يأتي أحيانًا من داخله؛ من الأسرة، والمال، ومغريات الدنيا. ويربط ختام الآية، "ومن يوق شح نفسه"، بمعنى الانتصار الحقيقي على النفس. فالفائز الحقيقي ليس من يغلب الآخرين، بل من يغلب شح نفسه، وكسلها، وسلبيتها.

• ويرى الرازي أن من ينجح في التعرف على هذه الفتن اليومية وضبطها، هو الذي يطور التقوى حقًا ولا ينخدع بالمؤقت. ويشرح أن عبارة "ما استطعتم" هي أمرٌ حيّ متجدد: فهي تدعوك إلى توسيع حدودك، وفي الوقت نفسه إلى الصدق مع نفسك. فالتقوى تحتاج إلى جهد داخلي، لا إلى كمالٍ ظاهري.[241]

وتعلّمنا هذه الآية أن كل يوم هو صراع مع حدودك: طاقتك، ومالك، ونفسك. ومن يظن أنه لا ينبغي أن يفعل شيئًا حتى يكون "جاهزًا تمامًا"، فقد غاب عنه جوهر هذه الآية. فالله لا يطلب الكمال، بل يطلب الجهد اليومي بحسب الطاقة.

20.3 تأمل في الحديث:

قال النبي ﷺ: "**أحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قل**"[242]

التأمل: الله لا ينظر إلى شدة البداية، بل إلى دوام الاستمرار. • فالقليل من القرآن كل يوم، لكنه مستمر، خير من قراءة ثلاث ساعات مرة واحدة ثم الانقطاع.

• والقليل من المال الذي يُعطى كل أسبوع باستمرار أحب إلى الله من عطية كبيرة مرة واحدة بلا متابعة.

---

[239] انظر: الجامع والتحرير ومفاتيح الغيب، تفسير سورة آل عمران.

[240] سورة التغابن، آية (15_16).

[241] انظر: الجامع والتحرير ومفاتيح الغيب، تفسير سورة التغابن.

[242] صحيح البخاري، حديث رقم (6465).

لأن الاستمرار يعني: أنك جاد، وأنك ما زلت متصلًا، وأنك لم تترك الطريق.

20.4 الطبقة التأملية:

الثبات هو الجسر بين النية والنتيجة. فكثير من الناس يملكون أجمل النوايا، لكنهم يضيعون لأنهم لا يبنون نظامًا يوميًا ثابتًا. والقرآن الكريم يعلّمنا أن الإيمان ليس مجرد قناعة داخلية، بل هو تمرين دائم: استماع، وطاعة، وإنفاق، وصبر، وسقوط ثم نهوض.

وقد ذكرنا النبي ﷺ بأن الله لا ينظر إلى ضخامة العمل، بل إلى استمراره: فأحب الأعمال إليه ما دام واستمر، ولو كان قليلًا. وهذا يعني أن القليل من القرآن كل يوم أثمن من انفجار مؤقت من الحماس. وأن العطاء المتواضع المنتظم أثقل في الميزان من عظمة لحظة واحدة بلا استمرار.

وفي التربية، يعني هذا أننا يجب أن نعلّم أبناءنا أن النجاح لا يأتي في اليوم الأول. بل يحتاج إلى جهد يومي: في الصلاة، والدراسة، والسلوك. فمن تعلّم المواصلة رغم العقبات، نما قلبه قويًا. أما الشباب الذين لا يتعلمون ذلك، فيقعون في نمط "البداية الحماسية ثم الاستسلام السريع".

ومن الناحية الروحية، فإن الثبات سلاح ضد أكبر عدو: النفس والشهوات. فرغباتنا، وتأجيلنا، وكسلنا، كلها تجرّنا كل يوم إلى الأسفل. ولهذا يعلّمنا القرآن أن النصر الحقيقي ليس في هزيمة الآخرين، بل في هزيمة النفس. فالمجاهد الحقيقي هو من يغلب أناه.

ولهذا فإن إعادة الشحن أمر ضروري. فالصلاة، والقرآن، والذكر، والأعمال الصالحة، ليست إضافات هامشية، بل هي الوقود اليومي للروح. ومن دون هذا التجديد، يعود الإنسان إلى الكسل، أو مطاردة المكانة، أو تبديد الوقت. أما من ثبت، فإنه يجد الاتجاه، حتى عندما تثقل عليه الطريق.

فالثبات ليس مسألة قوة في يوم واحد، بل أمانة عبر أيام كثيرة. وفي ذلك يكمن سر النجاح، في الدين، والعمل، والعلاقات، والقيادة.

20.5 الخاتمة:

الطريق إلى الله ليس طريقًا مستقيمًا بلا عواصف. إنه طريق وعر أحيانًا، مظلم أحيانًا، ومليء بالمشتتات، لكنه الطريق الوحيد الذي يؤدي حقًا إلى غاية. ولهذا تحديدًا، فإن الثبات ضرورة لا غنى عنها.

فالثبات يعني أن تستمر في الصلاة، حتى إذا غاب عنك الخشوع. وأن تستمر في العطاء، حتى إذا تعبت. وأن تبقى راجيًا، حتى إذا خاب أملك. وأن تواصل البناء، حتى إذا لم يرك أحد. يقول الله تعالى: ﴿**واصبر فإن**

الله لا يضيع أجر المحسنين﴾[243]. فبدون الثبات لا توجد مداومة. وبدون الصبر لا يوجد نصر. وبدون الاستقامة لا وصول إلى الله. فالإيمان لا يطلب أشخاصًا كاملين، بل يطلب أشخاصًا يواصلون. نسأل الله أن يجعلنا من عباده الذين لا يبدؤون ثم ينقطعون، بل يثبتون إلى النهاية. كما قال سبحانه: ﴿**إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ...﴾**[244].

الفصل 21 (القول السديد) قوة الكلمة الصادقة:

21.1 الملاحظة:

نحن نعيش في عالمٍ امتلأ بالكلمات التي لا وزن لها. الناس يتكلمون كثيرًا، في الشارع، وفي الإعلام، وعلى وسائل التواصل الاجتماعي، لكن القليل مما يُقال يكون حقًا، أو صادقًا، أو نافعًا.

فالغيبة، والسخرية، وإنصاف الحقائق، والكلام الاستعراضي، والوعود المكسورة، كلها تفسد العلاقات. وحتى بين المسلمين، نرى كم أصبح من السهل إعطاء انطباعات زائفة، أو المبالغة، أو السكوت حين يجب الكلام، أو الكلام حين يكون الصمت أولى. وفي الدعوة عبر الإنترنت، وفي دوائر التأثير الإسلامي، تُستعمل الكلمات الجميلة كثيرًا كغلاف، لكن النية، والمضمون، والثبات، تغيب.

لكن الإسلام يعلّمنا أن الكلمة أمانة. فالكلام إمّا عبادة وإمّا معصية. وقد تنقذ كلمة واحدة زواجًا، أو تهدمه. وقد تقود جملة واحدة إنسانًا إلى الجنة، أو إلى النار. والقرآن يحذّر ويوجه. ومن أوضح الآيات في بيان قوة الكلمة السليمة ما جاء في سورة الأحزاب كما سيأتي.

21.2 الآيات القرآنية:

الآية الأولى: قال تعالى: ﴿**يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾**[245]

• ابن عاشور: يصف القول السديد بأنه "الكلمة المستقيمة في صورتها، الصادقة في نيتها، النافعة في أثرها".

---

[243] سورة هود، آية (115).

[244] سورة فصلت، آية (30).

[245] سورة الأحزاب، آية (70).

ويؤكد أن التقوى مع ضبط اللسان تقود إلى تزكية داخلية وانسجام اجتماعي.

• القرطبي: يرى أن القول السديد يشمل كل كلمة تكون صادقة، وعادلة، وفي محلها. ويقول إن هذا يشمل كذلك النصح، والحكم بين الناس، والدعوة، ما دام الكلام يخرج بلطف وصدق.

• الرازي: يركز على الصلة بين الكلمات والأعمال. فالكلمة الصادقة تقود إلى إصلاح العمل ومغفرة الذنب. أما الكلمات الفاسدة فكثيرًا ما تكون بداية الأعمال الفاسدة وفساد القلب[246].

الآية الثانية: قال تعالى: ﴿**مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ**﴾[247]

• ابن عاشور: يرى هذه الآية تحذيرًا من التهاون في الكلام. فكل كلمة، كبيرة كانت أو صغيرة، تُسجَّل. وهذا يجعل اللسان مسؤولية أخلاقية، حتى قبل اليد أو القدم.

• القرطبي: يقول إن هذه الآية دليل على أن لا كلمة تُنسى، حتى الهمس والتنهد، إلا ما كان خاليًا تمامًا من المعنى. وهذا يؤكد أهمية النية عند الكلام.

• الرازي: يربط هذه الآية بالآخرة، إذ ستكون كلماتنا يوم القيامة أدلةً لنا أو علينا. ومن آمن بهذا الرصد الإلهي، كفّ لسانه تلقائيًا.[248]

الآية الثالثة: قال تعالى: ﴿**وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمًا**﴾[249]

• ابن عاشور: يؤكد أن هذا الموقف ليس سلبية، بل اختيارًا واعيًا بألّا ينزل الإنسان إلى مستوى الجهل.

فسلامًا هنا تعني: "أنا أختار السلام بدل النزاع."

---

[246] انظر: الجامع والتحرير ومفاتيح الغيب، تفسير سورة الأحزاب.

[247] سورة ق، آية (18).

[248] انظر: الجامع والتحرير ومفاتيح الغيب، تفسير سورة ق.

[249] سورة الفرقان، آية (63).

• القرطبي: يقول إن تجنب الخصام مع الجاهلين صورة من صور السمو الأخلاقي وضبط النفس. وحتى لو كنت محقًا في المضمون، فقد تخسر أخلاقيًا بالصراخ والغضب.

• الرازي: يربط هذا السلوك بصفة عباد الرحمن الحقيقيين. فلا يستطيع أن يردّ بهذا الشكل إلا من ضبط نفسه. وهذا نوع من السيطرة الروحية الحقيقية.[250]

21.3 تأمل في الحديث:

قال النبي ﷺ: **"مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ"[251].**

ومثال آخر: لما سأل رجل النبي ﷺ: **"ما النجاة؟" قال ﷺ: "أمسك عليك لسانك."[252]**

فاللسان مفتاح إلى الجنة أو إلى الهلاك.

المعنى العام للحديث: حفظ اللسان من الكلام السيء مثل: الكذب والغيبة، فالزم بيتك أيها المؤمن واخرج لهدف ضروري، وراقب عيوب نفسك وابكِ على ذنوبك بدلاً من مراقبة عيوب الآخرين.

21.4 الطبقة التأملية:

في الإسلام، الكلام ليس مجرد صوت يخرج. فكل كلمة ننطق بها تُحصى، وتُوزن، وتُحفظ. ولهذا يعلّمنا القرآن الكريم أن الكلام مسؤولية: إمّا أن يكون عبادة، وإمّا أن يكون مصدرًا للإثم. والكلام يحتاج إلى تقوى قبل أن يخرج من اللسان، وصدق في اللسان، وحكمة أثناء النطق، وصبر بعد الكلام. وهذا يعني أننا يجب أن نكون واعين لما نقول، وأن تكون كلماتنا صادقة وعادلة، وأن نختارها بحكمة، وأن نتحلى بالصبر إذا لم تجد كلماتنا قبولًا فوريًا. وتظهر هذه المسؤولية بأوضح صورها في بيوتنا. ففي التعامل مع الزوج أو الزوجة والأبناء، قد ترتفع المشاعر، لكن في تلك اللحظات تحديدًا يظهر مبدأ "القول السديد". أي أن نتكلم بلا صراخ، وبلا إهانة، وبلا عدوانية سلبية، بل بثبات، وهدوء، ووضوح، وصدق.

---

[250] انظر: الجامع والتحرير ومفاتيح الغيب، تفسير سورة الفرقان.

[251] صحيح البخاري، حديث رقم (6018).

[252] سنن الترمذي، حديث رقم (2406).

وعندما يغضب الطرف الآخر، أو يتصرف بجهل، أو يرفع صوته، يذكرنا القرآن بمثال عباد الرحمن: "قالوا سلامًا." أي: اختر السلام بدل الصراع، وابتعد عن دائرة الخصام، ولا تسمح لنفسك أن تُسحب إلى الأسفل.

والتربية تبدأ بالقدوة. فأبناؤنا لا يتعلمون فقط مما نعلّمهم، بل مما يسمعوننا نقولوه ويروننا نفعله. فإذا كنا نحن نتكلم بكلمات السكينة، والصدق، والكرامة، نشأ هؤلاء الأبناء على هذه اللغة. فاللسان مفتاح إلى الجنة أو إلى الهلاك، ونحن نقرر كل يوم في أي اتجاه نستخدمه.

21.5 الخاتمة:

الكلمة أمانة. قد تصلح زواجًا أو تهدمه، وقد تواسي قلبًا أو تجرحه، وقد تبني مجتمعًا أو تفسده. ويبيّن القرآن الكريم والسنة النبوية أن اللسان كثيرًا ما يكون أخطر من اليد، لأن أثر الأفعال يبقى أحيانًا محدودًا، بينما تمتد الكلمة أبعد، وتترك أثرًا، وقد تؤثر حتى في أجيال كاملة. ولهذا يدعو الله المؤمنين إلى أن يقولوا قولًا سديدًا: الكلمة الصحيحة، الصادقة، والمخلصة. وليس الأمر مسألة بلاغة أو فصاحة، بل مسألة تقوى قبل الكلام، وصدق في الكلام، وحكمة أثناء الكلام، وصبر بعده. فالمؤمن لا يزن كلماته بوقعها على الناس، بل بثقلها عند الله.

وفي زمن وسائل التواصل، والتسويق، والرأي العام، تصبح هذه الرسالة أشد إلحاحًا من أي وقت مضى. فكلمات كثيرة تدور بلا وزن: غيبة، وسخرية، ووعود مكسورة، وانطباعات زائفة. لكن الله يذكرنا أن: "ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد" فكل كلمة ستعود إلينا يوم القيامة: إما شاهدة لنا، أو شاهدة علينا.

وهذه المسؤولية تبدأ من الأمور الصغيرة: في بيوتنا، وفي تعاملنا مع الزوج أو الزوجة والأبناء. ففي الأماكن التي ترتفع فيها المشاعر بسرعة، يظهر وزن القول السديد. فالكلمات الصادقة، الهادئة، المحترمة، تبني الثقة والسلام؛ أما الكلمات الجارحة أو الصارخة، فتهدم العلاقات وتكسر القلوب. وأبناؤنا يتعلمون الكلام كما يسمعوننا نتكلم. فمن أراد أبناءً يتكلمون بالحق والحكمة، فعليه أن يجسد ذلك بنفسه.

ومن هنا يتضح أن الكلمة ليست مجرد وسيلة للتواصل، بل ميزانًا روحيًا. فالكلمة الطيبة تقود إلى أعمال طيبة، والأعمال الطيبة تقود إلى قلوب طاهرة. ومن تكلم بهذه الطريقة، نال الوعد الذي وعده الله به في القرآن: مغفرة، وإصلاحًا لأعماله، وفوزًا عظيمًا. فاللسان مفتاح إلى الجنة أو إلى الهلاك. ومن حفظ لسانه، حفظ قلبه. ومن حفظ قلبه، حفظ مصيره.

الفصل 22 (حُسن الخلق) القوة الحقيقية للمؤمن:

22.1 الملاحظة:

أحيانًا لا تحتاج إلى أن تتكلم. فالسلوك نفسه يتكلم كثيرًا. هيئتك، ونبرتك، وطريقتك في معاملة الناس، ذلك كله يكون في كثير من الأحيان هو الدعوة الحقيقية إلى الإسلام. فالكلمات قد تقنع، لكن السلوك هو الذي يلامس القلب. ونحن جميعًا نعرف أناسًا يصلّون، ويصومون، ويحجّون... لكن سلوكهم بالكاد يتغير. وكأن أركان الإسلام مجرد طقوس، مع أنها في الحقيقة شُرعت لتُربّينا. فممارساتنا الروحية ليست أعمالًا منفصلة، بل هي تربية. إنها تصوغ الشخصية.

فالصلاة تعلّمنا الثبات، والطهارة، والثقة، والانضباط، والالتزام بالمواقيت. والصيام يدرّبنا على الصبر، وضبط النفس، والتعاطف. والزكاة تعلّمنا الكرم والمسؤولية الاجتماعية. والحج يعلّمنا التواضع، والنظام، وترك التعلّق بالراحة. فكل ركن يساهم في بناء إنسان أخلاقي، وبعد كل سنة، كان ينبغي لنا كمسلمين أن نصبح نسخةً أفضل من أنفسنا. لا في العلم فقط، بل في السلوك قبل كل شيء. لكن إذا كنا صادقين، فإن هذا لا يظهر كثيرًا في الواقع. فكثير من المسلمين يعرفون الأحكام، لكنهم يفقدون هدوءهم عند أول نزاع. ويقرؤون القرآن، ثم يغتابون في اليوم التالي. ويحبون النبي ﷺ، لكن سلوكهم لا يشبه سلوكه.

وأشد ما يؤلم أن حُسن الخلق ينبغي أن يظهر أولًا عند من يعرفوننا أكثر من غيرهم: والدينا، وأزواجنا، وأبنائنا. هناك، بين جدران البيت، يوجد الامتحان الحقيقي للأخلاق. لا على المنبر. ولا على الإنترنت. بل في البيت. فمن السهل أن يكون الإنسان لطيفًا مع الغرباء. لكن الأخلاق الحقيقية تظهر حين يبقى لطيفًا مع من يعرفه أكثر الناس. ونحن ننسى أحيانًا أن الأثر الأكبر لا يأتي من العلم أو المناظرات، بل من السلوك. فكم من إنسان دخل الإسلام بسبب أخلاق مسلم؟

يكفي أن نتأمل مثال الصحابي الذي أرسله النبي ﷺ إلى اليمن ليدعو الناس إلى الإسلام. وتذكر الروايات أنه معاذ بن جبل[253]، شابًا جمع بين العلم والخلق. وقد أعطاه النبي ﷺ توجيهات واضحة: ابدأ بدعوتهم إلى التوحيد، وكن رفيقًا. وفي النهاية دخلت قبائل كاملة في الإسلام، لا بالقوة ولا بالمظاهر، بل من خلال نموذج السلوك.

[253] معاذ بن جبل: صحابي جليل، أبو عبد الرحمن الأنصاري، الخزرجي، فقيه، وقارئ للقرآن، راوٍ للحديث النبوي، أسلم وعمره 18 سنة، وشهد بيعة العقبة الثانية، وشهد المشاهد كلها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، توفي بالشام في طاعون عمواس.

وهذا لا يزال يحدث إلى اليوم. فقد كان لي تلميذ في مدرسة حكومية طلب من الإدارة أن يُسمح له بأداء صلاته. ومن حيث الأصل، كان ذلك ممنوعًا داخل المبنى. ومع ذلك سمحوا له. لماذا؟ لأنه كان تلميذًا قدوة. أفضل العلامات. وأفضل الأخلاق. الجميع كانوا يحبونه: المعلمون، والتلاميذ، والإدارة. لقد كان سلوكه قد فتح القلوب قبل أن بنطق بطلبه.

ومثال آخر من تجربتي في التعليم: كان لدي تلميذان في إحدى المدارس وهما غوركان وجمشيد، وقد قدّما النموذج الحي للسلوك الإسلامي. لا بالكلمات، بل بأخلاقهما، وأدبهما، واحترامهما، وصدقهما. وقد تأثر زميلهما في الصف فرانسيسكو إلى درجة أنه قرر أن يعتنق الإسلام. وكان من شرفي في النهاية أن أُلقّنه الشهادة. وهذه الحادثة تذكرنا أن الدعوة بالسلوك أقوى في كثير من الأحيان من ألف كلمة. فالابتسامة، والأدب، واحترام الآخرين، هي الأدلة الحقيقية على إسلامنا. فمن سمّى نفسه مسلمًا وكان فظًّا، أو غير صبور، أو متكبرًا، فإنه ينفّر الناس. أما من كان متواضعًا ولطيفًا، فإنه يفتح القلوب، وهو تطبيق عملي لما جاء في كتاب الله عز وجل حيث قال: ﴿**ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك**﴾[254]

وأنا أحاول بنفسي أن أطبق هذا أيضًا في عالم كرة القدم، وهو بيئة ترتفع فيها المشاعر كثيرًا، ويفقد فيها كثير من المسلمين ضبط النفس. ففي كل مباراة أحاول أن أكون مسلمًا لا بالاسم فقط، بل في السلوك أيضًا. وما زلت أذكر مباراة مهمة على اللقب، قال لي فيها المدرب: "تجرأ عليه قليلًا، واضربه من وراء ظهر الحكم." لكنني أجبته بلطف وأدب: "لا أستطيع. أنا مسلم. في كل مكان." ففهم.

هذه هي اللحظات التي تبقى فعلًا في الذاكرة. هذه هي الأعمال التي تلامس الأرواح. لا بالكلمات الكبيرة، بل بالسلوك الصغير. فالإسلام لم يأتِ فقط ليجعل الإنسان مؤمنًا، بل ليحسن خلقه قبل كل شيء. ولم يقل النبي ﷺ: "بُعثت لأعطيكم كثيرًا من العلم." بل قال: "**إنما بُعثت لأتمم مكارم الأخلاق.**"[255]

22.2 الآيات القرآنية:

الآية الأولى: قال تعالى: ﴿**لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا**﴾[256]

---

[254] سورة آل عمران، آية رقم (159).

[255] مسند أحمد، حديث رقم (8952).

[256] سورة الأحزاب، آية (21).

• يقول ابن عاشور إن هذه الآية تجعل النبي ﷺ في مركز القدوة الأخلاقية والروحية. ويبين أن "أسوة حسنة" لا تعني أفعاله فقط، بل أيضًا ردود أفعاله، وصبره، وطريقته في معاملة الناس، خاصةً في أوقات الضغط، والحرب، والتوتر الاجتماعي.

• ويؤكد القرطبي أن هذه الآية تدل على أن اتباع النبي ﷺ لا يقتصر على الظواهر، بل يجب أن يظهر قبل كل شيء في السلوك، وضبط النفس، ومعاملة الآخرين.

• ويرى الرازي أن وظيفة النبي ﷺ كقدوة لا تؤثر إلا فيمن كان يرجو الله واليوم الآخر، أي فيمن هو مستعد لأن يصوغ نفسه على مثال أخلاقي أعلى[257].

وقد نزلت هذه الآية في واحدة من أصعب مراحل حياة النبي ﷺ: غزوة الأحزاب. فقد اجتمعت جزيرة العرب كلها تقريبًا ضده. وكانت المدينة محاصرة. والجوع والخوف يملآن المدينة. والمنافقون في الداخل يزرعون الشك. وفوق ذلك كله، كان يحمل مسؤولية أهله، وأصحابه، وأمته.

وفي هذا السياق جاء النداء: اتبعوا النبي ﷺ. لكن ليس فقط في لباسه أو مظهره، على جمال ذلك، بل قبل كل شيء في كيفية ثباته تحت ضغط يكاد يكون فوق طاقة البشر. كيف بقي هادئًا. كيف لم يُهن أحدًا. كيف تصرف بحكمة، ولين، وكرامة، في حين أن أي رجل آخر في مثل هذا الظرف كان سينهار، أو يصرخ، أو يفقد صبره.

وهذا هو المعنى الأعمق لهذه الآية: النبي ﷺ بوصفه البوصلة الأخلاقية في أوقات الخوف، والتوتر، والضغط. نعم، هو قائدنا في السنة والفقه. لكن الأهم من ذلك: هو قدوتنا في السلوك عندما تشتد الأمور.

فمن أراد اتباعه، فلا يقتصر على تقليد نعليه أو ثيابه، بل ليقلد قبل ذلك موقفه، وضبطه لنفسه، وعدله، واحترامه، حتى مع الأعداء، والمنافقين، والناس الضعيفة والموالي في بيته. هذه هي السنة الحقيقية. وهذا هو المثال الذي يقدمه الله لنا.

[257] انظر: الجامع والتحرير ومفاتيح الغيب، تفسير سورة الأحزاب.

الآية الثانية: قال تعالى: ﴿**وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ**﴾[258]

• يصف ابن عاشور هذه الآية بأنها ثورية: فهي تعلم أن أعلى رد أخلاقي ليس "الانتقام العادل"، بل المصالحة النبيلة. ويسميها استراتيجية تفوق أخلاقي: ألّا تستسلم لنفسك الدنيا، بل أن ترفع نفسك فوقها.

• ويؤكد القرطبي أن هذا الموقف ليس ضعفًا، بل هو أعلى درجات الأخلاق. ويستشهد بالنبي ﷺ الذي لم يكن يهين أعداءه، بل كان يغيرهم باللين.

• ويرى الرازي أن رد السيئة بالحسنة لا يقدر عليه إلا من درّب نفسه. فهو ليس رد فعل تلقائيًا، بل علامة نضج روحي.[259]

وهذه الآية كنز لمن يتعرضون كثيرًا للاستفزاز، أو الافتراء، أو الإهانة، أو التحدي. فهي تعلمك أنك لست مضطرًا إلى الرد على كل هجوم بهجوم مضاد. بل إنك أحيانًا تنتصر لا بالرد، بل بالارتفاع فوق الموقف. وقد قال النبي ﷺ: "**إني لم أُبعث لعانًا، وإنما بُعثت رحمة.**"[260]

الآية الثالثة: قال تعالى: ﴿**يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيْرًا مِّنْهُمْ...**﴾[261]

• يقول ابن عاشور إن هذه الآية من أعمدة الأخلاق في المجتمع الإسلامي. فالسخرية، والاستهزاء، والاحتقار، أمراض قلبية تهدم العلاقات.

• ويشير القرطبي إلى أن الآية لا تقتصر على النهي عن السخرية، بل تعلمنا أيضًا ألّا نستصغر أحدًا، لأن المعيار عند الله هو ما في القلب، لا ما يبدو للناس.

• ويشدد الرازي على كلمة "عسى" بوصفها دليلًا على أنك لا تعلم كيف يراه الله. فمن تحتقره قد يكون أحب إلى الله منك.[262]

---

[258] سورة فصلت، آية (34).

[259] انظر: الجامع والتحرير ومفاتيح الغيب، تفسير سورة فصلت.

[260] صحيح مسلم، حديث رقم (2599).

[261] سورة الحجرات، آية (11).

[262] انظر: الجامع والتحرير ومفاتيح الغيب، تفسير سورة الحجرات.

وهذه الآية تتوجه مباشرة إلى من يظن نفسه خيرًا من غيره، بسبب المظهر، أو الأصل، أو العلم الشرعي، أو الإنجاز، أو المكانة الاجتماعية. فالإسلام لا يعلّم التفوق على الناس، بل يعلّم التواضع. ومن ينمو في الإيمان حقًا، ينمو في اللين والاحترام.

22.3 تأمل في الحديث:

الحديث الأول: قال النبي ﷺ: " **إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ**".[263]

التأمل: هذه رسالة واضحة: فغاية الإسلام ليست الصلاة، والصيام، والعلم فقط، بل الخُلق. فالسلوك هو جوهر التربية النبوية. وإذا أردنا أن نمثل الإسلام، فالبداية تكون من تعاملنا مع الناس: بالرفق، والصبر، والعفو، والصدق. ومن لم يطوّر حُسن الخلق، فقد فاته لب الرسالة.

المعنى العام للحديث: ركز الإسلام على تهذيب النفوس وحُسن التعامل مع الناس، فالأخلاق في الإسلام جزء أساسي من الدين وليست مجرد عادات.

الحديث الثاني: قال النبي ﷺ: "**مَا مِنْ شَيْءٍ أَثْقَلُ فِي مِيزَانِ المؤمن يوم القيامة مِنْ حُسْنِ الْخُلُقِ**"[264]
أبو داود، والترمذي – صحيح

التأمل: أعمالنا تُوزن ولا تُعدّ فقط. وهذا الحديث يذكرنا بأن الله لا ينظر إلى الكمية وحدها، بل إلى النوعية، وخاصة إلى كيفية تعاملك مع الناس. فمن احترم الناس، وعفا، وبقي متواضعًا، فقد حمل شيئًا أثقل عند الله من مائة صلاة بلا قلب. فسلوكك هو زادك الحقيقي إلى الآخرة.

الحديث الثالث: قال النبي ﷺ: "**إِنَّ مِنْ أحبكم إلي أَحْسَنَكُمْ أَخْلَاقًا**"[265]

التأمل: إن المعيار الحقيقي للرتبة داخل الأمة ليس العلم، ولا النسب، ولا المكانة، بل الخلق. فمن كان بارًا بوالديه، أمينًا في وعوده، عادلًا في حكمه، لطيفًا في معاملته، فهو أفضل المسلمين عند الله. وهذا هو الميزان الذي ينبغي أن نقيس به أنفسنا.

---

[263] مسند أحمد، حديث رقم (8939).

[264] سنن أبي داود، حديث رقم (4799).

[265] صحيح البخاري، حديث رقم (3759).

22.4 الطبقة التأملية:

حسن الخلق ليس ترفًا. بل هو الأساس. إنه أول ما يلاحظه الإنسان فيك، وآخر ما يبقى في ذاكرته عنك، وربما الشيء الوحيد الذي سيراه من الإسلام فيك.

ونحن نعيش في زمنٍ تُختزل فيه الهوية الإسلامية كثيرًا في الرموز الظاهرة أو الأعمال الطقسية. يناقش الناس اللباس، وعادات الطعام، والتفاصيل الفقهية الصغيرة، بينما قد يكون سلوكهم قاسيًا، أو ظالمًا، أو فاقدًا للصبر مع والديهم، أو شركائهم، أو أبنائهم، أو زملائهم.

لكن القرآن الكريم والسنة النبوية يوضحان أمرًا آخر: أخلاق المسلم هي بطاقته الحقيقية. فأركان الإسلام شُرعت لتشكّل النفس. كل صلاة يجب أن تجعلك أكثر تواضعًا. وكل صيام يجب أن يجعلك أكثر صبرًا. وكل زكاة يجب أن تجعلك أكثر سخاءً. وإذا لم يحدث هذا، فالطقس فارغ. قد تكون عندك الصورة، لكن ليس عندك الجوهر.

وأجمل نموذج لذلك هو النبي ﷺ نفسه. فقد كان سلوكه تحت أشد الضغوط لينًا، وحكمةً، وعدلًا. فعندما حاصرته العرب كلها، وراح المنافقون داخل المدينة يضعفون الصف المسلم، وثقلت عليه أعباء الوحي والقيادة، بقي ثابتًا. لم يفقد كرامته أبدًا. ولم يفقد صبره أبدًا. وحتى في بيته، في ظروف الفقر، أو الألم، أو الخيبة، بقي نبيلًا. تلك هي قدوتنا وأسوتنا لذا كان التوجيه القرآني الاقتداء بالنبي ﷺ: "لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة"، ومن كان مسلمًا اليوم، سواء في الصف، أو في العمل، أو في كرة القدم، أو على وسائل التواصل الاجتماعي، فإنه يحمل الإسلام على كتفيه. فسلوكك هو دعوة. وهدوؤك علامة. وعدلك دعوة مفتوحة. وعفوك درس. وصدقك قد يكون سببًا في دخول شخص إلى الإسلام، كما وقع مع آلاف الداخلين فيه من قبل.

وعلى الشباب خاصة أن يدركوا هذا: ليس لسانك أقوى سلاح، بل سلوكك. فعندما ترفض المشاركة في الغيبة، أو تبقى مؤدبًا مع معلم ظلمك، أو تحافظ على هدوئك في ملعب الكرة بدلًا من الشتم، فإنك تكون أقوى من ألف كلمة. وفي زمنٍ يركض فيه كل شيء بسرعة، ويحكم فيه الناس على بعضهم من خلال الصور والمظاهر ووسائل التواصل، يصبح سلوك المسلم شكلًا من أشكال المقاومة الهادئة. رسالة نور في عالمٍ من الفوضى. فحُسن الخلق هو النصر الحقيقي. والمسلم الحقيقي هو من يُعرَف بأخلاقه، لا باسمه.

22.5 الخاتمة:

الإسلام ليس دين كلمات أو طقوس فقط. بل هو أسلوب حياة يجب أن يظهر في كل جانب من جوانب سلوكنا. فالمسلم ليس مسلمًا فقط في المسجد أو أثناء الصلاة، بل قبل ذلك وبعده: في معاملته لوالديه، وزوجه، وأبنائه، وجيرانه، وزملائه، وحتى أعدائه.

ولم يكن النبي ﷺ قائدًا في القصور، ولا رجلًا صاحب سلطة دنيوية، لكنه فتح القلوب بأخلاقه. فليّنه كسر الكبر. وعفوه كسر الضغائن. وعدله أسكت حتى أعداءه. فإذا كنا نزعم أننا نتبعه حقًا، فعلينا أن نبدأ من أخلاقنا. لأن سلوكك هو ما يتذكره الناس، لا علمك، ولا لباسك، ولا كلماتك. وهناك تكمن دعوتك، وجهادك، وأثرك. إن حُسن الخلق هو الأثقل في الميزان. وهو تاج إيمانك. ومرآة روحك. وهو أول ما تصنع به الفرق في أسرتك، ومدرستك، وعملك، ومجتمعك.

فكن مثل النبي ﷺ: ثابتًا، لينًا، حكيمًا، صادقًا، وفيًّا. وإذا صرخ العالم، فكن أنت من يجيب بالسكينة. وإذا اندفع الآخرون بالعنف، فكن أنت من يقف بثبات. وإذا اختُبرت، فكن مسلمًا في سلوكك لله.

الفصل 23 (التربية الإسلامية) في العصر الحديث:

بين وسائل التواصل الاجتماعي المختلفة والمتنوعة كيف نربي أبناءنا على التقوى؟

23.1 الملاحظة:

إن التربية في هذا الزمن أصبحت تحديًا من نوع جديد تمامًا. فمنذ سنواتهم الأولى، يواجه الأطفال الشاشات في كل مكان. الأجهزة اللوحية، ويوتيوب، وتيك توك، تبدو أمورًا بريئة، لكنها بسرعة مذهلة تحتل مكان التربية الحقيقية. ويصبح ضبط وقت الشاشة أمرًا صعبًا، خاصة حين يعود الوالدان منهكَين إلى البيت أو حين يعمل كلاهما. وهكذا ينشأ جيل يبني عالمه الخاص بالتمرير على الشاشة، من غير تصفية، ولا توجيه، ولا قيم، ولا تربية سليمة.

وماذا يتعلمون هناك؟ لغة غريبة، وموسيقى غير لائقة، وروح فكاهة سطحية، ونظرة إلى العالم يغيب عنها الخالق جل في علاه، وتغيب الأخلاق. يكبر الأطفال في حرية بلا حدود، ويظهر ذلك في كثرة الاعتراض، وضعف الاحترام، وغياب الشعور بالسلطة والتوجيه. في الماضي كان الميزان يميل أحيانًا أكثر من اللازم إلى العقوبات القاسية أو حتى الظالمة. أما اليوم فقد اندفع إلى الجهة الأخرى تمامًا: فإذا رفع الأب صوته، عُدَّ بسرعة "أبًا سيئًا".

ويضاف إلى ذلك تحول اجتماعي واضح. فالجيل الأول من المسلمين في الغرب كان غالبًا فقيرًا، له أسر كبيرة، ويكافح ليؤمن لقمة العيش. أما الجيل الثاني فشق طريقه بالصبر والتعليم والانضباط. لكن كثيرين يريدون الآن أن يعطوا أبناءهم كل ما افتقدوه هم، فيبالغون في ذلك. والنتيجة: أطفال لا ينقصهم شيء، لكنهم لا يعرفون الشكر، ولا الاحترام، ولا التقوى. فراعنة صغار. كما أن بنية الأسرة نفسها ضعفت. ففي الغرب، تُثقل نسب الطلاق، وغياب الآباء، والأسر ذات الوالد الواحد كاهل الجيل الجديد. فينشأ الأطفال بلا قدوة، ويبحثون عن النماذج في الشخصيات الرقمية أو في جماعات الأصدقاء. وفي بلدان الجنوب تظهر مشكلة أخرى: السلبية الأبوية ذات الطابع الذكوري. فالآباء يتركون التربية كلها للأم، ولا يتحملون مسؤوليتهم، ثم يحتجون بالحديث الذي يحث على كثرة الأولاد. لكنهم يسيئون استعمال هذه السنة، لأنهم لا يرعون أبناءهم فعلًا. والنتيجة جيل بلا اتجاه، ولا اهتمام، ولا أمان، وشباب يضيعون في الفقر والجريمة.

ثم تأتي المؤسسات بالطعام والمساعدات، لكن كثيرًا ما يكون ذلك مجرد معالجة للنتائج لا للأسباب. لأن السؤال الجوهري ليس: كم طفلًا عندك؟ بل: ماذا تفعل بهم؟ فطفل واحد يُربّى على التقوى خير من عشرة أطفال يضيعون في الفراغ.

وأنا أرى ذلك يوميًا في المدارس التي أدرّس فيها: فالمراهقون الذين يسببون المشكلات ليسوا في الغالب سيئي الفطرة، بل أبناء بيوت غير مستقرة. إنهم لا يفتقرون إلى الموهبة، بل يفتقرون إلى التوجيه، والمحبة، والحضور، والقدوة. ولهذا فالتربية الإسلامية اليوم ليست ترفًا. إنها نوع من الجهاد، ضد الإهمال، والسطحية، وعالم يريد أن يمحو الله من قلب الطفل.

23.2 الآيات القرآنية:

الآية الأولى: قال تعالى: ﴿**يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا**﴾[266]

• يرى ابن عاشور أن هذه الآية تُحمّل رب الأسرة، الأب، والأم، والمربين، مسؤولية مباشرة. فالمقصود ليس الحماية الظاهرة فقط، بل التوجيه الروحي، والتربية، والتصحيح.

•ويؤكد القرطبي أن هذه الآية دليل على أن الوالدين لا يجوز لهما أن يكونا متفرجين محايدين. بل عليهما أن يحميا أبناءهما من الضلال، حتى إذا جاء عبر الشاشات، أو الأصدقاء، أو حتى الثقافة السائدة.

[266] سورة التحريم، آية (6).

•ويقول الرازي إن التربية تبدأ بالتحذير، والتعليم، ووضع الحدود. فمن ترك أبناءه ينزلقون بحجة "هذا اختيارهم"، فقد قصّر في هذا الواجب الإلهي.[267]

الآية الثانية: قال تعالى: ﴿**يَٰبُنَيَّ لَا تُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ...**﴾[268]

"يا بني لا تشرك بالله..." ثم تتبعها الآيات في الحديث عن السلوك، والصلاة، والصبر، والتواضع، وخفض الصوت، وغير ذلك من الأخلاق الحميدة التي دعانا إليها الإسلام.

• يقول ابن عاشور إن هذه المجموعة من الآيات هي أكمل نموذج تربوي في القرآن، لأنها تجمع بين الإيمان، والسلوك، والهيئة، والتواصل. فلقمان يبني ابنه من الداخل إلى الخارج.

• ويؤكد القرطبي أن لقمان بدأ بالتوحيد، لا بالقواعد الاجتماعية. فالتربية ليست: "ماذا سيقول الناس؟" بل: "ماذا يقول الله؟"

• ويرى الرازي في هذه الآيات نموذج التربية المحبة، الحكيمة، البانية. لا بالصراخ والضرب، بل بالكلام، والتذكير، وإعطاء الاتجاه.[269]

الآية الثالثة: قال تعالى: ﴿**وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبۡ لَنَا مِنۡ أَزۡوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعۡيُنٖ وَٱجۡعَلۡنَا لِلۡمُتَّقِينَ إِمَامًا**﴾[270]

• يوضح ابن عاشور أن هذا الدعاء لا يطلب مجرد أبناء صالحين، بل أبناء يكونون مصدر راحة وفرح للعين، وهذا لا يتحقق إلا بحسن التربية.

• ويشير القرطبي إلى أن هذه الآية تربط جوهر التربية بالتقوى والقيادة، أي بأبناء يسبقونك إلى الخير، لا يتبعونك في الذنب.

• ويرى الرازي أن هذه الآية تدل على أن التربية تجمع بين الدعاء والعمل. فالوالدان الصالحان يدعوان، لكنهما يعملان أيضًا على تشكيل أسرتهما وتوجيهها.

23.3 تأمل في الحديث:

---

[267] انظر: الجامع والتحرير ومفاتيح الغيب، تفسير سورة التحريم.

[268] سورة لقمان، آية (13).

[269] الجامع والتحرير ومفاتيح الغيب، تفسير سورة لقمان.

[270] سورة الفرقان، آية (74).

الحديث الأول: قال النبي ﷺ: **"كلكم راعٍ، وكلكم مسؤولٌ عن رعيته"**[271]

التأمل: التربية ليست أمرًا ثانويًا ولا مشروعًا اختياريًا. فالنبي ﷺ يوضح أن كل فرد في الأسرة سيُسأل: الآباء، والأمهات، والمعلمون، بل وحتى القادة. وفي زمنٍ أصبحت فيه الشاشات تربي الأطفال والآباء يغيبون، تزداد أهمية هذا التحذير النبوي أكثر من أي وقت مضى.

المعنى العام للحديث: كل فرد في المجتمع مهما كان موقعه أو مسؤوليته، يُعد مؤتماً على مَن هم تحت إشرافه ورعايته، وهو مطالب بحفظ حقوقهم ورعايتهم في دينهم ودنياهم. فرب الأسرة مسئول عن أهل بيته، من إنفاق ورعاية وتربية للأبناء.

الحديث الثاني: قال النبي ﷺ: **"تَزَوَّجُوا الْوَدُودَ الْوَلُودَ، فَإِنِّي مُكَاثِرٌ بِكُمُ الْأُمَمَ"**[272]

التأمل: كثيرًا ما يُساء استعمال هذا الحديث لتبرير تربية غير مسؤولة: فيُنجب الناس أولادًا كثيرين بلا رعاية، ولا محبة، ولا تربية، بحجة أن ذلك "سنة". لكن النبي ﷺ كان يتحدث عن أبناء يحملون القرآن، ويحملون العلم، ويخدمون الأمة. فالجودة قبل الكثرة.

فكم من أطفال يسمَّون مسلمين، لكنهم ضائعون في الشوارع، بلا أبٍ حاضر، ولا توجيه، ولا محبة؟ إن هذا الحديث يدعونا إلى المسؤولية، لا إلى التكاثر بلا مقصد.

المعنى العام للحديث: الهدف من هذا التوجيه النبوي هو بناء أسرة مترابطة مليئة بالحب وزيادة أعداد الأمة الإسلامية الصالحة وقوتها لتكون لها مكانة وعزة.

23.4 الطبقة التأملية:

إن التربية في زماننا جهاد، لا بالسلاح، بل بالقيم. والتحدي ليس فقط: كيف أعلّم طفلي أن يصلي؟ بل بالأحرى: كيف أحمي قلب طفلي من عالم يريد أن يمحو الله من وعيه؟

فاليوم أصبحت التربية كثيرًا ما تُسلَّم للشاشات، والمسلسلات، والأنظمة. فالطفل الصغير أصبح أقدر على التمرير على الشاشة من قدرته على الكلام. وتتشكّل أدمغتهم من خلال الرسوم المتحركة ومقاطع يوتيوب التي تضعف هويتهم الإسلامية شيئًا فشيئًا. والأنظمة التعليمية تعلّم المعرفة، لكن كثيرًا من غير وجهة ولا أخلاق. والمجتمع يقبل كل شيء، إلا التدين الصادق.

---

[271] صحيح البخاري، حديث رقم (2554).

[272] سنن أبي داود، حديث رقم (2050).

وفي الوقت نفسه نرى عند كثير من الآباء والأمهات ضعفًا أو فقدانًا للتناسق في التربية. فبعضهم يعطي أبناءه كل ما يريدون: الرفاهية، والهواتف، والسفر، لكن من غير وقت، ولا حدود، ولا توجيه روحي. وغالبًا ما يكون الأب غائبًا: أحيانًا جسديًا بسبب الطلاق أو العمل، وأحيانًا عاطفيًا بسبب غياب الحوار والاهتمام. والأمهات يحملن العبء وحدهن، أو يُهمل دورهن تمامًا في بعض الثقافات. وفي أسر أخرى يوجد خمسة أو سبعة أطفال، لكن بلا استقرار، ولا رؤية، ولا خطة تربوية.

والنتيجة معروفة: أطفال لا يوجد لديهم احترام، مدمنون على الشاشات، فارغون روحيًا، ومضطربون عاطفيًا. وشباب يصمتون في البيت، ويتمردون في المدرسة، ويضيعون على الإنترنت.

وما نحتاج إليه هو تربية على التقوى. ويجب أن تقوم على أسس واضحة:

1. **العلم** – تعليم ديني مناسب لأعمارهم ومستواهم.
2. **الحب** – إظهار المحبة مع التصحيح، والاستماع قبل الصراخ.
3. **الحدود** – وضوح ما يجوز وما لا يجوز.
4. **القدوة** – فالأب الذي لا يصلي لا يستطيع أن ينتظر من ابنه أن يصلي.
5. **الدعاء** – الاستمرار في الدعاء لهم بالهداية، حتى حين يبتعدون.

وكما قال ابن القيم[273]: "الأب كالفلاح: كلماته هي البذور. فإن زرعت بعناية، أثمرت. وإن أهملت الأرض، نبت فيها الشوك." ولهذا فالتربية ليست مسألة إعطاء الأشياء، بل مسألة تعليم الطفل من هو الله، وكيف يحفظ نفسه، وكيف يثبت في عالمٍ مليء بالخداع. والآباء الذين يظنون أن أبناءهم سيتعلمون هذا وحدهم مخطئون: إن لم تعلّمه أنت، علّمته وسائل التواصل الاجتماعي، وإن لم تضع له الحدود، وضعها نتفليكس. وإن لم تعطِه هدفًا، أعطاه الشيطان هدفًا آخر. ويمكن تدريب الطفل على الانضباط الذاتي من خلال الإيقاع والتوازن. فلا ينبغي أن يكون الترفيه أمرًا تلقائيًا، بل مكافأة بعد الجهد. فيمكن أن يسبق كل وقت شاشة جزءٌ من القرآن، أو قصة قصيرة، أو حديث عن قيمةٍ معينة. وهكذا يتعلم الطفل أن المتعة لا تُعطى قيمتها إلا حين تتقدم عليها المعرفة والنمو الروحي.

[273] ابن القيم: أبو عبد الله شمس الدين محمد بن أبي بكر الدمشقي، المعروف باسم ابن قيم الجوزية، وهو فقيه ومحدث ومفسر وعالم ومن أبرز أئمة المذهب الحنبلي في النصف الأول من القرن الثامن الهجري.

والقرآن يؤكد هذا الأصل: ﴿وَأَمَّا مَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفۡسَ عَنِ ٱلۡهَوَىٰ فَإِنَّ ٱلۡجَنَّةَ هِيَ ٱلۡمَأۡوَىٰ﴾[274] فالتربية الإسلامية تقوم على ركيزتين: قربٍ مملوء بالمحبة، وتوجيهٍ حازم. يجب أن يكون الوالدان أفضل أصدقاء لأبنائهما: حاضرين، منصتين، جديرين بالثقة، لكن في الوقت نفسه قادة يضعون الحدود، ويشرحون أحكام الله بجدية. لأن الطفل الذي يُسمح له بكل شيء يضيع، والطفل الذي يُمنع من كل شيء يتمرد.

والتوازن يوجد في التقوى: لينٌ في المعاملة، وثباتٌ في المبادئ.

23.5 الخاتمة:

إن التربية الإسلامية اليوم ليست مسألة شعارات أو إعطاء الأطفال أسماء عربية. بل هي نوع من الجهاد بالمعنى العميق: مجاهدة الكسل، والتربية السلبية، والتأثيرات المدمرة لعالم رقمي يبتلع أبناءنا قبل أن ينضجوا.

ولا يمكننا أن ننتظر حتى يقع الانهيار. فالتربية تحتاج إلى مبادرة، لا إلى مجرد رقابة. تحتاج إلى إلهام قبل كل شيء. بأن نتعلم نحن القرآن الكريم، ونقرؤه مع أبنائنا. وأن نضع الحدود بمحبة ورؤية. وأن نخصص وقتًا للحوار، والكتب، والتفكر، بدل التمرير اللانهائي والصمت على المائدة.

فما يبدو اليوم "مشكلة صغيرة" يصبح غدًا طبعًا راسخًا. وما يُتسامح فيه اليوم، يصبح غدًا حقًا مكتسبًا.

لذلك فالمسئولية كبيرة كما جاء في قول النبي ﷺ: «كُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْؤولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ» فأطفالنا ليسوا زينة أو ملحقات. إنهم أمانة، ومسؤولية سنُسأل عنها يوم القيامة.

ولهذا لا يكفي أن نشكو من الشباب، أو من نتفليكس، أو من وسائل التواصل الاجتماعي. بل لا بد أن تتحول الشكوى إلى عمل: في بيتك، وفي قلبك، وفي قدوتك. لأن التربية لا تبدأ منهم، بل تبدأ منك.

المحور 3 التربية، والأسرة، والمجتمع

الفصل 24 (الطريق إلى الزواج):

24.1 الملاحظة:

لقد أصبح الطريق إلى الزواج اليوم بالنسبة إلى كثيرين طريقًا صعبًا ومؤلمًا. ففي زمنٍ صار فيه الحرام أكثر سهولةً وانتشارًا عبر وسائل التواصل الاجتماعي، وتطبيقات المواعدة، والعلاقات الخفية، أصبح طريق

[274] سورة النازعات، آية (40_41).

الحلال نفسه مليئًا بالعثرات. فالشباب لا يصطدمون فقط برغباتهم، بل قبل ذلك بالجدران الثقافية، والعنصرية، والتوقعات الاجتماعية، والعوائق المالية.

وكثيرون يقولون لي: "أريد أن أتزوج، لكنني لا أجد الشخص المناسب." وهذا صحيح أيضًا. فكيف يجد الإنسان من يعيش بتقوى في مجتمعٍ يقود فيه كثير من الناس شهواتهم واتصالاتهم السطحية؟ وحتى إذا وجدت شخصًا ذا دين وخلق، فقد تصطدم بثقافة الوالدين، أو بالأصل، أو بالجنسية، أو حتى بلون البشرة. وكأن هذا لا يكفي، صار الزواج في كثير من الأحيان مشروعًا ماليًا: حفلات زفاف باهظة، وخواتم ذهب، وهدايا، وسكن مستقل... وفي بلجيكا قد تصل تكاليف الزواج أحيانًا إلى خمسين ألف يورو. فكيف يمكن لشاب أن يجمع هذا المبلغ؟

ويضاف إلى ذلك أن الناس صاروا أكثر تطلبًا. فيُنظر أولًا إلى شهادتك، وسيارتك، ودخلك، ثم بعد ذلك فقط إلى دينك. وهكذا تتشكل دائرة مفرغة يستسلم فيها كثيرون، ويبدؤون علاقات سرية خلف ظهور الوالدين، ثم يتحملون هم أنفسهم آثارها. فكم من الشباب أعرف ممن يعيشون آلام الحب؟ يقولون: "كنا مناسبين تمامًا لبعضنا." و"كنا نريد الزواج." لكن بعد أشهر قليلة تنتهي العلاقة، ويُتركون بقلبٍ مكسور، وقد يؤدي ذلك إلى مزيد من الذنوب. وبعض الشباب يبنون علاقة لسنوات مع غير مسلمة، ثم حين تنتهي، لا يعودون قادرين على الارتباط بأحدٍ آخر. ويبلغ أحدهم الثلاثين أو أكثر، ولا يزال أعزبًا، ولا يمكن لأحد أن يقنعني أنهم خلال كل تلك السنوات سيطروا بالكامل على شهواتهم. فهذا يكاد يكون مستحيلًا من جهة الطبيعة البشرية.

ونرى أيضًا مشكلات عند النساء. فبعض الأخوات مررن بعلاقات متعددة، ويعرفن تمامًا ما يردنه وما لم يعدن يقبلنه، فيرفعن سقف التوقعات إلى درجة يصبح معها العثور على زوج يحقق كل تلك الشروط شبه مستحيل. إنهن يبحثن عن التطابق الكامل، لكنه غير موجود. وبهذا تتقدم بهن السن، وبعضهن يبقين غير متزوجات حتى بعد الأربعين، ومعهن الندم، أو الألم، أو الفراغ الداخلي.

وفي بعض البلدان في إفريقيا أو آسيا، قد يكون الزواج من الناحية المالية أيسر نسبيًا، ما دام الرجل قادرًا على النفقة. لكن المشكلة هناك تظهر في مواضع أخرى: العيش مع العائلة في بيتٍ واحد، وغياب الخصوصية، أو ما هو أشد إيلامًا: الخيانة الزوجية. ففي أحاديثي مع أناس من بلدان إفريقية أسمع كثيرًا الشكوى نفسها: "الرجل الذي لا يخون نادر." وإذا ظهر رجل عادل وفيّ بالفعل، فإن بعض النساء يكنّ مستعدات لأن يصبحن الزوجة الثانية له، ما دام أمينًا وصادقًا.

وخلاصة الأمر: إن الطريق إلى الزواج مليء بالعقبات بالنسبة إلى كثيرين. العوائق الثقافية، والمتطلبات المالية، والتوقعات الخاطئة، والشهوات بلا مسؤولية، والجراح العميقة الناتجة عن العلاقات المحرمة، والمشكلات البنيوية في مجتمعاتنا، كلها تجعل الطريق إلى رابطة طاهرة إلهية صعبًا، لكن ذلك لا يجعله أقل ضرورة. "الرجال الحقيقيون يتحدثون مباشرةً عن الزواج، والنساء الحقيقيات يوجّهن إلى والديهن." لكن هذه الروح أصبحت نادرة. ففي كل مكان من العالم نرى شبابًا وشابات من المسلمين يتحدثون مع بعضهم، وأحيانًا بنيات حسنة، لكن الأمر ينحرف كثيرًا بسبب طول الكلام، وعدم ضبط المشاعر، وإثارة الرغبات.

فبدلًا من أن يكون الإنسان مباشرًا وواضحًا، يترك الأمور تتمدد. والشيطان يعمل بين السطور. وحين لا تنتهي الأمور إلى شيء، يبقى الناس بقلوب مكسورة، وبعضهم يبحث عن الحرام ليخفف ألمه.

وفوق ذلك، نرى في آسيا وإفريقيا أن المطلقات والأرامل كثيرًا ما يُتجاهلن عند البحث عن زوجة. فكثير من الرجال لا يبحثون إلا عن العذراوات الشابات، حتى لو كان ذلك مخالفًا للقرآن الكريم ولسنة النبي ﷺ.

24.2 الآيات القرآنية:

الآية الأولى: قال تعالى: ﴿**وَأَنكِحُواْ ٱلۡأَيَـٰمَىٰ مِنكُمۡ وَٱلصَّـٰلِحِينَ مِنۡ عِبَادِكُمۡ وَإِمَآئِكُمۡۚ إِن يَكُونُواْ فُقَرَآءَ يُغۡنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ**﴾[275]

• يؤكد ابن عاشور أن هذه الآية تقدم جوابًا لخوف شائع جدًا: "لا أستطيع الزواج لأنني لا أملك المال." فالله يقول بوضوح: إذا كانوا فقراء فإن الله سيغنيهم. وهذه وعد إلهي. فمن يسلك طريق الحلال ينل دعم بركة الله.

• أما القرطبي فيرى أن هذه الآية تحمل صيغة أمر واضحة، وتحمّل المجتمع مسؤولية تسهيل الزواج لمن لم يتزوج بعد. والله لم يربط الأمر بالغنى، بل بالصلاح. فمن يعتقد أن المال شرطٌ أساسي للزواج لم يفهم الآية فهمًا كاملًا.

• ويشير الرازي إلى أن الزواج حماية للدين وسبب للاستقرار الأخلاقي. ولهذا جعل الله له هذا الحضور الاجتماعي القوي، وكأن في الآية لومًا ضمنيًا لكل سلوك يجعل الزواج صعبًا من غير حاجة.[276]

---

[275] سورة النور، آية (32).

[276] انظر: الجامع والتحرير ومفاتيح الغيب، تفسير سورة النور.

وهذه الآية تحث على تزويج من لا زوج له، وتشمل المطلقات، والأرامل، والعبيد والإماء. وكلمة "الأيامى" تشير في أصل معناها إلى الفئات الأكثر هشاشة في المجتمع، لا إلى العذارى أو الشباب فحسب.

وفي سياق نزول الوحي في المدينة، كان الزواج داخل القبيلة أو من الفتيات الصغيرات هو الغالب ثقافيًا. لكن هذه الآية كسرت الحواجز الاجتماعية وفتحت آفاقًا جديدة.

الآيات التالية في قصة زواج موسى عليه السلام تتحدث في سياق الموضوع: قصة موجزة مع شرح العلماء والآيات المدمجة: حين اضطر موسى عليه السلام إلى مغادرة مصر بعد الحادثة التي قتل فيها رجلًا دون قصد، فرّ غريبًا إلى مدين[277]. وهناك وجد امرأتين تحبسان غنمهما بعيدًا. فسألهما: لماذا لا تسقيان؟ فقالتا إنهما تنتظران حتى ينتهي الرجال، لأن أباهما شيخ كبير. فقام موسى عليه السلام من باب الشهامة والحماية وسقى لهما. ثم تولى إلى الظل ودعا: قال تعالى: ﴿**فسقى لهما ثم تولى إلى الظل، فقال رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ**﴾[278]

ويرى ابن عاشور أن هذا الدعاء مفتاح مهم: فهو يبين أن الزواج يبدأ بالسلوك الخادم والدعاء، لا بالمطالب والشروط. فموسى لم يطلب شيئًا، بل أظهر الخلق والمسؤولية.[279]

ثم جاءت إحدى البنتين إليه تمشي على استحياء، وقالت: ﴿**إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا**﴾[280]

ثم يذكر القرآن الكريم أن الأب، والذي قال العلماء إنه شعيب، راقب موسى عليه السلام، وأن ابنته قالت عنه: ﴿**يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ ۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ**﴾[281]

ويؤكد القرطبي هنا أن الفتاة لم تتحدث عن الشكل، أو الأصل، أو المكانة، بل عن الخلق والأمانة. وهاتان الصفتان هما الأساس في الزواج. وبناءً على ذلك قرر أبوها أن يجعله زوجًا لإحدى ابنتيه: ﴿**إِنِّىٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَىَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِى ثَمَٰنِىَ حِجَجٍ**﴾[282]

ويسمي الرازي هذا النموذج القرآني للزواج: زواجًا قائمًا على القيم المشتركة، وتحمل المسؤولية العملية، ونيةٍ

---

[277] مَديَن: اسم قبيلة من العرب القدماء في شمال غرب الجزيرة العربية، تقع آثار مساكنهم بالقرب من منطقة تبوك، كانوا يعبدون شجرة الأيك وبعث الله لهم النبي شعيب عليه السلام يحثهم على المتاجرة الشريفة فرفضوا دعوته، ولم يؤمنوا بالله وذهب إلى مدين موسى عليه السلام عندما فر من فرعون.

[278] سورة القصص، آية (24).

[279] انظر: التحرير، تفسير سورة القصص.

[280] سورة القصص، آية (25).

[281] سورة القصص، آية (26).

[282] سورة القصص، آية (27).

نقية، واتفاقٍ عادل. لا حفلات زواج مليئة بالمظاهر، ولا مطالب مفرطة، بل رابطة كريمة تقوم على العمل والإيمان[283].

الآية الثالثة: قال تعالى: ﴿**عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبۡدِلَهُۥٓ أَزۡوَٰجًا خَيۡرًا مِّنكُنَّ مُسۡلِمَٰتٖ مُّؤۡمِنَٰتٖ قَٰنِتَٰتٖ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٖ سَٰٓئِحَٰتٖ ثَيِّبَٰتٖ وَأَبۡكَارًا**﴾[284]

• يلاحظ ابن عاشور أن ترتيب هذه الصفات ليس عشوائيًا، بل يتبع سلّمًا روحيًا. فالله يبدأ بالإسلام، والإيمان، والقنوت، أي بالاستسلام، والإيمان، والطاعة، ولا يذكر الحالة الظاهرة للمرأة، هل سبق لها الزواج أم هي بكر، إلا في النهاية. وهذا يدل على أن الصفات الروحية أهم من التفضيلات الظاهرية أو الثقافية.

• ويرى القرطبي أن هذه الآية تحمل أيضًا درسًا للمجتمع: فالطلاق قد يكون أحيانًا إعادة توجيه نحو علاقات أفضل وأكثر صدقًا. كما أن الآية تحذير للنساء، وللناس عمومًا، أن يراجعوا سلوكهم وحياتهم الإيمانية.

• ويؤكد الرازي أهمية الصفات الداخلية على المكانة الاجتماعية أو الصفات الجسدية. فترتيب الصفات يدل على أن التقوى، والعبادة، والتوبة، أثقل وزنًا من البكارة أو التجربة الزوجية. وفي ثقافة تُعظّم البكارة أحيانًا بصورة مفرطة، يعيد القرآن هنا الميزان إلى وضعه الصحيح.[285]

فهذه الآية تهدم التفضيلات الثقافية السائدة. ففي كثير من المجتمعات، حتى اليوم، تُفضَّل العذراوات الشابات، بينما تُهمَل الأرامل والمطلقات. لكن القرآن يرفع النساء المؤمنات، التائبات، المخلصات، إلى مرتبة روحية أعلى، بغضّ النظر عن ماضيهن الزوجي.

24.3 تأمل في الحديث:

الحديث الأول: قال النبي ﷺ: "**النِّكَاحُ مِنْ سُنَّتِي، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي**"[286]

التأمل: تجعل هذه الكلمات من النبي ﷺ الأمر واضحًا: فالزواج ليس مسألة ثقافية أو شخصية فحسب، بل هو جزء من الطريق الروحي للمسلم. وتجنّب الزواج بدافع الكسل أو الخوف الدنيوي قد يعني أن الإنسان يُعرض

---

[283] انظر: التحرير، تفسير سورة القصص.

[284] سورة التحريم، آية (5).

[285] انظر: الجامع والتحرير ومفاتيح الغيب، تفسير سورة التحريم.

[286] سنن ابن ماجه، حديث رقم (1846).

عن طريق أساسي من طرق التزكية والنمو. وفي زمنٍ أصبح فيه الزنا أمرًا معتادًا ومُطبَّعًا، فإن التمسك بهذه السنة يُعدّ موقفًا في وجه الحرام وعلامةً على الصدق مع الله.

الحديث الثاني: قال النبي ﷺ: "**يَا مَعْشَرَ الشَّبَابِ، مَنِ اسْتَطَاعَ مِنْكُمُ الْبَاءَةَ**[287] **فَلْيَتَزَوَّجْ، فَإِنَّهُ أَغَضُّ لِلْبَصَرِ، وَأَحْصَنُ لِلْفَرْجِ**"[288]

التأمل: يعترف هذا الحديث بحقيقة الشهوات عند الشباب. ويقدم النبي ﷺ حلًا عمليًا وأخلاقيًا واضحًا: الزواج. فهو حماية، لا من الذنب فقط، بل أيضًا من الفوضى الداخلية، والندم، والتدمير الذاتي. وبدل أن ننتظر حتى تصبح كل الظروف "مثالية"، يعلّمنا هذا الحديث أن السعي إلى العفة يجب أن يكون أولوية، حتى مع محدودية الوسائل.

الحديث الثالث: قال النبي ﷺ:"**إِذَا جَاءَكُمْ مَنْ تَرْضَوْنَ دِينَهُ وَخُلُقَهُ فَزَوِّجُوهُ**"[289]

التأمل: يضع هذا الحديث الدين والخلق بوصفهما الأساسين الحقيقيين لنجاح الزواج. وفي زماننا، أصبحت المكانة المالية، والشهادات، والمظهر، أهم عند كثير من الناس، وهذا ما يخلق عقبات كثيرة. لكن لو أننا أنصتنا فعلًا إلى توجيه النبي ﷺ، لوجدنا بركةً أكبر، وبساطةً أكثر، واستقرارًا أمتن في زيجاتنا.

المعنى العام للحديث: فيه دعوة من النبي صلى الله عليه وسلم لأولياء الأمور بتزويج الشاب صاحب الدين والأخلاق وعدم اشتراط المال أو النسب، محذراً من رفض الزواج لأسباب مادية يؤدي إلى انتشار الفتنة والفساد في المجتمع.

24.4 الطبقة التأملية:

كما رأينا في القرآن والحديث، فإن الزواج ليس مسألة شخصية فقط، بل هو أيضًا مسؤولية مجتمعية. فالقرآن يوجّه الأمر بالزواج بصيغة الجمع إلى المجتمع كله: "**وأنكحوا الأيامى منكم...**" لكن مَن الذي يشكل هذا المجتمع؟ في نظري، المساجد ومؤسساتها. فمن المفترض أن توفر، مع التوجيه الصحيح والستر، منصةً يمكن للشباب من خلالها أن يتعرفوا إلى بعضهم بطريقة حلال. وبدلًا من أن نحاكم الشباب أو نطردهم حين يأتون

[287] الباءة: القدرة على الزواج وتشمل أمرين: القدرة المالية من دفع المهر وتوفير الطعام والشراب وتكاليف الزواج، والقدرة البدنية الجماع ومسؤوليات الحياة.

[288] صحيح البخاري، حديث رقم (5066).

[289] سنن الترمذي، حديث رقم (1085).

برغبتهم في الزواج، ينبغي أن نرافقهم، ونستمع إليهم، ونفتح لهم أبوابًا ضمن الأطر الإسلامية. كما يجب على الآباء والأمهات أن يفهموا دورهم. فعليهم أن يكونوا منفتحين على إعطاء أبنائهم مساحة، ضمن حدود آمنة وشريفة، ليتعرفوا إلى بعضهم. من غير تشديد. وإذا لم ينجح الأمر، فلا مشكلة. فالكثير من الشباب اليوم يظنون أن مجرد الذهاب إلى أهل شخص ما يعني التزامًا نهائيًا. لكن هذا ليس كذلك في الإسلام. فالأب ينظر في حال الرجل، وينصح ابنته، لكن الكلمة الأخيرة تبقى للابنة.

وحتى إذا أحبت الفتاة شخصًا يراه أهلها أقل ملاءمة، واختارته رغم ذلك، فأن تُخطئ داخل الحلال خير من أن تُخطئ في الحرام. لأنك إذا منعتها، فربما فعلت ذلك من وراء ظهرك. وغالبًا ما يكون أبناؤنا في تلك المرحلة قد بلغوا من العمر والعقل ما يمكّنهم من اتخاذ القرار. وإذا تبيّن لاحقًا أن الاختيار لم يكن صائبًا، فالطلاق في الإسلام جائز. وليس ذلك عارًا، بل تصحيحًا.

ويجب علينا أيضًا أن نجرؤ على النظر خارج حدودنا الثقافية. فالإسلام واضح: "اطلب المرأة ذات الدين والخلق"، و"إذا جاءكم من ترضون دينه وخلقه فزوجوه". فلا يجوز أن تتحول الأعراق، والأصول، والشهادات، والانتماءات العرقية، إلى جدران نقيمها داخل الأمة. فالذي له الوزن الحقيقي هو: الإيمان والخلق.

وفي الوقت نفسه، على الشباب أن يدركوا أن الزواج لا يتعلق بالحب فقط. بل يحمل مسؤوليات كبيرة: مالية، وعاطفية، وروحية. فأنت تتسلم دور أبيها. لا لتنفِق عليها فقط، بل لتمنحها أيضًا الأمان والرعاية. وبعض الشباب يكونون مستعدين لذلك في سن الثامنة عشرة، كما كنت أنا. فقد طلبت يد زوجتي وأنا في الثامنة عشرة فقط. وهناك آخرون في هذا العمر يقضون ساعات طويلة في الألعاب، أو حتى بعد عشر سنوات لا يزالون غير مستعدين.

وهناك رجال لم يكونوا مستعدين أبدًا، ومع ذلك تزوجوا. ثم وجدوا أنفسهم في زواج لا يحملون فيه شيئًا، فيبدأون تدريجيًا في هدم كل شيء. لأن الزواج بلا مسؤولية هو تدمير للنفس.

ونحن ننسى كثيرًا أن سياق الوحي كان مليئًا بالفتن، والإغراء، والانحلال الأخلاقي. ففي مكة، بل وحتى في المدينة، كان الزنا أمرًا مألوفًا، وكذلك المجاهرة بالشهوة. فالقرآن الكريم نزل في مجتمع كان منفتحًا جنسيًا إلى حد بعيد. والاعتقاد بأن المسلمين الأوائل عاشوا في "فقاعة مقدسة" اعتقاد خاطئ. ومع ذلك، طُلب منهم أن يتغيروا، وأن يثبتوا في سعيهم إلى الطهارة والصدق. واليوم أيضًا الأمر صعب، لكنه ممكن مع وجود معالم واضحة. ومن ذلك:

- **تكلم بوضوح وادخل في صلب الموضوع.**

فليكن الكلام مع الجنس الآخر واضحًا، ومحدد الهدف، وقصيرًا، وفي إطار الحلال. ولتكن المعرفة بعد إذن الوالدين، حتى تُحمى المشاعر.

في البحث عن شريك حياة مناسب، من المهم أن نستفيد من الوسائل التي أتاحها الله والمجتمع لنا. وفيما يلي بعض الطرق الشائعة والمستحسنة بناءً على تجربتي:

- **الوالدان**

الوالدان يعرفان ابنهما أو ابنتهما معرفة عميقة. وغالبًا ما يدركان جيدًا أي نوع من الأشخاص قد يناسب ابنهما أو ابنتهما. ومن خلال خبرتهما وحرصهما يمكنهما المساعدة على تجنب كثير من المشكلات وإضفاء الاستقرار. لكن يجب على الوالدين أن يسمعا أيضًا، لا أن يفرضا.

- **المعارف**

يمكن للأصدقاء الصالحين أو بعض الأقارب أن يلعبوا دورًا مهمًا. فهم يعرفون الأطراف أحيانًا ولو معرفة جزئية، ويمكنهم تقدير ما إذا كان التعارف بينهما مناسبًا أم لا. وفي زمن النبي ﷺ، كانت زيجات كثيرة تُقترح من خلال أفراد من المجتمع.

- **في المساجد**

ينبغي ألّا يكون المسجد مجرد مكان للصلاة، بل أيضًا فضاءً اجتماعيًا آمنًا وأخلاقيًا يتعرف فيه الناس إلى بعضهم. ويمكن لإدارات المساجد أو للأئمة الموثوقين أن يؤدوا دورًا هنا، من خلال إنشاء منصات مناسبة أو تقديم توجيه ومرافقة.

- **المحاضرات والمؤتمرات**

الفعاليات الإسلامية، والمحاضرات، والعمل التطوعي، وحتى اللقاءات الحوارية، قد تكون أيضًا أماكن للتعارف المحترم بين أشخاص متقاربين في الرؤية. ففي مثل هذه البيئات يظهر غالبًا من يهتم فعلًا بالمضمون، وهذا مؤشر مهم.

- **بشكل غير متوقع**

أحيانًا يظهر شخص في طريقك من غير تخطيط: في المدرسة، أو في الشارع، أو في العمل... وهذا ليس حرامًا في ذاته، ما دام الأمر يُدار بعد ذلك بطريقة صحيحة وحلال. لكن هذه الطريق تحتاج إلى حذر أكبر، لأنها تحمل احتمالات أوضح للغموض أو التقارب غير المنضبط.

- **صلاة الاستخارة**

بعد أن تقوم بما عليك من أسباب بشرية، يأتي وقت التوكل: اطلب من الله الهداية. فالاستخارة صلاة تسأل الله فيها أن يقرّب إليك الخير ويصرف عنك الشر، وأن يوجه قلبك إلى ما فيه الصلاح. وهي ليست آلة أحلام، بل وسيلة لتطهير قلبك في قرارك.

- **وسائل التواصل الاجتماعي وتطبيقات الزواج**

تنبيه مهم: لا أريد هنا أن أُصدر فتوى تقول إن الكلام الطويل مع الجنس الآخر عبر وسائل التواصل أو تطبيقات الزواج جائز. فالأصل في الإسلام أن يبقى الاتصال بين الرجال والنساء في حدود الضرورة، مع حفظ الحدود والحياء.

لكننا نرى في واقع اليوم أن كثيرًا من الناس يتعرفون إلى بعضهم بهذه الوسائل. ولهذا، إذا سلك أحد هذا الطريق، فيجب أن يكون شديد الحذر:

• أن يكون الكلام لهدف واضح: الزواج.
• أن يبقى التواصل مختصرًا، محترمًا، وبلا مماطلة.
• أن يُشرَك الوالدان أو شخص موثوق في أسرع وقت ممكن.
• وأن تُتجنب كل أشكال التعلق العاطفي قبل أن تتضح الجدية والنية.

فالشيطان يعمل بأقوى ما يكون حيث يوجد الغموض، وحيث تذوب الحدود، وحيث تتولى العاطفة القيادة. وكثير من الذنوب تبدأ بكلمات.

ولهذا يبقى الأصل في كل الأحوال: **تكلم بوضوح واختصار مع الجنس الآخر**. ومن أكبر الأخطاء التي تقع في العالم كله أن يطيل الناس الحديث بعضهم مع بعض بلا هدف واضح. وهذا يؤدي إلى التعلق، والشهوة، ثم في كثير من الأحيان إلى الذنب.

وانظر إلى مثال موسى عليه السلام: حين تكلم مع ابنتي شعيب، كان كلامه قصيرًا وواضحًا. وهما أوصلتا الأمر مباشرة إلى أبيهما. فالرجال الحقيقيون يوضحون نواياهم، والنساء الحقيقيات يرجعن في الوقت المناسب إلى والديهن.

فالبحث عن شريك الحياة ليس أمرًا سلبيًا، ولا ينبغي أن يقوم على المشاعر وحدها. بل يحتاج إلى سعي، وحكمة، وتوجيه، وثقة بالله. وكما في كل قرار في الحياة، يجمع الإنسان هنا أيضًا بين اتخاذ الأسباب والتوكل.

24.5 الخاتمة:

الزواج ليس قصة خيالية، لكنه أيضًا ليس عقوبة. بل هو حماية إلهية، وتدريب على الخلق والمسؤولية، وطريق إلى سكينة القلب، إذا بُني على الإيمان والاحترام المتبادل. وفي زماننا، حيث صارت العلاقات المحرمة أمرًا مألوفًا وأصبحت الزيجات الحلال أكثر صعوبة، يجب علينا أن نعيد بناء ثقافة تجعل الزواج ممكنًا من جديد.

وقد جعل النبي ﷺ الزواج من سنته. فتزوج هو، وتزوج أصحابه، وكان الزواج دائمًا جسرًا إلى الطهارة، والاستقرار، والنمو. فإذا تركنا هذا الطريق، سقطنا غالبًا في الفوضى، والحزن، والندم.

ولا يجوز أن نختزل الزواج في الثقافة، أو المكانة، أو لون البشرة، أو الشروط المالية. فالقرآن والحديث واضحان: الإيمان والخلق هما المفتاح. ومن تزوج لله، نال عون الله، ومن هنا دعا النبي صلى الله عليه وسلم إلى الفوز بصاحبة الأخلاق لأنها ستبني الأسرة وتؤثر في أولادها التأثير السليم حيث قال: "**تُنْكَحُ الْمَرْأَةُ لِأَرْبَعٍ: لِمَالِهَا، وَلِحَسَبِهَا، وَلِجَمَالِهَا، وَلِدِينِهَا، فَاظْفَرْ بِذَاتِ الدِّينِ تَرِبَتْ يَدَاكَ**"[290].

فالنصيحة النبوية في هذا الحديث بالمرأة الملتزمة بدينها وأخلاقها لأنها تحفظ زوجها وأولادها، فالدين هو الأساس، وإن اجتمع مع الدين جمال أو مال فهذا فضل عظيم، وتربت يداك يُقصد بها في لغة العرب الحث والتحريض بشدة.

وكثير من الناس يستمرون في البحث عن "الشريك المثالي"، كأن هناك إنسانًا كاملًا بلا عيوب. لكن الواقع هو أن كل إنسان يحمل قصة، أو جراحًا، أو طباعًا خاصة، أو مخاوف، أو ماضيًا. والسؤال الصحيح ليس: "من هو الكامل بالنسبة لي؟" بل: "أي نوع من المشكلات أنا مستعد أن أتحمله بحب؟" فهذه هي المحبة الحقيقية: أن تتحمل مسؤولية هشاشة الآخر وضعفه.

[290] صحيح البخاري، حديث رقم (5090).

وعلى المجتمعات، والمساجد، والآباء، أن ينهضوا بدورهم. وعلى الشباب أن يتعلموا تحمّل المسؤولية. ويجب علينا جميعًا أن ندرك أن الحب الحقيقي لا يبدأ بالعاطفة، بل بالتقوى.

فالقرآن يدعو إلى تسهيل الزواج، لا سيما للفئات الأضعف في المجتمع: الأرامل، والمطلقات، والفقراء، والخدم. وتذكّرنا الآية في سورة النور بأن الغنى ليس شرطًا للزواج، بل الإخلاص والصلاح هما الأساس. ومع ذلك، يجعل كثير منا الزواج صعبًا بشروط غير واقعية، أو بتقديم الظواهر، أو بالعوائق الثقافية.

ولهذا من المهم أن:

• نطهّر نوايانا: فابحث عن شريك بقصد التقوى، لا الجاذبية فقط.
• نُدخل الأشخاص المناسبين في العملية: الوالدان، وأهل الثقة، والمساجد، ينبغي أن يكون لهم دور.
• نحفظ الحدود: فالإفراط في الاتصال بين الجنسين، وطوله، وغموضه، يفتح أبواب الفتنة.
• نتكلم بوضوح وفي صلب الموضوع: كما تكلم موسى عليه السلام بوضوح، كذلك ينبغي للمسلم الجاد أن يبيّن نيته سريعًا وباحترام.
• نكون واقعيين: فكل إنسان يحمل معه أعباءً، والسؤال هو: أي مسؤولية أنت مستعد لتحمّلها؟

وحتى إذا استُعملت وسائل التواصل أو التطبيقات، فيجب أن يكون ذلك بأقصى درجات الحذر. لا لفرض باب "حلال" بالقوة، بل حتى لا نسقط في الحرام بسبب الاستهتار. فواقع اليوم يفرض علينا أن نبحث بوعي، وتحت التوجيه، وأن نحفظ مشاعر الآخرين كما نحب أن تُحفَظ مشاعرنا. ومن طلب الله، وجد. ومن انتظر بصبر، رُزق خيرًا مما تخيله. ومن تزوج فقط ليُسكت شهوته من غير مسؤولية، انتهى به الأمر غالبًا إلى المرارة. فالزواج ليس نهاية الطريق. بل هو بداية رحلة روحية.

الفصل 25 (هدف الزواج) في الرؤية القرآنية للعالم:

25.1 الملاحظة:

في مجتمعنا المعاصر، يدخل الناس إلى الزواج كثيرًا بنية سطحية أو خاطئة. فبعضهم يتزوج بدافع الحب العاطفي المجرد فقط؛ بدأ الأمر بجمالها، أو بمكانته، أو بمظهره، أو براحة وضعه المالي. وآخرون يستعملون الزواج كمهرب: هروبًا من بيت لا يُحتمل، أو من الوحدة. وكثير من الشباب يخضعون لضغط اجتماعي أو عائلي، فيتزوجون ابن العم أو ابنة الخال من بلدهم الأصلي من غير رابط حقيقي. وفي بعض البلدان، ما يزال الزواج يُفرض على الفتيات كقدر ثقافي. يُزوَّجن من غير رأي، ومن غير حب، ومن غير عمق ديني.

والنتيجة؟ زيجات مكسورة. أزواج يعيشون جنبًا إلى جنب، لكنهم لا يعيشون مع بعضهم حقيقة. علاقات يتوقف فيها الاستثمار في الحب، والرومانسية، والمودة. ويحل محل البعد، والبرود، وأحيانًا حتى الخيانة، التي تُغلَّف أحيانًا باسم "زواج ثانٍ" أو مجرد خيانة صريحة. وما كان يُعد في السابق مشكلة عند الرجال فقط، نراه اليوم عند النساء. وفي الغرب يظهر هذا عند الجنسين معًا. فنحن نلاحظ أن الزواج نادرًا ما يُبنى على أسس روحية. لكن القرآن الكريم يعلمنا أن الزواج في الأصل آية من آيات الله، ودليل على قدرته ورحمته.

25.2 الآيات القرآنية:

الآية الأولى: قال تعالى: ﴿**وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ**﴾[291]

• يقول ابن عاشور إن هذه الآية ترفع الزواج إلى مرتبة الآية الإلهية: فهو شُرع من أجل السكون، والمودة، والرحمة. وهذه الثلاثة تشكل معًا قلب الزواج الناجح. ويؤكد أن ترتيب هذه الكلمات يدل على انسجام نفسي وروحي عميق.

• ويشير القرطبي إلى أن هذه الثلاثة تحتاج أيضًا إلى عملية بناء: فالمحبة تنمو بالمعاشرة، والرحمة تنمو بالفهم، والسكون ينشأ من الثقة. فهي ليست هباتٍ آلية، بل ثمار يجب أن يزرعها الزوجان معًا.

• ويشرح الرازي أن المودة تشير إلى الانجذاب الجسدي والعاطفي، بينما الرحمة تظهر في الصبر، والعفو، والمساندة، خاصةً عندما يضعف الطرف الآخر. وهذا يبين أن الزواج تدريب روحي على التضحية والشفقة.[292]

الآية الثانية: قال تعالى: ﴿**وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّـٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا**﴾[293]

• يقول ابن عاشور إن "قرة أعين" تعبير عن فرح داخلي عميق ورضًا روحي. فالزواج لا ينبغي أن يمنح راحة جسدية فقط، بل أيضًا فخرًا روحيًا: شريكًا يقربك إلى الله، وأبناءً يحملون إيمانك من بعدك.

---

[291] سورة الروم، آية رقم (21).

[292] انظر: الجامع والتحرير ومفاتيح الغيب، تفسير سورة الروم.

[293] سورة الفرقان، آية (74).

• ويشرح القرطبي أن هذا الدعاء يمثل أعلى صورة من النجاح الزوجي: أسرة يجتمع فيها الحب، والتقوى، والقدوة الحسنة. إنه دعاء من أجل انسجام روحي، لا مجرد انسجام دنيوي.

• ويلاحظ الرازي أن هذه الآية تربط الزواج بالطموح إلى أن يكون الإنسان قدوة لغيره. فليس الزواج مجرد عيش مشترك، بل قيادة مشتركة في طريق التقوى.[294]

25.3 تأمل في الحديث:

الحديث: قال النبي ﷺ: "**الدنيا متاع وخير متاعها المرأة الصالحة**"[295]

التأمل: يبين هذا الحديث القيمة الدينية للزواج: فهو يحفظ العِرض، ويمنح القلب استقرارًا، ويقوي البوصلة الأخلاقية للمؤمن. لكن هذا لا يتحقق إلا إذا كان الزواج قائمًا على الإيمان، لا على الشهوة أو الضغط الاجتماعي.

المعنى العام للحديث: يبين الحديث أن الدنيا متاع زائل ومؤقت كزاد المسافر وأن أعظم وأفضل ما يمكن أن يتمتع به الإنسان في حياته هو الزوجة الصالحة، لما لها من أثر عميق في بث السعادة والاستقرار.

25.4 الطبقة التأملية:

حين نفكر في الزواج، ينسى كثير من الناس هدفه الحقيقي: السكون. لا الجمال. لا المال. لا المكانة. فالله يقول في القرآن، إنه خلق لنا الأزواج لنجد عندهم السكون: **لتسكنوا إليها**. والسكون ليس ترفًا، بل نعمة إلهية. لكن كم مرة نبحث فعلًا عن الشريك الذي يمنح هذا السكون الحقيقي؟

يقول الناس اليوم: "أنا واقع في الحب." أو: "هي جميلة." أو: "عنده وظيفة جيدة." لكن ماذا لو زال هذا الجمال؟ ماذا لو نفد هذا المال؟ ماذا يبقى بعد ذلك؟ السكون هو الشيء الباقي. ولهذا علينا أن نسأل أنفسنا: "مع من أشعر فعلًا بالطمأنينة؟ ومع مَن أشعر أنني أقرب إلى الله؟" فبالنسبة لبعض الناس، يكون السكون في الجلوس معًا في صمت. ولآخرين يكون في المشي معًا، أو الضحك معًا، أو اللعب مع الأطفال، أو تناول وجبة بسيطة مساءً في سلام. وربما تجد سكونك في شخص يشاهد معك التلفاز، أو في شخص ينظر معك إلى السماء المليئة بالنجوم ويقول: سبحان الله. فكل إنسان يشعر بالسكون بطريقة مختلفة. لكن المهم أن

[294] انظر: الجامع والتحرير ومفاتيح الغيب، تفسير سورة الفرقان.

[295] صحيح مسلم، حديث رقم (1467).

تبحث عمّن تهدأ معه روحك. وإلى جانب السكون، هناك سبب مهم آخر كثيرًا ما يُسكت عنه: الزواج وسيلةٌ لعيش الرغبات بطريقة حلال. والقرآن الكريم يتحدث عن ذلك بصراحة. فالله يمدح المؤمنين في آيات عدة، لأنهم يحفظون فروجهم إلا على أزواجهم: حيث قال تعالى: "**والذين هم لفروجهم حافظون، إلا على أزواجهم...**"[296]

فهذه الآيات تبين لنا أن الجنس ليس من المحرمات المسكوت عنها في الإسلام، بل هو من الأسباب التي شُرع لأجلها الزواج. فنحن بشر. والله هو الذي خلق فينا الرغبة. وقد وضع لها طريقًا آمنًا، وروحيًا، ومليئًا بالمحبة، لكي تُعاش بالحلال: وهو الزواج.

ولهذا فالجاذبية الجسدية أيضًا مهمة. فالجمال ليس ذنبًا. إنه عامل مشروع، لكنه يجب ألّا يكون الدافع الوحيد. والنبي ﷺ نصح حتى بأن ينظر الإنسان إلى من يريد أن يتزوجها، لكنه قال أيضًا: "فاظفر بذات الدين تربت يداك."

وإذا غاب أحد هذين الهدفين الأساسيين، فحينها يحق لك أن تسأل نفسك: لماذا أبقى في هذا الزواج أصلًا، سواء وُجد أطفالاً في الصورة أم لا؟

وفي النهاية يجب أن ندرك أن الزواج ليس محطة الوصول، بل بداية. بداية رحلة نسير فيها معًا نحو الله. رحلة يجتمع فيها السكون، والحب، والرحمة. لكنها تبدأ بالنية. فمن تزوج بالنية الصحيحة، جنى الثمار في الدنيا وفي الآخرة.

25.5 الخاتمة:

الزواج ليس مجرد عقد اجتماعي أو إجراء ديني شكلي. بل هو آية إلهية، كما قال الله نفسه في سورة الروم. إنه رحلة روحية، ومكان للسكون، والمحبة، والرحمة. ومرفأ آمن في عالمٍ مليء بالفوضى.

ونحن نعيش في زمنٍ يُختزل فيه الزواج كثيرًا في الظواهر، أو الضغط الاجتماعي، أو الرغبة في الهروب. لكن من يدخل الزواج بلا نية واضحة، وبلا وعي بمقصده، فإنه سرعان ما يتيه في الخيبة والفراغ.

ويعلمنا القرآن أن النجاح الحقيقي في الزواج يكمن في:

[296] سورة المؤمنون، آية (5_6)، سورة المعارج، آية (29_30).

- أن نجد السكون عند بعض = **سكون**
- وأن ننمّي المحبة = **مودة**
- وأن نُظهر الرحمة لبعضنا = **رحمة**
- وأن نوجّه شهواتنا في طريق الحلال، حتى نحفظ العفة كما أثنى الله في سورة المؤمنون وسورة المعارج

ولهذا فإن السؤال الحقيقي الذي يجب على كل شاب، وكل والد، وكل مجتمع أن يطرحه ليس: "من هو الأجمل أو الأكثر جاذبية؟" بل: "عند من سأجد السكون؟" "ومع من يمكنني أن أنمو نحو الله؟" "ومع من سأغفر، وأبني، وأضحك، وأجاهد، لكن من غير أن نتحطم؟"

وإذا وجدنا هذا السكون، فعلينا أن نبذل كل ما نستطيع لحفظه وتقويته. لأن الزواج ليس نهاية الطريق. بل هو رحلة. وكل يوم في هذه الرحلة هو فرصة لتعكس محبة الله في المحبة التي تعطيها لشريكك.

الفصل 26 (الاستعداد للزواج) في الرؤية القرآنية للعالم:

26.1 الملاحظة:

يدخل كثير من الشباب اليوم إلى الزواج من غير استعداد حقيقي. يظنون أن الحب أو الانجذاب يكفيان، أو أن الزواج سيستقيم تلقائيًا إذا كان مع "الشخص المناسب ". وبعضهم لم يفكر أصلًا في دوره هو كزوج أو زوجة. والنتيجة؟ خيبة أمل، وتضارب في التوقعات، وإحباط، بل وحتى طلاق بعد فترة قصيرة من البداية.

وهناك آخرون يُغمرون بالضغط الاجتماعي، أو بالعادات الثقافية، أو بالخوف من التقدم في العمر، فيتزوجون على عجل. ونادرًا ما نجد استعدادًا واعيًا للزواج بوصفه رابطة روحية، ومسؤولية عاطفية، ومهمة اجتماعية. وعند الشباب المسلمين الجادين في دينهم، نسمع كثيرًا قولهم: أريد أن أدخل قفص الزوجية وهذا في ذاته علامة إيجابية. لكن في الوقت نفسه، هناك كثير من الشك: "هل لا يزال هناك رجال صالحون أو نساء صالحات أصلًا؟ "والواقع أن كثيرين يرغبون في علاقة حلال، لكنهم يدخلون الزواج وهم غير مستعدين له تمامًا. فإذا أردت أن تصبح كهربائيًا، أو طبيبًا، أو مهندسًا، فعليك أن تدرس، وتجتاز امتحانات، وتخضع للتدريب. لكن لأحد أهم القرارات في حياتك، زواج سيؤثر في روحك، وإيمانك، ومستقبلك، لا يوجد غالبًا أي إعداد حقيقي. لا علم. لا توجيه. لا محاسبة للنفس.

فأغلب الشباب يُلقون في الزواج إلقاءً، بلا مرافقة، ولا تدريب نفسي وروحي. ونادرًا ما يتحدث الآباء عن كيفية التعامل مع الخلافات، أو عن التواصل، أو عن الدورات العاطفية داخل الحياة الزوجية. كما أن المساجد

والمؤسسات الإسلامية تغيب غالبًا عن هذا المجال، مع أن الزواج مفتاح إلى أسرة مستقرة وأمة متوازنة. بل نجد مثالًا مُلهمًا حتى عند بعض الكنائس الكاثوليكية، حيث يُلزَم الأزواج قبل الزواج بحضور دورة خاصة، تتضمن حالات عملية وتمثيل أدوار. ومع أن الزواج عندهم يُنظر إليه على أنه لا ينفصم حتى يفرقنا الموت، فإننا كمسلمين يمكننا أن نتعلم شيئًا من هذا من الناحية التنظيمية.

وأنا أتكلم هنا أيضًا من تجربة شخصية: أكثر من عشرين سنة من الزواج، فيها صعود وهبوط. وفي البداية، أقولها بصراحة، لم أكن أعرف شيئًا عن الزواج. لم أكن أفهم شيئًا من المراحل العاطفية التي تمر بها المرأة. ولم أكن أدرك كم هو مهم أن تستمع دون أن تسارع مباشرة إلى تقديم الحلول. كنت طفلًا وحيدًا، ولم أتحمل في البيت أي مسؤولية. لم أكن أطبخ، ولا أغسل الصحون، ولا أنظف... فضلًا عن أعمال البيت الأخرى. كل شيء كان يُفعل من أجلي. وزوجتي من جهتها لم تكن تعرف أيضًا كيف يفكر الرجال، كم نحن مباشِرون وبسطاء غالبًا، وكم قليلًا ما نقرأ ما بين السطور. وهكذا اصطدم عالمان أحدهما بالآخر. وكانت السنوات الأولى من العيش المشترك صعبة. لأننا كنا بحاجة إلى التوازن، والنمو، والتعلم كيف نعطي ونأخذ، وقبل كل شيء: كيف نفهم بعضنا بعضًا. وهذه التجربة الشخصية ليست استثناء، بل هي القاعدة. ولهذا يجب أن تكون دورات الزواج، وتمثيل الأدوار، والحديث مع الأزواج ذوي الخبرة، والاستفادة من الموجّهين، من أساسيات هذا الطريق. لأن الزواج ليس قصة خيالية، بل هو طريق من التقوى، والمحبة، والجهاد، والنمو. ولا يكفي أن تتعرف إلى الطرف الآخر، بل عليك قبل ذلك أن تتعرف إلى نفسك. أين أنا في ديني؟ هل أنا مستعد نفسيًا لأن أعطي؟ هل أستطيع أن أتحمل المسؤولية؟ هل أفهم ماذا يعني أن أكون سندًا لإنسان آخر؟ أنت لا تعرف الشخص حقًا إلا بعد الزواج، نسمع اليوم من الشباب السؤال نفسه أكثر فأكثر:

"لكن كيف أتعرف إلى شريك حياتي المستقبلي إذا لم أتحدث معه أولًا، أو إذا لم أخرج معه؟ "

وفي هذا السؤال خوف واضح: فالناس يريدون اليقين، ويريدون أن يشعروا أن هناك توافقًا، ويريدون أن يعرفوا هل "يناسبان بعضهما" أم لا.

لكن ما لا يدركه كثيرون هو أن المرحلة الأولى، التي يُفترض فيها أن الناس يتعرفون إلى بعضهم، تكون في كثير من الأحيان مرحلة يؤدي فيها الطرفان أدوارًا. كل شيء يكون مهيأً لترك الانطباع الأفضل: أجمل هيئة، وألطف سلوك، وأكثر صبرا، وأجمل كلمات. فيُظهِر الإنسان ما يريد للآخر أن يراه، لا من يكونه حقًا بالضرورة. إنها مرحلة أقنعة، تُغطَّى فيها الطبيعة الحقيقية غالبًا بالحب، والرومانسية، والتوقعات. وهذا أمر

مفهوم. ففي الأشهر الأولى، يكون كل شيء خفيفًا وسهلًا. لا فواتير، ولا أطفال، ولا مسؤوليات. كل شيء يتمحور حول "أنا وأنت" بلا أعباء بيت، ولا تدخلات أهل، ولا اختلاف طباع، ولا إرهاق بعد يوم عمل طويل.

لكن بعد الزواج يتغير الروتين. تأتي الحقيقة: المال، وأهل الزوجين، وضغط العمل، والليالي التي بلا نوم، والخلافات. وما كان يسير بسهولة يصبح بحاجة إلى جهد. ويظهر الشريك الذي كان يبدو محبوبًا أيضًا على حقيقته: قد يكون هشًا، أو مثقلًا بجراح قديمة، أو عنيدًا، أو منهكًا. وعندها فقط يكتشف الناس حقيقة بعضهم بعضًا. لا في أجمل الثياب، بل في لباس النوم. لا بابتسامة في لقاء، بل بدمعة بعد شجار. لا بباقة ورد في اليد، بل بكيس قمامة في الطريق إلى الخارج.

وعندها يدرك كثيرون: أنا لم أكن أعرفه أصلًا. أو لم أكن أعرفها أصلًا. ولهذا يشجعنا الإسلام على ألّا نعيش معًا بلا ضابط، وألّا نطيل المواعدة أشهرًا وسنوات، بل أن نجري في فترة الخطبة، وبإشرافٍ وحكمة، الحوارات الصحيحة. حوارات حول الرؤية، وتقسيم الأدوار، والقيم الدينية، والتربية، والتعامل مع المال، والتواصل، والحميمية، والخطط المستقبلية. لأن الحب الحقيقي لا ينشأ من محادثات طويلة ولا من عشاءات رومانسية، بل من القيم المشتركة، والشفافية، والصدق. ومن يتجنب هذه الحوارات، فإنه يتزوج وهمًا.

فالزواج يجب أن يُبنى على أكثر من الانجذاب أو العاطفة. إنه يحتاج إلى استعداد، ووعي، ونضج. لا إلى كشف كل شيء دفعة واحدة، ولكن إلى ما يكفي لمعرفة هل يمكن أن نبني معًا زواجًا يصمد أمام عواصف الحياة أم لا. لأنك لا ترى متانة الأساس إلا حين يشتد الضغط. ولهذا أقول: أنت لا تعرف الشخص حقًا قبل الزواج، بل بعده. لكن يمكنك قبل الزواج، بحكمة ومرافقة، أن تضع الأساس الصحيح، بحيث إذا سقطت الأقنعة بقيت الثقة.

26.2 الآيات القرآنية:

الآية الأولى: قال تعالى: ﴿**يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا**﴾[297]

• يوضح ابن عاشور أن هذه الآية تُظهر أعمق صلة روحية بين الرجل والمرأة: فكلاهما خُلق من نفس واحدة. وهذا يعني أن الزواج ليس مجرد عقد، بل اتحاد متجذر في أصل مشترك، تحمله التقوى.

[297] سورة النساء، آية (1).

• ويؤكد القرطبي أن هذه الآية تبدأ بنداء عالمي: "يا أيها الناس"، مما يبين أن الزواج حقيقة إنسانية يجب أن تُبنى على وعي بالله واحترام لصلة الرحم، لا على الشهوة، أو المكانة، أو الضغط الاجتماعي.

• ويرى الرازي في قوله: واتقوا الله... والأرحام إشارةً إلى أن الزواج وكل ما يتصل به، من أهل الزوجين، والأبناء، والنسب، هو تحت رعاية الله. ولذلك فهو يحتاج إلى استعداد ووعي بهذه المسؤولية الثقيلة.[298]

وتعيدنا هذه الآية إلى أصل الوجود الإنساني: الرجل والمرأة ليسا خصمين ولا شريكين عابرين، بل هما نصفان من نفس واحدة. فالزواج ليس عقدًا دنيويًا فقط، بل رابطة روحية لا تزدهر إلا إذا بُنيت على التقوى، والاحترام، وحرمة الأسرة. ونحن ننسى كثيرًا أن الزواج في الإسلام ليس مجرد عقد اجتماعي، بل هو نوع من العبادة. وكما أن الصلاة والصيام يحتاجان إلى إعداد، فكذلك الزواج. فمن يدخل الزواج من غير علم، ولا محاسبة للنفس، ولا نمو روحي، فإنه يوشك أن يؤذي نفسه ويؤذي والطرف الآخر.

الآية الثانية: قال تعالى: ﴿**وَأَنكِحُوا ٱلْأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّـٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ ۚ إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ**﴾[299]

• يؤكد ابن عاشور أن التركيز هنا على "الصالحين" وهذا يدل على أن الخلق وحال الإيمان هما أول الاستعدادات المطلوبة. أما الغنى فيأتي بعد ذلك، وقد وعد الله بفضله.

• ويقول القرطبي إن هذه الآية تعلمنا أنه لا ينبغي أن ننتظر حتى يكتمل كل شيء، من مال، وبيت، وسيارة، حتى نتزوج. فالاستعداد الحقيقي أخلاقي وروحي.

• ويشرح الرازي أن الاستعداد للزواج يعني أن يكون لدى الإنسان وعي بواجباته، وأن يكون مستعدًا لأن يرى الزواج عبادة.[300]

الآية الثالثة: قال تعالى: ﴿**ٱلْخَبِيثَـٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَـٰتِ ۖ وَٱلطَّيِّبَـٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَـٰتِ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ ۖ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ**﴾[301]

---

[298] انظر: الجامع والتحرير ومفاتيح الغيب، تفسير سورة النساء.

[299] سورة النور، آية (32).

[300] انظر: الجامع والتحرير ومفاتيح الغيب، تفسير سورة النور.

[301] سورة النور، آية (26).

• يرى ابن عاشور أن هذه الآية لا تتحدث فقط عن الطهارة الجنسية، بل عن الأخلاق، والإيمان، والقيم الداخلية. فمن يشتغل بصدق على تهذيب خلقه ودينه، يُرزق كذلك شريكًا يناسب هذه الحال. وهكذا يخلق الله توازنات روحية داخل المجتمع.

• ويقول القرطبي إن هذه الآية تحمل في الوقت نفسه حمايةً وتطمينًا للمؤمنين الذين يُتّهمون ظلمًا، كما اتُّهمت عائشة. لكنها أيضًا تحذير: فمن يختار السلوك الفاسد، سيحصد أثره كذلك في علاقاته.

• ويؤكد الرازي أن الشراكة في الإسلام تُبنى على الطيب المشترك. ولفظ "الطيبين" لا يراد به الطيب الظاهر فقط، بل الطيب الأخلاقي والروحي أيضًا. ولذلك فإن على المؤمن، استعدادًا للزواج، أن يطهر نفسه ليكون أهلًا لشريك من مستوى الطهارة نفسه.[302]

وتؤكد هذه الآية جوهر الاستعداد الذاتي: أنت تجذب ما أنت عليه. أو كما قال العلماء: "الزواج مرآة: من كان نقيًا جذب النقاء، ومن عاش بالنفاق بقي أسيره. "

26.3 تأمل في الحديث:

الحديث: قال النبي ﷺ: "**تُنْكَحُ الْمَرْأَةُ لِأَرْبَعٍ: لِمَالِهَا، وَلِحَسَبِهَا، وَلِجَمَالِهَا، وَلِدِينِهَا، فَاظْفَرْ بِذَاتِ الدِّينِ تَرِبَتْ يَدَاكَ**"[303]

التأمل: هذه الحكمة النبوية تنطبق أيضًا على الرجل: فأفضل استعداد للزواج هو دينك، وخلقك، وصدق توجّهك إلى الله. وهذا هو الأساس لزواجٍ يدوم.

26.4 الطبقة التأملية:

الاستعداد للزواج يبدأ قبل الخطبة بوقت طويل. إنه ليس قائمةً إدارية، ولا طقسًا ثقافيًا، ولا قصة خيالية تنتظر فيها "الشخص المناسب ". بل هو مسار من معرفة النفس، وبناء الخلق، والنمو الروحي. أنت نفسك هو الأساس الذي سيُبنى عليه. فإذا كان أساسك ضعيفًا، اهتزت كل علاقة، فالزواج ليس الهدف النهائي، بل بداية رحلة روحية، وغايتها الكبرى رضا الله. ولهذا عليك أولًا أن تسأل نفسك:

---

[302] انظر: الجامع والتحرير ومفاتيح الغيب، تفسير سورة النور.

[303] صحيح البخاري، حديث رقم (5090).

- هل تعلمت أن أحل الخلافات بطريقة سلمية؟
- هل أنا صبور؟ وهل أستطيع أن أعفو؟
- هل أستطيع أن أستمع من غير أن أحكم؟
- هل أعرف كيف أعبّر عن مشاعري؟
- هل أستطيع أن أكون وفيًا، حتى حين يصبح الأمر صعبًا؟

إذا لم تكن هذه الأمور عندك، فأنت لم تستعد بعد للزواج.

اعمل أولًا على نفسك

كن جوهرة، حتى تستحق جوهرة. فكثير من الناس يبحثون عن شريك مثالي، لكنهم ينسون أن يُشكّلوا أنفسهم ليكونوا زوجًا أو زوجة ذوي قيمة. فخلقك، وإيمانك، وطريقة كلامك، وطريقتك في التعامل مع الشدة، هي التي تهم فعلًا.

بالنسبة للرجال:

لا تظن أن المال أو المظهر كل شيء. اعمل على صبرك، ولينك، وثباتك العاطفي، وتحملك للمسؤولية. واعرف احتياجات زوجتك الأساسية. وتعلّم شيئًا عن الدورة الشهرية، وعن تجربتها العاطفية، وعن أهمية الانتباه واللمسة الطيبة بالنسبة لها. واحرص أيضًا على أن تتقن بعض الأطباق البسيطة، وأن تعرف شيئًا من أعمال البيت، فذلك ليس ترفًا أبدًا إذا كنت داخلًا في الزواج. لكن افهم أيضًا: أنت زوجها، لا خادمها. ويجب أن تكون قادرًا على وضع حدود، وأن تُظهر رجولتك. لا من باب السيطرة، بل من باب القيادة. واجعل لنفسك حضورًا وقيمة بحيث تُشتاق وتُفتقد. وفوق كل شيء: ليس هدفك الأعلى أن تُرضي زوجتك، بل أن تُرضي الله. عندها فقط تستطيع أن تعطيها حقها حقًا.

بالنسبة للنساء:

لا تنتظري الأمير انتظارًا سلبيًا. اعملي على عقلك، ونموك الروحي، وثقتك بنفسك. ولا تظني أنك يجب أن تختفي في الآخر أو أن تضحّي بهويتك كلها. لكن افهمي أيضًا: الرجال خُلقوا على نحو مختلف. فهم كثيرًا ما يلتقطون الإشارات غير المباشرة بدرجة أقل، وهم أكثر مباشرةً وبساطة، وأحيانًا ساذجون في إدراكهم. فتكلّمي بوضوح. وبيّني ما تشعرين به، وما تحتاجينه. وكوني شاكرة قبل كل شيء. فالرجل يجد دافعًا كبيرًا حين يشعر

بأنه مُقدَّر. وحتى إذا كان يؤدي مجرد واجبه في النفقة عليك، فهو يستحق منك الاحترام. فلا تُحقّريه، حتى إذا كنت مجروحة. فالاحترام بالنسبة إلى الرجل مثل الحب بالنسبة إلى المرأة.

26.5 الخاتمة:

الزواج ليس مهربًا، ولا رمز مكانة، وبالتأكيد ليس مسرحية ثقافية. إنه رابطة مقدسة، واختبار للخلق، ولبنة في بناء المجتمع، وفوق ذلك كله طريق إلى رضا الله. لكن هذا الطريق لا يبدأ يوم الزفاف. بل يبدأ اليوم، من نفسك. فمن أراد أن يتهيأ للزواج، فعليه أن يتوقف عن البحث فقط عن "الشخص المناسب"، وأن يبدأ في أن يصير هو نفسه الشخص المناسب. اعمل على أخلاقك، وتواصلك، وصبرك، وتعاطفك، ومهاراتك المنزلية، ومعرفتك بنفسك. وافهم أن الزواج لا يدور حول الكمال، بل حول النمو، والمرونة، والصدق.

نحن نعيش في زمن لم يعد فيه كثير من الناس يعرفون كيف يتعاملون حتى مع مشاعرهم هم، فضلًا عن مشاعر غيرهم. يدخل الشباب في رابطة عمر كاملة بلا إعداد نفسي، ولا توجيه، ولا مرافقة روحية. ولهذا نرى هذا العدد الكبير من العلاقات الفاشلة، والطلاق، والأسر المنكسرة.

لكن القرآن أعطانا التوجيهات فعلًا. كما قال الله: ﴿**ٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ**﴾[304]

فبناء زواج بلا إعداد يشبه بناء بيت بلا أساس. فاستعد. واستثمر في العلم. وتحدث مع أهل الخبرة. وخذ دورة. وناقش والديك، ومرشديك، ونفسك. واسأل نفسك أسئلة تتجاوز الانجذاب والمظهر.

ونحن ننسى كثيرًا أن الزواج في الإسلام ليس مجرد عقد اجتماعي، بل هو عبادة. وكما أن الصلاة والصيام يحتاجان إلى إعداد، فكذلك الزواج. فإذا رأيت الزواج عبادة، تغيّرت نيتك كلها، وتغيّر أسلوبك كله. وعندها ستدرك أنك تهيئ نفسك لطريق حياة تكون فيه المحبة، والوفاء، والنمو الروحي في المركز.

وفي النهاية، ليس السؤال الأهم: مع من تتزوج؟ بل: كيف ستصبح أنت داخل هذا الزواج؟ فإذا التقى شخصان بنية أن يعبدا الله معًا، وبالصبر، وبالفهم المتبادل، فذلك ليس قصة خيالية، بل حقيقة. حقيقة تجلب السكينة، كما وصفها الله: ﴿**لِتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا**﴾[305]

فاجعل استعدادك للزواج عبادة. واعلم أن الزواج الصالح يبدأ من نفس صالحة.

---

[304] سورة النور، آية (26).

[305] سورة الروم، آية (21).

الفصل 27 (التحديات والمسؤوليات) داخل الزواج:

27.1 الملاحظة:

ندخل هنا إلى ميدان حساس تُرتكب فيه أخطاء كثيرة، لا دائمًا بدافع السوء، بل غالبًا بسبب الجهل، أو تأثيرات الثقافة، أو ضعف الاستعداد. فالقرآن الكريم لا يتحدث بتفصيل عن كل مهمة أو واجب داخل الزواج. لماذا؟ لأن كل حالة تختلف عن الأخرى. فهناك امرأة طبيبة أو معيلة للأسرة، وأخرى تفضّل البقاء في البيت. وهناك رجل يعمل أيامًا طويلة خارج المنزل، وآخر يعمل إمامًا أو ناشطًا في الدعوة. والحياة متنوّعة أكثر من أن تُحصر في تقسيم واحد جامد للأدوار. ولهذا لم يعطنا الله قائمةً من القواعد الصارمة، بل أعطانا مبادئ أساسية: المحبة = **مودة**، والرحمة = **رحمة**، والمسؤولية العادلة = **قوامة**. أما التطبيق العملي، فهو متروك للزوجين نفسيهما.

ومع ذلك، نرى في كثير من الثقافات تقسيمًا قاسيًا للأدوار، وغالبًا ما يُلبَّس لبوس الدين. فالنساء يُنتظر منهن دائمًا أن يطبخن، وينظفن، ويربين الأطفال، ويكنّ متاحات دائمًا، حتى لو كنّ يعملن خارج البيت أيضًا. ولا نجد مثل هذه الواجبات بصيغتها الجامدة في القرآن الكريم في أي موضع. والنتيجة: كثير من النزاعات. فالرجال يتوقعون الطعام على المائدة، والقرب الجسدي، لكنهم ينسون أن يسألوا: كيف كان يوم زوجتك؟ فلا حوار، ولا فهم متبادل، ولا شعور بالشراكة.

ولهذا كانت مرحلة الخطبة مهمة جدًا. ففيها يجب على الزوجين أن يتحاورا حول التوقعات: هل يجوز للمرأة أن تعمل؟ كيف سنقسم أعمال البيت؟ كيف نريد أن نربي أبناءنا؟ ما المسؤوليات التي سنتحملها معًا؟ لكن هذا الحوار يُتجنَّب كثيرًا، فتكون النتيجة خيبات أمل لاحقًا. وحتى النبي ﷺ كان يساعد في البيت، وفي هذا درس واضح لمن يظن أن الرعاية والعمل داخل المنزل مهمة المرأة وحدها.

وفي أوروبا نرى، ولله الحمد، وعيًا متزايدًا عند بعض الشباب المسلمين. فعدد أكبر من الأزواج يتحدثون بصراحة ويقسمون الأعباء. لكن في كثير من البلدان الإفريقية والآسيوية، لا يزال الزواج ذا طابع أبوي صارم. تُطالَب المرأة بالطاعة والخدمة، كثيرًا على حساب راحتها وصحتها. فتُرهَق، وتفقد هويتها، وتشعر بوحدة عاطفية عميقة. ثم إذا انهارت، بحث الرجل عن مخرجه في مكان آخر: أحيانًا عند زوجة ثانية، وأحيانًا في المعصية، وأحيانًا بتبرير ديني. وهذا ليس إسلامًا، بل إساءة استعمال ثقافية للسلطة، متخفية في ثوب الدين. فالقرآن يعلّمنا التوازن، والتشاور، والمحبة، والعدالة. وقد حان الوقت أن نعيد هذا المعيار، لا في الكتب فقط، بل في بيوتنا قبل كل شيء.

وفي الوقت نفسه، نرى في الغرب انحرافًا من نوع آخر. فبسبب الاستقلال المالي لكثير من النساء، صارت بعضهن لا ينظرن إلى الرجل كشريك، بل كعبء إضافي: طفل كبير يجب أن يُعتنى به. وعندها يفقد الزواج توازنه. كما أن الحب والتأكيد العاطفي صار من السهل العثور عليهما في أماكن أخرى، عبر العلاقات السطحية، أو الترتيبات المفتوحة، أو الاتصالات العابرة. وما يزال هذا الأمر محرّمًا أو مخفيًا في بعض الثقافات، لكنه في هذا السياق يُطبّع كثيرًا. والنتيجة واحدة: ضياع الاستقرار والثقة. وهكذا نفقد التوازن من الطرفين. ففي بعض الثقافات تُظلَم المرأة وتُحمَّل فوق طاقتها. وفي سياقات أخرى يُهمَّش الرجل أو تفقد الأسرة هيكلها الطبيعي.

يُضاف إلى ذلك أمر آخر: إساءة استعمال بعض آيات القرآن الكريم. ففي بعض مناطق إفريقيا وآسيا، يستعمل بعض الرجال آية القوامة "**الرجال قوامون على النساء**"[306] ذريعةً لإساءة استعمال السلطة. والأسوأ من ذلك أن الآية التي ورد فيها، ضمن شروط صارمة، ذكر مسألة التأديب، تُنتزع من سياقها وتُستخدم لتبرير العنف الأسري. ويحدث هذا كثيرًا في مجتمعات تسود فيها ثقافة العيب، ولا تجد فيها المرأة من الشرطة أو الأسرة دعمًا حقيقيًا. فتصمت الكثير من النساء، حياءً أو خوفًا.

وفي الغرب، نرى في المقابل أن بعض الزيجات تتحول إلى أنظمة رقابة. يشعر بعض الرجال أنهم مطالبون بما يفوق طاقتهم: فمجرد التكفل المالي لم يعد كافيًا، وكل خطأ يُقابَل بالشك والريبة. وأحيانًا تتقمص المرأة دور نقطة التفتيش: مع من كنت؟ لماذا تأخرت خمس دقائق؟ فيحل سوء الظن مكان الثقة، حتى إذا كان الرجل قد تاب فعلًا ويحاول أن يصبح أفضل.

ولا شك أن الصدمات القديمة أو الأخطاء الماضية قد تكون سببًا في ذلك أحيانًا. لكن الزواج لا يمكن أن يدور في دائرة لا تنتهي من الاتهامات. بل يحتاج إلى شجاعة لفتح صفحة جديدة معًا. فالقرآن الكريم يدعونا إلى التقوى، والعفو، والنمو، لا إلى دائرة من اللوم المتبادل.

والدرس واضح: إن الزواج في جوهره توازن، تكامل، ودعم متبادل، ولطف، وثقة فإذا أزالت الثقافة، أو الأنا، أو الشك، هذه المبادئ القرآنية الواضحة، فقد الزواج روحه. ولا يعيد إليه توازنه إلا الرجوع إلى أصول القرآن والسنة النبوية.

[306] سورة النساء، آية (34).

27.2 الآيات القرآنية:

الآيات هنا تتحدث عن الأدوار، والخلافات، الحقوق، الواجبات والتأديب داخل بيت الزوجية.

الجزء الأول: الرجل بصفته مسؤولًا

قال تعالى: ﴿**ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ**﴾[307]

• يذكر ابن عاشور أن كلمة **قوامون** لا تعني الهيمنة، بل دور الرعاية، والقيادة، وتحمل المسؤولية. فالرجل جُعل مسؤولًا لأنه يتكفل بالنفقة، ولأن بنيته الجسدية قد تجعله أقدر أحيانًا على الحماية. لكن هذا لا يمنحه سلطة مطلقة.

• ويشرح القرطبي أن هذه المسؤولية مرتبطة بواجبات: فالقيادة تعني أيضًا العدالة والرحمة. وهذه الآية ليست رخصة للطغيان، كما يظن بعض الرجال خطأ.

• ويؤكد الرازي بقوله: **بما فضل الله** لا يعني أن الرجال أعلى قيمة من النساء، بل أن الخلق والوظائف مختلفة.[308]

وتؤكد هذه الآية أن المسؤولية لا تنفصل أبدًا عن العدالة، والتعاطف، والرعاية. فهي دور روحي، لا صورة من صور النظام الأبوي الثقافي. وهذه المسؤولية لا تقتصر على النفقة المالية، بل تشمل كذلك الدعم العاطفي، والتوجيه الروحي، والثبات الأخلاقي، لا اتجاه الزوجة فقط، بل كذلك اتجاه الأم، والبنات، والأخوات، وغيرهن من النساء في حياة الرجل.

الجزء الثاني: المرأة الصالحة وصفاتها الداخلية

قال تعالى: ﴿**فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ**﴾[309] •

يقول ابن عاشور إن **قانتات** لا تعني خضوعًا أعمى، بل وفاءً لله وللنظام الأخلاقي داخل الزواج. أما **حافظات للغيب** فتشير إلى الأمانة، والعفة، وحفظ البيت، وحفظ الثقة، حين يكون الزوج غائبًا.

---

[307] سورة النساء، آية (34).

[308] انظر: الجامع والتحرير ومفاتيح الغيب، تفسير سورة النساء.

[309] سورة النساء، آية (34).

• ويشرح القرطبي أن هذا الجزء ليس قائمة واجبات مفصلة، بل وصف لصورة مثالية من الثقة المتبادلة. فهو مرتبط بالتقوى، لا بالقهر.

• ويرى الرازي أن قوله: **بما حفظ الله** يدل على أن القدرة على الوفاء والثبات نعمة من الله، وتتطلب تربية روحية، لا مجرد قوانين[310].

فالقرآن الكريم هنا يصف قلب المرأة المنسجمة، لا جدول أعمالها المنزلي. فكلمة **الصالحات** تعني النساء اللواتي يحملن الخير، والثبات، والسكينة. وأعظم قوتهن هي حفظ السكينة الداخلية، والانسجام الأخلاقي داخل الزواج. فهن يسهمن في بناء جو من الثقة، واللين، والأمان، يشعر فيه الرجل بالسكينة، ويترعرع فيه الأولاد في سلام. وفي عالم مليء بالفوضى، ووسائل التواصل، والمثيرات، تكون مثل هذه المرأة موضع طمأنينة. لا لأنها تصمت أو تقبل كل شيء، بل لأنها، من منطلق قوةٍ وإيمانٍ وحكمة، تعرف متى تُطفئ النار، ومتى تسمح للدفء أن يبقى حيًا.

الجزء الثالث: التعامل مع الخلافات وحساسية مسألة "الضرب"

قال تعالى: ﴿**وَٱلَّٰتِى تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِى ٱلْمَضَاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّ ۖ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا۟ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا**﴾[311]

• يشرح ابن عاشور أن **النشوز** يعني اضطرابًا خطيرًا في نظام الحياة الزوجية، مثل التمرد العلني أو السلوك الهدام. وترتيب الخطوات الثلاث **فعظوهن – واهجروهن – واضربوهن** يدل على أن التصعيد لا يجوز إلا في الحالات القصوى، ومع قيودٍ صارمة.

• ويوضح القرطبي أن **الضرب** لا يجوز أن يؤدي إلى ألم، أو كسر، أو إذلال. فهو تنبيه رمزي أخير، لا يجوز للرجل أن يمارسه بلا ضوابط. بل إن الإمام الشافعي[312] وغيره منعوا كل شكل من أشكال الأذى المؤذي.

---

[310] انظر: الجامع والتحرير ومفاتيح الغيب، تفسير سورة النساء.

[311] سورة النساء، آية (34).

[312] الشافعي: أبو عبد الله محمد بن إدريس الشافعي، صاحب المذهب الشافعي في الفقه الإسلامي، ومؤسس علم أصول الفق، إمام في علم التفسير، وعالم من علماء الحديث، قيل فيه: كان الشافعي كالشمس للدنيا وكالعافية للناس.

• ويرى الرازي أن الآية لا تجعل هذا الفعل واجبًا، بل تجعله إجراءً استثنائيًا ضمن سياق معين. ويذكر: "من ظن نفسه فوقها، فليتذكر أن الله فوقه."[313]

وكثيرًا ما تُساء قراءة هذه الفقرة أو يُساء استخدامها. لكن الحقيقة أن القرآن الكريم يرفع السقف عاليًا جدًا: فالتواصل، والصبر، والحكمة، تسبق دائمًا أي إجراء آخر. وحتى حينئذٍ: لا أذى، ولا انتقام، ولا إذلال. وليس من قبيل المصادفة أن تختم الآية بالتذكير: **إن الله كان عليًا كبيرًا**، أي: فلا ترفع نفسك فوق حدودك.

الجزء الرابع: التبادلية والتوازن بين الحقوق والواجبات

قال تعالى: ﴿**وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ**﴾[314]

• يشرح ابن عاشور أن هذه الآية تؤكد التبادلية في الحقوق والواجبات بين الرجل والمرأة، وأن **بالمعروف** تشير إلى ما هو مقبول أخلاقيًا واجتماعيًا في السياق الصحيح. أما الدرجة فدرجة في المسؤولية، لا في القيمة. فالرجل مسؤول ماليًا، ومكلف بأن يقود الأسرة على نحو ينسجم مع العدالة.

• ويؤكد القرطبي أن **الدرجة** مرتبطة بالواجبات، مثل الحماية، والرعاية، والقيادة، وليست مبررًا للقهر. فعلى الرجل أن يستعمل موقعه لما فيه خير أسرته، لا لفرض إرادته.

• ويرى الرازي أن الآية تدور حول التوازن، وتقسيم الأدوار بعدل. فاختلاف الوظيفة لا يعني اختلاف القيمة. فقد أعطى الله كلًا من الجنسين خصائص تسهم في نجاح الحياة الزوجية.[315]

وتبين هذه الآية أن الإسلام لا يقصد نظامًا استبداديًا، بل نموذجًا قائمًا على العدالة، والتوازن، والاعتراف المتبادل. فالرجل يقود، لكن بالمحبة والمسؤولية، لا بالغرور أو إساءة استعمال السلطة.

الجزء الخامس: الحميمية والحماية المتبادلة داخل الزواج

قال تعالى: ﴿**هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ**﴾[316]

---

[313] انظر: الجامع والتحرير ومفاتيح الغيب، تفسير سورة النساء.

[314] سورة البقرة، آية (228).

[315] انظر: الجامع والتحرير ومفاتيح الغيب، تفسير سورة البقرة.

[316] سورة البقرة، آية (187).

• يرى ابن عاشور أن استعارة اللباس غنية جدًا بالمعاني. فاللباس يحمي، ويستر، ويزين، ويمنح الدفء. وكذلك يفعل الزوجان: كل واحد منهما يحفظ شرف الآخر، ويستر نقصه، ويجمل حياته، ويمنحه الأمان والدفء. فالآية تشير إلى اتصال حميم، عاطفي، وأخلاقي.

• ويشرح القرطبي أن هذه الصورة تدل على الاحتياج المتبادل والقرب. فكما أن اللباس ملازم للجسد، كذلك الزوجان رفيقان وملجأ أحدهما للآخر. وقد نزلت الآية في سياق إباحة المعاشرة في ليالي رمضان، لكن صياغتها تتجاوز ذلك السياق لتقدم تصورًا عميقًا للزواج.

• ويؤكد الرازي أن الزواج علاقة حماية متبادلة من الذنب، ومرسى عاطفي، وفضاء آمن يستطيع فيه الإنسان أن يكون على حقيقته. كما أن هذه الصورة تفيد أن الزوجين يستران ضعف بعضهما بدلًا من كشفه، كما يستر اللباس الجسد[317].

وفي عالم يُختزل فيه الزواج أحيانًا إلى عقد واجبات أو مصالح مادية، تذكّرنا هذه الآية بأن الزواج في جوهره رابطة روحية. فالقرآن لا يقول إن الرجل وحده درع للمرأة أو العكس، بل يقول إن كليهما شريكان متساويان في وظيفة الحماية، والدفء، وصيانة الكرامة. وبهذا توازن الآية التصورات الثقافية القائمة على التسلط أو الخضوع.

الجزء السادس: الاحترام والمعاشرة بالمعروف مع الزوجة

قال تعالى: ﴿**وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا**﴾[318]

• يؤكد ابن عاشور أن **عاشروهن بالمعروف** نداء عام إلى حسن المعاشرة، بغضّ النظر عن الشعور الشخصي. فحتى إذا ضعفت المحبة، يبقى الاحترام واجبًا. وهذه دعوة إلى أخلاقية عالية داخل الزواج.

• ويرى القرطبي أن الآية دعوة إلى سمو الأخلاق. فالزواج لا يقوم على الرومانسية وحدها، بل على الكرامة، والرعاية، والثقة. ويشير إلى أن الآية تنتقد الرجال الذين ينصرفون بسرعة عن زوجاتهم لأدنى خيبة.

---

[317] انظر: الجامع والتحرير ومفاتيح الغيب، تفسير سورة البقرة.

[318] سورة النساء، آية (19).

• ويؤكد الرازي أن الآية تركز على الصبر والنظر الروحي البعيد. فما يبدو لك شاقًا أو غير محبوب قد يكون في الحقيقة بابًا إلى خيرٍ كثير وبركة.[319]

وهذه الآية تدعو الرجل إلى أن يرى زواجه طريقًا روحيًا، فيه ابتلاءات، لكنه أيضًا مليء بالخير المستتر. فلا ينبغي أن يكون الطلاق نتيجة إحباطات سطحية. فالسلوك الإسلامي يقتضي المروءة، حتى في الأوقات الصعبة.

الجزء السابع: العلاقات بوصفها ابتلاء

قال تعالى: ﴿**يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ ۚ وَإِن تَعْفُواْ وَتَصْفَحُواْ وَتَغْفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ**﴾[320]

• يوضح ابن عاشور أن كلمة **عدو** هنا لا تعني أن الزوجة أو الطفل عدوٌ بالحقد، بل إن محبتهم، أو خوفك عليهم، أو ضغطهم، قد يصرفك عن طاعة الله. مثل زوجة تثني زوجها عن الدعوة، أو أولاد يمنعونه من الزكاة أو الجهاد. فهي إذًا تحذير روحي، لا اتهام للمرأة.

• ويؤكد القرطبي أن الآية لا تعني أن الزوجة عدوة في ذاتها، بل أن الشريك قد يصبح أحيانًا عائقًا أمام نموك الديني. ويذكر قصصًا لبعض الصحابة الذين ثنَتهم زوجاتهم عن الهجرة أو عن الخروج.

• ويرى الرازي أن توازن بناء الآية لافت: فالله يحذر من خطر محتمل، لكنه يختم بالدعوة إلى العفو، والتجاوز، والمغفرة، مما يدل على أن العلاقات مليئة بالاختبارات، لكن الحب والرحمة يظلان في المركز.[321]

فهذه الآية ليست رخصة للشك أو النفور من الزوجة، بل دعوة إلى اليقظة الروحية: فحتى من تحبهم أكثر من غيرهم قد يصرفونك، من حيث لا يشعرون، عن مسؤوليتك تجاه الله.

وفي الوقت نفسه، يؤكد الله العفو، والرحمة، واللين بوصفها قيمًا مركزية في التعامل مع هذه التحديات. فالقرآن الكريم يحذّر ويهذّب في آنٍ واحد.

---

[319] انظر: الجامع والتحرير ومفاتيح الغيب، تفسير سورة النساء.

[320] سورة التغابن، آية (14).

[321] انظر: الجامع والتحرير ومفاتيح الغيب، تفسير سورة التغابن.

الجزء الثامن: أثر الزوجة وتأثيرها

قال تعالى: ﴿**إِن تَتُوبَا إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ۖ وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ**﴾[322]

سياق النزول: نزلت هذه الآيات في سياق منزلي خاص، لا في ساحة معركة ولا في أزمة سياسية.

وكانت القصة تتعلق بالنبي ﷺ وبزوجتيه عائشة وحفصة رضي الله عنهما. ووفقًا لكثير من مصادر التفسير، مثل تفسير ابن كثير والقرطبي، فإنهما، بدافع الغيرة، تعاونتا في أمرٍ كُشف فيه سر من أسرار النبي ﷺ. وكان ذلك يتعلق، على الأرجح، بعلاقته بمارية القبطية، أو بتحريمه شيئًا على نفسه بشأنها. واللافت هنا هو رد فعل الله تعالى. فالأمر كان شأنًا خاصًا بين زوج وزوجتيه، لكن الله تعالى تدخل بكلمات تُستعمل عادةً في مشاهد الصراع الكبرى: "**فإن الله هو مولاه، وجبريل، وصالح المؤمنين، والملائكة** ". وهذا يدل على مدى خطورة تقويض الاستقرار النفسي والثقة داخل حياة الزوج، حتى لو كان هذا الزوج هو النبي ﷺ نفسه. وليس لأنه كان ضعيفًا، بل لأن المرأة تملك القدرة على زعزعة التوازن الداخلي للرجل، حتى لو كان نبيًا. وهذا الاضطراب الداخلي قد يؤثر تأثيرًا خطيرًا في رسالته ومهمته.

• يوضح ابن عاشور أن عبارة **صغت قلوبكما** تشير إلى ميل داخلي نحو الانحراف، أو الغيرة، أو الخروج عن التوازن. وكلمة **تظاهرا عليه** تدل على نوع من التعاون السلبي، أو ما يشبه التمرد الجزئي.

• ويؤكد القرطبي أن ذكر الله، وجبريل، والملائكة، وصالح المؤمنين، يُظهر أن حتى التوترات المنزلية قد تكون بالغة الأهمية من الناحية الرسالية. فسكينة النبي ﷺ الداخلية كانت ضرورية لأدائه في الخارج.

• ويرى الرازي أن الله بهذا يبين أن الاستقرار البيتي مقدَّم حتى على المسؤوليات العامة والسياسية. فحتى في زمن الحروب والنفاق في المدينة، كأن الخطاب يقول: أصلح بيتك أولًا.[323]وتعلمنا هذه الآيات أن استقرار الزواج أمر حاسم لسلامة المجتمع كله. فإذا كان النبي ﷺ، مع ما كان على عاتقه من أعباء الرسالة، والعداوات، والحروب، والوحي، يُوجَّه إلهيًا أولًا إلى إصلاح وضعه الأسري، فماذا يقال عنا نحن؟ فلا دعوة، ولا نشاط، ولا مواجهة للنفاق أو الظلم خارج البيت، يمكن أن تنجح إذا كان داخل البيت ظلم، وفوضى، وانعدام ثقة. فالزواج ليس أمرًا جانبيًا. بل هو الساحة الأولى للتربية الأخلاقية، والتزكية الروحية، وبناء الشخصية.

[322] سورة التحريم، آية (4_6).

[323] انظر: الجامع والتحرير ومفاتيح الغيب، تفسير سورة التحريم.

ولهذا يتدخل الله بحزم، حتى حين يبدو الأمر وكأنه مجرد غيرة بين امرأتين. لأن زواج المؤمن، ولا سيما زواج القدوة كالنبي ﷺ، يجب أن يُشعّ سكينةً وثقة، لا اضطرابًا وانقسامًا.

27.3 التأمل في الحديث:

الحديث الأول: قال النبي ﷺ: **"كُلُّكُمْ رَاعٍ، وَكُلُّكُمْ مَسْؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ... وَالرَّجُلُ رَاعٍ فِي أَهْلِهِ، وَهُوَ مَسْؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ"**[324].

التأمل: القيادة داخل الزواج ليست امتيازًا، بل عبء ومسؤولية؛ مسؤولية الرعاية، والحماية، والبناء. يوجّهنا النبي ﷺ هنا إلى المسؤولية الأخلاقية: فأسرتك أمانة لديك، وليست مُلكًا لك. وهذا الحديث يذكّر الرجل بأن كل قرار، وكل سلوك تجاه أسرته، سيُسأل عنه أمام الله.

الحديث الثاني: قال النبي ﷺ: **"خَيْرُكُمْ خَيْرُكُمْ لِأَهْلِهِ، وَأَنَا خَيْرُكُمْ لِأَهْلِي"**[325].

التأمل: التفوق الحقيقي يبدأ في البيت. فليست تصرفاتك في المسجد أو على وسائل التواصل هي المقياس الحقيقي لإسلامك، بل كيف تعامل زوجتك وأبناءك. لقد كان النبي ﷺ لطيفًا، ومعينًا، ومحبًّا في بيته. وبيّن لنا أن التقوى تظهر أول ما تظهر في تعاملك مع أقرب الناس إليك.

الحديث الثالث: قال النبي ﷺ: **"وَالْمَرْأَةُ رَاعِيَةٌ فِي بَيْتِ زَوْجِهَا وَمَسْؤُولَةٌ عَنْ رَعِيَّتِهَا"**[326].

التأمل: يبرز هذا الحديث مسؤولية المرأة بوصفها راعيةً لحياة الأسرة. فدورها ليس دونيًّا، بل أساسيًّا. إنها من أعمدة السكينة والاستقرار في البيت. والإسلام يعترف بها حارسةً فاعلة، لا تابعةً سلبية. والثقة، والرعاية، والإخلاص، من أهم صفاتها في هذا المقام.

الحديث الرابع: "سَأَلْتُ عَائِشَةَ مَا كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَصْنَعُ فِي بَيْتِهِ؟ قَالَتْ: كَانَ فِي مِهْنَةِ أَهْلِهِ".[327]

التأمل: خير البشر ﷺ كان يغسل ثيابه، ويخصف نعله، ويعين أهله. ولم يكن يرى ذلك دون مقامه. بل كان هذا من علامات عظمته. وفي زمن يريد فيه كثير من الرجال أن يقودوا فقط، يبيّن هذا الحديث أن الرجولة الحقيقية تكمن في الخدمة، واللين، والمشاركة الفعلية في البيت.

---

[324] صحيح البخاري، حديث رقم (2554).

[325] صحيح الجامع، حديث رقم (3314).

[326] صحيح البخاري، حديث رقم (2554).

[327] سنن الترمذي، حديث رقم (2489).

الحديث الخامس: قال النبي ﷺ: "**وَفِي بُضْعِ أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ، قالوا: يا رسول الله، أَيَأْتِي أَحَدُنَا شَهْوَتَهُ وَيَكُونُ لَهُ فِيهَا أَجْرٌ؟ قال: أَرَأَيْتُمْ لَوْ وَضَعَهَا فِي حَرَامٍ، أَكَانَ عَلَيْهِ وِزْرٌ؟ فَكَذَلِكَ إِذَا وَضَعَهَا فِي الْحَلَالِ، كَانَ لَهُ أَجْرٌ**"[328].

التأمل: حتى أكثر اللحظات خصوصية بين الزوج والزوجة يقدّسها الإسلام. فهي ليست فقط حلالًا، بل قد تكون أيضًا سببًا في الأجر. فالإسلام يعترف بالطبيعة البشرية، لكنه يعطيها إطارًا روحيًا. وهكذا تصبح المحبة، والرغبة، واللذة، جزءًا من الطريق إلى الله.

27.4 الطبقة التأملية:

الزواج مؤسسة خلقها الله لتكون موضع سكينة، ومصدرًا للمحبة، والرحمة، والستر. لكن ما أُريد له أن يكون بيت راحة، تحوّل في كثير من الحالات إلى ساحة صراع. وما أُريد له أن يكون ثقة متبادلة، صار في كثير من الأحيان شكًّا متبادلًا. وما أُريد له أن يكون طريقًا للنمو الروحي، أصبح مصدرًا للإحباط، والضغط، والإنهاك النفسي.

ويذكّرنا القرآن بحقيقة أساسية: "ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف"[329] "وعاشروهن بالمعروف"[330]

فهاتان الآيتان تبيّنان مبدأ التوازن، والاحترام المتبادل، والأخلاق. فالرجل جُعل في بعض الآيات مسؤولًا وقائدًا، لكنه لم يُجعل أبدًا طاغيةً أو مستبدًا. وهذه المسؤولية ليست مالية فقط، بل عاطفية، وروحية، وأخلاقية أيضًا. فعليه أن يرعى، ويحمي، ويوجه، ويخدم. وهذا يتطلب نضجًا، وحكمة، وتقوى. ويتطلب كذلك ضبطًا للنفس وعلاقة عميقة بالله. لأن من لا يستطيع أن يقود نفسه، لا يستطيع أن يقود أحدًا.

ومن الجهة الأخرى، نرى أن بعض النساء، كردّ فعل على قرون من الظلم الذكوري، اندفعن إلى الطرف المقابل تمامًا. فلم يعد الرجل شريكًا، بل صار عبئًا. ومنح الاستقلال المالي بعضهن شعورًا بأنهن لا يحتجن إلى أحد. وأصبحت تربية الأطفال مهمة تُفوض إلى الغير، وصار الحب والرومانسية يُطلبان عبر التطبيقات، بلا التزام. بينما يذكر الله أنهما لباس لبعضهما البعض، فاللباس يستر، ويدفئ، ويحمي، ويزيّن. وهذه الصورة في القرآن صورة روحية عميقة. فالزواج شُرع ليستر كل واحد من الزوجين عيوب الآخر، ويخفف عنه ألمه،

---

[328] صحيح مسلم، حديث رقم (1006).

[329] سورة البقرة، آية (228).

[330] سورة النساء، آية (19).

ويعامل ضعفه بكرامة. لكن ماذا نرى اليوم؟ نكشف نقاط ضعف بعضنا ونستعملها ضد بعضنا. نطالب بالحقوق، وننسى الواجبات. نطلب الحب، ولا نقدم الصبر.

وأحاديث النبي ﷺ في هذا الباب شديدة الوضوح. حيث أن عمل النبي صلى الله عليه وسلم مع أهل بيته يدل على التواضع والرحمة بأهله ومشاركته لهم في أعمال البيت، وكما أن الرجل مؤتمن على أهل بيته كذلك المرأة مؤتمنة على بيتها وأولادها، وهي مسئولة عن إدارة شئون الأسرة.

وكان ﷺ يعين في بيته. كان يخيط ثوبه، ويغسل ثوبه، ويحلب شاته. ولم يكن هذا ضعفًا. بل كان قوة. فمن لا يرى نفسه أكبر من الأعمال اليومية، هو العظيم حقًا.

هنا أيضًا هذا التحذير القرآني القوي: ﴿**يا أيها الذين آمنوا إن من أزواجكم وأولادكم عدوًا لكم فاحذروهم**﴾[331]

وقال تعالى في نفس السورة ﴿**إنما أموالكم وأولادكم فتنة**﴾[332] ليس لأنهم أشرار بطبعهم، بل لأن الحب بلا هداية، والرعاية بلا علم، قد يقودان إلى التعلق المفرط، أو الكسل، أو الأنانية، أو تقديم الأسرة على الله. فكل ما يشغلك عن الله يصبح ابتلاءً. حتى الحب حتى الأولاد.

إيجاد التوازن: ما نحتاج إليه هو إعادة تربية النفس، عند الرجل والمرأة معًا.

• على الرجال أن يتعلموا أن القيادة ليست موقع سلطة، بل دور خدمة ومسؤولية.

• وعلى النساء أن يفهمن أن النسوية ليست الطريق الوحيد إلى الكرامة؛ فالقرآن يقدم طريقًا روحيًا من الشرف، والكرامة، والعدل داخل الاختلاف.

• وعلى الآباء ألّا يربوا أبناءهم على أن "مكان المرأة هو المطبخ "، ولا بناتهم على أن "الرجل يجب أن يحل كل شيء وحده ".

• وعلى الشباب أن يدركوا أن الزواج ليس قصة خيالية. إنه جهاد النفس. إنه بناء. إنه تعثر ثم بداية جديدة.

الحفاظ على الحب أيضًا عبادة، ومن أكثر ما يُنسى في زيجاتنا أن الحب لا يبقى من تلقاء نفسه. ففي البداية، كل شيء يبدو طبيعيًا: الحب، والرسائل المليئة بالعاطفة، والهدايا المفاجئة، والخروج معًا، والكلمات الجميلة قبل النوم. كل شيء خفيف، جميل، وبديهي. لكن ماذا بعد عشر سنوات؟ ماذا بعد عشرين سنة، مع الأطفال، وضغط العمل، والواجبات، وسوء الفهم، وخيبات الأمل؟ هنا يبدأ العمل الحقيقي.

---

[331] سورة التغابن، آية (14).

[332] سورة التغابن، آية (15).

هنا يصبح الزواج دينًا حقيقيًا، وتمرينًا روحيًا، وجهادًا للنفس؛ مجاهدةً للأنانية، والكسل، واللامبالاة. يقول الله:

انتبه: جعل بين الأزواج مودة ورحمة. لأن الحب إذا خلا من الرحمة تلاشى. والرحمة إذا خلت من العمل ماتت. فالمرأة تزدهر بالاهتمام. تحتاج أن يُسمعها زوجها أنها جميلة، وأن يقدّر تعبها، وأن يفاجئها. ليس فقط بالماديات، بل بأعمال بسيطة: أن يرتب البيت من غير أن تطلب، أو يطبخ لتستريح، أو يشغل الأطفال مساءً لتأخذ وقتًا لنفسها. وهكذا تستعيد طاقتها، وتهتم بنفسها، وتتزين، وتشعر بجاذبيتها، وهذا مهم لها ولزوجها أيضًا. لأن كثيرًا مما يطلبه الرجل يكون بصريًا: الراحة، والجمال، والقرب الجسدي.

لكن للرجل أيضًا احتياجاته. يحتاج إلى الاحترام، والثقة، والراحة حين يعود إلى البيت. لا أن يُستقبل دومًا بالاستجواب أو النقد. يحتاج إلى امرأة تسانده، لا تشك فيه، وتشجعه في دوره كقائد، وأب، وعبد لله. هو أيضًا يحتاج أن يشعر بالأمان. ولهذا يُقال: "**الزواج كقلعة لها بابان، وكل شريك يحرس بابًا.** "

فإذا تُرك أحد البابين مفتوحًا، دخل الأعداء. الشيطان، والفتنة، والتعب، والأنا، والروتين. أما إذا حرس كل واحد منهما بابه، وأعان الآخر، وعفا عنه، وواصل البناء، صارت تلك القلعة أقوى مع السنين.

الكلام إصلاحٌ للقفل: بعض الأزواج يعيشون عشرين سنة معًا من غير أن يتحدثوا يومًا حديثًا حقيقيًا عمّا يهمهم. لا امرأة تقرأ الأفكار، ولا رجل يفهم تلقائيًا ما الذي تحتاجه زوجته. ولهذا فإن التواصل الصريح صورة من صور العبادة. قل ما تقدّره، وقل ما ينقصك. واصغِ. لا لترد، بل لتفهم.

فالسؤال ليس: ماذا سأحصل من هذا الشخص؟ بل: ما الذي أنا مستعد أن أستثمره في هذا الشخص ابتغاء وجه الله؟ لأن الزواج في النهاية مرآة لأرواحنا:

- هل تستطيع أن تعفو؟
- هل تستطيع أن تعمل على نفسك؟
- هل تستطيع أن ترعى الآخر حتى عندما تكون أنت متعبًا؟
- هل أنت موضع سكينة أم مصدر توتر؟

إن الله لم يخلق الزواج ليكون مجرد استراحة، بل ليكون **سكنًا**، سكينة عميقة داخلية. والسكينة تحتاج إلى عمل كل يوم. وهذا ليس ضعفًا، بل قوة. لكن عليكما أنتما أن تزرعا المودة والرحمة باستمرار، وتسقياها، وتحفظاها من الجفاف، ومن العواصف.

الطريق إلى الأمام: علينا أن نرجع إلى القرآن الكريم، لكن لا بوصفه نصوصًا مزخرفة على الجدران، أو شعارات يُحتج بها على بعضنا. بل أن نعيده إلى قلوبنا، وأعمالنا، وكلامنا، وزيجاتنا. علينا أن نتوقف عن تقليد العادات الثقافية التي لا جذور لها في الوحي. أن نتوقف عن الصمت عن العنف الأسري باسم الصبر. وأن نتوقف عن مطالبة الآخر بالتضحية بينما لا نقدم نحن شيئًا.

فالزواج رابطة مقدسة، وليس عقد شراء، ولا وسيلة قهر، ولا حرية بلا حدود. الزواج عبادة. ومَن عاشه بصدق اقترب من الله. ومن فشل فيه، نسأل الله العافية، كسر نفسه، وشريكه، وغالبًا أولاده أيضًا.

﴿فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئًا ويجعل الله فيه خيرًا كثيرًا﴾[333].

وأنا شخصيًا قد قمت بتنمية نفسي كثيرًا من خلال زواجي؛ كرجل، وكمسلم، وحتى في دوري المجتمعي وخدمتي للأمة. ولم يكن هذا النمو فقط بفضل دعم زوجتي في الأوقات الجميلة، بل أيضًا من خلال الصعوبات التي مررنا بها معًا. فالزواج ليس دائمًا وردًا وعطرًا؛ بل هو كثيرًا ما يكون عملية احتكاك، وعفو، وتواصل، وصراع، واندماج. لكن هنا تكمن الحكمة الروحية: تتعلم الصبر، وتتعلم الإصغاء، وتتعرف أكثر إلى نفسك، وتتعرف أكثر إلى الله. والأساس الذي لا غنى عنه هو: **الصبر** و**التقوى**. فبدونهما يذوب كل شيء. ومعهما تصبح حتى العاصفة قوةً تشكّلكما وتقرّبكما من بعض، ومن الله.

27.5 الخاتمة:

الزواج في الإسلام ليس عقدًا قائمًا على المصالح، بل عهد روحي يقوم على ثلاثة أعمدة: المحبة = **مودة**، والرحمة = **رحمة**، والمسؤولية = **قوامة**. إنه جهاد؛ تدريبٌ ممتد على قهر الأنا، وخدمة الآخر، وبناء بيت يرضى الله عنه. والقرآن لا يترك أي مجال لإساءة الاستعمال أو للطغيان:

- الرجل مسؤول، لا متسلط. • والمرأة وفية ومخلصة، لا دونية ولا مُهانة.
- والاختلافات موجودة، لكنها تكاملية، لا طبقية.

وقد رأينا كيف يشدد القرآن على الرعاية، والاحترام، والتواصل، والمسؤولية المالية والأخلاقية من الطرفين. كما تعزز الأحاديث هذا المعنى: فالنبي ﷺ كان خادمًا في بيته، يشارك، ويُظهر المودة، ويؤكد مرارًا على قيمة الاحترام، والصبر، وحُسن المعاملة.

لكن واقعنا يبيّن أن هذا التوازن مفقود في كثير من الأحيان اليوم:

[333] سورة النساء، آية (19).

• ففي بعض مناطق إفريقيا وآسيا، لا يزال الزواج يُنظر إليه كمساحة لهيمنة الرجل، بما يصاحب ذلك من عنف، وتحكم، وتقديم العرف على الدين.

• وفي الغرب نرى، من جهة أخرى، كيف أن بعض النساء لم يعدن يشكلن موضع سكينة، وكيف ينهار الشريكان تحت ضغط التوقعات العالية، والتوتر المتبادل، وغياب التقدير.

ولهذا يجب أن ينتهي هذا الفصل بنداء واضح إلى الإصلاح.

- الزواج يحتاج إلى عمل، ووقت، واهتمام، وتواصل صريح.
- ويحتاج إلى التزام، حتى بعد عشرين سنة.
- ويحتاج إلى نمو روحي، واعتراف متبادل، وعفو.
- ويحتاج إلى أن يحرس كل من الزوجين بابه، من تأثيرات الشيطان، والأنا، والروتين.
- ويحتاج إلى أن نتذكر دومًا أن زواجنا أمانة، ومسؤولية مُسندة إلينا أمام الله.

فإذا فشل الزواج، فشلت الأسرة. وإذا اهتزت الأسرة، اهتز المجتمع. ولهذا يبدأ إصلاح الأمة من البيت!!!

فلا تكن هذه الكلمات مما يُقرأ فقط، بل مما يُعاش. "**خيركم خيركم لأهله**".

الفصل 28 (الطلاق) بين الرحمة والحدود:

28.1 الملاحظة:

عندما ننظر إلى الواقع العالمي المتعلق بالطلاق، نلاحظ اتجاهين بارزين يختلفان كثيرًا بحسب السياق الثقافي. ففي كثير من البلدان الإفريقية والآسيوية، لا تزال ثقافة العيب المرتبطة بالطلاق قوية جدًا، خاصةً بالنسبة إلى النساء. فإنهاء الزواج يُنظر إليه هناك على أنه هزيمة شخصية أو عار يلحق بالعائلة. وغالبًا ما تتعرض المرأة للوصم الاجتماعي وتفقد مكانتها داخل المجتمع. وما يجعل هذا الوضع أكثر إيلامًا أن كثيرًا من النساء يعتمدن ماليًا على أزواجهن. فلا دخل لهن، ولا وسيلة دعم مستقلة، فيُجبرن على البقاء في علاقات سامة، حتى حين يكون فيها أذى نفسي أو جسدي. وكثيرًا ما نسمع قصص نساء يعشن سنوات من المعاناة في صمت، لأن البديل، أي الطلاق، يبدو لهن غير قابل للحياة اجتماعيًا أو دينيًا أو اقتصاديًا.

وفي المقابل، نرى في أوروبا وفي مجتمعات غربية أخرى حركة معاكسة تمامًا. فالطلاق هناك يبدو أحيانًا كأول رد فعل عند وقوع المشكلات. والإحصاءات تؤكد ذلك: فحوالي 45 إلى 50% من الزيجات تنتهي بالطلاق، وحتى داخل المجتمعات المسلمة ترتفع هذه النسب بشكل مقلق. وفي محيطنا نرى أمثلة كثيرة لأزواج

شباب، بل أحيانًا في غضون خمس سنوات فقط من الزواج، ينفصلون. وما يبقى بعد ذلك هو أطفال عالقون بين عالمين، وآباء لا يرون أبناءهم إلا كل أسبوعين، وأمهات يحملن وحدهن عبء التربية، وأسر مكسورة تترك وراءها آثارًا طويلة من الحزن، والصدمات، وعدم الاستقرار. وأحيانًا يُطبَّع الطلاق إلى درجة أن الناس بالكاد يفكرون في بدائل مثل الوساطة، أو الصبر، أو الحوار، أو طلب المساعدة. لكن ما يغيب في السياقين معًا، في الشرق والغرب، هو المنظور الإسلامي الصافي إلى الطلاق: لا بوصفه خطيئة، ولا بوصفه عيبًا، ولا بوصفه مخرجًا سهلًا وعاديًا. فالطلاق في الإسلام مباح تمامًا، لكنه أيضًا من أبغض الحلال إلى الله. إنه حلّ حين لا يبقى غيره، لكنه ليس قرارًا يُتخذ بخفة. ولافتٌ للنظر أن القرآن لم يخصص سورة كاملة للزواج، لكنه خصص سورة كاملة للطلاق: **سورة الطلاق**. ويتكرر فيها مرارًا: **اتقوا الله**، لأنه حتى عند إنهاء العلاقة، تبقى الكرامة، والمسؤولية، والعدل في المركز. وعلينا كمجتمع أن ندرك أن غياب السكينة، وغياب التجاذب المتبادل، قد يكونان سببًا حقيقيًا ومشروعًا للطلاق. لكن لهذا السبب نفسه يدعونا الإسلام إلى الاستثمار في العلاقة، وتقوية التواصل، وحل التوترات، وطلب المساعدة عند الصعوبة.

وهناك أيضًا مشكلة أخرى تتكرر أكثر فأكثر، وهي استعمال الأحكام الإسلامية بصورة انتقائية. ففي أثناء الزواج، يحب بعض الناس الاستناد إلى عبارات مثل: "مال الرجل لنا، ومالي أنا لي وحدي" لكن حين يصل الأمر إلى الطلاق، يتركون التوجيهات الإسلامية ويلجؤون إلى المبادئ الغربية: كل شيء يجب أن يُقسَّم خمسين بخمسين، بغضّ النظر عن الملكية، أو المسؤولية، أو الظروف. وفي كثير من الأحيان يُجبر الرجل على التنازل عن كل شيء، حتى عما لا يلزمه شرعًا. وهذا يسبب كثيرًا من التوترات، والنزاعات القانونية، والظلم للطرفين. ويُضاف إلى ذلك جهل واسع بأحكام الطلاق الحقيقية. فبعض الناس يظنون أن قول "أنت طالق" ثلاث مرات يكفي وحده لإنهاء الزواج. لكن الأمر ليس بهذه البساطة. فالإسلام يضع مسارًا فيه نية، ورويةٍ، وزمن، ووساطة، وربما مراجعة أثناء العدة.

وفي النهاية، هناك أيضًا نوع من الاستعمار الذهني الأعمق. فقد تبنّينا أحيانًا، من غير وعي، تصورًا مسيحيًا رومانسيًا للزواج، يعتبر أن الزواج لا يكون ناجحًا إلا إذا استمر "حتى يفرقنا الموت ". بينما الإسلام يعترف بأن الزواج قد ينتهي، وأن هذا لا يعني بالضرورة الفشل. بل قد يكون أحيانًا صورة من صور الرحمة. كما أن الإسلام يجيز الزواج من جديد بعد الطلاق، ويجيز أن يكون للإنسان أكثر من أسرة يعولها ويقسم فيها مسؤوليته وقدرته، بدل أن يترك كل شيء ينهار في بيت واحد.

28.2 الآيات القرآنية:

الآية الأولى: قال تعالى: ﴿**وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُواْ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا**﴾[334]

• يؤكد ابن عاشور أن هذه الآية تقدم حلًا مؤسسيًا للنزاعات الزوجية قبل أن تتفاقم إلى الطلاق. فتعيين حكمٍ من أهله وحكمٍ من أهلها المقصود منه حفظ العدل والتوازن. وليس المقصود أن يدافع كل واحد عن طرفه، بل أن يُطلب الإصلاح الصادق. وإذا كانت النية خالصة في الإصلاح، فإن الله وعد بنفسه أن يهيئ أسباب التوفيق بينهما.

• ويشرح القرطبي أن هذه الآية ليست مجرد توجيه مستحب، بل قد تكون في كثير من الحالات واجبة إذا كانت الخلافات جدية. فالإسلام لا يشجع على الطلاق الاندفاعي، بل على الاستعانة بأهل الحكمة والعائلة أولًا. فالهدف هو: التهدئة، والاستماع، والوساطة، ثم إن لم يكن بد، يأتي الطلاق.

• ويركز الرازي على الجانب الإيماني في هذا المسار: فالله يربط مساعدته بنيّة الطرفين. فإذا كان الزوجان يريدان الصلح حقًا، أعانهما الله. أما إذا أصر أحدهما على العناد أو لم يُرد الصلح بصدق، فلن ينفع أي نظام.[335]

وتذكرنا الآية بأن نجاح العلاقة، حتى في لحظات الأزمة، يبدأ من صفاء النية وينتهي إلى توفيق الله.

الآية الثانية: قال تعالى: ﴿**فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ۚ وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِّنكُمْ ۚ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۗ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا**﴾[336]

• يؤكد ابن عاشور أن هذه الآية لا تتحدث فقط عن النهاية التقنية لفترة العدة، بل عن الكيفية التي يجب أن يتصرف بها الإنسان عند الطلاق: بكرامة، وعدل، واحترام للمرأة. واشتراط الشهود يدل على أن الطلاق فعل اجتماعي وقانوني، لا مجرد كلمة تُقال في غرفة مغلقة. والتقوى هي المفتاح إلى القرار الصحيح في هذه اللحظة الدقيقة.

---

[334] سورة النساء، آية (35).

[335] انظر: الجامع والتحرير ومفاتيح الغيب، تفسير سورة النساء.

[336] سورة الطلاق، آية (2).

• ويشدد القرطبي على لفظ **بمعروف**، أي: لا طلاق بخشونة، ولا بشتم، ولا باتهامات، بل باحترام ورعاية مالية عند الحاجة. فحتى في لحظة الفراق، يجب على المؤمن أن يستحضر الله. ووجود الشهود ضروري لمنع الظلم وحفظ الحقوق، خاصة عند نشوء النزاعات لاحقًا حول النفقة أو غيرها.

• ويرى الرازي أن الآية دعوة إلى الانضباط الأخلاقي في وقت النزاع. فالطلاق لا ينبغي أن يكون انفجارًا عاطفيًا، بل قرارًا واعيًا يُتخذ في إطار الإيمان ومع استحضار العواقب. ووعد الله بأن يجعل للمتقي مخرجًا يدل على أن حتى أزمات الزواج الصعبة يمكن أن تكون ذات معنى روحي، وأن تفتح بابًا إلى الشفاء أو النمو، إذا التزم الإنسان بحدود الله[337].

الآية الثالثة: قال تعالى: ﴿**وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ۚ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُواْ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا ۚ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ**﴾[338]

• يذكر ابن عاشور أن هذه الآية تحذير من السلوك التلاعبي في الطلاق. فقد كان بعض الرجال يمسكون نساءهم حتى قُبيل انتهاء العدة، ثم يراجعونهن، لا رغبة في الإصلاح، بل انتقامًا أو تحكمًا. وهذا ما تنهى عنه الآية صراحة. فالإسلام يمنع أن تُعامل المرأة كأنها شيء مملوك. والتقوى هنا تعني: أن تتركها بكرامة.

• ويؤكد القرطبي أن قوله: **ولا تتخذوا آيات الله هزوًا** يعني أن على الإنسان أن يتعامل مع أحكام الطلاق بجدية وعلم. فمن يستعمل كلمة الطلاق باستهتار ومن غير فهم، فإنه يعبث فعلًا بحدود الله. وهذه دعوة إلى التدين المسؤول.

• ويحلل الرازي البعد النفسي في الطلاق: فكثير من القرارات تُتخذ في الغضب أو الانفعال أو الإحباط. وهذه الآية تذكر بأن الظلم الذي يوقعه الإنسان على غيره سيرتد عليه في النهاية. فالشريعة ليست أداة بيد أحد الطرفين للقوة، بل نظام لحفظ حق الطرفين حتى عند انتهاء العلاقة.[339]

الآية الرابعة: قال تعالى: ﴿**وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا**﴾[340]

---

[337] انظر: الجامع والتحرير ومفاتيح الغيب، تفسير سورة الطلاق.

[338] سورة البقرة، آية (231).

[339] انظر: الجامع والتحرير ومفاتيح الغيب، تفسير سورة البقرة.

[340] سورة الطلاق، آية (2).

• يوضح ابن عاشور أن هذه الآية تؤكد أن التقوى تبقى مركزية حتى في لحظات الأزمة مثل الطلاق. فالمخرج من النزاع ليس عمليًا فقط، بل روحي أيضًا.

• ويشير القرطبي إلى أن كثيرًا من الناس يتبعون أهواءهم في لحظات الطلاق. وتأتي هذه الآية لتدعو إلى العدل وإلى احترام حدود الله.

• ويؤكد الرازي أن الله يفتح الحلول بطرق لا نتوقعها، متى خافه الإنسان واحترم شريعته[341].

28 .3 التأمل في الحديث:

الحديث الأول: قال النبي ﷺ: **"أبغض الحلال إلى الله الطلاق"**[342].

التأمل: تعبّر هذه الرواية عن حقيقة روحية عميقة: فالطلاق مباح، نعم لكنه يبقى شيئًا لا يحب الله وقوعه. لماذا؟ لأنه يكسر ما كان مقصودًا له أن يكون سكنًا، ومودة، ورحمة.

لكن في الوقت نفسه يضع هذا الحديث إطارًا واقعيًا: فالله لم يحرّم الطلاق. بل أباحه عندما لا يعود الزواج يحقق غايته. ويدعونا الحديث إلى التروي والمسؤولية: فلا يُستعمل هذا الحق إلا حين لا يبقى مخرج آخر، وحينها يُستعمل بطريقة ترضي الله.

فكلمة **الحلال** في الحديث تذكرنا بألّا نسقط في المحرمات الثقافية: فالطلاق جائز.

لكن كلمة **أبغض** تعلّمنا في المقابل أنه لا ينبغي أن يكون خيارًا خفيفًا أو متسرعًا. بل يجب أن يكون نتيجة:

• محاولة صادقة للإصلاح،
• واتباع الخطوات الصحيحة،
• واستيعاب أثره الروحي والاجتماعي.

فالنبي ﷺ لم يقل يومًا: الطلاق حرام. لكنه علّمنا: حتى في الفراق يجب أن يبقى الخلق حاضرًا.

المعنى العام للحديث: الإسلام أباح الطلاق كحل أخير، ولكنه يكرهه بشدة، هو ليس حراماً لكن الله يبغض فعله، لأنه يهدم الأسرة فيشتت الأبناء، ويقطع روابط المحبة ويؤذي الزوجين نفسياً واجتماعياً. وعندما تستحيل

[341] انظر: الجامع والتحرير ومفاتيح الغيب، تفسير سورة الطلاق.

[342] سنن أبي داود، حديث رقم (2178)

الحياة بين الزوجين ويكون هناك الضرر الكبير وعدم المقدرة على الإصلاح، هنا يأتي الطلاق دواءً مراً لا مفر منه. لذلك أمر الله سبحانه وتعالى بالصبر ومحاولة الإصلاح وحل المشكلات بهدوء.

الحديث الثاني: جاءت امرأة ثابت بن قيس إلى النبي ﷺ فقالت: يا رسول الله، ما أعتب عليه في خُلُق ولا دين، ولكني أكره الكفر في الإسلام، فقال رسول الله ﷺ: **"أتردين عليه حديقته؟ قالت: نعم. فقال رسول الله ﷺ: اقبل الحديقة وطلقها تطليقة"**[343].

التأمل: يبيّن هذا الحديث أن النفور العاطفي العميق قد يكون في ذاته سببًا مشروعًا للانفصال، حتى لو كان الرجل لا يفعل شيئًا خاطئًا من جهة الدين أو الخلق.

فالمرأة في هذا الحديث تعترف بصلاح زوجها، لكنها تشعر أنها لم تعد قادرة على أن تعطيه حبًا حقيقيًا، وتخشى أن يقودها هذا النفور الداخلي إلى الجحود داخل الزواج. ولم يوبخها النبي ﷺ، ولم يجبرها على البقاء. بل اعترف بشعورها، وجعل العدل هو الأساس: إذا أرادت الفراق، فعليها أن تردّ له المهر الخلع.

ويعلّمنا هذا أن في الإسلام:

- الطلاق لا يكون مباحًا فقط في حال العنف الجسدي أو المعصية،
- بل كذلك عند وجود عدم توافق عميق يسبب صراعًا داخليًا أو خسارةً روحية،
- وفي الوقت نفسه يُحفَظ حق الرجل في المهر إذا لم يكن هو سبب الانفصال.

فالرسالة واضحة: الله يريد السكينة في الزواج، وإذا لم تعد تلك السكينة ممكنة، فإن الإسلام يفتح مخرجًا كريمًا، من غير الحاجة إلى وجود مذنب واحد بالضرورة.

28.4 الطبقة التأملية:

يعلّمنا الإسلام أن نتعامل مع أزمات العلاقات بتوازن: فلا نهوّلها، ولا نتجاهلها. فالطلاق في الإسلام ليس خطيئة، لكنه آخر وسيلة حين تكون السكينة، والمحبة، والرحمة، قد اختفت تمامًا، وفشلت كل محاولات الإصلاح. وكما تُظهر الآيات، فإن التركيز ليس على وقوع الطلاق نفسه، بل على الطريقة التي يقع بها.

لكننا في الواقع نرى كثيرًا ما هو عكس ذلك: فالناس يطلقون في حالة غضب، وانتقام، وغيبة، وكراهية، أو استغلال مالي. ويستعملون الأطفال كأسلحة، ويهملون الواجبات، ويتجاوزون حدود الاحترام والأخلاق الدينية. بينما يكرر الله تعالى في القرآن الكريم مرارًا: **بالمعروف**، أي: بطريقة كريمة، ومعروفة، ومحترمة.

[343] صحيح البخاري، حديث رقم (5273).

كيف يكون الطلاق الصحيح في الإسلام؟

وضع الإسلام قواعد واضحة للطلاق تهدف إلى السكينة والعدالة. وفيما يلي خلاصة موجزة:

1. **أن يقع الطلاق في طُهر لم يحصل فيه جماع**

يجب أن يقع الطلاق في وقت لا تكون فيه المرأة حائضًا، وألّا يكون قد وقع بينهما جماع في ذلك الطهر. وهذا يمنع أن يكون القرار وليد الانفعال أو الرغبة، ويفتح مجالًا للتفكير الهادئ.

2. **أن يُنطق بطلقة واحدة، لا ثلاث دفعةً واحدة**

المشروع أن يوقع طلقة واحدة، ثم تبدأ العدة، وهي ثلاث حيضات. أما جمع الثلاث دفعة واحدة فقد عده كثير من العلماء بدعة مذمومة، وهو يورث كثيرًا من الندم والاضطراب.

3. **احترام فترة العدة**

خلال العدة تبقى المرأة في بيت زوجها، ما لم يكن ذلك غير آمن، من غير معاشرة جسدية. وهذه المدة تعطي فسحةً للتفكير، وربما للإصلاح، وربما للرجعة إذا ندم الطرفان أو تغيّر حالهما.

4. **عند الإصرار على الفراق: يكون الفراق بعدل**

إذا تقرر الانفصال النهائي، فيجب أن يكون ذلك مع:

- تواصلٍ محترم،
- ورعاية مالية عند الحاجة،
- وتركٍ للغيبة، والكراهية، والتشهير،
- ورعايةٍ للأطفال، من غير إدخالهم في الصراع.

5. **عدم إساءة استعمال الدين**

لا يجوز التلاعب بأحكام الإسلام أو استعمالها بصورة انتقائية. فالطلاق عمل جاد ومنظم، وليس أداةً للانتقام أو للسيطرة.

6. **الاستعانة بالشهود عند الإمكان**

كما تذكر آيات القرآن، فإن وجود شاهدين عدلين عند توثيق الطلاق يمنع كثيرًا من النزاعات والظلم لاحقًا.

7. **التوثيق والجانب القانوني**

مع أن الطلاق الشرعي له اعتباره الديني، فمن المستحسن أيضًا تسوية الطلاق المدني بصورة صحيحة، حتى تُحفظ كل الحقوق والواجبات قانونيًا.

الروحانية والتربية:

الطريقة التي نطلّق بها هي امتحان للخلق. فالمؤمن الحقيقي لا يظهر فقط في لحظات الحب، بل كذلك في لحظات الانكسار.

فمن السهل أن تكون لطيفًا عندما تكون الأمور بخير. لكن مَن يبقى محترمًا وعادلًا في ساعة الخيبة، فهذا هو الذي يُظهر التقوى الحقيقية. ويجب أن نعلّم أبناءنا أن الزواج قد يفشل أحيانًا، وأن هذا لا يعني الفشل المطلق إذا انتهى الأمر بكرامة، وعفو، وتحمل للمسؤولية. ويجب أن نوفر كمجتمع مساحةً للبدء من جديد، وللشفاء، ولتحمل المسؤولية دون أحكام قاسية. ويجب أن ندرك أن الله لا ينظر فقط إلى مَن تزوجت، بل كذلك إلى كيف فارقت. فلن تُحاسَب فقط على حبك، بل أيضًا على طريقة وداعك.

28.5 الخاتمة:

الطلاق ليس فشلًا، وليس ذنبًا، وبالتأكيد ليس عارًا. بل هو مخرج أباحه الله حين يفقد الزواج أسسه، وحين تختفي السكينة، والرحمة، والاحترام رغم تكرار محاولات الإصلاح.

والإسلام يقدم لنا في هذا الباب طريقًا متوازنًا: لا التمسك الأعمى الذي يسجن الضحايا في زواج خانق، ولا التسرع الذي يلقي بالزواج عند أول نزاع.

فالطلاق أكثر من آلية قانونية؛ إنه ابتلاء روحي. يطرح علينا سؤالًا: كيف نتعامل مع الخسارة؟ هل نبقى عادلين حين تزول المحبة؟ وهل نختار الكرامة والتقوى حتى في لحظة الفراق؟

وكون القرآن يخصص سورة كاملة للطلاق يدل على أن الله يعرف الإنسان وهشاشته. يعلم أن العلاقات قد تنكسر، لكنه لا يريد أن تنكسر معها الأخلاق والكرامة.

فالطلاق لا يقول كل شيء عن الإنسان، لكن **كيف** يُطلق، يقول الكثير. فعند الله، لا يُحكم عليك فقط بحسب من اخترت أن تحب، بل أيضًا بحسب من اخترت أن تتركه بعدل وكرامة.

الفصل 29 (تعدد الزوجات) في الإسلام:

29.1 الملاحظة:

عندما نناقش موضوع تعدد الزوجات، نلاحظ أن هذا الأمر يأخذ صورًا مختلفة تمامًا بحسب اختلاف المناطق في العالم. ففي كثير من البلدان الإفريقية، حيث أذهب بانتظام في مهمات ميدانية، لا يزال تعدد الزوجات متجذرًا بعمق في الثقافة. ومن اللافت كيف يتحدث الرجال هناك بكل فخر عن زوجتيهم الاثنتين، وكأن الأمر رمز مكانة أو علامة رجولة. لكن عندما نتأمل الواقع عن قرب، يظهر نمط مقلق.

فالشيء الذي يتكرر باستمرار هو أن الزوجة الثانية تكون تقريبًا دائمًا أصغر بكثير من الأولى، وغالبًا ما تكون عذراء. وفي حديث مع شركاء لنا في النيجر[344]، أخبروني من غير أي تحفظ أنه إذا أراد رجل أن يتزوج زوجة ثانية، فإنه يذهب ببساطة إلى مدرسة ثانوية ليختار منها فتاة صغيرة. ولا حديث هنا عن تشاور ناضج بين طرفين، ولا عن تحمّل مسؤولية حقيقية، بل يبدو الأمر كأنه نوع من الاستغلال المغلف بغلاف ديني. وآخرون يحدثونني بفخر عن كيف تتنافس زوجتاهما بدافع الغيرة، وكأن إشعال الغيرة بين النساء إنجاز يُفتخر به. وهناك أيضًا رجال يعترفون بأن الوضع من الناحية الجنسية مرهق جدًا، خاصة في البداية، لأن التوتر والتنافس يكونان محسوسين بوضوح، حتى عندما يعشن جميعًا في بيت واحد، ولكل واحدة غرفة منفصلة.

وما يلمسني أكثر من غيره هو التالي: لم أسمع قط عن رجل تزوج في زواجه الثاني أرملة، أو امرأة لديها أولاد ولم يعد لها أحد. فالنساء في مثل هذه الحالة، وهن غالبًا الأشد هشاشة، يُهمَلن، أو يُتجنَّبن، أو يُنظَر إليهن على أنهن غير مرغوبات، وفي كثير من تلك السياقات، يُعدّ الزواج من أرملة شبه محرّم عرفًا، مع أنه في الحقيقة يمكن أن يكون فعل رحمة ومسؤولية. فكيف يُقال بعد ذلك إن هذه ممارسة إسلامية، إذا كان القرآن وروح السنة يُستخدمان لتغليف الأنا والشهوة باسم الدين؟

فأسأل نفسي عندها: لماذا تقبل بعض النساء بهذا؟ أحيانًا يكون السبب بسيطًا: لأنهن يردن الهروب من وضع أسري ميؤوس منه، أو لأن أسرهن تنظر إليهن كأنهن سلعة. وفي بعض السياقات تُزوَّج البنات حرفيًا من غير أي رأي لهن، فقط بسبب الحاجة الاقتصادية أو الضغط الاجتماعي. ونساء أخريات، وهذه أيضًا حقيقة، يقبلن بوعي أن يكنّ زوجة ثانية، لأنهن لا يجدن رجالًا موثوقين. فإذا صادفن رجلًا واحدًا صادقًا وملتزمًا، يكنّ مستعدات لمشاركته بدل أن يبقين وحيدات أو بلا حماية.

[344] النيجر: بلد تقع في غرب أفريقيا وسمي بذلك نسبة إلى نهر النيجر الذي يخترق أراضيها، عاصمتها نيامي، وهي أكبر مدن النيجر.

ومع ذلك يجب علينا كمجتمع أن نجرؤ على طرح سؤال أساسي: لماذا يريد بعض الرجال زوجة ثانية؟ هل فعلًا بدافع الرعاية، والعدل، والمسؤولية الاجتماعية؟ أم لأن زواجهم الأول في الحقيقة مكسور أصلًا؟ أتذكر صديقًا ماليزيًا في عمري تقريبًا أخبرني ذات يوم بفخر أنه سيتزوج زوجة ثانية. لكن حين سألته: هل زواجك الأول ما يزال سليمًا أصلًا؟ بدأ يتردد... ثم أدرك أنه يجب عليه أولًا أن يعمل على إصلاح ما تصدّع، قبل أن يفتح فصلًا جديدًا. وقبل أن ننتقل إلى الحديث عن حقوق وشروط تعدد الزوجات، علينا أن نكون صادقين مع الواقع الذي يُطبَّق فيه، ومع الدوافع التي تقف خلفه. لأنه إذا غابت روح العدل والمسؤولية، فلن يبقى إلا شكل فارغ، مغطى بلغةٍ تبدو تقية.

29.2 الآيات القرآنية:

الآية الأولى: قال تعالى: ﴿**وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي ٱلْيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ فَوَٰحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُوا۟**﴾[345]

• يشير ابن عاشور إلى أن هذه الآية نزلت في سياق كانت فيه اليتيمات يتعرضن كثيرًا للاستغلال أو الظلم. فقد كان بعض الناس يتزوجون بهن طمعًا في أموالهن من غير رعاية حقيقية. فجاءت الآية لتضع حدًا أخلاقيًا: إن خفتم ألّا تعدلوا مع الفئات الضعيفة مثل اليتيمات، فتزوجوا نساءً أخريات زواجًا اختياريًا راشدًا تستطيعون أن تعدلوا معهن. كما يلاحظ أن ترتيب الأعداد في الآية، "مثنى وثلاث ورباع "، ليس دعوة إلى التعدد، بل هو تحديد للحد الأعلى، واختبار للعدل. فجوهر المسألة هو: هل تستطيع أن تكون عادلًا بين أكثر من زوجة؟

• أما القرطبي فيرى أن التعدد مباح، لكنه ليس مستحبًا في ذاته، إلا إذا وُجد دافع اجتماعي أو أخلاقي، مثل رعاية الأرامل، أو الأيتام، أو حماية النساء اللواتي لا سند لهن. ويضع تركيزه على الشطر الثاني من الآية: "فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة" وبحسبه، فإن هذا الشرط ثقيل وصعب جدًا تحقيقه، لأنه يشمل العدل في الوقت، والانتباه، والنفقة، والمعاملة. ولهذا يكون البقاء على زوجة واحدة في أكثر الأحوال أسلم وأقرب إلى الحكمة.

• ويشرح الرازي أن لفظ **تعدلوا** لا يتعلق بالجانب المادي فقط، بل يشمل كذلك التوازن العاطفي، والانتباه، والاحترام. ثم إن الله يوضح لاحقًا في السورة نفسها عدم استطاعتهم العدل بين النساء حتى لو حرصوا على ذلك. ويرى الرازي في ذلك إشارة إلى أن التعدد، وإن كان جائزًا، فإنه محفوف بالمخاطر الروحية، وأن تركه

[345] سورة النساء، آية (3).

أولى إذا لم توجد ضرورة أعلى تبرره.[346]فالقرآن يفتح باب الزواج بأكثر من واحدة، لكن بشرط واحد حاسم: العدالة التامة. غير أن هذا الشرط نفسه يُعاد التشكيك في إمكان تحققه الكامل داخل القرآن مرة بعد مرة. بل إن الآية 129 من السورة نفسها تصرّح حرفيًا بأنكم لن تستطيعوا ذلك تمامًا.

والرسالة واضحة:

• تعدد الزوجات ليس مثالًا أعلى، بل استثناء مباح لمن يقدر على ما يقتضيه.
• وهو ليس حقًا منفصلًا عن المسؤولية، وبالتأكيد ليس وسيلةً للمتعة، أو للتنافس، أو لطلب المكانة.

وفي أزمنة الحرب، والجوع، والانكسار الاجتماعي، كما كان الحال زمن نزول الوحي، كان التعدد يمكن أن يكون أداة رحمة وحماية. لكن في عالم يتحول فيه إلى وسيلة للشهوة، أو لرفع المكانة، أو لاضطهاد النساء الضعيفات، لا يجوز لنا أن نستعمل آيات القرآن لتبريره من غير احترام روحه.

29.3 التأمل في الحديث:

الحديث الأول: قال النبي ﷺ: **"مَن كَانَتْ لَهُ امْرَأَتَانِ فَمَالَ إِلَى إِحْدَاهُمَا، جَاءَ يَوْمَ القِيَامَةِ وَشِقُّهُ مَائِلٌ"**[347]

التأمل: هذا الحديث من النبي ﷺ قوي وصادم في آن واحد. فهو يبين أن تعدد الزوجات ليس مجرد مسألة زواج بل هو مسؤولية روحية ثقيلة.
فالصورة الواردة في الحديث، "وشقه مائل". تعبّر عن الظلم الأخلاقي الذي ارتكبه. فقد أهمل أمرًا أوجبه الله عليه: أن يعدل بين زوجاته في الوقت، والانتباه، والنفقة، والمعاملة. وكثير من الرجال الذين يدخلون في التعدد ينظرون إليه كحق أو كنوع من الإنجاز، لكنهم يتجاهلون الشرط الديني الذي نص عليه القرآن:
"فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة"[348]. وكان النبي ﷺ نفسه، يستخدم العدل مع زوجاته رغم كثرة عددهن، وهذا الحرص على العدل يدل على أن النبي ﷺ نفسه كان واعيًا بالحدود البشرية في تحقيق العدل الكامل، وعلينا نحن كبشر أن نقتدي بنبينا محمد ﷺ.

---

[346] انظر: الجامع والتحرير ومفاتيح الغيب، تفسير سورة النساء.
[347] سنن أبي داود، حديث رقم (2133).
[348] سورة النساء، آية (3).

هذا الحديث ليس تحريمًا، لكنه تحذير: إذا كنت تظن حقًا أنك قادر على حمل التعدد، فاعلم أن الله سيزن صدقك يوم القيامة، حتى في أدق صور الميل والتفضيل. فمن لا يستطيع أن يقسم بعدل، وضبط نفس، وتقوى، فلا مبرر له أصلًا أن يدخل في التعدد.

المعنى العام للحديث: الحث على مكارم الأخلاق في معاملة الزوجات، وأن الجزاء من جنس العمل حيث يأتي يوم القيامة غير مستوي الطرفين، لعدم تسويته بين زوجاته في الدنيا، فعوقب من جنس فعله، وفيه الابتعاد عن كل فعل يؤدي إلى شحناء وبغضاء المسلمين وخصوصاً الأزواج.

29.4 الطبقة التأملية:

تعدد الزوجات من أكثر المواضيع حساسية في مجتمعاتنا. وقد وضع القرآن الكريم حدًا وشرطًا واضحين: "**فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة**. لكننا نرى في الواقع أن هذا الشرط كثيرًا ما يُهمَل أو يُحرَّف.

ففي البلدان الإفريقية يُطبَّع تعدد الزوجات ثقافيًا كثيرًا. ويُنظر إلى الرجل الذي له أكثر من زوجة على أنه صاحب مكانة رفيعة. ويُفتخر بذلك. لكن كما رأينا في الملاحظة، فإن هذا يحدث في الغالب لا بدافع المسؤولية الاجتماعية، بل بدافع الشهوة: فالزوجة الثانية تكون في العادة أصغر سنًا، وعذراء، بينما تُهمل الأرامل والنساء اللواتي لديهن أطفال. وفي هذا السياق نادرًا ما يُستعمل التعدد لحماية النساء الضعيفات، مع أن هذا كان في زمن الوحي أحد المعاني الاجتماعية الأساسية له.

ونرى في أوروبا أيضًا اتجاهًا مقلقًا. ففي بعض الأوساط المحافظة، تُؤخذ النساء المطلقات أحيانًا بوصفهن "زوجات ثانيات" فقط لإشباع الرغبات في عطلة نهاية الأسبوع أو لتقديم شيء من الاهتمام العابر. وهذه النساء قد يكنّ خارجات من طلاق صعب، ويشعرن بالهشاشة ويبحثن عن الاستقرار، لكنهن يُستعملن حينها كحل مؤقت. لا نفقة حقيقية، ولا رعاية جادة لأطفالهن، بل مجرد علاقة خفية تحت اسم **التعدد** وهذا تشويه لتوجيهات القرآن الكريم، لأن التعدد يتحول هنا إلى أداة استغلال بدل أن يكون فعل رحمة ومسؤولية.

ومن الجهة الأخرى، هناك أيضًا نساء يتعاملن مع هذا المفهوم بطريقة مشوشة. فقد جاءتني ذات مرة امرأة عبر المسجد تبحث عن زوج، بل قالت صراحة إنها مستعدة لأن تكون زوجة ثانية. كانت تملك شقتها الخاصة، ومستقلة في حياتها، لكنها اشترطت أن يدفع لها زوجها المستقبلي ألفي يورو شهريًا. وهنا لا بد أن يسأل الإنسان نفسه: عن أي زواج نتحدث أصلًا؟ فهذا ليس عهدًا قائمًا على المحبة، أو الإيمان، أو المسؤولية المشتركة، بل صفقة متنكرة في صورة زواج.

جوهر المشكلة: وجوهر الإشكال يكمن في الدوافع:

• هل هو بدافع الرعاية والمسؤولية الاجتماعية، مثل الزواج من أرملة أو مطلقة لديها أطفال؟
• أم هو بدافع الأنا، أو الشهوة، أو حب الظهور؟

فإذا كانت الزوجة الأولى مهمَلة، وكان الزواج الأول في الداخل متصدعًا أصلًا، فإن الزواج الثاني لا يحل شيئًا. بل يزيد المشكلة تعقيدًا. وكما رأينا في قصة الصديق الماليزي، يكون الأصلح في كثير من الأحيان أن يُصلَح الزواج الأول أولًا، بدل الهروب من مشكلاته بزوجة ثانية.

وكان النبي ﷺ واعيًا جدًا بثقل هذا الباب. فقد حذّر صراحة من أن مَن مال إلى إحدى زوجاته وظلم في العدل، جاء يوم القيامة مائلًا، وهذه الصورة ليست مجرد استعارة خفيفة، بل هي بيان لشدة ما يأخذه الله على الظلم في باب التعدد. وحتى النبي ﷺ، وهو المعروف بعدله، كان يقول في دعائه: "اللهم هذا قسمي فيما أملك، فلا تؤاخذني فيما لا أملك". فإذا كان هو يقول هذا، فكم يجب علينا نحن أن نكون حذرين؟ فالتعدد ليس امتيازًا دينيًا، بل مسؤولية روحية ثقيلة، سنُسأل عنها أمام الله.

29.5 الخاتمة:

تعدد الزوجات في الإسلام مباح، لكن هذا لا يعني أنه مستحب، أو سهل، أو مناسب لكل أحد. إنه تشريع نشأ في سياقات محددة من الرعاية، والحاجة، والمسؤولية الاجتماعية، لا من الشهوة، أو المكانة، أو الراحة.

فالقرآن فتح الباب أمام التعدد، لكنه وضع إلى جانبه مباشرة شرطًا ثقيلًا: العدالة. وفي القرآن نفسه، يقول الله صراحة إن العدل الكامل متعذر، حتى لو حرص الإنسان عليه، وهذا يوضح أن هذا الإذن محاط بحذر روحي ويقظة أخلاقية. وفي الواقع، كثيرًا ما يُساء استعمال التعدد اليوم:

• في إفريقيا كأداة سلطة ثقافية، حيث تُسحب الفتيات الصغيرات من مقاعد الدراسة.
• وفي أوروبا، عند بعض الأوساط المحافظة، كوسيلة لاستخدام المطلقات سرًا ومؤقتًا لإشباع الحاجة، بلا رعاية ولا التزام.
• وفي كثير من الحالات يعتبر كطريق هروب للرجال الذين أهملوا أصلًا زواجهم الأول، بدل أن يعملوا على شفائه.

فجوهر التعدد هو تحمل مسؤولية أكثر من أسرة، لا تقسيم المتعة بين أكثر من امرأة. ومن أراد حقًا أن يتبع سنة النبي

ﷺ، فعليه أن يتذكر أنه تزوج أرامل، ونساءً أكبر سنًا، ونساءً لديهن أطفال، لا ليشبع رغباته، بل ليحميهن، ويسندهن، ويرفع شأنهن.

والرؤية القرآنية الحقيقية واضحة: إذا لم تكن قادرًا على حمل هذا الباب، فلا تدخله. وإذا دخلته، فاعلم أنك ستُسأل عن كل نظرة ظالمة، وكل ليلة غير عادلة، وكل ميل، وكل تقصير. فالرجل الحقيقي ليس من يأخذ أكثر من امرأة، بل من يعدل مع امرأة واحدة كأن عنده أربعًا.

الفصل 30 (زواج القاصرات) بين العادة، والصدمة، والعدالة:

30.1 الملاحظة:

لا تزال زيجات القاصرات ظاهرة مقلقة على مستوى العالم، حتى في البلدان ذات الكثافة المسلمة العالية. ففي إندونيسيا، مثلًا، تشير أرقام حديثة إلى أن نحو 17% من الفتيات يُزوَّجن قبل بلوغ الثامنة عشرة. وتُعرف هذه الممارسة هناك أحيانًا بالمصطلح المحلي **"نيكاه مودا" نِكَاح مُبَكِّر**؛ أي: الزواج المبكر.

لكن وراء هذا المصطلح يختبئ ما هو أكثر من مجرد حب أو رغبة في الاستقرار. ففي بعض المناطق توجد ممارسة ثقافية يقوم فيها شاب واقع في حب فتاة باختطافها حرفيًا. ومن خلال أخذها يُمارَس ضغط اجتماعي على والديها، اللذين يشعران، خوفًا من كلام الناس وحياءً من المجتمع، بأنهما مضطران إلى الموافقة على الزواج. نوع من فرض الأمر الواقع. وهذا الشكل من الابتزاز الاجتماعي لا يوجد في إندونيسيا وحدها، بل له أشباه في بلدان مثل تركيا، وبعض مناطق شمال إفريقيا، وجنوب آسيا.

فشرف العائلة وسمعتها يصبحان أثقل وزنًا من مصلحة الفتاة نفسها أو من رضاها. ويخشى الناس كلام الجيران، أو حكم المجتمع. أما السؤال: هل هذه الفتاة مستعدة فعلًا للزواج، جسديًا، ونفسيًا، وعاطفيًا؟ فغالبًا لا يُطرح أصلًا. فتتحول في لحظة من طفلة إلى زوجة، وتُحمَّل فجأة كل مسؤوليات امرأة بالغة، من غير أن تُمنح فرصة أن تعيش طفولتها أصلًا. فأي نوع من الزواج ينشأ من هذا؟

- رابطة بلا وعي ذاتي.
- وعلاقة بلا اختيار حر.
- وامرأة لم تُتح لها أبدًا فرصة أن تعيش شبابها، أو أن تبني هويتها، ثم يُطلب منها فجأة أن تكون أمًّا، ومدبرة بيت، وزوجة.

والآثار النفسية لهذا ثقيلة جدًا. فكثيرات يحملن داخلهن فراغًا يلازمهن مدى الحياة. وأنا أعرف عددًا من النساء في أوروبا تزوجن في سن مبكرة، غالبًا تحت ضغط ثقافي أو ديني، ثم في أواخر العشرينات أو بداية الثلاثينات بدأن فجأة يحاولن استعادة شبابهن المفقود. ويظهر ذلك في قرارات اندفاعية، أو سلوك هروبي، أو انفتاح منفلت، أو حتى قطيعة كاملة مع حياتهن الدينية السابقة. وليس ذلك بالضرورة شرًّا منهن، بل نتيجة شوق مكبوت إلى الحرية، والعفوية، والتعبير عن الذات، شوقٍ حُرمن منه في سنوات التكوين.

والسؤال الجوهري هو:
هل يمكن لطفلة ما تزال هي نفسها طفلًا أن تُعطي موافقة حقيقية على عهد زواج يمتد مدى الحياة، بكل ما يحمله من مسؤوليات؟ وإذا لم تكن قادرة على ذلك، فما قيمة مثل هذا الزواج في ميزان الله؟

أهو رابطة محبة ومسؤولية؟ أم شكل من أشكال الإكراه الثقافي المغلف بغلاف ديني؟

30.2 الآيات القرآنية:

الآية الأولى: قال تعالى: ﴿**وَٱبۡتَلُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ فَإِنۡ ءَانَسۡتُم مِّنۡهُمۡ رُشۡدٗا فَٱدۡفَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ أَمۡوَٰلَهُمۡ**﴾[349]

• يوضح ابن عاشور أن هذه الآية تذكر شرطين واضحين للنضج:

1. **بلوغ النكاح:** أي بلوغ السن الجسدي الذي يصلح فيه الإنسان للزواج.
2. **الرشد:** أي النضج العقلي والأخلاقي.

وفي تفسيره يبيّن أن الزواج في الإسلام ليس مجرد مسألة بيولوجية، بل هو أيضًا مسألة مسؤولية وحسن تقدير. فالرشد يعني أن الإنسان يفهم ما يعنيه الزواج، ويقدر على التعامل مع الخلافات، ويدرك دوره ومسؤوليته.

• ويؤكد القرطبي أن الآية لا تتعلق بالأموال فقط، بل تفترض نضجًا عامًا وقدرة على اتخاذ القرار. فالزواج هنا يرتبط ضمنًا بالاستقلال المالي، والقدرة على إدارة الحياة. وهذا أمر جوهري: فمن لا يستطيع أن يتحمل مسؤولية ماله، كيف له أن يتحمل مسؤولية أسرة؟ ويرى القرطبي أنه يمكن الاستدلال بهذه الآية على أن تزويج الأطفال غير الناضجين يناقض روح الشريعة، حتى لو وُجدت له صور قديمة في بعض السياقات ما قبل الحداثة.

[349] سورة النساء، آية (6).

• ويولي الرازي مفهوم **الرشد** اهتمامًا كبيرًا. فهو يراه القدرة الأخلاقية والفكرية على اتخاذ القرار بنفسك، بعيدًا عن ضغط الآخرين. ويفرق بين النضج الطبيعي، أي الجسدي، والنضج الوظيفي، أي الأخلاقي والاجتماعي. وكلاهما ضروري ليكون الزواج صحيحًا ذا معنى. ويشير أيضًا إلى أن غياب أحد هذين العنصرين يؤدي إلى الظلم، وأن الله يحذر من اتخاذ قرارات تتعلق بمصير الشباب غير الناضجين بالنيابة عنهم.[350]

إن آية سورة النساء تظهر بوضوح أن الإسلام لا يضع عتبةً جسدية فقط للزواج، بل يشدد على المسؤولية، والنضج، والاستقلال. ففي كثير من المجتمعات قد يكون جسد الفتاة قد اكتمل نموه، لكن شخصيتها ما تزال في طور التكوين. وإذا لم تكن إرادتها قد تشكلت، فلا يمكن أن يوجد رضا حقيقي، وبالتالي لا يمكن أن يكون هناك زواج كما أراده الله. فالقرآن الكريم يربط الزواج بحالة يكون فيها الإنسان قادرًا على حمل الزواج: فهمًا، وسلوكًا، واختيارًا. أما تزويج الأطفال الذين لم يفهموا بعد حياتهم أنفسهم، فهو اعتداء على روح القرآن.

ولذلك **فالسؤال الحقيقي** ليس: هل هذا جائز في بعض كتب الفقه؟ بل: هل هذا منسجم مع ما يريده الله لعباده؟ فالزواج من غير نضج ليس موضع شبهة شرعية فقط، بل هو ظلم روحي أيضًا. والله عادل. وهو يريد أن يتزوج الناس في سكينة، ونضج، واختيار متبادل، لا تحت الإكراه، أو الضغط، أو البراءة غير الواعية.

30.3 التأمل في الحديث:

الحديث الأول: عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: "**لَا تُنْكَحُ الأَيِّمُ حَتَّى تُسْتَأْمَرَ، وَلَا تُنْكَحُ الْبِكْرُ حَتَّى تُسْتَأْذَنَ قالوا: يا رسول الله، وكيف إذنها؟ قال: أَنْ تَسْكُتَ**"[351]

التأمل: هذا الحديث أصلٌ مهم في فقه الزواج في الإسلام. فالنبي ﷺ يضع هنا رضا المرأة الفردي في مركز العقد، بغض النظر عن عمرها أو خلفيتها العائلية. وقد ذُكرت فيه فئتان من النساء:

1. **الأيّم:** وهي المرأة التي سبق لها الزواج، ويجب أن تكون موافقتها صريحة وواضحة بالكلام.
2. **البكر:** وهي العذراء التي لم يسبق لها الزواج، ويُكتفى في إذنها بسكوتها حياءً، لكن بشرط أن يكون هذا السكوت نابعًا من رضا حقيقي، لا من ضغط أو خوف.

ويبيّن هذا الحديث أن في الإسلام:

350. انظر: الجامع والتحرير ومفاتيح الغيب، تفسير سورة النساء.

[351] صحيح البخاري، حديث رقم (5136).

• الزواج ليس نقل ملكية.
• والمرأة ليست شيئًا سلبيًا يُزوَّج كيفما شاء أبوها أو أهلها.
• بل إن إرادتها عنصر أساسي. وبدون رضاها لا يصح الزواج.

في الحديث احترام الإسلام للمرأة وتقديره لرأيها، والاستئمار هو طلب أمرها ومشورتها في الزوج الذي يريد أن يتزوجها، وهذا يدل على أنه لا يُعقد على الأيم حتى يُطلب الأمر منها، ولما كانت البكر أكثر حياء فإن إذنها وقبولها علامته صمتها.

ومع ذلك، نرى في كثير من الثقافات أن هذا الأصل يُهمَل. فيُضغط على الفتاة، أو تُقنَع، أو تُتلاعَب بها، أو تُرهب لتقول نعم، ثم يُعتبر صمتها ظلمًا وكأنه موافقة. وأحيانًا لا تُسأل أصلًا. لكن الحديث واضح: لا تُنكح... إلا بإذنها. فكيف يكون هناك إذن حقيقي إذا كانت الفتاة نفسها:

• لم تتشكل هويتها بعد؟
• ولا تفهم مسؤولية الزواج أصلًا؟
• ولا تعرف حتى نفسها بما يكفي؟

إن الزواج الذي يُعقد من غير رضا ناضج وحر ليس سنة، بل صورة من صور الإكراه الثقافي المتخفّي بثوب الدين. وهو قد يترك جروحًا عميقة في قلب المرأة ونفسها، تمتد آثارها بعيدًا في حياتها اللاحقة.

30.4 الطبقة التأملية:

يعلّمنا الإسلام أن الزواج رابطة تقوم على **المودة**، و**الرحمة**، و**السكن**. لكن كيف يمكن أن يكون هناك سكن في زواج انتُزعت فيه طفولة الفتاة، وتحولت حياتها فجأة إلى واجب ثقيل؟

في كثير من المجتمعات، يُدافَع عن زواج القاصرات بحجج ثقافية، بل وأحيانًا دينية.
أن النبي ﷺ تزوج أيضًا بامرأة صغيرة السن. أو: الجسد أصبح بالغًا، إذًا الأمر جائز.

لكن ما يُنسى هنا هو أن سيرة النبي ﷺ لا يجوز أبدًا أن تتحول إلى ذريعة للظلم، ولا أن تُفصل عن سياقها، وحكمتها، ورعايته العظيمة لزوجاته. فالزواج في الإسلام لا يدور حول العمر فقط، بل حول:

الرضا الحر، الرشد، والقدرة على تحمّل المسؤولية. فالفتاة التي تُزوَّج قبل أن تنضج، جسديًا، ونفسيًا، واجتماعيًا، تُسلب طفولتها. فلا تعرف من هي، ولا ماذا تريد، ولا كيف تضع حدودًا، ولا كيف تحمي نفسها. وتتحول فجأة إلى زوجة وأم، وهي في حقيقتها ما تزال طفلة.

وهذا يترك آثارًا نفسية عميقة. فكثير من النساء اللواتي زُوّجن في سن الطفولة يروين لاحقًا:

• أنهن فقدن هويتهن، • وأنهن يعشن بصدمات مكبوتة،
• وأنهن لم يدركن حجم ما فُرض عليهن إلا في سن متأخرة.

ولهذا نرى أيضًا نساءً في أوروبا تزوجن في سن مبكرة، أحيانًا تحت ضغط عائلي أو ديني خفي، ثم في أواخر العشرينات أو بداية الثلاثينات بدأن فجأة يحاولن استعادة الشباب المفقود. فخرجن، وجربن، وتمردن، لا لأنهن شريرات، بل لأن جزءًا من إنسانيتهن لم يُمنح فرصةً للنمو. فبعضهن انفصلن. وبعضهن تهنّ روحيًا. وما كان ينقصهن لم يكن الإيمان، بل النمو، والأمان، وحرية الاختيار.

وهنا تقع على الوالدين، وخاصة الآباء الذكور، مسؤولية عظيمة. فالبنت ليست مِلكًا، ولا مشروعًا ثقافيًا، ولا شرفًا يجب حمايته من ألسنة الجيران. بل هي نفسٌ استودعها الله بين يديك. فإذا زوّجتها خوفًا من العار، أو لأسباب اقتصادية، أو لتتخلص من عبء، فأنت لم تكن حاميًا لها، بل ظالمًا لها. ومن خاف الله، علم أنه سيُسأل عن كل أمانة. ويجب على المجتمعات، وعلى القيادات الدينية، أن تتوقف عن الصمت أو التبرير.

*لكنها وافقت، أليس كذلك؟ لا. فالضغط والخوف يقتلان الرضا الحقيقي.

*لكنها بلغت جسديًا، أليس كذلك؟ لا. فالقرآن يشترط أيضًا **الرشد**.

*لكن هذه عادة المجتمع؟ ولكن هل هي إسلامية أيضًا؟ هل هي عادلة؟ هل هي رحيمة؟

فإذا استمررنا في التساهل مع زواج القاصرات أو في التقليل من خطورته، فإننا نصنع جيلًا:

• بزيجات مكسورة، • وتجربة دينية مجروحة، ونساء لا يكتشفن أنفسهن إلا بعد أن يكون الأوان قد فات.

30.5 الخاتمة:

زواج القاصرات ليس تعبيرًا عن الإسلام، بل عن ضغط ثقافي، وبُنى أبوية، وجهل نفسي، مغلف بلغة دينية. فالقرآن والسنة يبنيان الزواج على الرضا، والنضج، والعدالة، والسكن. لا على الشرف الاجتماعي، أو الخوف من الفضيحة، أو العادة.

وهذا يعلّمنا أن الزواج أكثر من مجرد بلوغ جسدي. إنه يحتاج إلى فهم، وحسن تقدير، ومعرفة بالنفس، وهذه أمور لا يملكها الأطفال بعد.

وقد حذر النبي ﷺ أن تُزوَّج المرأة من غير رضاها. فما قيمة الرضا إذا كانت الفتاة لم تتعلم أصلًا أن تقول "لا "؟ أو إذا كانت لا تعرف أحلامها أصلًا؟ أو إذا كان أهلها ينظرون إلى زواجها على أنه حل أو مخرج؟

فزواج القاصرات يسلب الأطفال طفولتهم، وحريتهم، وصوتهم، وأمانهم. ويخلق علاقات مبنية على عدم التوازن، والإحباط، والاعتماد القسري. وهو كثيرًا ما يترك صدمات لا تظهر آثارها إلا بعد سنوات، في صورة اضطراب داخلي، أو مسافة روحية، أو محاولة متأخرة لاستدراك شباب ضائع.

فالقرآن الكريم يدعو إلى الحب والرحمة، لا إلى القهر النفسي. ويدعو إلى المسؤولية والحماية، لا إلى نقل العبء والعار. ويدعو إلى النمو الروحي، لا إلى الجمود الثقافي.

ولهذا يجب أن نكون واضحين كمجتمع مسلم: الزواج بلا نضج، ولا رضا، ولا رعاية، ليس سنة.
بل هو خيانة للأمانة التي هي البنت.

ومَن عامل طفلة كزوجة قبل أن تكون هي نفسها مستعدة لذلك، فسوف يُسأل عن ذلك أمام الله.

والرؤية القرآنية واضحة: أنت لا تحمي الطفلة بتزويجها، بل تحميها بتربيتها في الأمان، والعلم، والكرامة.

الفصل 31 (تربية الأطفال) أمانة منسية:

31.1 الملاحظة:

في الغرب نرى فجوة متزايدة بين الآباء الملتزمين وأبنائهم الذين يبتعدون تدريجيًا. فكثير من الآباء يصلّون، ويصومون، ويتصدقون، لكن أبناءهم بالكاد يتكلمون العربية، ولا يعرفون من القرآن إلا القليل، ولا يشعرون بأي ارتباط بالمسجد.

وبعض الآباء لا يدركون ذلك إلا حين يفوت الأوان: عندما يقول الابن إنه لم يعد يؤمن، أو عندما ترفض البنت فجأة كل ما تعلمته. وعندها يسألون: "أين أخطأنا؟ "

إن التربية في الإسلام أمانة مهمة وُضعت في أعناق الآباء. لكن كثيرًا من الناس يتعاملون معها وكأنها تسير وحدها، أو كأنها شيء يمكن تفويضه للإمام أو لمدرسة نهاية الأسبوع. فيستثمرون في المدارس الغالية، والأندية الرياضية، والدروس الخصوصية، والهوايات، لكنهم ينسون روح الطفل.

ونرى أربع نقاط ألم تتكرر باستمرار:

تأجيل التربية الدينية أو إهمالها:

الآباء لا يريدون أن يضغطوا على أولادهم، أو يكونون منشغلين جدًا بالعمل والبقاء. فيكبر الأطفال في مناخ من الحرية، لكن بلا إطار.

اختلال التوازن بين الحب والانضباط:

بعض الآباء يعطون أبناءهم كل شيء إلا الحدود. وآخرون لا يعطونهم إلا القواعد والواجبات بلا حنان. وكلا الطرفين مضر. فالنبي ﷺ جمع بين اللين والوضوح.

غياب القدوة:

الآباء يقولون: افعل هذا! لكن الطفل يرى أن سلوكهم يعكس العكس تمامًا. فالأطفال يتعلمون بأعينهم لا بآذانهم. وبدل أن يجدوا الإلهام، يجدون كثيرًا من التناقض.

ضعف النمو الروحي:

يُغذّى الأطفال عقليًا، لكنهم يُجوعون روحيًا. يعرفون التكنولوجيا، لكنهم لا يعرفون أنفسهم. هم أذكياء، لكنهم فارغون من الداخل والنتيجة؟ حيرة، واكتئاب، وإدمان، بل وأحيانًا ارتداد عن الدين.

وفي كثير من المجتمعات الإفريقية والآسيوية يبقى حضور الدين في الفضاء العام أقوى مما هو عليه في الغرب. فالأطفال يكبرون على صوت الأذان في الشوارع، وتلاوة القرآن في المدارس أو عبر الإذاعة، وعلى الرموز الدينية في البيوت. ومع ذلك، هناك فجوة واضحة بين هذا الحضور الديني الظاهر وبين التربية الروحية العميقة. ففي مساحات واسعة من إفريقيا وآسيا، تُختزل التربية الدينية في حفظ القرآن. يقضي الأطفال ساعات طويلة في الكتاتيب أو مدارس القرآن، أحيانًا في ظروف بسيطة جدًا، يكررون الآيات من غير مرافقة في المعنى أو التطبيق. وكثير من هؤلاء الأطفال يتعلمون أن يخافوا من الله، لكنهم لا يتعلمون بالضرورة أن يحبوه. يعرفون النص، لكنهم لا يعرفون المقصد. يتلقون تشكيلًا دينيًا، لكنهم لا يتغذون روحيًا.

وفي بعض الحالات يؤدي استعمال العقاب الجسدي إلى الخوف، بل وإلى النفور. فيُربّى الأطفال على الطاعة، لا على الفهم. كما أن احترام الوالدين والكبار متجذر بقوة في الثقافات الإفريقية والآسيوية. لا يجوز للأطفال أن يعترضوا، وطرح الأسئلة قد يُعد وقاحة، والطاعة المطلقة متوقعة منهم. ومع أن توقير الوالدين أصل عظيم في الإسلام، فإن هذا النموذج عندما يتطرف قد يؤدي إلى انعدام الحوار المفتوح، وكبت المشاعر، وتدين سلبي. فالشباب لا يسألون، لكن الأسئلة موجودة بداخلهم. يتعلمون الطقوس، لكنهم لا يعرفون لماذا.

أوجه الشبه مع الغرب:

اللافت أنه رغم الاختلافات الثقافية الكبيرة، فإن الأطفال في إفريقيا وآسيا يشعرون كثيرًا بالفراغ نفسه الذي يشعر به أقرانهم في الغرب: • يكبرون من غير مرافقة روحية داخل البيت.

• ويواجهون إدمانًا رقميًا، أو أسرًا مفككة، أو هجرة أحد الوالدين أو كليهما.

• وكثير من الآباء غائبون جسديًا أو عاطفيًا، بسبب العمل في الخارج، أو الحرب، أو الضغط الاجتماعي.

وسواء كان الأمر في بروكسل[352]، أو دكا[353]، أو باماكو[354]، فإن الطفل الذي لا يتلقى تربية واعية محبة، يكبر في الحيرة.

31.2 الآيات القرآنية:

نموذج في التربية

الآية الأولى: قال تعالى: ﴿**وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ ۖ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ**﴾[355]

• يؤكد ابن عاشور أن لقمان يبدأ بالتوحيد لأنه أصل كل تربية وكل أخلاق. فبلا علاقة صافية بالله، تفقد بقية الوصايا أساسها. والنداء الحنون: **يا بنيّ** يدل على أن التربية لا ينبغي أن تكون صحيحة في مضمونها فقط، بل أيضًا حكيمة في أسلوبها وعاطفتها.

• ويقول القرطبي إن هذه الآية تبين أن التربية تبدأ بالإيمان والإنابة إلى الله. فعلى الآباء أن يجعلوا الوعي الروحي أولوية.

• ويرى الرازي أن الطفل يتشكل بالاقتناع الداخلي، لا بالقواعد فقط. فلقمان جمع بين الحكمة والمحبة.[356]

إن تربية الأطفال يجب أن تبدأ من القلب ومن العلاقة بالله. فإذا ترسخ التوحيد، ترسخت معه الأخلاق والاختيارات. وتعلمنا هذه الآية أن التربية رسالة أخلاقية وروحية.

---

[352] بروكسل: مدينة في بلجيكا وتعتبر عاصمتها، وهي الأكثر كثافة سكانية والأغنى في بلجيكا.

[353] دكا: داكة وهي عاصمة بنغلادش وأكبر مدنها وتُعد دكا مركزاً ثقافياً واقتصادياً وعلمياً مهماً في جنوب شرق آسيا.

[354] باماكو: عاصمة جمهورية مالي وكبرى مدنها، وتُعد المدينة من المدن التجارية الهامة بمالي، وكلمة باماكو تعني ظهر التمساح.

[355] سورة لقمان، آية (13).

[356] انظر: الجامع والتحرير ومفاتيح الغيب، تفسير سورة لقمان.

الآية الثانية: قال تعالى: ﴿**يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ**﴾[357]

• يذكر ابن عاشور أن لقمان هنا يلفت نظر ابنه إلى الضمير الداخلي وإلى مراقبة الله، فحتى أصغر الأعمال لا تخفى عليه.

• ويقول القرطبي إن هذه الآية تعلمنا أن التربية ليست فقط في ضبط الظاهر، بل أيضًا في بناء الضمير. فالتقوى ليست مجرد سلوك، بل وعي بأن الله يرى كل شيء.

• ويرى الرازي أن الآية تعلمنا أن الآباء يجب أن يربوا أبناءهم على المسؤولية، حتى عندما لا يراهم أحد.[358]

فالطفل ينبغي أن يتعلم أن يعيش بأخلاق داخلية. أما الوالد الذي لا يربّي إلا بالقوانين، فإنه يزرع النفاق. لكن من يغرس في الطفل حضور الله، فإنه يغرس فيه المسؤولية الصادقة.

الآية الثالثة: قال تعالى: ﴿**يَا بُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ**﴾[359]

• يؤكد ابن عاشور أن هذه الآية تجمع أبعاد الإيمان الثلاثة: العلاقة بالله **الصلاة**، والمسؤولية اتجاه الناس **الأمر والنهي**، والقوة الداخلية أمام الابتلاء **الصبر**

• ويرى القرطبي أن هذه الآية تدل على أن التربية تشمل أيضًا الوعي الاجتماعي والقدرة على الثبات.

• ويقول الرازي إن ذكر الصبر هنا مهم جدًا. فكل تربية، وكل دعوة، تحتاج إلى ثبات واستقرار نفسي.[360]

إن هذا نموذج متوازن في التربية: • ارتباط بالله **الصلاة**.

• ومسؤولية في المجتمع **الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر**.

• ومناعة داخلية **الصبر**.

فتربية الأطفال ليست مجرد حمايتهم، بل إعدادهم لمواجهة واقع الحياة.

---

[357] سورة لقمان، آية (16).

[358] انظر: الجامع والتحرير ومفاتيح الغيب، تفسير سورة لقمان.

[359] سورة لقمان، آية (17).

[360] انظر: الجامع والتحرير ومفاتيح الغيب، تفسير سورة لقمان.

الآية الرابعة: قال تعالى: ﴿**وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ**﴾[361]

• يقول ابن عاشور إن هذا تعليم أخلاقي: علّم أبناءك كيف يتصرفون في المجال العام، وكيف يتعاملون مع الناس، وكيف تكون هيئتهم ونبرتهم.

• ويذكر القرطبي أن حتى طريقة المشي والكلام تدخل في باب التربية. فالإسلام ينظر إلى كل السلوكيات، لا إلى الطقوس فقط.

• ويرى الرازي أن الكبر ورفع الصوت بصورة مزعجة علامتان على اختلال داخلي. فالإسلام يعلّم أن الهيئة الظاهرة انعكاس للحالة الباطنة.[362]

فعلى الآباء ألّا يربوا أبناءهم دينيًا فقط، بل اجتماعيًا وعاطفيًا أيضًا. ثقة بالنفس بلا كبر.
وقوة في الكلام بلا صخب. فالإسلام يُشكّل الشخصية، لا السلوك وحده.

31.3 التأمل في الحديث:

الحديث الأول: قال النبي ﷺ: "**كُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْؤولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ**"[363].

التأمل: يبين هذا الحديث أن على الآباء مسؤولية دينية، وأخلاقية، وتربوية. فالتربية ليست أمرًا اختياريًا أو ثانويًا، بل سيُسأل الوالدان عمّا علّماه أولادهما أو تركاهما يجهلانه.

الحديث الثاني: قال النبي ﷺ: "**كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجِّسَانِهِ**"[364]

التأمل: يولد الأطفال على فطرة نقية، وعلى استعداد طبيعي لمعرفة الله. لكن الوالدين يحددان، من خلال التربية والبيئة، الاتجاه الذي يسلكه هذا القلب. وهذا يجعل التربية نوعًا من الهداية الأخلاقية، وحفظًا للفطرة.

الحديث الثالث: قال النبي ﷺ: "**لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَمْ يَرْحَمْ صَغِيرَنَا، وَيَعْرِفْ شَرَفَ كَبِيرِنَا**"[365].

---

[361] سورة لقمان، آية (18_19).

[362] انظر: الجامع والتحرير ومفاتيح الغيب، تفسير سورة لقمان.

[363] سبق تخريجه صفحة (154).

[364] صحيح البخاري، حديث رقم (1385).

[365] سنن أبي داود، حديث رقم (4943).

التأمل: يدل هذا الحديث على أهمية التربية القائمة على الرحمة. فالاحترام، واللين، وبناء العلاقة مع الأطفال، جزء أساسي من المنهج التربوي الإسلامي؛ لأنه يقوي ثقتهم بأنفسهم، ويعمق صلتهم بالدين.

المعنى العام للحديث: حرص الإسلام على البر ومراعاة حقوق الناس على اختلاف أعمارهم وأحوالهم. وليس منا: أي ليس على طريقتنا وهدينا وسنتنا.

الحديث الرابع: قال النبي ﷺ: **"طَلَبُ العِلْمِ فَرِيضَةٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ"**[366].

التأمل: يجب أن تكون تربية الأطفال موجهة أيضًا إلى نقل العلم، الديني والدنيوي معًا. فهذا ليس رفاهية ولا خيارًا ثانويًا، بل واجب أساسي. ومن يترك أبناءه ينشؤون بلا علم، فإنه يتركهم عُرضةً للفراغ الروحي.

المعنى العام للحديث: لقد أعلى الشرع الحكيم من قيمة العلم والعلماء، وبين النبي ﷺ فضل العالم الذي ينقل علمه إلى الناس وما له من أجر عظيم عند الله تعالى، وفيه بيان فضل طلب العلم، والحث عليه.

31.4 الطبقة التأملية:

إن تربية الأطفال ليست هواية فردية، ولا مجموعة من القرارات العشوائية، بل هي **أمانة مقدسة** أودعها الله سبحانه وتعالى بين أيدينا. فالقرآن والسنة يوضحان بجلاء: أنت كوالد، أو كأم، أو كمربٍّ، أو كمعلم، أنت الذي تصوغ مستقبل هذه الأمة. ومع ذلك نرى في العالم كله الأنماط المؤلمة نفسها تتكرر:
أطفال يكبرون مع قواعد بلا محبة، أو مع محبة بلا توجيه. يُعلَّمون الصلاة، لكن لا يُشرح لهم لماذا.
يسمعون كلمة حرام، لكنهم لا يسمعون كلمة رحمة. والآباء أنفسهم في كثير من الأحيان لم يتعلموا كيف يربّون. فيكررون ما عاشوه هم أنفسهم، أو يبتعدون تمامًا عن التربية في الغرب باسم الحرية أو الانشغال.

التربية الدينية ليست أمرًا تلقائيًا

أن تُرسل ابنك إلى حلقات القرآن أو دروس الإسلام أمر جميل في نفسه، لكنه غير كافٍ.

كيف سيحب الطفل الله إذا كان لا يتعلم إلا أن يخافه؟ وكيف سيفتخر بكونه مسلمًا إذا كان الدين عنده لا يعني إلا الصرامة والمنع؟ والحل هو في **تربية روحية أصيلة:**

[366] سنن ابن ماجه، حديث رقم (224).

• علّم طفلك من هو الله، بوصفه **الرحمن الرحيم**.
• تحدث مع طفلك عن معنى الحياة، لا عن المحظورات فقط.
• أعطِه المحبة، وضع له الحدود، وكن أنت بنفسك القدوة التي تريد أن يتبعها.

التوازن: الحب والانضباط كما نرى عند لقمان: كلماته مليئة باللطف، والاحترام، والمودة. لكنه في الوقت نفسه يحذر ابنه بقوة من الشرك، ومن الكبر، ومن السلوك الخاطئ. وهذا التوازن مفقود كثيرًا اليوم. ففي الغرب يغلب التساهل: دَعْهم يختارون بأنفسهم. وفي إفريقيا وآسيا تغلب السلطوية: يُطيعون بلا سؤال.

أما الإسلام فيعلّمنا أن: **الحب بلا توجيه هو إهمال، والتوجيه بلا حب هو قهر**.

الفرق بين الفرص والاختيارات

في أوروبا وفي البلدان الغربية عمومًا، يملك المسلمون فرصًا غير مسبوقة لتحصيل العلم الديني والدنيوي: تعليم مجاني، وإنترنت، ومكتبات، وحرية. ومع ذلك يختار كثير منهم ألّا يدرسوا، ولا يتعمقوا في الدين أو في التربية. أما في بلدان مثل بنغلادش[367]، ومالي،[368] والنيجر، فالأمر معكوس: الناس يريدون أن يتعلموا، لكنهم لا يملكون الوسائل. والواقع مؤلم: من يستطيع، لا يفعل في كثير من الأحيان. ومن يريد، لا يستطيع.

ولهذا علينا أن نتذكر من جديد: **العلم يبدأ من البيت**، فالمدرسة الأولى هي البيت. والمعلم الأول هو الوالد. وأول صورة يتلقاها الطفل عن الله، تأتيه من الطريقة التي يتكلم بها الأب والأم، ويعلّمان ويُحبان ويتصرفان.

الهدف الأكبر

التربية ليست ترويض الأطفال ليكونوا مطيعين من غير وعي. التربية هي إعداد عباد أحرار واعين لله، يفهمون الحياة على أنها ابتلاء، ويعرفون ما هو الحق وما هو الباطل، ويملكون من القوة ما يجعلهم قادرين على أن يسبحوا ضد التيار إذا لزم الأمر.

31.5 الخاتمة: إن تربية الأطفال هي مفتاح نهضة المجتمع أو سقوطه. كل أب، وكل أم، وكل معلم يحمل مسؤولية هائلة. فالأطفال يولدون على فطرة نقية، لكن اتجاههم، وإيمانهم، وسلوكهم، وبوصلتهم الأخلاقية... كل ذلك هو ثمرة التربية.

[367] بنجلادش: دولة تقع في جنوب قارة آسيا وتحدها الهند من ثلاث جهات، عاصمتها دكا وسبق التعريف بها.

[368] مالي: دولة غير ساحلية في غرب إفريقيا عاصمتها باماكو وسبق التعريف بها، وتصل حدودها إلى عمق الصحراء الكبرى، ويمر بها نهر النيجر والسنغال، ويتمحور التركيز الاقتصادي حول الزراعة وصيد السمك.

ويعرض لنا القرآن في سورة لقمان نموذجًا خالدًا: أب لا يصرخ، ولا يفرض بالقهر، بل ينصح بجِدٍّ مفعم بالمحبة. يضع الله في المركز، لكنه يورث كذلك الصلاة، وحسن السلوك، والتواضع، وترك الكبر، باعتبارها أعمدة للحياة. وتوضح الأحاديث أن كل طفل يُولد على فطرة إلهية، لكن الوالدين هما من يشكلان نظرته إلى العالم. فأنت تبني قلبه، قبل أن يأتي العالم فيشكّل عقله.

وفي الغرب، تُهمَل التربية الدينية كثيرًا خوفًا من الضغط أو التحكم. وفي إفريقيا وآسيا، تُختزل أحيانًا في الطاعة بلا فهم. وكلا الأمرين يفتقد روح التربية الإسلامية الحقيقية: **مرافقة روحية قائمة على المحبة، والعلم، والقدوة.** لا يمكننا أن نستمر في ترك أطفال هذا الجيل لتطبيق تيك توك، ويوتيوب، ومناهج المدرسة، وتأثيرات الشارع. فالمسؤولية تقع علينا نحن: الآباء، والمربون، والمجتمعات. علينا أن نهدي الأطفال بالقرآن وبالحكمة، وبالحنان والصبر، وبفهم عميق لتحديات هذا العصر. فلنتوقف عن الشكوى من الشباب، ولنبدأ في بناء قلوبهم.

الفصل 32 (برّ الوالدين) بين التوقير وسوء الاستعمال:

32.1 الملاحظة:

إن الأبوان من أقدس المسؤوليات في الإسلام. فهي أمانة، وتكليف إلهي، يحتاج إلى رعاية، وحكمة، وتوازن. لكن كما هو الحال مع كل صورة من صور السلطة، يوجد هنا أيضًا خطر سوء الاستعمال، أو الإهمال، أو الانحراف. وفي عالمنا اليوم، سواء في الغرب أو في إفريقيا وآسيا، نرى أن العلاقة بين الأبناء والوالدين اختلّ توازنها، وإن كان ذلك بطرق مختلفة جدًا.

ففي كثير من السياقات الإفريقية والآسيوية والعربية، يُفهم دور الوالدين كثيرًا على أنه شكل من أشكال السلطة المطلقة. فيطالب الوالدان، ولا سيما الأمهات المدعومات بعادات ثقافية قوية، بطاعة كاملة، حتى عندما تتعارض مطالبهم مع التوجيهات الإسلامية. ويُساء استعمال الكثير من النصوص الدينية فلا تُقرأ بوصفها دعوة إلى البر والرعاية والاحترام، بل تُستعمل أداةً للضغط النفسي على الأبناء. فتُمنع البنات من الزواج خارج القرية، ويُبتز الأبناء عاطفيًا إذا اختاروا طريقًا لا يوافق توقعات الأسرة، ويُقال للأطفال إن عليهم دائمًا أن يطيعوا مهما كان الأمر. وهكذا تتشكل ثقافة من الشعور بالذنب والتلاعب، يضيع فيها الحد الفاصل بين البر المشروع وبين الإساءة العاطفية. فالسلطة في الإسلام ليست ألوهية؛ للوالدين حق الاحترام، لكن ليس لهما حق تحطيم أرواح أبنائهما.

وفي الجهة الأخرى نرى في الغرب النقيض تمامًا. فهناك كثير من الآباء قد تخلوا بالكامل عن سلطتهم، بدافع الرغبة في أن يكونوا عصريين، أو ديمقراطيين، أو لطفاء. فينشأ الأطفال بلا حدود، ولا انضباط، ولا إحساس بالمسؤولية. يخاطبون آباءهم كما لو كانوا أصدقاء من نفس العمر، ويتوقعون يوميًا الرفاهية والراحة، ويرفضون المساعدة في البيت، ولا يشعرون بواجب حقيقي نحو الشكر والامتنان. يريد الوالدان أن يكونا صديقين بدل أن يكونا مربّيين، لكن النتيجة ليست حرية، بل لا مبالاة. فينشأ جيل لا يعرف معنى الواجب، ولا معنى الاحترام، ولا معنى ضبط النفس. وهكذا يظهر التطرف من الطرفين. ففي الشرق: تحكم زائد وفهم ناقص. وفي الغرب: حرية مفرطة وغياب للتوجيه. وفي الحالتين معًا يغيب التوازن. أما الإسلام فيعلمنا أن الوالدية تحتاج إلى محبة مع توجيه، ومودة مع سلطة منضبطة، وأساس روحي ينمو فيه الوالدان والأبناء جميعًا في طريقهم إلى الله.

فالأبناء ليسوا مِلكًا لآبائهم، بل مخلوقات في طور التكوين. والوالدان ليسا آلهة على أبنائهما، بل مربّيان يقودان باسم الله. فإذا تصرف الوالدان كأنهما آلهة، وتصرف الأبناء كأنهم آلهة أيضًا، فلن تعرف الأسرة السكينة أبدًا. وإنما لا تنشأ الموازنة، ولا السلام، ولا النمو، إلا حين يدرك الطرفان جميعًا أنهم عباد لله.

32.2 الآيات القرآنية:

الآية الأولى: قال تعالى: **وَقَضىٰ رَبُّكَ أَلّا تَعبُدوا إِلّا إِيّاهُ وَبِالوالِدَينِ إِحسانًا إِمّا يَبلُغَنَّ عِندَكَ الكِبَرَ أَحَدُهُما أَو كِلاهُما فَلا تَقُل لَهُما أُفٍّ وَلا تَنهَرهُما وَقُل لَهُما قَولًا كَريمًا وَاخفِض لَهُما جَناحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحمَةِ وَقُل رَبِّ ارحَمهُما كَما رَبَّياني صَغيرًا﴾**[369]

• يؤكد ابن عاشور أن هذه الآيات تتضمن أسمى الأوامر الإلهية: التوحيد أولًا، ثم الإحسان إلى الوالدين. وليس ترتيب الأمرين صدفة؛ فبر الوالدين يأتي مباشرة بعد عبادة الله.

• ويشير القرطبي إلى أن مجرد لفظة ضجر صغيرة مثل **أف** قد نُهي عنها. فكيف إذًا بالصراخ، أو الإهانة، أو قطع العلاقة؟ إن سقف الاحترام المطلوب هنا بالغ الارتفاع.

• ويذكر الرازي أن تعبير **قولًا كريمًا** هو مبدأ دائم، حتى لو كان الوالد صعبًا أو مُتعبًا بسبب الشيخوخة. والتوازن بين الاحترام والمحافظة على النفس يظهر في الدعاء: "**كما ربياني صغيرًا** "[370].

---

[369] سورة الإسراء، آية (23_24).

[370] انظر: الجامع والتحرير ومفاتيح الغيب، تفسير سورة الإسراء.

الآية الثانية: قال تعالى: ﴿**وَوَصَّينَا الإِنسٰنَ بِوالِدَيهِ حَملَتهُ أُمُّهُ وَهنًا عَلىٰ وَهنٍ وَفِصالُهُ في عامَينِ أَنِ اشكُر لي وَلِوالِدَيكَ إِلَيَّ المَصيرُ وَإِن جاهَداكَ عَلىٰ أَن تُشرِكَ بي ما لَيسَ لَكَ بِهِ عِلمٌ فَلا تُطِعهُما وَصاحِبهُما فِي الدُّنيا مَعروفًا**﴾[371]

• يرى ابن عاشور هنا حدًّا مهمًا جدًا: حتى إذا دعا الوالدان إلى الشرك، فلا يجوز طاعتهما، لكن يبقى واجب الأدب والإحسان قائمًا. فالدين مقدم، لكن الأدب لا يسقط.

• ويشدد القرطبي على التضحيات الجسدية والعاطفية للأم: الحمل، والولادة، والرضاعة، وكل ذلك سبب لواجب عميق من الشكر، مهما كانت النزاعات اللاحقة.

• ويبين الرازي أن هذه الآيات تعلم الشباب خصوصًا كيف يضعون الحدود مع الحفاظ على حسن الخلق. فهناك فرق شاسع بين عدم الطاعة في المعصية وبين القطيعة والإساءة.[372]

الآية الثالثة: قال تعالى: ﴿**وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَنًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا**﴾[373]

• يركز ابن عاشور هنا على تكرار ذكر مشقة الأم: مشقة الحمل ومشقة الولادة، باعتبار ذلك تذكيرًا عميقًا بعنصر التضحية الملازم للوالدية.

• ويشير القرطبي إلى أن هذا التكرار يحمل تحذيرًا روحيًا: فمن يقف موقف اللامبالاة من والديه، فهو في الحقيقة جاحد لأصله نفسه.

• ويرى الرازي أن الله يكرر في سور متعددة الأمر بالإحسان إلى الوالدين، ويربطه بالشكر وبالاعتراف بالأصل الإنساني.[374]

وتعلمنا هذه الآيات أن الإحسان إلى الوالدين ليس تفصيلًا ثقافيًا، بل أمر إلهي. والله يكرره في مواضع متعددة من القرآن، مع التشديد كل مرة على اللين، والشكر، والتواضع الروحي.

---

[371] سورة لقمان، آية (14_15).

[372] انظر: الجامع والتحرير ومفاتيح الغيب، تفسير سورة لقمان.

[373] سورة الأحقاف، آية (15).

[374] انظر: الجامع والتحرير ومفاتيح الغيب، تفسير سورة الأحقاف.

وفي الوقت نفسه، يُظهر القرآن أن هذا الاحترام ليس بلا حدود: فإذا ضغط الوالدان على أبنائهما ليفعلوا ما يخالف الحق، كما في الشرك أو الإكراه الثقافي، فإن الطاعة لا تجب، لكن الاحترام يبقى. وهذا التوازن جوهري: محبة بلا خضوع أعمى، وحدود بلا إساءة.

32.3 التأمل في الحديث:

الحديث الأول: "قال رجل: يا رسول الله، من أحق الناس بحسن صحابتي؟ قال: **أمك.** قال: ثم من؟ قال: **أمك.** قال: ثم من؟ قال: **أمك.** قال: ثم من؟ قال: **أبوك**"[375].

هل الحديث الذي تُذكر فيه الأم ثلاث مرات ترتيبٌ عام مطلق؟ أم أنه يُفهم في سياقه؟

أ. ابن الجوزي ت 597هـ

في كتابه كشف المشكل، يشرح ابن الجوزي أن تكرار **أمك** لا يعني وجود ترتيب مطلق ثابت بين الوالدين في كل الأحوال، بل هو اعتراف بزيادة الجهد الجسدي والعاطفي الذي تبذله الأم. ويذكر صراحة أن الواجب العام في حسن المعاملة يشمل الوالدين كليهما، وأن تخصيص الأم بالتأكيد في بعض الأحوال يكون مناسبًا، خصوصًا حيث تُهمَل أو يُنتقص من قدرها.

ب. الاستشهاد بالقرآن

﴿**وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا...**﴾[376]

فهذه الآية تبين أن الأمر بالإحسان يشمل الوالدين معًا، لكن تُذكر مشقة الأم على وجه الخصوص. وهذا يفسر لماذا تُعطى الأم أحيانًا عناية خاصة، لا باعتبارها أعلى منزلة على الإطلاق في كل الحالات، بل اعترافًا بما تحمله من معاناة.

ج. بعض العلماء المعاصرين

يشدد القرضاوي في فقه الأولويات على أن هذا الحديث ليس معادلة حسابية جامدة 3 مقابل 1. بل هو أسلوب نبوي بليغ لتصحيح واقع كان فيه تقصير تجاه الأمهات، لا لانتقاص حق الآباء. ويقول أيضًا إن الأب قد يكون في بعض الظروف أحق بمزيد من الرعاية، إذا كان هو من قام وحده بالتربية أو تحمل مشقة استثنائية.

---

[375] صحيح البخاري، حديث رقم (5971).

[376] سورة الأحقاف، آية (15).

د. الشيخ ابن عثيمين

يذكر في شرح رياض الصالحين أن الأم وإن كانت تتحمل غالبًا تضحيات جسدية أكبر، فإن الأب قد يتحمل في المقابل مسؤوليات مالية وتربوية أكبر. ولذلك قال:

"الإسلام يعطي كلَّ ذي فضل فضله في موضعه. فلا تعارض هنا، بل عدل في التوزيع".

هـ. ابن العربي المالكي

يرى في عارضة الأحوذي أن تكرار ذكر الأم ثلاثًا قد يكون مرتبطًا بسياق معين. فقد يكون الرجل في القصة مقصرًا تجاه أمه أو حتى يحمل شيئًا من النفور منها، فاقتضى المقام هذا التركيز التربوي الخاص لتصحيح خطأ شخصي، لا لتأسيس ترتيب كوني دائم لا يتغير.

و. ابن حزم[377] وحقوق الوالدين

يرى ابن حزم الظاهري في *المحلى* أن حقوق الأب والأم متساوية في الأصل، لكنها تختلف بحسب السياق والواقع. ويؤكد أنه لا توجد هرمية مطلقة دائمة، بل قد يكون حق الأب في بعض الأحوال أعظم بحسب ما تحمله من نفقة، أو تعليم، أو حماية، أو غياب الأم.

الخلاصة حول هذا الحديث:

- ليس الحديث ترتيبًا مطلقًا دائمًا يجعل الأم دائمًا أكثر حقًا من الأب في كل الحالات.
- بل هو تأكيد سياقي على ما بذلته الأم من تضحيات خاصة.
- وكلا الوالدين لهما في القرآن حق ثابت في البر، كما في سورة الإسراء.
- وقد يكون الأب في بعض الحالات أحق بمزيد من البر، بحسب عطائه، أو تضحيته، أو غياب الأم.

المعنى العام الحديث: الأم هي محل البر والإكرام وهي رمز التضحية والفداء والطهر والنقاء وهي الأصل الذي يشرف به الولد، ويليها الأب في حق البر والصحبة.

الحديث الثاني: قال النبي ﷺ: "**رِضَى اللهِ فِي رِضَا الْوَالِدِين، وَسَخَطُ اللهِ فِي سَخَطِ الْوَالِدِين**"[378].

التأمل: في القرآن يأتي لفظ **الوالدين** باعتباره اسمًا جامعًا للأب والأم معًا. وهذا يبين أن البر والطاعة لا يُدينان للأم وحدها، بل للوالدين معًا. ويؤكد الحديث هذا المعنى من خلال إظهار أن موقف الأبناء من والديهم

---

[377] ابن حزم: أبو محمد علي بن أحمد بن يزيد الأندلسي القرطبي الظاهري، يُعد من أكبر علماء الإسلام في الأندلس، تصنيفً وتأليفاً، إمام حافظ فقيه ظاهري، محدث، مجدد القول به ومحيي المذهب، وصفه البعض بالفيلسوف كما كان من أوائل مَن قال بكروية الأرض.

[378] سنن الترمذي، حديث رقم (1899).

يؤثر مباشرة في علاقتهم بالله. فبر الوالدين ليس مجرد عادة أو ثقافة، بل هو واجب روحي وشرط من شروط رضا الله. وبهذا يصحح الإسلام الإفراطات الثقافية التي تمجد الأم وحدها بطريقة غير متوازنة، كما يصحح النزعات الغربية التي تفرغ الوالدية من مكانتها: فالقرآن يركز على الوالدين كليهما، في توازن وعدل.

المعنى العام للحديث: في الحديث بعض الوصايا العظيمة في الحث على رضا الله في إرضاء الوالدين، حيث يغفر لك ويعفو عنك بالإحسان إليهما والقيام بخدمتهما، حيث أن حق الوالدين يأتي بعد حق الله مباشرة، وهذا رحمة من الله بالوالدين والأولاد، إذ بين الطرفين ارتباط وثيق.

32.4 الطبقة التأملية:

يدعونا القرآن إلى أن ننظر إلى علاقتنا بوالدينا على أنها تدريب روحي. فالأمر لا يتعلق بالطاعة فقط، بل بتكوين اللين، والشكر، والصبر. وبالنسبة إلى الأطفال والشباب، فإن الاحترام لا يقتصر على الطاعة اللفظية، بل يظهر أيضًا في الأفعال: أن يساعدوا في البيت من غير أن يُطلب منهم، وأن يصغوا دون خصام، وأن يُظهروا اهتمامًا بهموم آبائهم وأمهاتهم. وهذه ليست أمورًا صغيرة، بل هي صور من العبادة ذات وزن عظيم عند الله.

أما بالنسبة إلى الآباء، فمعنى السلطة ليس أداة للهيمنة، بل وسيلة للهداية. فالوالدية تقتضي الإصغاء، والدعاء للأبناء، وتوجيههم بالحكمة. وليس المقصود منها أن تُملى عليهم الأحلام والاختيارات، بل أن يُعلَّموا كيف يتخذون قراراتهم بأنفسهم ضمن إطار التقوى. وكما خاطب لقمان ابنه بكلمات مفعمة بالمحبة، هكذا ينبغي للوالدين أن يخاطبوا أبناءهم: لا بالضغط والخوف، بل بالحكمة والثقة.

والطريق السليم إذًا هو الاحترام المتبادل. فالأبناء يواصلون الإحسان، حتى إذا كان الوالدان صعبين أو قاسيين، لكن الوالدين عليهم أن يدركوا أن أبناءهم ليسوا ممتلكات. وبهذا تنشأ مساحة لعلاقة سليمة يكون الحب فيها هو المركز، ولا يُستخدم الدين فيها سلاحًا، بل مصدرًا للسكينة.

ويعلمنا القرآن التوازن والعدالة. فالآيات من سورة الإسراء ولقمان توضح أن احترام الوالدين لا يعني أبدًا أن تقبل الظلم. والحديث الذي تكرر فيه الأم ثلاث مرات يجب أن يُفهم في سياق الشكر، لا بوصفه ظلمًا هيكليًا للأب. وكما رأينا، فإن أحاديث أخرى تؤكد على مكانة الأب والأم معًا، وعلى أن رضا الله مرتبط بحسن التعامل معهما كليهما.

فما الموقف الصحيح إذًا؟

1. الاستمرار في تقديم الرعاية والاهتمام، حتى إذا كان الوالدان بعيدين عاطفيًا أو شديدين، ولكن ضمن حدود ما يمكن للإنسان تحمله.
2. لا خضوعًا مطلقًا، بل حفظًا للحدود الشخصية مع تقوى وحكمة، خصوصًا عند البلوغ والرشد.
3. والجرأة على فتح حوارات عن الفرق بين الثقافة والدين، وفتح أبواب الترميم، من غير الخضوع لتوقعات غير صحية.

وقد قال الإمام الغزالي كلامًا جميلًا في هذا المعنى:

"إذا أمرك والداك بمعصية الله، فارفض بأدب. وإذا سخروا منك، فاصبر باحتمال. وإذا هجراك، فاستمر في الدعاء لهما بالمغفرة" فالقاعدة الشرعية تقول: لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق".

32.5 الخاتمة:

إن العلاقة مع الوالدين من أعمق الروابط التي أقرّها الإسلام وصانها. ويتكرر في القرآن والسنة التأكيد على أن حُسن التعامل مع الوالدين مفتاح من مفاتيح رضا الله. لكن هذا لا يعني أن للوالدين سلطة مطلقة على كل جوانب حياة أبنائهما. فالإسلام لا يطلب منا طاعة عمياء، بل مسؤولية محترمة قائمة على البر.

والاتجاهات المتطرفة التي نراها اليوم، من أبناء متمردين بلا حدود من جهة، وآباء وأمهات يستعملون النصوص الدينية للتحكم من جهة أخرى، تكشف أن التوازن قد ضاع. فالطرف الأول يدمّر الاحترام، والطرف الثاني يدمّر الاستقلال النفسي.

لكن الإسلام يدلنا على طريق الوسط:

- الوالدان يستحقان المحبة، والخدمة، والشكر، حتى لو كانا ممن يتصفون بالشدة والصعوبة.
- والأبناء يستحقون الحماية من الإساءة النفسية، العاطفية، الروحية، حتى لو صدرت من الوالدين.
- وعلى المجتمع كله أن يتحمل مسؤوليته في تعليم هذا التوازن، عبر الخطب، والتربية، والقدوة.

لذلك أكد القرآن الكريم على الرحمة بهما في قوله تعالى: "**رَبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا**".

وهذه هي الخلاصة: الاعتراف بالفضل، والعفو، والحفاظ على قلب نقي، حتى حين تكون العلاقة صعبة.

الفصل 33 (الثقافة مقابل الإسلام) بين العادة والوحي:

33.1 الملاحظة:

بصفتي خبيرًا في الإسلام، كثيرًا ما أُدعى إلى المدارس وإلى لقاءات الحوار بين الأديان والرؤى الحياتية المختلفة. وأكثر ما يلفتني في كل مرة هو دهشة الناس حين أتحدث عن الإسلام الحقيقي، إسلام القرآن والسنة. فصورتهم عن الإسلام نادرًا ما تأتي من الوحي نفسه، بل تتشكل غالبًا من خلال المسلمين الذين يعرفونهم، وهؤلاء يكونون في كثير من الأحيان مشبعين بتأثيرات ثقافية عميقة. ولذلك أقول دائمًا: "**لا تنظر إلى المسلم، بل انظر إلى الإسلام**".

نحن نعيش اليوم في زمن أصبحت فيه الثقافة في كثير من الأحيان أكبر من قوانين وأحكام القرآن. فالقواعد والتوقعات لا تُحدَّد بما يأمر به القرآن، بل بما تفرضه العائلة، أو المجتمع، أو العرف. والزواج مثال مؤلم على ذلك. فبدل أن يُبحث عن الإيمان وحُسن الخُلق، كما علّمنا النبي ﷺ، يفرض الآباء شروطًا ثقافية مثل: يجب أن يكون جزائريًا. لا نريد أمازيغيًا، بل عربيًا فقط. لا نريد إفريقيًا. وحتى داخل البلد الواحد، كما في المغرب أو باكستان، تُمنع الزيجات بسبب الانتماء العرقي أو اللغوي. وفي بعض الأسر التركية، يُطلب من الشاب أن يدخر خمسين ألف يورو لإقامة حفل زفاف، وكأن هذا هو معيار النضج. فإذا لم يملك هذا المبلغ، قيل إنه غير جاهز بعد، حتى لو كان يصلي الصلوات الخمس ويتحمل المسؤولية.

والأمر نفسه نجده في الموت، والولادة، والعلاقات الاجتماعية. فبعض العائلات تفرض ختمات قرآنية في اليوم الثالث، أو تُجبر النساء على ارتداء لباس الحداد أربعين يومًا، أو تضع السكر في فم المولود، أو ترى أن الضيف الذي لا يأكل ثلاث مرات قد أساء الأدب. بعض هذه العادات قد يكون بريئًا، وبعضها جميلًا فعلًا. لكن المشكلة تبدأ حين تصبح هذه العادات أهم من الواجبات الدينية نفسها، وهنا يقع الخلل.

لقد حذرنا الله سبحانه وتعالى في القرآن الكريم من هذه الظاهرة. فعندما كان الرسل يدعون أقوامهم إلى التوحيد والعبادة الخالصة، كان جوابهم في كثير من الأحيان: ﴿**بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا**﴾[379]، ﴿**إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون**﴾[380]. وهذا الموقف لا يزال يتكرر عبر الزمن. فحتى اليوم

[379] سورة البقرة، آية (170).

[380] سورة الزخرف، آية (23).

يتمسك بعض المسلمين بعادات لا أصل لها في الوحي، ومع ذلك تُفرض على الناس وكأنها من الدين. وقد جاء النبي ﷺ تحديدًا ليكسر هذه القيود؛ كسر الأصنام، لكنه كسر أيضًا القيود الثقافية التي تستعبد الإنسان بدل أن ترفعه. والسؤال الجوهري الذي ينبغي أن نطرحه على أنفسنا هو: **متى نطيع الثقافة، حتى إذا خالفت توجيهات الله؟ وهل نملك الشجاعة للاعتراف بذلك؟** فربما يكون أكبر الأصنام أحيانًا ليس من حجر أو خشب، بل من عادة مترسخة.

إن القرآن الكريم يعلّمنا التوازن. فالثقافة يمكن أن تكون جميلة ما دامت خادمة للوحي. أما إذا صارت الثقافة أكبر من أحكام القرآن الكريم، وإذا أصبحت التقاليد أهم من السنة النبوية، فهنا يصبح من واجبنا أن نكسر العادة ونعود إلى الوحي. ولهذا يريد هذا الفصل أن يسلط ضوءًا واضحًا على هذا الخط الفاصل. إنه يريد أن يعيد القارئ من العادة إلى القرآن، ومن التقليد إلى التقوى، ومن الناس إلى الله. لأن الإسلام لا يصبح صافيًا، ومحررًا، ومصدرًا حقيقيًا للسكينة، إلا قام بذلك ونفذه على أرض الواقع.

33.2 الآيات القرآنية:

الآية الأولى: قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ**﴾[381]

• يؤكد ابن عاشور أن الله يعترف هنا باختلاف الناس في الأعراق والانتماءات، لكن ليس ليكون ذلك مصدر فخر أو إقصاء. فالقيمة الحقيقية الوحيدة عند الله هي **التقوى**.

• ويذكر القرطبي أن هذه الآية تنطبق بشكل خاص على الزواج، حيث يقدّم كثير من الآباء النسب والأصل على الدين، مع أن النبي ﷺ قال: "**إذا جاءكم من ترضون دينه وخلقه فزوجوه**"[382].

• ويقول الرازي إن هذه الآية ترفض العنصرية والقومية العرقية رفضًا كاملًا. فالشعوب والقبائل خُلقت للتعارف والتعاون، لا لإذلال الآخرين أو رفضهم.[383]

---

[381] سورة الحجرات، آية (13).

[382] سبق تخريجه صفحة (130).

[383] انظر: الجامع والتحرير ومفاتيح الغيب، تفسير سورة الحجرات.

الآية الثانية: قال تعالى: ﴿**وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا**﴾[384]

• يسمي ابن عاشور هذا جوهر الجمود الثقافي: فالناس يفضلون العادة على الوحي، حتى لو كانت تلك العادة بلا دليل ولا حكمة.

• ويلاحظ الرازي أن الأمر أعمق من مجرد عناد؛ إنه تعلق نفسي عميق بالتقليد، حتى عندما يكون خاطئًا.

• ويحذر القرطبي من أن التقليد الأعمى للثقافة قد يقود إلى الشرك، والبدع، والانحراف عن الدين الصافي. ويقول: "**كل عادة تحل محل فريضة، فهي فتنة**".[385]

33.3 التأمل في الحديث:

الحديث: قال النبي ﷺ: "**لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ مَن كَانَ قَبْلَكُمْ، شِبْرًا بِشِبْرٍ، وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ، حَتَّى لَوْ دَخَلُوا جُحْرَ ضَبٍّ لَاتَّبَعْتُمُوهُمْ**".[386]

التأمل: يبين هذا الحديث كيف يمكن للأمة أن تنزلق إلى تقليد ثقافات الآخرين، وعاداتهم، وصيحاتهم، تقليدًا أعمى، حتى عندما تكون هذه الأمور مدمرة. وهو يحذرنا من استيراد العادات غير الإسلامية من غير بصيرة ولا ضوابط. ويذكر ابن حجر أن هذا يشمل الممارسات التي أصلها ثقافي، لكنها تصطدم بالوحي، مثل اللهاث وراء المكانة، والمبالغة في معايير اللباس، والإسراف في الأعراس، ونحو ذلك.

المعنى العام للحديث: إخبار بما يكون عليه حال الأمة في فترة من الفترات، بعد زمن النبي ﷺ، وهي متابعة أهل الأهواء والبدع من اليهود والنصارى الذين بدلوا دينهم، والسنن: هي الطريقة والأفعال، والمعنى أنكم تتبعون طريقة اليهود والنصارى في أفعالهم وحياتهم متابعة دقيقة شديدة تاركين سنة النبي ﷺ.

33.4 الطبقة التأملية:

هذه الآيات والأحاديث تواجهنا بسؤال غير مريح، لكنه ضروري: **هل نعيش فعلًا بما أنزل الله، أم بما يتوقعه منا الناس؟**

---

[384] سورة البقرة، آية (170).

[385] انظر: الجامع والتحرير ومفاتيح الغيب، تفسير سورة البقرة.

[386] صحيح مسلم، حديث رقم (2669).

فالواقع يكشف أن كثيرًا من المسلمين يرتبون حياتهم وفق رموز ثقافية. فنحن نلبس، ونتزوج، ونحزن، ونحتفل، بل وحتى نطلّق، بطرق يحددها العرف أكثر مما يحددها القرآن والسنة. وغالبًا لا نسأل أنفسنا أصلًا إن كانت هذه العادات منسجمة مع الوحي أم لا. والأسوأ من ذلك أن من يحاول بالفعل أن يتبع القرآن والسنة قد يُنظر إليه باستغراب، أو حتى يُنتقد، لأنه خرج عن الجماعة أو ليس منسجمًا مع المجتمع. لكن الإسلام ليس ثقافة. الإسلام هداية من فوق، أما الثقافة فغالبًا ما تكون ضغطًا من حولنا. وهذا لا يعني أن الثقافة خطأ في ذاتها. على العكس، فكثير من العادات جميلة وغنية، ما دامت لا تخالف الوحي. إنما تبدأ المشكلة حين تحل الثقافة محل كلام الله، ويصبح صوت المجتمع في قلوبنا أعلى من صوت القرآن. فالموقف الصحيح ليس رفض الثقافة بالكامل، بل **إخضاع الثقافة للوحي**. وهذا يحتاج إلى تفكير نقدي، وإلى شجاعة.

إشارات عملية لتحقيق هذا التوازن:

***عرض كل شيء على القرآن والسنة:** اسأل نفسك عند كل عادة أو طقس: هل لهذا أصل في القرآن والسنة أم أنه مجرد تقليد؟

***احتفظ بما هو حسن:** العادات التي تحمل جمالًا، واحترامًا، وتماسكًا اجتماعيًا، ولا تصطدم بالإسلام، يمكن الاحتفاظ بها.

***تجرأ على ترك ما هو فاسد:** إذا كانت العادة تؤدي إلى ضغط مالي، أو ظلم اجتماعي، أو تشويه للدين، فواجبنا أن نقدّم قول الله على قول: هكذا نفعل دائمًا.

***تحدث بحكمة:** كسر العادات يحتاج إلى رفق وحكمة. فالناس أحيانًا يكون تعلقهم بالعادات أشد من تعلقهم بالمال. فتكلم بصبر، وعلم، وقدوة.

***افتح المجال للتجديد:** الهوية الإسلامية ليست جامدة. يمكننا أن نطوّر عادات تناسب زماننا ومكاننا، ما دام الوحي هو الذي يقود. فالرسالة واضحة: **الثقافة خادمة، وليست مشرِّعة.** فإذا كانت منسجمة مع القرآن والسنة فهي إثراء، أما إذا زاحمت الوحي أو اللغة، فإنها تتحول إلى صنم في القلوب. وعندها يجب أن نملك الشجاعة للرجوع إلى الوحي، حتى لو عنى ذلك مخالفة ما اعتاده الناس.

33.5 الخاتمة:

إن التوتر بين الثقافة والوحي ليس نقاشًا نظريًا، بل واقع يومي نعيشه. فكل زفاف، وكل طقس جنازة، وكل توقع اجتماعي، يعيد طرح السؤال نفسه علينا: هل أتبع الله تعالى، أم أتبع الناس فقط؟ الإسلام لا يطلب منا أن ننقطع عن الثقافة من حيث هي ثقافة، بل يطلب منا أن نعيد ترتيب الأولويات. فالعادات الجميلة يمكن أن

تبقى، ما دامت تخدم القرآن. لكن إذا احتلت الثقافة مكان الوحي، صار من واجبنا أن نختار الله على العادة. لقد جاء الإسلام نورًا في ظلمات التقاليد. والنبي ﷺ حرر قومه من العنصرية، وعبادة الأسلاف، والتقليد الأعمى. واليوم نحن نعيش الصراع نفسه من جديد، ولكن هذه المرة داخل مجتمعاتنا نحن. ومن أراد أن يفهم الإسلام حقًا، فعليه أن يتعلم كيف يميز بين الدين والعادة، وبين القرآن والثقافة. وهذا يبدأ حين نمتلك الشجاعة لننظر بنقد إلى ما أصبحنا نعدّه بديهيًا. فليس كل ما فعله الآباء خطأ. لكن ليس كل ما فعله الآباء صحيحًا تلقائيًا.

الفصل 34 (المسجد) بين الجماعة والفراغ:

34.1 الملاحظة:

بوصفي شخصًا يصلّي يوميًا في المسجد ويزور المساجد في أنحاء العالم، تعلّمت أن أتعرف على نمط مؤلم يتكرر: كثير من المساجد بُنيت ليُصلّى فيها، لكنها لم تُبنَ ليُعاش فيها. عندما أجريت، بتكليف من الوزير الفلمنكي، بحثًا حول إمكانية إنشاء تكوين للأئمة في فلاندرز[387]، زرت أكثر من عشرة مساجد لإجراء مقابلات وملاحظات. وما سمعته ورأيته هناك أكد ما كنت أعلمه منذ زمن: أغلب مساجدنا ليست جاهزة للمستقبل. فرؤساء الجمعيات والأئمة، وغالبًا من الجيل الأول، ينظرون إلى المسجد على أنه مكان لأداء الصلوات الخمس، وتعليم القرآن بالعربية، وتنظيم إفطار من حين إلى آخر. أما ما هو أكثر من ذلك؟ فصعب. بل يكاد يكون مستحيلًا. أتذكر مثلًا كيف أردت في غنت أن أقدّم محاضرة باللغة الهولندية للشباب. وبالكاد حصلت على إذن. وكانت الرسالة واضحة: الشباب ليسوا أولوية. والمفارقة أن أبناء أولئك الرؤساء أنفسهم هم في كثير من الأحيان من لم يعودوا يُرَون في المسجد، أو الأسوأ من ذلك، من ساروا في الطريق الخطأ تمامًا. كثير من المساجد تعمل كأنها نوادٍ قروية مغلقة، يديرها أشخاص يحملون عقلية متجذرة من بلد المنشأ. أما التغيير؟ فلا يأتي إلا إذا استطاع أحد من الجيل الثاني أن يشق طريقه إلى الإدارة. ولا أنسى كيف بدأت ذات يوم بترجمة خطبة الجمعة للشباب، فأراد أحد الرؤساء أن يُوقِفني أثناء الخطبة. ولم يُمنع ذلك إلا بفضل أخ من الجيل الشاب.وهذا مشهد نراه في العالم كله: حماس قليل، لا رؤية، لا ديناميكية. كل شيء يبقى كما هو. بل إن بعض المساجد تُدار أحيانًا كأنها أجهزة سياسية. يتمسك الرؤساء بسلطتهم بشدة، ولا يُعطى الشباب أي صوت. أما الأئمة، فكثيرًا ما يُرسَلون من بلد الأصل، فلا يتحدثون اللغة المحلية، ولا يعرفون السياق الذي يعيش فيه الناس، وينقلون الدين وكأنهم ما زالوا في قرية الأمس. ولعل أكثر ما يؤلم هو الصمت عن فلسطين. ففي كثير من المساجد لا تسمع كلمة عن غزة. لا خطبة، ولا دعم، وأحيانًا حتى لا دعاء لماذا؟ لأن المسجد

[387] فلاندرز: الجزء الشمالي الناطق بالهولندية من بلجيكا، ويطلق على كل ما يرتبط بها بالفلمنكية.

مرتبط بدولة لها علاقات وثيقة بإسرائيل، فيُتجنب الموضوع. أما نحن فنتحدث عنه كل أسبوع، ما دامت الإبادة مستمرة. وأنا أعتقد أن على كل إمام، وعلى كل مسجد في العالم، أن يرفع صوته. فغزة ميزان لاختبار أخلاقنا. والنتيجة المؤلمة تظهر بوضوح. فلا تُنظَّم دروس تفسير، فتبقى الجماعة لا تفهم كلام الله إلا في حدود التلاوة. ولا يوجد تعمق لاهوتي يطعم القلوب ويشحذ العقول. ولا توجد أنشطة شبابية ترافق الجيل القادم وتحميه من عواصف الشك، والعلمانية، والإغراء. ولا يوجد إسناد اجتماعي يدعم الأسر في أزماتها ويمنح الفقراء والضعفاء مكانًا للأمل. ولا يوجد تعليم يستجيب لحاجات المجتمع وتحديات العصر. وما يبقى هو قشرة فارغة: مساجد ومؤسسات لها جدران، لكن قليلًا من المضمون، وجماعات تحمل التقاليد، لكنها تكاد تخلو من الرؤية. وهذه المشاهد والأنماط نراها في العالم كله. وهكذا ينشأ الشباب في الشارع، بعيدًا عن المسجد. وكثير من الشباب لا يعرفون أصلًا ماذا يفعل مسجدهم. وبدل أمة قوية واحدة، نرى في غنت أكثر من عشرين مسجدًا، منقسمًا بحسب الأعراق، ولكل واحد مجلسه، وفخره، وجدرانه. الجميع يريد أن يبني. الجميع يريد مكانًا خاصًا به. لكن مَن الذي يبني الإنسان؟ في أمريكا رأيت الصورة مختلفة. كانت المساجد هناك مراكز تعليمية. كانوا يفكرون بلغة الرؤية، والجماعة، والشباب، والاستقلال المالي. بل اشتروا أراضي لإنشاء قرى إسلامية. ونحن هنا؟ نحن نبني الحجر. وهم يبنون الإنسان.

34.2 الآيات القرآنية:

الآية الأولى: قال تعالى: ﴿**إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ**﴾[388]

• يشرح ابن عاشور أن **العمارة** هنا لا تعني مجرد صيانة الجدران، بل تعني إحياء المسجد فعليًا. فمَن آمن حقًا بالله سيملأ المسجد بالعلم، والهداية، وخدمة المجتمع.

• ويؤكد الرازي أن هذه الآية اختبار روحي: فمن كان متعلقًا بالله حقًا، سيفعل أكثر من مجرد الصلاة؛ سيجعل من المسجد مكانًا للتكوين والتقدم.

• ويقول القرطبي الآية توحي أن المسجد الفارغ، وغير الفاعل، علامة على ضعف الإيمان في الجماعة.[389]

[388] سورة التوبة، آية (18).

[389] انظر: الجامع والتحرير ومفاتيح الغيب، تفسير سورة التوبة.

الآية الثانية: قال تعالى: ﴿**وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا**﴾[390]

• يرى ابن عاشور أن هذه الآية ليست تحذيرًا عقديًا من الشرك فحسب، بل تصحيحًا مؤسسيًا أيضًا: فالمسجد لله، لا لجماعة عرقية، ولا لعائلة، ولا لأيديولوجيا.

• ويقول القرطبي إن هذه الآية ترفض إساءة استعمال السلطة داخل المساجد. فمن يُدخل أناه، أو أصله، أو مصلحته السياسية إلى المسجد، فقد ظلم ملك الله المقدس.

• ويشدد الرازي على أن كل ما في المسجد، من مضمون الخطبة إلى طريقة تنظيم العمل، يجب أن يكون منسجمًا مع التوحيد والعبادة الخالصة، لا مع الهيبة الشخصية أو التفاخر[391].

34.3 التأمل في الحديث:

الحديث الأول: قال النبي ﷺ: "**أَحَبُّ الْبِلَادِ إِلَى اللَّهِ مَسَاجِدُهَا، وَأَبْغَضُ الْبِلَادِ إِلَى اللَّهِ أَسْوَاقُهَا**"[392].

التأمل: يبين هذا الحديث أن المسجد ينبغي أن يكون مكان نور، وسكينة، وارتباط، وروحانية. ويقول ابن رجب إن هذا يعني أن المسجد يجب أن يحتل مركزًا في حياة المؤمن، كما كان الحال في المدينة، حيث كان المسجد قلب العبادة، والتربية، والرعاية الاجتماعية، والقضاء، والجماعة.

المعنى العام للحديث: المساجد أحب الأماكن إلى الله سبحانه وتعالى لأنها بيت الطاعة، ومخصوصة بالذكر، وأسست على تقوى الله، وقد أضافها الله لنفسه إضافة تشريف وتعظيم. أما الأسواق فهي أماكن مبغضة لكثرة الحلف الكاذب فيها، والغش والخداع، والغفلة عن ذكر الله تعالى، وغير ذلك مما في معناه. وفي الحديث الحث على لزوم المساجد وكثرة التردد إليها طلباً لمحبة الله تعالى ومرضاته.

الحديث الثاني: قال النبي ﷺ: "**إِذَا رَأَيْتُمُ الرَّجُلَ يَعْتَادُ الْمَسَاجِدَ فَاشْهَدُوا لَهُ بِالْإِيمَانِ**"[393].

---

[390] سورة الجن، آية (18).

[391] انظر: الجامع والتحرير ومفاتيح الغيب، تفسير سورة الجن.

[392] صحيح مسلم، حديث رقم (671).

[393] سنن الترمذي، حديث رقم (3093).

التأمل: يدل هذا الحديث على أن الارتباط بالمسجد علامة على الإيمان الحقيقي. لكن ماذا لو لم يعد المسجد نفسه مكانًا جاذبًا؟ عندها يفقد وظيفته، وتفقد الجماعة قلبها.

المعنى العام للحديث: وإن كان في حكمه ضعف إلا أنه يدعو إلى فضيلة ويحث عليها، وفيه مواظبة المرء على ارتياد المساجد وحضور الجماعة هي علامة ظاهرة على صدق إيمانه. والشهادة له هنا بظاهر عمله.

34.4 الطبقة التأملية:

المسجد خُلق ليكون قلب المجتمع، لكن ذلك القلب في كثير من الأماكن لم يعد ينبض إلا بالكاد. فالقرآن يتحدث عن **عمارة المسجد** بالإيمان، والصلاة، والعلم، والخدمة، بينما نحصره نحن أحيانًا في الجدران والطقوس فقط. والنتيجة هي أن الشباب يبتعدون، والأسر لا تجد فيه سندًا، والمسجد يفقد جاذبيته.

وتحذير القرآن حاد: المسجد لله، لا لجماعة عرقية، ولا لتيار سياسي، ولا لعائلة إدارية. ومع ذلك نرى كم مرة تتحكم المكانة الشخصية، أو الثقافة، أو الأجندات الخارجية في توجيه المسجد. وما إن يحدث ذلك حتى لا يعود المسجد مصدر وحدة، بل يتحول إلى مصدر انقسام. ويُظهر الحديث أن المسجد أحب الأماكن إلى الله. لكن هذا لا يكون إلا إذا امتلأ المسجد بما يحبه الله: العبادة الخالصة، والقرآن، والعلم، والأخوّة، والرعاية الاجتماعية. فإذا بقي المسجد مجرد مكان صلاة، بلا رؤية، ولا عمل شبابي، ولا تكوين ديني عميق، فلا يمكن أن يكون البوصلة التي تحتاجها الجماعة.

ولهذا لا بد أن نرجع إلى نموذج المدينة، حيث لم يكن المسجد فقط مكانًا للصلاة، بل كان مركزًا تعليميًا، ومكان احتضان اجتماعي، وفضاءً للقضاء والجماعة. هناك تعلّم الصحابة، ونضجوا، وخدموا. وفقط عندما تعود مساجدنا إلى أن تكون من هذا النوع، سيجد الشباب طريقهم إليها، وستلجأ الأسر إليها طلبًا للسند، وستستمد الأمة قوتها من قلبها. فالسؤال ليس: هل عندنا مساجد؟ بل: هل مساجدنا تملكنا حقًا؟ هل هي فعلًا بيوت الله، أم مبانٍ يملكها الناس؟

34.5 الخاتمة:

إذا فقد المسجد وظيفته، فقدت الأمة عمودها الفقري. فالمسجد لم يُرَد له أبدًا أن يكون فراغًا من الحجر والسجاد. إنه آية من آيات الله على الأرض، ومكان تُصاغ فيه القلوب، ويجد فيه الشباب هويتهم، وتشعر فيه الأسر بالدعم، وتجتمع فيه الأمة على القرآن والسنة. وإذا تحول المسجد إلى نادٍ عرقي أو ساحة لصراع النفوذ،

فإننا لا نفقد الشباب فقط، بل نفقد روح مجتمعنا. فالقرآن يعلمنا أن الذين يعمرون المساجد حقًا هم الذين يؤمنون بالله ويخشونه. والنبي ﷺ ذكّرنا بأن المسجد أحب مكان إلى الله. وهذا يعني أن على كل جيل واجبًا في أن يعيد الحياة إلى المسجد: بالعلم، والروحانية، والرعاية الاجتماعية، والصوت الواضح من أجل العدالة. فالمساجد التي تسلك هذا الطريق ستكون مصدر قوة ووحدة. أما المساجد التي تترك ذلك، فستبقى أسيرة الجدران والتقاليد، لكنها ستفقد قلبها. ومستقبل أمتنا متعلق بالخيار الذي سنتخذه.

كان المسجد في زمن النبي ﷺ متعدد الأهداف، فيه تقام العبادات والصلوات، ومنه تنطلق قادة الجيوش الإسلامية للفتح، وفيه يُعقد على الشباب للزواج، وفيه مجالس الذكر وحلقات التحفيظ، وهو المكان الذي تسكن فيه النفس وتستقر.

الفصل 35 (حفظ القرآن والمدارس القرآنية) بين الشرف والفراغ:

35.1 الملاحظة:

عندما بدأتُ حفظ القرآن، كان عمري 23 سنة. كان لديّ أسرة، وطفل، وعمل مزدحم، ومع ذلك كنت أعلم أن هذا الطريق يناديني. لا من أجل احتفال أو لقب، بل لأنني كنت أعرف ما أريده: أن أعيش مع القرآن، لا أن أتلوه بلساني فقط، بل أن أفهمه بقلبي أيضًا. ولأنني لم أكن أتكلم العربية، كنت أتعلم في الوقت نفسه التفسير الهولندي، لكي أعرف على الأقل شيئًا مما يتحدث عنه القرآن الكريم. لكن ما كنت أراه من حولي كان في كثير من الأحيان عكس ذلك تمامًا. ففي صفي كان هناك أولاد وبنات تتراوح أعمارهم بين 10 و15 سنة يحفظون الآيات من غير أي فهم. وفي يوم من الأيام سألتُ فتى عمره 13 سنة: لماذا تحفظ القرآن؟ فأجاب بلا تردد: لأنني حينها سأحصل على حفلة كبيرة. وفي بلجيكا أرى ظاهرة متكررة: يبدأ الأطفال طريق الحفظ ثم يتوقفون مبكرًا، لأنهم لا يشعرون بقيمته الحقيقية. فيتحول القرآن إلى مسابقة، أو إلى مكانة اجتماعية، أو إلى رمز ثقافي، لا إلى دليل حي. ومن أكثر المشاهد إيلامًا أنني رأيتُ شابًا حافظًا للقرآن في ملهى ليلي، بعد أشهر قليلة فقط من إتمامه الحفظ. وهذا يحدث في أنحاء العالم: يُمدَح الشباب بوصفهم حفاظًا، ثم يفقدون بعد ذلك كل صلة بما حفظوه. وفي عملي كمتخصص في العلوم الإسلامية، لاحظت كذلك النقص الشديد في الربط بين الحفظ والفهم. فأحد المتطوعين المخلصين في منظمتنا في الكاميرون[394]، والمعروف عالميًا، لم يكن قادرًا على شرح تفسير الفاتحة. وعندما أشرتُ له إلى ذلك، تحدث مع والده، فأعطاني والده الحق: نحن بحاجة إلى أن نركز أكثر على الفهم، لا على التلاوة وحدها. ومن المشاكل المتجذرة أيضًا المنهج التربوي في بعض

[394] الكاميرون: دولة تقع في وسط الغرب الإفريقي، وغالباً ما يشار إليها باسم إفريقيا المصغرة للتنوع الجيولوجي والثقافي وأكبر مدن الكاميرون مدينة دوالا وياوندي، تعد الموطن لأكثر من 200 مجموعة لغوية مختلفة.

المدارس القرآنية. ففي إفريقيا، وآسيا، بل وحتى عند بعض الأجيال السابقة في أوروبا، كان استعمال العصا أو العقاب الجسدي أمرًا عاديًا في تعليم القرآن. فنشأ الأطفال وهم يخافون من الشيخ، وينفرون من المسجد، ويكرهون الكتاب الذي أُجبروا على حفظه. وفوق ذلك، قمتُ ببحث ميداني علمي في عشر مساجد في بلجيكا. ومن أبرز ما ظهر فيه أن أكثر من 50% من الآباء كانوا يستعملون مدارس الأحد[395] أو الكتاتيب كمكان لرعاية الأطفال. لم يكونوا يعرفون تقريبًا ماذا يتعلم أبناؤهم، ولا يتابعون المضمون، وكثير منهم كانوا هم أنفسهم بالكاد يعرفون أساسيات القرآن. كانوا ينتظرون من أبنائهم شيئًا لم يقدموه هم بأنفسهم قدوةً. ومن دون قدوة تبقى الدافعية هشة وفارغة على المدى الطويل. والنتيجة؟ كثير من الأطفال يرون المسجد كقاعة لعب، والمدرسة القرآنية كحجزٍ إجباري بعد الدوام. أما الإمام، فغالبًا ما يجد نفسه أمام صفوف ممتلئة بأطفال يأتي نصفهم مكرهًا. وهذا الإحباط قد يقود أحيانًا إلى الغضب، وعندها أفهم لماذا يلجأ بعضهم إلى العصا، لكن ذلك لا يمكن أبدًا أن يكون عذرًا تربويًا.

35.2 الآيات القرآنية:

الآية الأولى: قال تعالى: ﴿**وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ**﴾[396]

• يؤكد ابن عاشور أن الله يسّر القرآن على وجه فريد: في لغته، ومضمونه، وإيقاعه، وأثره في القلب. ولفظ **للذكر** لا يعني التلاوة فقط، بل يشمل الفهم، والتأمل، والنمو الأخلاقي. وتكرار هذه الآية في السورة نفسها يدل على التشديد على مسؤولية الإنسان تجاه هذا التيسير.

• ويرى القرطبي أن الآية تشير إلى نعمة إلهية عظيمة: فالله لم يجعل القرآن عسيرًا، بل جعله ميسّرًا. ومع ذلك أعرض عنه الكثير. وتكرار الآية في السورة هو لون من ألوان الإنذار الشديد لمن يقصّر في ذلك.

• ويقول الرازي الآية دعوة إلى حركة داخلية: فهي لا تكتفي بالإخبار بأن القرآن قد يُسِّر، بل تسأل: من الذي سيستجيب لهذا العرض؟ وكلمة **مدّكر** تدل على من يطلب المعنى بنشاط، لا من يكتفي بالترديد السلبي[397].

---

[395] مدارس الأحد: لشكل عام هو اسم لأنواع مختلفة من التعليم الديني تتم أيام الآحاد بواسطة مؤسسات متعددة، ويوجد بها عدة أنواع مختلفة، وفيها تعليم للكتاب المقدس، وكذلك تحفيظ القرآن الكريم، ولكنها خاصة بتعليم الأطفال المسيحية وتعاليم الكنيسة.

[396] سورة القمر، آية (17).

[397] انظر: الجامع والتحرير ومفاتيح الغيب، تفسير سورة القمر.

الآية الثانية: قال تعالى: ﴿**كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا ٱلْأَلْبَٰبِ**﴾[398]

• يؤكد ابن عاشور أن لفظ **ليدبروا** يبين مقصد الوحي: ليس مجرد التلاوة أو التخزين في الذاكرة، بل التعمق والتفكر. و**أولو الألباب** هم أهل العقول الذين يجمعون بين العقل والإيمان.

• ويرى القرطبي أن الأعمال التي لا تقوم على فهم لا وزن كبير لها. فالآية تبين أن القرآن الكريم أُنزل ليُهتدى به، لا ليكون مجرد مصدر شرف أو تقليد. و**التدبر** هو مفتاح النمو الروحي.

• ويقول الرازي إن بركة القرآن لا تأتي من وجوده المادي فقط، بل من أثره الأخلاقي، والروحي، والعقلي. فمن حفظ القرآن من غير أن يتدبره، فقد فاته جوهره.[399]

الآية الثالثة: قال تعالى: ﴿**وَرَتِّلِ ٱلْقُرْآنَ تَرْتِيلًا**﴾[400]

• يرى ابن عاشور أن **الترتيل** لا يعني البطء في القراءة فقط، بل التلاوة بطريقة تمس القلب وتتيح مجالًا للتفكر. فهو يتضمن الإيقاع، والتوقفات، والتأمل.

• ويذكر القرطبي أن هذا الأسلوب ليس لمجرد الجمال، بل لتسهيل التفسير، والفهم، والتأثر. أما القراءة السريعة بلا وعي، فقد تُعد حتى نوعًا من الخلل.

• ويؤكد الرازي أن النبي ﷺ أُمر بأن يقرأ القرآن بهدوء ليتمكن من فهمه ونقل معناه. وهذا يبرز البعد التعليمي والروحي في التلاوة.[401]

الآية الرابعة: قال تعالى: ﴿**مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا**﴾[402]

• يبيّن ابن عاشور أن هذه الآية تحذر من امتلاك كتاب إلهي من غير فهمه أو العمل به. فهي نقد للشكل الخالي من المضمون: فمن يحفظ الآيات لكنه لا يتخلق بها، يُشبَّه بحمار يحمل كتبًا لا يدرك قيمتها.

---

[398] سورة ص، آية (29).

[399] انظر: الجامع والتحرير ومفاتيح الغيب، تفسير سورة ص.

[400] سورة المزمل، آية (4).

[401] انظر: الجامع والتحرير ومفاتيح الغيب، تفسير سورة المزمل.

[402] سورة الجمعة، آية (5).

• ويشدد القرطبي على أن هذه الآية لا تتعلق باليهود زمن التوراة فقط، بل هي مرآة للمسلمين أيضًا، إذا كانوا يقرؤون القرآن أو يعلمونه من غير فهم أو تطبيق. فهي إنذار شديد.

• ويرى الرازي أن هذا التشبيه يراد به إظهار عبثية الرمزية الدينية إذا خلت من التغيير الداخلي. فحمل العلم بلا أثر هو فراغ، بل ومهانة[403]. إن هذه الآيات الأربع تبين أن القرآن لم يُنزَّل ليُحفَظ فقط، بل ليُفهم، ويُتدبَّر، ويُعمل به. والله يؤكد أنه يسّر القرآن، لكن لمن؟ لمن أراد أن يتعلم، وأن يتفكر، وأن يهتدي. ومن غير فهم يصبح الحفظ شكلًا بلا روح. وقد اتفق العلماء الكبار على أن الشرف الحقيقي لا يكمن في عدد الآيات المخزونة في الذاكرة، بل في مقدار ما ينفذ منها إلى القلب، وما يلهمه من عمل.

فعندما يحفظ الأطفال، بل وحتى الكبار، القرآن من غير فهم أو تطبيق، تصبح المعرفة المقدسة شكلًا فارغًا. وفي المدارس التي يُدرّس فيها القرآن بأسلوب قاسٍ وآلي، من غير مرافقة روحية أو محبة تربوية، يتحول التعلّم إلى معاناة. وعندما يفوض الآباء التربية الدينية لغيرهم من غير أن يقدموا هم أنفسهم القدوة، لا يبقى إلا التوقع بلا إلهام. وهكذا يتكون جيل يعرف القرآن بلسانه، لا بقلبه. جيل لا تجلب له المعرفة الدينية نورًا، بل فراغًا، ويغدو فيه المقدس منفصلًا عن الحياة نفسها.

35.3 التأمل في الحديث:

الحديث الأول: قال النبي ﷺ: **"خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ"[404].**

التأمل: هذا من أشهر الأحاديث وأكثرها تداولًا في المساجد والمدارس القرآنية. لكن كثيرًا ما يُختزل في الحفظ والتعليم الشكلي. وفي الحقيقة، يحمل هذا الحديث معنى أوسع بكثير. **تعلّم** لا تعني التلقي العقلي فقط، بل كذلك التشرّب القلبي والفهم الداخلي. و**علّمه** لا تعني مجرد إعطاء درس، بل أيضًا المرافقة، والإلهام، والتزكية. فخير الناس هم الذين يستقبلون القرآن في داخلهم بعلم، وتفكر، وسلوك، ثم ينقلون هذه الرسالة إلى غيرهم بحكمة ورحمة. وليسوا من يكتفون بالتلاوة، أو بتدريب الآخرين على الحفظ بطريقة جافة.

المعنى العام للحديث: خير الناس مَن جمع بين الوصفين، تعلم القرآن وعلم القرآن، فإن أفضل المسلمين وأرفعهم ذكراً وأعلاهم عند الله درجة، مَن تعلم القرآن تلاوة وحفظاً وترتيلاً وتعلمه فقهاً وتفسيراً،

---

[403] انظر: الجامع والتحرير ومفاتيح الغيب، تفسير سورة الجمعة.

[404] صحيح البخاري، حديث رقم (5027).

فأصبح عالماً بمعانيه فقيهاً في أحكامه. وفي الحديث بيان شرف القرآن وفضل تعلمه وتعليمه، وفيه بيان فضل حامل القرآن ومعلمه، وأنه خير المؤمنين لأنه أعظمهم نفعاً وإفادة.

وفي سياق هذا الفصل، يذكرنا الحديث بأن تعليم القرآن مهمة أخلاقية، وروحية، وتربوية. فهو ليس مشروع إنتاج حفاظ، بل مشروع تشكيل نفوس. وخير الناس ليس من كان أكثرهم آيات في رأسه، بل من تشكلت شخصيته، ورؤيته، وسلوكه بكتاب الله.

35.4 الطبقة التأملية:

إن مشكلة تعليم القرآن الكريم اليوم نادرًا ما تكون في غياب الدافعية، بل في غياب الرؤية والعمق. فنحن نعيش في زمن يُعامَل فيه حفظ القرآن كثيرًا على أنه إنجاز، أو كأس ثقافي، أو توقع أبوي، بدل أن يكون طريقًا إلى التحول الداخلي.

للآباء: الكثير من الآباء يريدون أن يصبح أبناؤهم حفاظًا، لكنهم هم أنفسهم غير مرتبطين بالقرآن. بالكاد يعرفون الفاتحة، ومع ذلك يسجلون أبناءهم في حلقات الحفظ وينتظرون النتائج. وبعضهم يستعمل المدرسة القرآنية كمكان حضانة. لكن كيف سيتعلم الطفل محبة القرآن إذا لم ير هذه المحبة موجودة في البيت؟

من غير قدوة، تتحول التربية الدينية إلى ضغط، والضغط يولّد المقاومة. فالطفل الذي لا يرى القرآن حاضرًا ومفتوحًا في بيته، لكنه يسمع فقط أنه يجب أن يحفظ، سيشعر مع الوقت بالغربة عن كتاب الله.

للمساجد والمعلمين: غالبًا ما يجد الإمام أو الشيخ نفسه أمام عشرين طفلًا في صف واحد، نصفهم حاضر رغمًا عنه. ومن غير دعم مؤسسي، أو تكوين تربوي، أو رؤية واضحة، يصبح تعليم القرآن تعليمًا آليًا. وعندما يطغى الإحباط، يلجأ بعضهم إلى الطرق القديمة، من صراخ أو حتى عقاب، وهي أساليب تُحدث ضررًا أكثر مما تنفع، وقد تبعد الطفل عن المسجد لسنوات.

إن تعليم القرآن لا يجوز أن يتحول إلى معسكر تدريب، بل يجب أن يكون بيئة يتعرف فيها الطفل على الله، ويبني الثقة مع الإمام، ويربط القرآن بالسكينة، والمحبة، والاتجاه.

للشباب والطلاب: الكثير يحفظون الآيات من غير أن يعرفوا معانيها. وبعضهم يصبح حافظًا لأجل الشرف، أو الحفلة، أو المكانة الثقافية، ثم ينسى مضمون ما حفظ بمجرد انتهاء الطريق. وبعضهم يصبح حافظًا ثم يدير ظهره للقرآن. الذاكرة كانت ممتلئة، لكن القلب كان فارغًا.

فالقرآن ليس مجموعة آيات تُتلى فقط، بل كتابٌ يُعاش به. ومن غير فهم، لا يكون الحفظ إلا صوتًا. ومن غير تطبيق، لا تكون التلاوة إلا صدى.

35.5 الخاتمة:

إن حفظ القرآن عمل عظيم، لكنه يجب ألّا يتحول أبدًا إلى غاية في ذاته. فالقرآن أُنزل ليضيء القلوب، ويغير الحياة، ويصلح المجتمعات، لا ليكون مجرد نص يُتلى على ألسنة أطفال لا يعرفون معناه، في صفوف يغيب عنها الروح، وبضغط من آباء لا علاقة لهم أنفسهم بكتاب الله. فآيات الله ليست مقاطع صوتية تُجمَع، بل علامات يُتوقف عندها. والترتيل الذي أمر الله به، والتدبر الذي طلبه، والتعلم الذي مدحه النبي ﷺ، كلها تشير إلى رحلة داخلية عميقة. وما نحتاجه اليوم ليس مجرد زيادة عدد الحفاظ الذين يحملون القرآن في رؤوسهم، بل إلى أناسٍ ترسخ القرآن في أخلاقهم، وسلوكهم، واختياراتهم. إن التعليم الذي يجعل القرآن في المركز يجب أن يكون رحيمًا، وهادفًا، وعميقًا روحيًا. ويجب أن يصوغ النفوس الشابة لتكون حاملة للنور، لا مجرد مقرئين من الخارج بلا صلة داخلية.

ومستقبل تعليم القرآن يكمن في:

*آباء يجب أولًا أن يكونوا هم القدوة. *وأئمة يُدعَمون تربويًا وروحيًا.
*ومدارس قرآنية تجعل الفهم أهم من مجرد الحفظ. *وشباب يتعلمون ألّا يقرأوا القرآن فقط، بل أن يجسدوه في حياتهم. *مساجد تعتني بحلقات تحفيظ القرآن فهما ومعنى.

الفصل 36 (غزة[405] ضمير الأمة):

36.1 التدمير المنظّم لغزة:

ما يحدث في غزة ليس مجرّد كارثة إنسانية عادية. وليس نتيجة فوضى أو ارتباك أو دبلوماسية فاشلة. ما نراه هناك هو استراتيجية ممنهجة للتجويع والتدمير والموت. وكل شيء يدل على أن ما يجري ليس حربًا تقليدية، بل حصارًا مخططًا بعناية يستهدف كسر شعب كامل؛ جسديًا، وروحيًا، وأخلاقيًا.

[405] غزة: مدينة ساحلية فلسطينية وأكبر مدن قطاع غزة، تبعد عن مدينة القدس 78كم، تبلغ مساحتها 56كم مما يجعلها من أكثر المدن كثافة بالسكان في العالم، يوجد بها قبر هاشم جد النبي محمد ﷺ، وعندما يطلق اسم غزة نعني به قطاع غزة حيث يضم عدة مدن وقرى ومخيمات وهي ما يحدث على أرضها الحرب الشرسة من قبل الاحتلال الصهيوني.

لا يُفرَّق بين الأهداف العسكرية والأهداف المدنية. المخابز، والمزارع، والمستشفيات، ومخيمات اللاجئين، كلها تُستهدف. ويُمنع الطعام والدواء عمدًا. بل يُستخدم الجوع نفسه كسلاح، لا لإضعاف الأجساد فقط، بل لمحو الأمل، والمقاومة، والكرامة الإنسانية.

آلاف الأطفال يعانون من سوء التغذية. والعائلات تتضور جوعًا. وحتى الصحفيون الذين يحاولون نقل الحقيقة يشعرون بنقص الغذاء في أجسادهم هم أنفسهم. غزة منهكة، لكنها ترفض أن تنحني.

ما يحدث هنا ليس خطأً. إنه تدمير متعمّد. إسرائيل تنفذه، والولايات المتحدة تموله، وأوروبا تراقب وتواصل التصرف وكأن شيئًا لم يكن. وفي الوقت نفسه، تتصرف أنظمة عربية مثل مصر والأردن كحرّاس بوابات يمنعون المساعدات ويقمعون كل أشكال التضامن.

منذ السابع من أكتوبر لعام 2023م وحتى كتابة هذه الأسطر، ومنذ بداية هذه الحرب المسعورة على غزة تم تدمير ما يقارب من 80% من بيوتها ومتاجرها ومحلاتها، ولم يتبقى إلا القليل الذي يأوي الآلاف من المدنيين، والباقي يعيشون بين البيوت المدمرة والخيام الممزقة التي لا تقي حر الشمس، ولا تحمي من برد الشتاء القارس، استشهد الآلاف من أهل غزة تحت الضربات القاتلة من الصواريخ المتنوعة التي كانت تنزل بالأطنان فتحول الشهداء إلى أشلاء، أجساد ممزقة، وجوه مختلفة، جثث متفحمة، وجثث أخرى تبخرت بفعل المواد السامة والمذيبة، آلاف الشهداء دُفنوا، والآلاف لم يتم العثور عليهم إما تحت الردم الذي يصعب البحث فيه لقلة الإمكانيات وإما بسبب تبخر الأجساد. الآلاف من الإصابات البالغة الخطورة، وإصابات البتر في الأطراف، وتشوهات بسبب الحروق، الآلاف أيضاً داخل زنازين الصهاينة يذوقون شتى أنواع العذاب والتنكيل الذي لا يوصف ولا يُكتب، العشرات تحت مسمى **مفقود** لا يُعلم مصيره أين؟ المئات من العائلات التي مُسحت من السجل المدني، استهدافات مباشرة للدفاع المدني، والطواقم الطبية، استهدافات متعمدة للطواقم الصحفية، كل هذا من أجل محو الحقيقة وتغييبها عن الرأي العام، الآلاف من الأيتام أصبحوا لا يجدون مَن يقف إلى جانبهم ويساعدهم بعد استشهاد أهلهم. ومن ثَم استخدام الإعلام الصهيوني لبث قصص مزيفة وواقع مخالف تماماً لما هو على أرض الواقع، لإظهار ذلك للعالم بأنهم الفئة المستضعفة وأنه يصيبهم الظلم وهم أصحاب الأرض كما يدعون.

هنا تنقلب الحقائق ويظهر الزيف والكذب في حديثهم وإعلامهم، فيصدقهم المتآمر معهم، ويسير على هواهم ويهز برأسه لتأييدهم، ومنهم مَن يدعمهم بالأسلحة المتنوعة، ومنهم مَن يدعمهم بالمال، وهناك مَن يفتح مجالاته الجوية والبرية لمساعدتهم، بل ويُغلق البوابات والممرات التي تمر منها المساعدات والمواد الطبية لشعب غزة المنتصر بإذن الله.

لقد فشلت الدبلوماسية الدولية، بل أكثر من ذلك: لقد تخلّت عن غزة. وصارت المساعدات تُعامَل وكأنها موضوع تفاوض، مع أنها في القانون الدولي حق أساسي. غزة لم تُنسَ. بل تُركت عمدًا.

غزة مرآة. وما نراه فيها ليس فقط ألم شعب، بل أيضًا خزي العالم.

ونحن في "Gardens of the Sincere "لا نعمل مع شبكات مجهولة أو تقارير ورقية. حاولنا التواصل مع أحد الأشخاص في غزة يكون هو دليلنا هناك حتى أكرمنا الله سبحانه وتعالى بأخ فاضل من **جباليا**[406] فلدينا أشخاص حقيقيون على الأرض. وأحدهم هو **محمد البرش** من جباليا في شمال غزة. ليس مجرد جهة اتصال، بل أخ من القلب. شخص يظهر لي في أحلامي، لأنه هناك... ونحن هنا.

هو المسؤول عن مشاريعنا في غزة. نحن نرسل الأموال عبر طرق غير مباشرة، وهو يشتري محليًا ما هو متاح. أحيانًا يدفع أسعارًا باهظة جدًا في أوقات الحصار، وأحيانًا يستطيع الشراء بشكل طبيعي أثناء هدنة مؤقتة. منذ 7 أكتوبر 2023، وبعون الله، جمعنا وأنفقنا أكثر من **500,000 يورو** من أجل غزة. نشرنا مقاطع مصورة، وتحديثات، ومشاهد من الواقع. لكن رغم كل هذه الجهود، هناك شيء يؤلمني أكثر من معاناة غزة نفسها: **صمت الأمة**.

صمت الأمة يسألني بعض الناس: كيف تُدخلون المساعدات؟ أليس كل شيء مغلقًا؟ وكأن الشك في الوسائل اللوجستية أصبح سببًا لإغلاق القلب. ويقول آخرون: لم أعد أستطيع النظر. لم أعد أحتمل تلك المشاهد المروعة. ثم يواصلون التمرير إلى مقاطع القطط، والرياضة، والمكياج، والفكاهة. ما أراه مؤلم. كثير من المساجد تبقى صامتة أو تبقي خطبها سطحية. والمدارس لا تنظّم شيئًا. لا دروس، ولا توعية، ولا دعاء جماعي. وحتى في البيوت لم يعد يُتحدث عن غزة. حلّت محلها الحفلات، وخطط العطل، والأحاديث الفارغة. والإعلام يتحمل نصيبه من المسؤولية: تُذكر الإبادة، لكنها تُغرق فورًا تحت توافه الأمور، كحريق على منصة Tomorrowland، أو مسلسل جديد على Netflix.

المقاطعة هي الحد الأدنى المقاطعة لن تحل الصراع، لكنها مع ذلك خيار أخلاقي واضح. وأنا أفهم أن تجنب كل العلامات التجارية والشركات المرتبطة ليس أمرًا سهلًا. فنحن نعيش في عالم معولم مليء بالشركات التابعة والتشابكات. لكن بعض الشركات، مثل **McDonald's** و**Starbucks** و**Coca-Cola**، جعلت

[406] جباليا: مدينة فلسطينية تقع في شمال قطاع غزة، تتبع إلى محافظة شمال غزة، ويقع مخيمها على مقربة منها، وتعتبر بلدة النزلة جزء منها، وجباليا تعني أزاليا باللغة الرومانية وهي منطقة زراعية جميلة جداً حيث وصفها النابلسي بقوله: هي بلدة لطيفة الهواء، عذبة المياه، في أهلها الصلاح، ومحاسن الملاحة، يوجد بها مسجد العمري نسبة إلى الخليفة عمر بن الخطاب. تم تدمير جباليا أثر العدوان الغاشم والحرب الشرسة التي بدأت على قطاع غزة منذ السابع من أكتوبر عام 2023م، دُمرت بيوتها ومساجدها واستشهد خيرة شبابها، وتشتت أهلها هنا وهناك دون مأوى.

دعمها لإسرائيل واضحًا إلى درجة لا يمكن تجاهلها. ومع ذلك أرى أثناء العمرة مسلمين، وكثير منهم بلباس إسلامي، يدخلون إلى ستاربكس. وماكدونالدز ممتلئ، على مرمى حجر من الكعبة. فماذا نفعل بأنفسنا؟

والشيء نفسه أراه في طنجة[407]، وكوالالمبور[408]، وإسطنبول، ودبي[409]، وجاكرتا[410]... والقائمة طويلة.

وعندها أسأل نفسي: ماذا أصبحت أمتنا؟

في أنتويرب، في شارع **Abdijstraat**، ما تزال محلات تُسمّى "مسلمة " تبيع Coca–Cola وغيرها من منتجات شركات تدعم إسرائيل علنًا. وذلك في الوقت الذي تظهر فيه على هواتفنا صور أطفال هزلي يموتون من الجوع. هل أصبحت هذه المنتجات أهم من إخواننا وأخواتنا؟

قال النبي ﷺ: "**والله لا يؤمن، والله لا يؤمن، والله لا يؤمن، قيل: ومَن يا رسول الله، قال: الذي لا يأمن جاره بوائقه**"."[411]. والبائقة: الداهية والشر والفتك والبلية والظلم والجور، ففي الحديث أن المؤمن لا يبلغ الإيمان الكامل حتى يمنع أذاه وضرره عن جاره، وقال في حديث آخر: "**ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه**"[412]. في الأحاديث التشديد على حفظ الجار من الأذى والضرر، وفيها أن أمان الجار من كمال الإيمان، وبلوغ أعلى درجاته، اليوم، والحث على التعاون بين المسلمين.

غزة هي جارتنا، وهي مسلمة جائعة فما يُسمح له بالدخول لا يفي متطلبات أُسر مشتتة في خيام غزة، هي بحاجة لوقفة أمة تصحو من سباتها العميق، أما آن لهذه الأمة أن تستيقظ؟ أما آن لها أن تعود إلى مجدها وعزها؟ أما آن لها أن تسند بعضها بعضاً فتنصر المظلوم، وتقف في وجه الظالم؟ أفيقوا يا أحرار الأمة فلا تتركوا غزة تُباد وأنتم الجيرة والعشيرة والدم والعروبة...!!!

حض الإسلام على المؤاخاة والألفة والمواساة بين المؤمنين، وأن يكونوا متكاثفين مثل الجسد الواحد، لذلك نجد النبي ﷺ استخدم أسلوب التشبيه، وضرب الأمثال للناس لتقريب المعاني للأفهام، وذكر الأحاديث التي فيها اهتمام المسلمين بعضهم ببعض في جميع شؤونهم. كما جاء في حديث النبي ﷺ إن الأمة كالجسد الواحد، إذا

---

[407] طنجة: مدينة مغربية تقع شمال المملكة المغربية، تتميز بأنها نقطة التقاء بين البحر الأبيض المتوسط والمحيط الأطلسي من جهة، ومن جهة أخرى التقاء بين القارة الإفريقية والقارة الأوربية، واحدة من أهم مراكز التجارة والصناعة في شمال أفريقيا.

[408] كوالالمبور: عاصمة ماليزيا وأكبر مدينة فيها، وتقع في جنوب شرق آسيا.

[409] دبي: مدينة تقع على الساحل الجنوبي الشرقي للخليج العربي، وهي واحدة من الأمارات السبع التي تشكل الدولة، وتعتبر المدينة الأكثر اكتظاظاً بالسكان في الإمارات العربية المتحدة.

[410] جاكرتا: عاصمة أندونيسيا وتعتبر المدينة الأكثر اكتظاظاً بالسكان، أصبحت المدينة ميناء تجارياً مهماً.

[411] صحيح البخاري، حديث رقم (6016).

[412] صحيح مسلم، حديث رقم (2624).

اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد. "**مثل المؤمنين في توادهم، وتراحمهم، وتعاطفهم، مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى**"[413]. لكن الكثير اليوم يظهرون وكأنهم مخدَّرون روحيًا، كأن قلوبهم لم تعد تشعر بالألم.

قد لا يستطيع الإنسان العادي أن يوقف صاروخًا، لكنه يستطيع أن يقرر أين يذهب ماله. كل يورو هو صوت. فهل تعطي صوتك للظالم، أم تستخدمه لدعم الخير؟ المقاطعة ليست بطولة. إنها الحد الأدنى المطلق.

ما الذي يستطيع الأفراد فعله؟

قد لا نستطيع تغيير الحكومات أو إيقاف الدبابات. لكننا نستطيع أن نفعل شيئًا.
أن نكتب منشورًا. أن ننتج فنًا ناطقًا. أن نشارك الأخبار. أن نرسل رسالة إلى سياسي.
أن ننظم احتجاجًا أو نشارك فيه. أن نترك وجبة تضامنًا. أن نتبرع. أن ندعو.
وفوق ذلك كله: **ألا نصمت**. الصمت ليس حيادًا. الصمت اختيار. وفي هذه اللحظة، الصمت تواطؤ.

السكوت أم الكلام؟

في هذا الزمن، زمن الإبادة والظلم، أسمع أيضًا هذا النقاش: هل يجوز الاحتجاج؟ هل يجوز انتقاد القادة المسلمين؟ بعضهم يستشهد بنصوص كلاسيكية عن الطاعة، ووحدة الصف، وتحريم الخروج. لكنهم غالبًا ينسون الفرق بين التمرد المسلح وبين النقد السلمي.

فالإسلام ينهى عن الفتنة، والفوضى، والتمرد على الحكام الذين يقيمون العدل ويقيمون الصلاة. لكن هذا شيء، والصمت على الظلم، أو الفساد، أو التواطؤ في قتل الأبرياء شيء آخر تمامًا. قال النبي ﷺ: "**أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر**"[414]. هذا ليس نداءً إلى السلاح، بل إلى الشجاعة. إلى قول الحق، حتى وإن كان ذلك مؤلمًا. إذا كان القادة في الشرق الأوسط يوقعون صفقات بمليارات الدولارات مع أعداء الأمة، أو يمنعون المساعدات، أو يتجاهلون موتى غزة، فإن الصمت ليس فضيلة. بل يصبح الكلام واجبًا.
والجائر هو الظالم، جعل الله تعالى أجر مَن يأمره بالعدل والمعروف وينهاه عن المنكر أنه في أعلى مراتب الجهاد وذلك أن ولي الأمر لو أخذ بكلمته لربما عم النفع عدداً كبيراً من الناس فتحصل المصلحة والمنفعة.

[413] صحيح البخاري، حديث رقم (6011).
[414] سنن أبي داود، حديث رقم (4344).

وقال ابن القيم: "الشريعة مبناها على العدل، والرحمة، والمصلحة، والحكمة. فما خرج عن ذلك فليس من الشريعة، وإن أُدخل فيها بالتأويل"[415].

وقال النبي ﷺ: **"من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان"**[416]. فإذا كان مسموحًا لنا أن نتكلم، ثم اخترنا الصمت، فماذا يقول ذلك عن يقيننا؟ في الحديث الأمر بالتدرج في المعروف والنهي عن المنكر، كل بحسب استطاعته وقدراته، وكذلك مشروعية الإنكار على ولاة الأمور إذا لم تحدث مضرة.

المنبر الذي فقد صوته

ولعل ما هو أشد إيلامًا من القنابل على غزة هو الصمت في مساجدنا نحن. فقلة من الأئمة تجرؤ على الكلام عن فلسطين في خطبهم. وقلة من المساجد تنظم حملات تبرع. وقلة من الأدعية تُرفَع بإخلاص وقوة. المنبر، منصة الخطاب في المسجد، وُضع ليوقظ الأمة. ليقول **الحق**. لكن في كثير من المساجد تحول إلى مساحة آمنة لخطب جافة عن الطقوس. وبينما يموت أطفال غزة، تُلقى خطب طويلة بالتفصيل عن لوضوء.

الكثير من الأئمة في أوروبا يُعيَّنون أو يُدفَع لهم من قِبل حكومات أجنبية أو مؤسسات رسمية. فيخافون على مناصبهم، ويخافون أن يخسروا الدعم، ويخافون رسالة من وزارة الداخلية. لكن أين الخوف من الله؟ وفي هذا الموطن قال النبي ﷺ: "**أفضل الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر**".

فماذا سنقول يوم القيامة إذا سؤلنا: ماذا فعلت بمنبرك؟ كان لديك ميكروفون. فأين صوتك حين كان عبادي في غزة يُذبحون؟ جميع المساجد اليوم يحصر خطبه في الفقه والعبادات بينما الأمة تنزف، قد نسي رسالته.

أئمة يبيعون أرواحهم

وكأن الصمت لا يكفي، نرى بعض من يُسمَّون أئمة يسافرون حتى إلى إسرائيل، بزعم السلام، أو الحوار. يغنون هناك، ويضحكون، ويتصورون مع المحتل. وبينما هم جالسون على موائد عامرة، يموت أطفال غزة، لا بسبب عدم وجود الطعام في العالم، بل لأنه يُمنع عنهم عمدًا. فما هذا إن لم يكن خيانة؟ يقولون: ذهبنا من أجل السلام. لكن أين كان صوتهم حين قُصفت قوافل المساعدات؟ أين كان غضبهم حين دُمِّرت المستشفيات؟ لقد غنّوا. وضحكوا. وأكلوا. والتقطوا الصور. يظهرون، لكن أفعالهم تكشف عن ولائهم الحقيقي.

---

[415] إعلام الموقعين (337/3).

[416] صحيح مسلم، حديث رقم (49).

الجيل المخدَّر

أحيانًا يقول لي بعض الطلاب: أستاذ، لقد غُسلت أدمغتنا. نحن فقط نتابع التمرير. لا مشاعر بعد الآن. قلوبنا أقسى من الحجر. ولعل هذا أشد فظاعة من صمت المساجد. فمن الذي يبكي حقًا في دعائه من أجل غزة؟ من الذي يسهر الليل من أجلها؟ من الذي يشعر بالمسؤولية؟

نحن ننام، ونأكل، ونتذمر من الطقس، بينما غيرنا لا يملك ماءً يغسل به موتاه. غزة ليست فقط مكانًا تحت النار. إنها مرآة. إنها اختبار لروح الأمة.

قف في الجانب الصحيح من التاريخ:

36.2 الآيات القرآنية:

الآية الأولى: قال تعالى: ﴿**وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ**﴾[417]

• يؤكد ابن عاشور أن هذه الآية تتضمن وعدًا إلهيًا بانقلاب الموازين. فمن يُظلم اليوم قد يصبح قائدًا غدًا، إذا ثبت على الإيمان والصبر.

• ويقول القرطبي إن الله لا يعبّر هنا عن مجرد شفقة، بل عن خطة ووعد. فالشعب المضطهد يُعطى دورًا في مستقبل الله.

• ويشير الرازي إلى أن **الاستضعاف** قد يكون تطهيرًا روحيًا وإعدادًا للتمكين[418].

الآية الثانية: قال تعالى: ﴿**أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم...**﴾[419]

• يبيّن ابن عاشور أن هذه الآية تذكّر الأمة بأن الابتلاء هو ثمن النجاة. وغزة تعيش هذه الآية كل يوم.

• ويعدّها القرطبي تحذيرًا للمسلمين المتراخين. فالجنة ليست لمن يدير وجهه عن الألم، بل لمن يثبت.

• ويرى الرازي أن الابتلاء وسيلة تمييز: من يؤمن حقًا يبقى ثابتًا في وقت الألم، لا في وقت الراحة فقط.[420]

---

[417] سورة القصص، آية (5).

[418] انظر: الجامع والتحرير ومفاتيح الغيب، تفسير سورة القصص.

[419] سورة البقرة، آية (214).

[420] انظر: الجامع والتحرير ومفاتيح الغيب، تفسير سورة البقرة.

الآية الثالثة: قال تعالى: ﴿**قَالُوا أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ۖ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ**﴾[421]

• يصف ابن عاشور هذه الآية بأنها تفاعل بين اليأس والقيادة النبوية. فالقوم كانوا يشعرون بالقهر الطويل ويعبرون عن إحباطهم أمام موسى عليه السلام. وجاء جواب موسى تربويًا وروحيًا: لم يعطهم وعدًا قاطعًا، بل قال: **عسى ربكم**، ليوقظ الأمل من غير أن يزرع أوهامًا كاذبة. والأهم، أنه يذكّرهم بأن الحرية نفسها امتحان: **فينظر كيف تعملون**. فالقضية ليست فقط ما يفعله فرعون، بل أيضًا ما سيفعلونه هم إذا صار لهم سلطان.

• ويقول القرطبي إن جواب موسى ليس تسلية فقط، بل تحذير أيضًا: إذا أهلك الله عدوكم، فالأمر لا ينتهي هنا، بل يبدأ من هنا. ويفسر **يستخلفكم في الأرض** بمفهوم الاستخلاف الذي يحمل مسؤولية أخلاقية، لا مجرد سلطة سياسية. فلا يكفي أن يزول العدو، بل يجب أن يظهر كيف ستتصرفون أنتم حين لا يعود هناك من تُلقون عليه اللوم.

• ويرى الرازي أن الابتلاء يميّز الصادق من غيره؛ فالمؤمن الحقيقي يثبت عند الألم لا عند الراحة فقط. كما يلفت إلى بلاغة لفظ **عسى**، إذ يُرجِع الأمر إلى مشيئة الله. والرسالة المركزية عنده أن الامتحان لا ينتهي بالتحرر، بل يبدأ معه. فالاستضعاف قد يكون تطهيرًا، لكن التمكين امتحانٌ أشد[422].

إن كلمات موسى عليه السلام لقومه في لحظة القهر العميق ما تزال تتردد اليوم في غزة. لقد قال قومه: "**أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا**". فأجابهم بالأمل والمسؤولية معًا: "**عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم في الأرض فينظر كيف تعملون**". وهذا الدرس الإلهي ينطبق اليوم بقوة على فلسطين. فالشعب الفلسطيني يعيش، كما عاش بنو إسرائيل تحت فرعون، تحت قهر محتل لا يعرف الرحمة. القصف، والحصار، والإذلال، كلها تركت آثارها على أجيال متتابعة. وكما كان الحال مع بني إسرائيل، يظل الأمل قائمًا هنا أيضًا: لعل الله يهلك الظالم، ويجعل هذا الشعب وارثًا لأرضه.

لكن هذه الآية تذكرنا أيضًا: **التحرر ليس نهاية الطريق، بل بداية المسؤولية**. ماذا سنفعل بالحرية إذا جاءت؟ هل سنبني مجتمعًا من العدالة والتقوى؟ أم سنغرق في الانقسام الداخلي، والأنانية، وسوء استعمال السلطة، والانحلال الأخلاقي؟ ثم هناك مفارقة التاريخ المرة: بنو إسرائيل، الشعب الذي ذاق سوط فرعون على ظهره يومًا ما، أصبح اليوم هو نفسه فرعون. الشعب الذي نجا من معسكرات الموت ومن هولوكوست الإبادة،

[421] سورة الأعراف، آية (129).

[422] انظر: الجامع والتحرير ومفاتيح الغيب، تفسير سورة الأعراف.

يمارس اليوم هولوكوسته الخاص، بالدبابات، والطائرات المسيّرة، والدعاية. ومن كانوا يومًا ضحايا لصمت العالم، صاروا اليوم جناة في عالم يكرر صمته.

لكن داخل العالم المسلم نفسه يوجد خذلان من الداخل. فأين قادة المسلمين، الذين يُفترض أنهم ورثة صلاح الدين وعمر بن الخطاب؟ هل هم قادة للشعوب، أم خَدَم لقصورهم؟ ماذا يفعلون بسلطانهم ونفوذهم؟ إنهم يعقدون الصفقات مع المحتل أو مع داعميه. ويُظهرون الولاء للغرب بينما شعوبهم تبكي قهراً وظلماً.

وهكذا يعيد التاريخ نفسه. لكن من يفهم هذه الآية يعلم أن الله ينظر: ليس فقط إلى ما يُفعل بنا، بل إلى ما نفعله نحن إذا وُضع في أيدينا سلطان أو مسؤولية.

36.3 التأمل في الحديث:

الحديث الأول: قال النبي ﷺ: "**مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ، إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ، تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى**"[423].

التأمل: هذا الحديث يرفع معيار التعاطف في الأمة إلى أعلى مستوى: المؤمنون جسد واحد. فإذا تألم جزء، تألم الكل. ويقول ابن حجر[424] إن هذا ليس مجرد تشبيه بل حقيقة إيمانية: مَن كان في قلبه إيمان حقيقي، يتألم لألم إخوانه وأخواته. فإذا كنا ننام مطمئنين بينما تنزف غزة، فالمشكلة ليست فيهم، بل في قلوبنا نحن. فالإيمان الحقيقي يجعل ألمهم يسهرنا، ويدفعنا إلى العمل والدعاء.

المعنى العام للحديث: حض الإسلام على المؤاخاة والألفة والمواساة بين المؤمنين، وأن يكونوا متكاتفين مثل الجسد الواحد، لذلك نجد النبي ﷺ استخدم أسلوب التشبيه، وضرب الأمثال للناس لتقريب المعاني للأفهام.

36.4 الطبقة التأملية:

غزة ليست مجرد مكان جغرافي، بل مقياس روحي. إنها مرآة نرى فيها إيماننا: ثباتنا، وصدقنا، وبوصلتنا الأخلاقية. وبينما تُدمَّر غزة جسديًا بالقصف، والحصار، والجوع، يُختبر بقية العالم بشيء أخفى، لكنه لا يقل خطرًا: **اللامبالاة**. إن ألم غزة يكشف أمور عدة:

- قادة ابتعدوا كثيرًا عن العدالة.
- شعوب ماتت ضمائرها وغاب حضورها عن غزة.

---

[423] سبق تخريجه صفحة 208.

[424] ابن حجر: الإمام الحافظ شهاب الدين أحمد بن علي الكناني، هو أبرز علماء الحديث، والفقه ويلقب بأمير المؤمنين في الحديث، من أشهر مؤلفاته فتح الباري ويعد أعظم كتبه.

- شعارات لا تتبعها أفعال حقيقية.
- سهولة القول: نحن لا نستطيع أن نفعل شيئًا.
- رجال أعمال وأصحاب مناصب ونفوذ باعوا نفوسهم وساندوا المحتل.
- غزة حملت ألم الأمة وحدها دون عون.
- غزة حاربت نيابة عن الأمة الإسلامية والعربية.
- غزة صبرت على الألم، وستجد نتيجة صبرها فرجاً وعوضاً ونصراً بإذن الله.

لكن غزة، وسط الخراب، تبعث أيضًا برسالة لا يستطيع أي جيش أن يدمرها: **الصبر، والتوكل، والعزة.** أطفال يجوعون، وأمهات يفقدن أبناءهن، ومستشفيات تعمل بلا كهرباء، ومع ذلك يرفضون أن يفرّطوا في كرامتهم.

الصمت ليس حيادًا

على الأمة أن تعترف: الصمت ليس حيادًا، بل تواطؤ. وكثيرًا ما لا يكون عجزنا نتيجة فقدان القدرة، بل نتيجة الأولويات التي اخترناها نحن: الرفاه فوق العدالة، والراحة فوق المسؤولية.

للتربية والتعليم

أما بالنسبة إلى أطفالنا، فإن غزة تعني أننا لا يجب أن نعلمهم الإحسان المادي فقط، بل الوقوف مع الحق أيضًا. ينبغي أن يكبروا والقرآن في قلوبهم، وألم الأمة في وعيهم. وبالنسبة إلى المدارس، يجب ألا تُقدَّم قصص موسى وفرعون على أنها مجرد تاريخ، بل دروس حية عن السلطة، والظلم، والمسؤولية الأخلاقية.

لأنفسنا

أما نحن، فعلينا أن نسأل أنفسنا باستمرار: ماذا أفعل بالحرية، والأمن، والوسائل التي أملكها؟ هل أستخدمها للمساعدة والخدمة، أم للهروب والنظر بعيدًا؟ غزة لا تطلب المال والطعام فقط، بل تطلب أيضًا استعادة ضميرنا.

قصة من لومبوك

أتذكر لقاءً في لومبوك، إندونيسيا. كان هناك شاب يعمل في منتجع، أعطاني دراجته النارية من تلقاء نفسه حتى أصل إلى المسجد في الوقت المناسب. وخلال حديثنا قال لي: أنا متألم جدًا من أجل غزة، لكنني لا أستطيع أن أفعل الكثير. لذلك، حين أرى مسلمين في هذا المنتجع، أحاول أن أخدمهم بأفضل ما أستطيع،

فربما يستطيعون هم أن يفعلوا شيئًا، كالتبرع. أثرت فيّ كلماته بعمق. لم يكن يملك الملايين، ولا سلطة كبيرة، لكنه فعل ما يستطيع. وهذه هي الرسالة بالضبط: **افعل شيئًا، ولو كان صغيرًا.**

إشارات عملية ماذا يمكنك أن تفعل، حتى من بعيد؟

- **بإنفاقك:** قاطع قدر استطاعتك، وخاصة الشركات التي تدعم إسرائيل علنًا.
- **بصوتك:** اكتب منشورات، وانشر الشهادات، واصنع فنًا أو محتوى إعلاميًا يُظهر الحقيقة.
- **بأفعالك:** تبرع، اكفل يتيمًا، أو اترك وجبة تضامنًا.
- **بمجتمعك:** نظّم أو شارك في الاحتجاجات، وتحدث عن غزة في مسجدك، وانشر الوعي والتربية حولها.
- **بقلبك:** ادعُ، واقرأ القرآن، وارفع يديك إلى الله متضرعًا أن يفرّج الكرب.

غزة لا تطلب منا الشفقة، بل الأفعال. لا الصمت، بل الصوت. لا الأعذار، بل الاختيارات.

وربما يُسأل أحدنا غدًا أمام الله: "**أين كنت حين مات عبادي في غزة من الجوع؟** "

فإذا كنا نواصل التمرير بهدوء بينما يموت الأطفال، فالمشكلة ليست في غزة، بل في قلوبنا نحن.

36.5 الخاتمة:

غزة اليوم ليست مجرد بقعة على الخريطة. إنها بوصلة أخلاقية تكشف الوجوه الحقيقية للناس، والقادة، والمجتمعات. وفي عالم تُبث فيه المظالم مباشرة على الهواء ثم يجري تجاهلها، تقف غزة كاتهام حي، لا للمحتل فقط، بل أيضًا لصمت العالم.

والسؤال الذي يواجهنا ليس فقط: ماذا يفعل المحتل بسلطته؟
بل السؤال الأعمق: **ماذا نفعل نحن بحريتنا، ومنصاتنا، ووسائلنا، وأصواتنا؟**

لدينا أمن، ووفرة في المناحي الحياتية، وحرية تعبير، ومع ذلك نصمت كثيرًا. نتذمر من مضايقات صغيرة بينما يُدفن الأطفال في غزة تحت التراب. ومع ذلك، ينمو هناك، بين الركام والجوع، شيء لا يمكن تدميره: **الثبات، الصبر، الكرامة، قوة الإيمان، والتوكل على الله.** قال تعالى: ﴿**يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون**﴾[425]فالآية تدعو للثبات على الدين والصبر على الطاعات والمصائب والامتثال لأوامر الله تعالى من أجل نيل الفلاح والنجاح في الدنيا والآخرة. ومأساة عصرنا أن الكثير ممن يملكون السلطة من قادة العالم، والأنظمة العربية، وحتى بعض المؤسسات الدينية يصمتون أو يتواطؤون. لكن

[425] سورة آل عمران، آية (200).

في هذا الصمت يظهر إفلاسهم الأخلاقي. وفي المقابل، تُظهر غزة أن القوة الحقيقية لا تكمن في السلاح أو المال، بل في الإيمان والصمود.

ولهذا علينا أن نسأل أنفسنا: لو أعطانا الله سلطة ووسائل، هل سنعدل؟ أم سننتهي كما انتهى كثيرون قبلنا، قادة بالاسم، وعبيدًا للأنا والمصالح الدنيوية؟

إن درس غزة هو أن المعركة ليست فقط بين المحتل والمحتلَّ به. إنها معركة بين الحق والنفاق، وبين الإخلاص والانتهازية، وبين القلوب التي تذكر والقلوب التي تنسى. غزة هي امتحان لضميرنا. وقد ينسى التاريخ شعاراتنا، لكنه لن ينسى صمتنا. والله، العليم الخبير، لا يرى ما نقوله فقط، بل يرى قبل ذلك ما نفعله، وما نفكر فيه تطبيقاً لقوله تعالى: ﴿**يعلم خائنة الأعين وماتخفي الصدور**﴾[426]

نسأل الله أن يجعلنا من أهل الصدق، الذين لا يديرون وجوههم، بل يثبتون، ويعملون بصمت في أبواب الخير، ومساعدة الآخرين ويرجون، حتى إذا لم يرهم أحد. قال تعالى: ﴿**وما تفعلوا من خير فإن الله به عليم**﴾[427] ﴿**وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيراً وأعظم أجراً**﴾[428]﴿**يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين**﴾[429].

الفصل 37 (المادية وسلوك الاستهلاك) عندما يصبح الامتلاك صنمًا:

37.1 الملاحظة:

نعيش في زمن تُعتبر فيه الرفاهية المادية الهدف الأسمى للحياة. يرهق الناس أنفسهم في العمل ليشتروا ما لا يحتاجونه، بمال لا يملكونه، فقط ليُعجبوا أناسًا لا يعرفونهم أصلًا. ويقيس الشباب قيمتهم بالماركات، والسيارات، والملابس، وعدد الإعجابات. وحتى الصدقة لا تُفكَّر فيها أحيانًا إلا بعد أن يكتفي الإنسان لنفسه، مع أن هذا الاكتفاء يظل دائمًا يتأخر ويتبدل.

وما هو أشد إيلامًا أن الشباب اليوم يستدينون من أجل قيادة سيارة فاخرة، لا لحاجة عملية، بل لكي يُروا. لقد أصبحت المكانة أهم من الاستقرار، والصورة أهم من التوازن. وبدل أن يستثمر الكثير أموالهم في العلم، والمهارات، أو المشاريع التي تنهض بالمجتمع، يستثمرون في المظاهر والانطباعات المؤقتة. وحتى في موضوع السكن، صار الامتلاك أكثر من مجرد حاجة. لم يعد الناس يأخذون بيتًا واحدًا بالقرض الربوي،

---

[426] سورة غافر، آية (19).

[427] سورة البقرة، آية (215).

[428] سورة المزمل، آية (20).

[429] سورة التوبة، آية (119).

مستندين إلى بعض فتاوى بعض الأئمة في أوروبا، بل بيتين أو ثلاثة أو أكثر. وما كان يومًا رخصة لحاجة أساسية، صار نموذجًا للربح، قائمًا في كثير من الأحيان على أسس مشبوهة. بينما علّمنا النبي ﷺ أن نعيش ببساطة، وأن نقدم الفقراء على أنفسنا، أصبح الكثير مدمن على أسلوب حياة قائم على التوسع، والامتلاك، والراحة، على حساب البركة، والسكينة الروحية، والوضوح الأخلاقي.

العالم المعاصر يدور حول الاستهلاك. الإعلانات، ووسائل التواصل، وحتى الهوية، كلها مبنية في كثير من الأحيان على ما نشتريه، أو نلبسه، أو نأكله، أو نظهره. والمؤلم أن الكثير من المسلمين في العالم صاروا أيضًا يعملون أساسًا كمستهلكين؛ مستخدمين سلبيين للتكنولوجيا، والعلامات التجارية، والطعام، والترفيه، والأفكار التي ينتجها غيرهم. سواء تعلق الأمر بعلامات الملابس، أو الوجبات السريعة، أو الصيحات الرقمية، أو وسائل التواصل الاجتماعي: فالمسلم العادي ليس غالبًا هو المبتكر أو الصانع، بل هو المستهلك. وحتى تديننا أحيانًا صار يُستهلك عبر تطبيقات مشهورة، ومقاطع قصيرة، ومؤثرين، في كثير من الأحيان بلا علم عميق ولا تأمل.

في بلدان مثل الولايات المتحدة، وكندا، والمملكة المتحدة، يعمل آلاف المسلمين في شركات كبرى مثل Google و Meta و Apple و Amazon و Microsoft و OpenAI و Tesla وغيرها من عمالقة التكنولوجيا. وكثير منهم مهندسون، ومطورون، ومتخصصون في الذكاء الاصطناعي، أو استراتيجيو بيانات. نعم، الكثير منهم مسلمون فعلًا. لكن بدل أن يوظف البعض هذه الخبرة والمعرفة في البناء الذاتي، يظلّون يعملون داخل أنظمة لا يكونون فيها إلا أجزاءً من آلة إنتاج كبرى تخص غيرهم.

لقد كان لأمتنا الإسلامية تاريخ مشرق ومزدهر، وكان لها السبق في شتى العلوم الإنسانية والرياضية، وقد أخذ الغرب عنها جل العلوم التي أسس لها عدد كبير من العلماء الأفذاذ الذين رسموا وخطوا الطريق لمن جاء بعدهم من العلماء الآخرين، استطاع رجال أمتنا وقادتها أن يقودوا العالم ويحوزوا على المراتب الأولى في الإنتاج والتأسيس، وما جاء ذلك إلا بوحدتنا وتمسكنا بعقيدتنا التي خطها الله في كتابه بمداد من ذهب، وتطبيقنا لسنة الحبيب محمد ﷺ حيث قال تعالى: ﴿واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا﴾[430] التمسك بالعقيدة والتشبث بها يمدنا بالقوة، ويقدم للأمة النتائج التي تحلم بها كل الأمم، لقد كان لأمتنا ماضٍ لم تكن فيه تستهلك فقط، بل كانت تُنتج. ففي العصر الذهبي للحضارة الإسلامية ظهر عباقرة مثل ابن سينا[431]،

[430] سورة آل عمران، آية (103).

[431] ابن سينا: أبو علي الحسين بن عبد الله المعروف بابن سينا، عالم وطبيب مسلم من أصول فارسية، اشتهر بالطب والفلسفة واشتغل بهما، عرف باسم الشيخ الرئيس وسمي بأمير الأطباء، وأبي الطب الحديث، ويُعد أول من كتب في الطب في العالم.

والخوارزمي[432]، والفارابي[433]، وابن رشد[434]، والبيروني[435]، والجاحظ،[436] وغيرهم كثير. ألّفوا الكتب، وأسسوا المدارس، وصمموا الآلات، ووضعوا الأسس لكثير من العلوم الحديثة.

واليوم علينا أن نسأل أنفسنا: ماذا ننتج نحن كأمة؟ هل نحن صانعو أفكار، ومؤسسات، وتكنولوجيا، أم مجرد مستخدمين لما يقدمه لنا الآخرون؟

المادية ليست فقط حب الأشياء، بل هي أيضًا فقدان الإبداع، والمبادرة، والأهداف العميقة. إنها انتظار ما يأتي، بدل العمل لما يجب أن يوجد. والطريق إلى الأمام لا يكمن فقط في الاعتدال في الاستهلاك، بل أيضًا في إعادة اكتشاف واجبنا في أن نكون **وقفيين**: مكرَّسين لشيء أكبر من أنفسنا؛ للعلم، والتقدم، وخدمة الأمة.

لقد ترسخ حب الدنيا في القلب. ومع أن المال قد يكون نعمة، فإنه في حالات كثيرة يصبح فتنة، بل وربما صنمًا. والقرآن يحذر بشدة من الإسراف، والبخل، والتعلق بالمال. والإسلام يعلّمنا أن نستعمل المال، لا أن نعبده. وأخيرًا، نحن نعيش في زمن لم يعد فيه الاستهلاك يحدد فقط عاداتنا الشرائية، بل أيضًا رؤيتنا للحياة، بل وحتى طريقة تديننا. لقد اعتاد الناس كثيرًا على اختيار ما يوافقهم وترك ما لا يعجبهم، نوع من **الانتقائية**، حتى تسلل هذا السلوك إلى ممارستهم الدينية. فصار الإيمان مشروعًا مركبًا ذاتيًا، خليطًا مفصّلًا من عناصر روحية تُجمع بحسب الذوق الشخصي لا بحسب التسليم للهداية الإلهية.

وعلى منصات مثل TikTok وYouTube نرى هذا بوضوح: أناس ينشرون مقاطع عن الامتنان، والحب، والطاقة الإيجابية، بينما يتجاهلون تمامًا جوانب أساسية في الدين، مثل الصلاة، والعدل، والتواضع، واجتناب المعاصي. وهكذا يُختزَل الدين إلى جزء جمالي أو عاطفي، مفصول عن بنيته الأخلاقية والشرعية.

وهذا النوع من الاستهلاك الروحي يجعل الراحة فوق التسليم، والروحانية الانتقائية فوق الالتزام الكامل. لكن هل يمكن لإيمان يركبه الإنسان بنفسه أن يُسمى طاعة للخالق؟ أم يصبح مجرد مرآة للهوى؟

---

[432] الخوارزمي: أبو عبد الله محمد بن موسى الخوارزمي، عالم رياضيات، وفلك وجغرافيا، عالم مسلم، من أوائل علماء الرياضيات المسلمين.

[433] الفارابي: عُرف بأبي نصر، واسمه محمد، لُقب بذلك نسبة للمدينة التي وُلد فيها فاراب في إقليم تركستان، يُعتبر من الشخصيات الإسلامية التي أتقنت العلوم بصورة كبيرة مثل: الطب والفيزياء والفلسفة.

[434] ابن رشد: أبو محمد بن أحمد بن رشد الأندلسي، فيلسوف أندلسي مسلم، درس الفقه والأصول والطب والرياضيات وبرع في علم الخلاف تولى قضاء قرطبة، وعرفه الأوربيون معرفة واسعة، نشأ في أسرة من أكثر الأسر وجاهة في الأندلس.

[435] البيروني: أبو الريحان محمد بن أحمد البيروني، باحث مسلم، كان رحالة وفيلسوفاً وفلكياً وجغرافياً... وُصف بأنه من بين أعظم العقول التي عرفتها الثقافة الإسلامية، وقد قال بدوران الأرض حول محورها.

[436] الجاحظ: أبو عثمان عمرو بن بحر الليثي الكناني، المعروف بالجاحظ، أديب عربي كان من كبار أئمة الأدب في العصر العباسي.

37.2 الآيات القرآنية:

الآية الأولى: قال تعالى: ﴿**وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ، الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ، يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ**﴾[437]

• يصف ابن عاشور هذه الآيات بأنها اتهام لمنشأ الكبر المتولد من المال. فالشخص المذكور يجعل من ماله سببًا لتعظيم نفسه. ويرى ابن عاشور أن هذا مرض روحي، لأن القلب يصبح معتمدًا على شيء فانٍ.

• ويشير القرطبي إلى أن هذا الشخص لا يكتفي بعدّ ماله، بل يجعل منه مصدر أمانه وثقته. والخطأ ليس في المال نفسه، بل في الاعتقاد أن المال يغني عن الله.

• ويرى الرازي أن وهمَ أن المال يطيل العمر أو يحمي الإنسان هو من أكبر أصنام النفس البشرية. ويربط هذا بفكرة خاطئة مفادها أن النجاح المادي دليل تلقائي على رضا الله.[438]

الآية الثانية: قال تعالى: ﴿**وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ**﴾[439]

• يعرّف ابن عاشور التبذير بأنه إنفاق النعم خارج مقصدها المشروع، حتى لو كان الإنسان غنيًا. فالإسراف عنده ليس مجرد قضية اقتصادية، بل انحراف روحي؛ لأنه إنكار للمسؤولية الملازمة للمال.

• ويعدّ القرطبي التبذير صورة من صور كفران النعمة. فمن يسرف يدل بذلك على أنه لا يعرف قدر نعم الله. كما يربطه أيضًا بالكبر واللامبالاة تجاه الفقراء.

• ويشدد الرازي على خطر الإفراط في الاستهلاك كصفة في الشخصية. وربط المبذرين بالشياطين، عنده، يشير إلى فقدان السيطرة على الشهوات. فالإسراف ضد الاقتصاد والاعتدال اللذين امتدحهما القرآن.[440]

الآية الثالثة: قال تعالى: ﴿**الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عند ربك ثوابًا وخير أملًا**﴾[441]

---

[437] سورة الهمزة، آية (1_4).

[438] انظر: الجامع والتحرير ومفاتيح الغيب، تفسير سورة الهمزة.

[439] سورة الإسراء، آية (26_27).

[440] انظر: الجامع والتحرير ومفاتيح الغيب، تفسير سورة الإسراء.

[441] سورة الكهف، آية (46).

• يرى ابن عاشور أن القرآن هنا لا يرفض المال، بل يضعه في حجمه الحقيقي. فالمشكلة تبدأ عندما يصبح المال والمكانة غاية في أنفسهما، بدل أن يكونا وسيلة للعمل الصالح.

• ويؤكد القرطبي أن الآية تذكّر بفناء زينة الدنيا. أما **الباقيات الصالحات** فهي التي تبقى وتنفع يوم القيامة.

• ويشبّه الرازي الدنيا بالحلم: مدهش أثناء النوم، لكنه بلا قيمة عند الاستيقاظ. والحياة الحقيقية هي الآخرة، فمن عاش كأن الدنيا دار الخلود فقد خُدع[442].

الآية الرابعة: قال تعالى: ﴿**فَأَمَّا مَن شَاءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا**﴾[443]

• يوضح ابن عاشور أن هذا التعبير يبرز حرية الاختيار الحقيقية عند الإنسان: إما أن يختار طريقًا إلى الله، طريق الطاعة والتسليم والاجتهاد، وإما أن يُساق وراء الراحة، والشهوات، والتدين الانتقائي. والعبد الصادق هو الذي يكرس نفسه لطريق يوصل إلى ربه، لا إلى مزاجه.

• ويقول القرطبي إن الآية تتضمن دعوة ضمنية إلى التزام صادق كامل، وتحذيرًا من التدين الشكلي أو الجزئي. فلا يمكن أن يزعم الإنسان الإيمان ثم لا يتبع إلا ما يوافق راحته أو يعجبه.

• ويشدد الرازي على اتخاذ السبيل إلى الله لا يعني: آخذ شيئًا من هذا وشيئًا من ذاك. بل هو التزام واعٍ جاد. فمن بنى ممارسته الدينية على أهوائه لا على هداية الله، لم يسلك هذا السبيل، بل ظل تائهًا بلا وجهة.[444]

وفي زمن صار فيه الإيمان يُرشَّح عبر الأذواق الشخصية أو الهاشتاغات الرائجة، تذكرنا هذه الآية أن الطريق إلى الله اختيار واعٍ، لا مزاجًا عابرًا ولا أسلوب حياة انتقائيًا. فالتدين الانتقائي ليس طريقًا إلى الرب، بل طريقًا إلى الذات. والإنسان المعاصر يتعامل مع الدين كمستهلك، لكن هذه الآية تدعونا إلى شيء آخر جذريًا: لا إلى الاستهلاك، بل إلى الالتزام. لا إلى التركيب الذاتي، بل إلى التسليم.

فالمسلم يضع بصمته في كل مكان يتواجد فيه من خلال السيرة والأخلاق التي يتعامل بها مع الآخرين، فسمتك وحديثك ولباسك ومعاملتك ترفع شأنك في المجتمع فلا تتحدث إلا بما هو خير، ولا تعمل إلا الخير.

---

[442] انظر: الجامع والتحرير ومفاتيح الغيب، تفسير سورة الكهف.

[443] سورة المزمل، آية (19).

[444] انظر: الجامع والتحرير ومفاتيح الغيب، تفسير سورة المزمل.

37.3 التأمل في الحديث:

الحديث: قال النبي ﷺ: "**يأتي على الناس زمان لا يُبالي المرء ما أخذ منه، أمن الحلال أم من الحرام؟**"[445].

التأمل: بيّن النبي ﷺ أن أصل كثير من الذنوب هو التعلق المرضي بالدنيا. فمن البخل، والحسد، إلى الظلم، والخيانة، كثيرًا ما يكون الجذر قلبًا مريضًا تعلق بالدنيا.

المعنى العام للحديث: حث الإسلام على تحري طلب الحلال من الرزق في كل مكاسب الحياة، وبين ما يكون عليه من الأجر والثواب، كما حذر من أخذ الحرام بكل صوره وفي كافة مناحي الحياة. وفي الحديث يُخبر النبي ﷺ أن الناس سوف تتغير بهم الأحوال وتتبدل بهم الأزمان، ويأتي عليهم زمان يضعف فيه الدين، وتفسد الضمائر والذمم، ويتكالب الناس فيه على جمع المال.

37.4 الطبقة التأملية:

المادية ليست مجرد سلوك، بل مرض في القلب يتنكر في صورة نجاح. إنها أسلوب حياة تصبح فيه الممتلكات مصدر الهوية، والمكانة أهم من الجوهر، والراحة أهم من المسؤولية. وأخطر ما فيها أنها صارت تبدو طبيعية. نعيش في عالم تقاس فيه قيمة الناس بما يقودونه، وما يلبسونه، والحي الذي يسكنونه. وحتى بين المسلمين تسربت هذه المعايير بعمق: قروض من أجل سيارات فاخرة، وبيوت تُشترى بفتاوى مشكوك فيها، وسعي مستمر وراء الاعتراف عبر المظاهر.

لكن أين ذهبت البركة؟ أين الروح في هذا الامتلاك؟ أين مقصد الوسائل التي بين أيدينا؟ لقد عاش النبي ﷺ ببساطة، وأعطى مما عنده، وعلّم أن الغنى ليس نعمة إذا قاد إلى الكبر أو الغفلة. لم يقل إن علينا أن نهرب من المال، بل أن نضبطه. فالمال في الإسلام **أمانة:** وديعة، لا هوية؛ وسيلة، لا غاية؛ اختبار، لا انتصار.

ولهذا يجب أن تتغير تربيتنا. يجب أن يتعلم الشباب أن الكرامة لا تأتي من اللباس أو الماركة، بل من مقامهم عند الله. فالغنى الحقيقي في العلم، والتواضع، والعمل، وخدمة المجتمع. وعلى الآباء أن يدركوا أن طلب الراحة لا يجوز أن ينقلب إلى إدمان على الترف. وكأمة، يجب أن نسأل أنفسنا: ماذا نبني اليوم مما يبقى غدًا؟ ماذا نفعل بعلمنا، ووسائلنا، وشبكاتنا؟ أين غاب صوتنا الإبداعي والفكري في عالم تصوغه قوى غيرنا؟

[445] صحيح البخاري، حديث رقم (2059).

لقد بنى أسلافنا حضارات. أما نحن اليوم فنشتري المنتجات. هم ألّفوا الكتب. ونحن نمرر الصور بلا نهاية. بالنسبة لهم كان العلم عبادة. أما عندنا فالشهادة غالبًا ليست أكثر من وسيلة للترقي الاجتماعي.

ويجب أن يتغير هذا. فالأمة لا تحتاج إلى مسلمين يشاركون في سباق الامتلاك، بل إلى سفراء للبُساطة، وبناة للمعرفة، وخدّام للمجتمع. أناس يعيشون **وقفًا**، مكرسين أنفسهم لهدف أعلى من راحتهم الشخصية.

وكيف نفعل ذلك عمليًا؟

• **درّب نفسك على البساطة:**

لا تشترِ دائمًا كل ما تستطيع شراءه. اترك شيئًا أحيانًا، حتى لو كنت قادرًا عليه.

• **اجعل المال وسيلة لا غاية:**

اسأل نفسك عند كل شراء: هل هذا يقربني إلى الله، أم يقربني فقط إلى الوجاهة؟

• **استثمر في العلم والمجتمع:**

ادعم التعليم، والمكتبات، وبرامج الشباب، ودروس القرآن. لا تبنِ البيوت فقط، بل ابنِ الناس أيضًا.

• **تعلّم الشكر:** استبدل الرغبة الدائمة في المزيد بإدراك أن ما عندك بالفعل نعمة.

• **أعطِ:** كان النبي ﷺ يعطي بلا خوف. فالكرم يطهّر القلب، ويحررك من أسر الدنيا. لأن حب الدنيا لا يسكن في سياراتنا أو بيوتنا، بل يسكن في قلوبنا..

37.5 الخاتمة:

المادية ليست مجرد هوس بالممتلكات، بل هي فقدان للاتجاه. إنها تجعل الإنسان مستهلكًا، وقلبه مخزنًا، وحياته سباقًا بلا وجهة. لقد عاش النبي ﷺ على الرمل، ونام على الحصير، وترك وراءه أمة، لا قصرًا. المادية ليست مجرد أسلوب حياة، بل سمٌّ بطيء يُضعف الروح ويشل الأمة. فهي تجعلنا كبارًا في الامتلاك، وصغارًا في الفعل. وبينما يذكّرنا القرآن مرارًا بأن الآخرة هي الوجهة الحقيقية، يبقى كثير منا عالقين في سباق الترف والوجاهة. والطريق إلى الأمام واضح: أن نستعمل المال كوسيلة، لا كغاية. يجب أن تصبح أموالنا، وبيوتنا، ووسائلنا أدوات لبناء الناس، ونشر العلم، وتعزيز العدالة. فالغنى الحقيقي ليس فيما نجمعه، بل فيما نتركه لله وللأجيال القادمة. قال تعالى: ﴿**كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ، وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ**﴾[446]

[446] سورة القيامة، آية (20_21).

الفصل 38 (العدالة الاجتماعية واللامساواة) الأمة وضعفاؤها:

38.1 الملاحظة:

العالم اليوم منقسم بعمق، لا بين الغني والفقير فقط، بل أيضًا بين القوي والعاجز، وبين النخبة والمنسيّين. وفي كثير من البلدان المسلمة تصبح هذه الفجوة أشد إيلامًا بسبب الفساد، والمحسوبية و**المعرفة**، والظلم الذي يُتسامح معه أحيانًا علنًا. ففي بلدان مثل الجزائر، ومصر، وباكستان، ليس نادرًا ألا تُقضى لك حاجة إلا إذا كنت تعرف أحدًا. فالحقوق تُباع أحيانًا، والعدالة تُشترى.

وإذا سافرت بالسيارة إلى بعض البلدان المسلمة، قد تُوقَف على الطريق، لا لأجل الأمن، بل على أمل الحصول على رشوة. والموظفون، والشرطة، وحتى بعض العاملين في المستشفيات، يتصرفون أحيانًا وكأن الحق سلعة فاخرة. وفي الوقت نفسه نرى آلاف الأيتام، واللاجئين، والأرامل، والمظلومين داخل أمتنا نفسها، كثيرًا ما يُهمَلون أو يُستغَلّون. أطفال يولدون في المخيمات بلا أوراق، وبلا مستقبل. ونساء يهربن من الحرب، أو العنف، أو الإساءة، فلا يجدن حماية. ولا يكاد أحد يطرح السؤال: من يدافع عن هؤلاء؟

38.2 الآيات القرآنية:

الآية الأولى: قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ**﴾[447]

• يسمّي ابن عاشور هذه الآية أساس العدالة الأخلاقية الكونية في الإسلام. فهي تطلب من المؤمن أن يكون موضوعيًا، حتى لو أدّى ذلك إلى الإضرار بنفسه أو بأحب الناس إليه. فلا العاطفة ولا الروابط الاجتماعية يجوز أن تحرّف الحقيقة.

• ويؤكد القرطبي أن **القسط** لا يقتصر على القضاء، بل يشمل كل موضع تكون فيه الحقيقة مهددة؛ سياسيًا، أو عائليًا، أو اجتماعيًا، وكذلك في حماية الضعفاء.

• ويرى الرازي أن هذه الآية اختبار للإخلاص: فمن يطالب الآخرين بالعدل، لكنه لا يطبقه على نفسه أو على دائرته الخاصة، فهو في نظر الله منافق في عدالته[448].

---

[447] سورة النساء، آية (135).

[448] انظر: الجامع والتحرير ومفاتيح الغيب، تفسير سورة النساء.

الآية الثانية: قال تعالى: ﴿**فَكُّ رَقَبَةٍ، أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ، يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ، أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ**﴾[449]

• يرى ابن عاشور أن هذه الأعمال – التحرير، والإطعام، والحماية – تمثل جوهر العدالة الاجتماعية في الإسلام. فالأمر لا يتعلق بالعطاء فقط، بل بالقيام الفعلي من أجل كرامة الأضعف في المجتمع.

• ويشير القرطبي إلى أن المقصود ليس يتيمًا عامًا مجهولًا، بل **يتيمًا قريبًا منك**؛ أي شخصًا من محيطك. فلا يكفي التعاطف البعيد، بل المطلوب هو القرب، والانخراط، وتحمل المسؤولية.

• ويرى الرازي أن هذه الآية تبيّن أن العدالة الحقيقية لا تكون في النقاشات والشعارات، بل في أفعال ترفع المعاناة. فالإسلام يطلب فعلًا ملموسًا، لا تضامنًا رمزيًا.[450]

الآية الثالثة: قال تعالى: ﴿**وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ**﴾[451]

• يصف ابن عاشور هذه الآية بأنها اتهام أخلاقي. فهي تُعاتب المؤمنين على سلبيتهم بينما الآخرون يعانون. فالعدالة تقتضي الفعل، لا مجرد الدعاء أو الحزن.

• ويؤكد القرطبي أن القتال هنا لا يُفهم فقط بمعناه العسكري، بل يشمل كل أشكال النصرة للمستضعفين: قانونيًا، وسياسيًا، واجتماعيًا. فالمسلم مطالب بالانخراط.

• ويرى الرازي أن هذه الآية تصف الشجاعة الحقيقية: أن تدافع عن مَن لا صوت لهم، وعن مَن لا يُرَون، وعن مَن نُسُوا. هذا هو الجهاد: لا من أجل المجد أو الانتقام، بل من أجل العدل[452].

38.3 التأمل في الحديث:

الحديث: قال النبي ﷺ: "**هَلْ تُنْصَرُونَ وَتُرْزَقُونَ إِلَّا بِضُعَفَائِكُمْ**"[453].

التأمل: هذا الحديث يبين بوضوح أن بركة المجتمع لا تكمن في أغنيائه، ولا في أقويائه، ولا في أصحاب النفوذ فيه، بل في طريقة تعامله مع أضعف أفراده. فالضعفاء هم سبب البركة، أو سبب الهلاك.

---

[449] سورة البلد، آية (12_16).

[450] انظر: الجامع والتحرير ومفاتيح الغيب، تفسير سورة البلد.

[451] سورة النساء، آية (75).

[452] انظر: الجامع والتحرير ومفاتيح الغيب، تفسير سورة النساء.

[453] صحيح البخاري، حديث رقم (2896).

المعنى العام للحديث: إذا كان القوي ينصر الله به المسلمين بشجاعته وقوته في محاربة الأعداء، فإنه تعالى ينصر المسلمين أيضاً بدعاء ضعفائهم وتذللهم لله تعالى، وذلك أن عبادة الضعفاء ودعاءهم أشد إخلاصاً وأكثر خشوعاً لخلاء قلوبهم من التعلق بزخرف الدنيا وزينتها، وصفاء ضمائرهم. فيه الإستعانة بدعاء الضعفاء على النصر على الأعداء.

38.4 الطبقة التأملية:

القرآن والسنة يقرران بوضوح أمرًا واحدًا: معيار المجتمع ليس في مبانيه، ولا في ثروته، ولا في قوته السياسية، بل في كيفية تعامله مع أضعف أفراده. الأيتام، والأرامل، والفقراء، واللاجئون، ومن لا صوت لهم هؤلاء هم اختبار إيماننا.

واليوم نرى بسهولة كيف يتم التغاضي عن هؤلاء. ففي بعض البلدان تُباع الحقوق كما لو كانت بضاعة؛ ومن لا مال له ولا علاقات يبقى فعلًا في البرد. وفي سياقات أخرى تُختزل الصدقة في صورة أو مشروع يبدو جميلًا على وسائل التواصل، بينما تغيب الرعاية البنيوية والقرب الإنساني الذي يطلبه الله منا.

لكن القرآن لا يترك مجالًا للسلبية. ففي سورة البلد يبين الله أن طريق الخير يمر عبر الطريق الصعب: تحرير المقهور، وإطعام الجائع، والاقتراب من اليتيم، ومساندة المحتاج. فالأمر لا يتعلق بكلمات جميلة أو تعاطف سطحي، بل بفعل حقيقي يخفف الألم ويعيد الكرامة. وحديث النبي ﷺ لا يقل وضوحًا: إن نصرتنا ورزقنا لا يأتيان بفضل رجال الأعمال الناجحين أو السياسيين النافذين، بل بسبب وجود الضعفاء بيننا، وبسبب دعائهم. فهم ليسوا عبئًا، بل مصدر بركتنا.

والدرس واضح:

- إذا أهملنا أيتامنا، ضيّعنا مستقبلنا.
- وإذا تجاهلنا فقراءنا، نزعت البركة من أموالنا.
- وإذا أسأنا إلى اللاجئين أو أهملناهم، فنحن نهدم إنسانيتنا بأيدينا.

علينا أن نربي الناس على ألا يُنجبوا أطفالًا إذا لم يكونوا قادرين على منحهم تربية كريمة أو حماية حقيقية. وعلينا أن نعلم الشباب أن اليتيم ليس عبئًا، بل فرصة للرحمة. وعلينا أن ندرّب المجتمع على ألا يكتفي برد الفعل وقت الكوارث، بل أن يحمل همَّ المستضعفين بشكل مستمر. ولهذا يجب أن نتعلم من جديد كيف ننظر كما يريد الله منا أن ننظر: لا إلى مكانة الإنسان، بل إلى هشاشته. فالعدالة لا تعني فقط أن نكون منصفين في النظرية، بل أن نتحمل المسؤولية فعليًا عنَ من لا يستطيعون حماية أنفسهم.

38.5 الخاتمة:

العدالة في الإسلام ليست رفاهية، بل فريضة. ومن أعرض عن الضعفاء، فقد أعرض عن اختبار الله له. والقرآن الكريم يدعونا إلى أن نكون ثابتين في **القسط**، حتى إذا كان ذلك على حساب أنفسنا أو من نحب. وتُعلمنا السنة أن بركة الأمة تستقر في أيدي ضعفائها.

ولهذا فالسؤال ليس: هل نستطيع أن نقوم بأعمال عظيمة؟ بل: هل نحن مستعدون للقيام بالأعمال الصغيرة التي تنقذ الأرواح وتواسي القلوب؟ أن نقترب من اليتيم، وأن نطعم الجائع، وأن ندافع عن المظلوم. فمن خدمهم فقد خدم الله، ومن نسيهم فقد أضاع نفسه. قال تعالى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ**﴾[454]

الفصل 39 (الإعلام، وصناعة الصورة، والتأثير) مَن الذي يتحكم في بصرك؟

39.1 الملاحظة:

نعيش في زمن أصبحت فيه المعلومات متوفرة بغزارة، لكن الحقيقة صارت أصعب في التمييز من أي وقت مضى. فما نعرفه عن الحروب، والفقر، والدين، والقضايا الاجتماعية، يُصفّى كثيرًا عبر صناعة الصورة الذهنية. فوسائل الإعلام لا تحدد فقط ما الذي نراه، بل تحدد أيضًا **كيف** نراه. فالفلسطينيون يُصوَّرون على أنهم إرهابيون، والاضطهاد يُغلَّف بعبارات مثل الدفاع عن النفس، والقيم الإسلامية تُربط بشكل منهجي بالتطرف أو التخلف.

وقد زادت وسائل التواصل الاجتماعي هذا الإشكال تعقيدًا. فالخوارزميات تقدم لنا ما يؤكد ميولنا وتفضيلاتنا. وكثير من الناس يبنون قناعاتهم على مقاطع قصيرة، أو عبارات منتشرة، أو أصوات مشهورة، لا على العمق، ولا على العلم، ولا على السياق. ومن الظواهر الخطيرة بين المسلمين اليوم أن الكثير يشاهدون مقاطع عن الإسلام لا تتجاوز ستين ثانية، ثم يظنون أنهم فهموا الدين كله. فيبدؤون بالحكم على الآخرين بناءً على معرفة سطحية، دون إدراك لغنى التراث الإسلامي وعمقه. لقد صار المطلوب من العلم اليوم أن يكون سريعًا ومختصرًا. لكن مَن الذي ما زال يقرأ كتابًا؟ ومَن الذي يصبر على محاضرة كاملة؟ فضلًا عن دورة علمية في العقيدة أو الفقه أو التفسير؟ وهذا السطحية لها آثار خطيرة. فالناس يظنون أنهم يعلمون، لكنهم يفتقدون الفهم. ينقلون الأقوال، لكنهم لا يعقلونها. ويصححون غيرهم، مع أنهم لم يشتغلوا يومًا على إصلاح أنفسهم بعمق.

ثم هناك ظاهرة أخرى: بعض الناس يظلون ساعات طويلة في التمرير المستمر، ما يسمى اليوم **brainrot**؛ من فيديو إلى فيديو، من مزحة إلى حرام، من مقطع إسلامي إلى موسيقى، من آية قرآنية إلى نموذج راقص.

---

[454] سورة النحل، آية (90).

يضيع الوقت، ويضيع التركيز، ويخفت القلب. ثم تنظر بعد ذلك إلى إحصاءات هاتفك: أربع أو خمس ساعات يوميًا على وسائل التواصل. هذا دون أن نتكلم عن الحرام الذي قد مرّ أمام عينيك في الطريق: فتنة، وجنس آخر، وبذخ يثير الحسد، ومعصية مغلفة بصورة متعة. وهنا يظهر إشكال آخر: **تطبيع المعصية عبر المؤثرين**. نساء يقدمن أنفسهن بصورة إسلامية، ثم يلبسن بغير احتشام ويرقصن أمام ملايين المتابعين. ورجال ينشرون اقتباسات دينية، ثم يبثون في القصة التالية مظاهر الترف، والكبر، والغيبة. وهكذا تُطبع الذنوب، وتُقدَّم على أنها أسلوب حياة، تحت عنوان الإلهام. لقد أصبحت الصيحات تحدد ما يبدو حلالًا أو حرامًا؛ لا القرآن. فما هو شائع يبدو صحيحًا، وما هو منتشر يبدو حقًا. ومن يتكلم ضد هذا يُتهم بالتشدد أو بالتخلف. ولم نتحدث بعد عن دور شركات التكنولوجيا الكبرى نفسها. فشركات مثل Instagram وFacebook Meta وGoogle وYouTube تستخدم خوارزمياتها فعليًا لقمع المحتوى المتعلق بغزة، وحظر حسابات الناشطين الفلسطينيين، والتلاعب بالنقاش العام. وفي الوقت نفسه تضخ هذه الشركات ملايين الدولارات في التعاون مع جماعات ضغط مؤيدة لإسرائيل وحملات التطبيع. ومن يظن أن هذه المنصات محايدة فهو مخطئ جدًا. لقد تحولت إلى أدوات في الحرب على الحقيقة وعلى ضمير الأمة. والقرآن يحذرنا من هذا بقوة. فلا تتبع على عماك. ولا تكن تابعًا لكل صوت. استعمل سمعك، وبصرك، وعقلك، لأن الله سيسألك عن ذلك.

39.2 الآيات القرآنية:

الآية الأولى: قال تعالى: ﴿**وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ۚ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا**﴾[455]

• يرى ابن عاشور أن هذه الآية تحذير من نشر المعلومات غير المتحقق منها. فمن يتكلم أو يتصرف بلا علم، يجعل نفسه مسؤولًا عن الكذب، حتى لو لم يقصده عمدًا.

• ويفسر القرطبي هذه الآية بأنها تشمل التجسس، والغيبة، والاتهام الباطل. ويؤكد أن الإنسان سيُسأل عن كل حاسة استعملها في الظلم أو الباطل.

• ويشير الرازي إلى أن هذه الآية تدل على أن العلم التزام أخلاقي. فاتباع الانطباعات السطحية أو الرأي العام بلا تفكير نقدي خطأ روحي[456].

[455] سورة الإسراء، آية (36).

[456] انظر: الجامع والتحرير ومفاتيح الغيب، تفسير سورة الإسراء.

الآية الثانية: قال تعالى: ﴿**وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ**﴾[457]

• يرى ابن عاشور أن الرأي العام كثيرًا ما تصوغه الأهواء، والعواطف، والمصالح الاقتصادية. فالحقيقة نادرًا ما تكون معيار الجمهور. والإسلام يطلب منا أن نتبع الحق، لا ما هو مشهور.

• ويحذر القرطبي من الانسياق الأعمى وراء الأكثرية، أو وسائل الإعلام، أو القوى السياسية. فانتشار الشيء لا يعني أنه يمثل الحقيقة.

• ويبين الرازي أن هذه الآية تذكرنا بأن الحق لا يُقاس بالأعداد. فالهداية الحقيقية تحتاج إلى شجاعة للسير عكس التيار، حتى لو كنت وحدك.[458]

الآية الثالثة: قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ**﴾[459]

• يصف ابن عاشور هذه الآية بأنها قاعدة في أخلاق التواصل العام. فالمؤمن لا يكتفي بتمحيص ما يسمعه، بل ينظر أيضًا إلى **من** الذي قاله. فالمصدر أهم من الإثارة.

• ويطبق القرطبي هذه الآية على النزاعات داخل المجتمع: فالإشاعات والأخبار الكاذبة قد تدمر العلاقات، ولذلك يطلب القرآن التثبت والصبر.

• ويرى الرازي أن هذه الآية هي أساس أخلاقيات الإعلام في الإسلام: **التبين** ضرورة. فالأحكام المتسرعة خطيرة، وغالبًا ما تكون نتائجها غير قابلة للإصلاح[460].

39.3 التأمل في الحديث:

الحديث: قال النبي ﷺ: "**كَفَى بِالْمَرْءِ كَذِبًا أَنْ يُحَدِّثَ بِكُلِّ مَا سَمِعَ**"[461]

---

[457] سورة الأنعام، آية (116).

[458] انظر: الجامع والتحرير ومفاتيح الغيب، تفسير سورة الأنعام.

[459] سورة الحجرات، آية (6).

[460] انظر: الجامع والتحرير ومفاتيح الغيب، تفسير سورة الحجرات.

[461] صحيح مسلم، حديث رقم (5).

التأمل: يحذر النبي ﷺ هنا من نقل المعلومات دون تمحيص. فتكرار الأخبار الباطلة يجعلك شريكًا في ضررها، حتى لو لم تكن أنت المصدر الأول.

المعنى العام للحديث: كثرة الكلام تُكثر من سقطات اللسان، والمسلم مأمور بالصدق في حديثه، وكلامه، والتثبت من كل ما يقوله أو ينقله، حتى لا يقع في الكذب. وفي الحديث زجر عن التحديث بشيء لم يُعلم صدقه، بل على الرجل أن يبحث في كل ما سمع، خصوصاً في أحاديث النبي ﷺ.

39.4 الطبقة التأملية:

العالم الإعلامي الذي نعيش فيه اليوم ليس محايدًا. فهو يشكل عواطفنا، وآراءنا، وقناعاتنا، بل وحتى تصورنا للدين. فكل صورة، وكل صوت، وكل خبر يترك أثرًا. والإسلام يعلمنا أن السمع، والبصر، والقلب أمانة؛ مسؤوليات مودعة عندنا سنُسأل عنها. **فالقرآن لا يقول: انظر ما شئت، واسمع ما شئت، وقل ما شئت. بل يقول: ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾**[462]

لا بد للمسلم أن يعتاد على نظام حياة يُطبق ما جاء في القرآن الكريم والسنة النبوية، علينا أن نربي أنفسنا وأولادنا على مقاومة صناعة الصورة، والتلاعب، والسطحية. وهذا يتطلب **ثلاث خصال أساسية:**

التبيّن: ألا نصدق كل شيء. وألا نعيد إرسال كل شيء. وألا نتبع كل مؤثر، مهما بدا متدينًا. ففي عالم مليء بالفلاتر، يصبح التحقق عبادة.
التفكر: أن نقف ونسأل: لماذا أُري هذا؟ ماذا يفعل هذا بقلبي؟ كيف يؤثر عليّ؟ فالتفكر هو نقيض التمرير الآلي. إنه وعي ومراجعة للنفس.
الصمت والانضباط الرقمي: ليس كل فراغ يجب أن يُملأ بالمحفزات. وليس كل لحظة تحتاج إلى TikTok أو Reels. وقد قال النبي ﷺ: "**من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرًا أو ليصمت**".[463] فالصمت detox روحي. والراحة الرقمية عبادة.

وفي التربية يجب أن نعلّم الشباب أن ليس كل ما يجذب العين صالحًا. علينا أن ندرّبهم على التفكير النقدي، لكن أيضًا على الانضباط الروحي: مراقبة الوقت، تصفية المحتوى، تمييز الفتنة، تنمية ضبط النفس.

---

[462] سورة الإسراء، آية (36).

[463] صحيح البخاري، حديث رقم (6018)، صحيح مسلم، حديث رقم (47).

فمن ملأ يومه بالوجوه، والموسيقى، والصيحات، والمقاطع الفارغة، فعليه أن يسأل نفسه: أين القرآن في قلبي؟ أين الذكر؟ أين التركيز؟ ويجب أن نعيد النظر في أسلوب حياتنا:

- ما هو نظامي الغذائي الرقمي؟
- بماذا أغذي عينيّ، وأذنيّ، وقلبي كل يوم؟
- هل أنا تابع لله أم تابع للخوارزميات؟ الشاشة التي في يدك ليست لعبة. إنها بوابة إلى الجنة أو إلى النار.

وعدد الإعجابات على فيديوهاتك لن يثقّل ميزانك يوم القيامة. لكن الكلمات التي قلتها، أو نشرتها، أو سكتَّ عنها نعم، تلك سيكون لها وزن.

39.5 الخاتمة"

المعركة على الحقيقة اليوم ليست معركة صحفية فقط، بل هي معركة أخلاقية. نحن نعيش في عالم قد يكون فيه الصمت حكمة أحيانًا، وقد يكون فيه الكلام خيانة، إذا لم يكن متجذرًا في العلم والحق. وسائل الإعلام لم تعد مرايا محايدة. إنها تصوغ الواقع، وتلون عواطفنا، وتحدد من نراه مجرمًا ومن نراه ضحية. إنها تطبع المعصية، وتعرض الفتنة كأنها شيء عادي، وتجعل السطحية أسلوب حياة. ومن ينجرف في هذا التيار دون مقاومة، يفقد روحه دون أن يشعر. ومن يشاهد كل شيء، ويسمع كل شيء، وينقل كل شيء، يصير قلبه قاسيًا ومخدرًا. فيفقد القلب حساسيته، وتفقد العين حياءها.

لكن القرآن يعلّمنا أن الهداية لا تأتي من الأصوات المنتشرة، بل من الوحي. لا من الصيحات، بل من الحق. لا من المؤثرين المشهورين، بل من الأصول النبوية. ولذلك يدعونا الله إلى ثلاث خطوات:

- **التبين:** أن نتحقق مما نسمع، ولا نصدق كل شيء.
- **التفكر:** أن نتأمل فيما نرى، وكيف يؤثر في قلوبنا.
- **التقوى:** أن نستحضر أننا سنُسأل عما ننشره، وعما نقوله.

فالعين التي تنظر ستشهد، والأصابع التي تمرر ستنطق، واللسان الذي ينشر سيُحاسب. والمسلم الحقيقي ليس من يذوب في الضجيج، بل من يجرؤ على السكون، ويجرؤ على الثبات على الحق. في هذا المقام قال سبحانه وتعالى: ﴿**يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون**﴾[464].

[464] سورة النور، آية (24).

الفصل 40 (الإدمان) وسائل التواصل الاجتماعي، الألعاب، المواد الإباحية:

40.1 الملاحظة:

نعيش في زمن لم يعد فيه الإدمان يدور فقط حول المخدرات أو الكحول، بل حول الشاشات، والنقرات، والدوبامين، والعوالم الرقمية. لقد انتقل الإدمان من الشارع إلى غرفة الجلوس، ومن الحقنة إلى التمرير بالإصبع، لكن الأثر بقي كما هو: فقدان السيطرة، والعزلة، والانفصال عن الله.

ومن أكثر أشكال الإدمان انتشارًا وأشدها استهانة: إدمان وسائل التواصل الاجتماعي. وقد سبق الحديث عنه، لكنه ما يزال موضوعًا ملحًّا: فالناس يمررون الساعات الطوال، وتخبو أرواحهم، ويضيع وقتهم، وتركيزهم، وحساسيتهم الإيمانية.

لكن هناك إدمانًا آخر يتسع أكثر فأكثر، خاصة بين الشباب والبالغين أيضًا: **إدمان الألعاب**. فالألعاب الإلكترونية مثل **Brawl Stars** و**Mobile Legends** و**FIFA** و**Call of Duty** و**Fortnite** و**Valorant** تلتهم الوقت، والعلاقات، بل وحتى الهوية. يقضي الشباب ساعات يوميًا في عوالم رقمية، ويحددون مواعيدهم مع الأصدقاء عبر الإنترنت كما لو كانت رياضة حقيقية، بل إن بعضهم يخصص غرفة كاملة لتكون منطقة ألعاب. وما بدأ كتسلية صار عند كثيرين ملجأً يهربون إليه من كل ما لا يستطيعون تحمّله في الحياة الواقعية: الضغط، والفشل، وضغط الأسرة، والتوقعات.

بل حتى بعض الآباء، وهم أصحاب أسر، يقعون في هذا الإدمان. فلا يعودون يتحملون مسؤولياتهم، ولا يعملون، ويتجنبون الواقع، ويختبئون وراء عالم افتراضي يمنحهم شعورًا زائفًا بالسيطرة والمكافأة، بينما هو في الحقيقة يستنزف أرواحهم.

ثم هناك الخراب الصامت في مجتمعاتنا: **إدمان القمار**. ففي بلدان مثل إندونيسيا صار هذا مأساة متفاقمة: تطبيقات مثل **Djute Slot**، ومنصات القمار الإلكتروني، والمراهنات الرقمية، والمسابقات المالية، كلها تدمر الأسر. رجال يستدينون، ويخسرون كل شيء، ويغرقون في الديون، ثم يفقدون في النهاية كرامتهم. وعندنا أيضًا؟ محلات المراهنات، والمراهنات الرياضية، وصالات القمار، بل إن بعضها يُدار من أناس يسمّون أنفسهم مسلمين. فكيف وصل بنا الحال إلى هذا؟

لكن أعظم فتنة، وأخطر مدمّر صامت في بيوتنا، هو بلا شك: **المواد الإباحية**. فهي موجودة في كل مكان؛ في الهواتف، وفي غرف النوم، وعند الشباب، وحتى عند المتزوجين. وهي إدمان مدمر، يفتك بالروح. لقد

عرفت طلابًا عندي في سن الرابعة عشرة والخامسة عشرة كانوا يشاهدون الإباحية يوميًا. فتصورهم عن الزواج، والمرأة، والحب، والجنس، قد تشوّه بالكامل. وبعضهم يصل به الأمر إلى تأجيل الزواج أو الهروب منه، لأن شهوته تُشبع بلا أي مسؤولية. ثم إذا تزوج، حمل معه تلك الصور، وتلك التوقعات، وتلك الأضرار إلى حياته الزوجية، مما يؤدي إلى عدم الرضا، والجفاء، والحياء المكسور، أو حتى استمرار الإدمان داخل الزواج نفسه. ومما يزيد الأمر سوءًا أن الأطفال اليوم صاروا في سن التاسعة أو العاشرة يعرفون مصطلحات جنسية. وكثير منهم يستعملون كلمات لا يفهمونها حقًا، لكنها تفسد نظرتهم إلى الجنس والعلاقات. والتربية الجنسية في المدارس، مهما كانت النيات فيها حسنة، تسهم كثيرًا في التعرض المبكر لهذه المواضيع، دون أن يُمنح الأطفال إطارًا أخلاقيًا يوجّههم. وفي الوقت نفسه، يتلقون عبر وسائل التواصل، والألعاب، واليوتيوب، صورة عن الجنس لا علاقة لها بالكرامة، ولا بالحب، ولا بالمسؤولية.

هذه ليست مشكلة صغيرة. بل هي وباء في الأمة. ومع ذلك، نسميه أحيانًا "أمرًا طبيعيًا"، أو "شيئًا لا يمكن اجتنابه"، أو "شأنًا شخصيًا". لكن الروح تتألم، والمجتمع كله يتأذى. وإلى جانب وسائل التواصل، والألعاب، والإباحية، هناك إدمان آخر منتشر في كل مكان، لكنه يُتجاهل لأنه مقبول اجتماعيًا: **التدخين، والفيب، والشيشة، وغاز الضحك.**

في كثير من المدن يفتح المسلمون أنفسهم مقاهي شيشة، وهي أماكن يجتمع فيها الناس للتدخين، أو استعمال الفيب، أو حتى غاز الضحك، تحت شعار الألفة والاسترخاء. وغالبًا ما تُزيَّن هذه الأماكن بالخط العربي، والزخارف الإسلامية، والوجبات الحلال، وكأن هذا يجعل التدخين أقل إشكالًا أو أكثر قبولًا ثقافيًا.

وما يجعل هذا الإدمان خطيرًا هو هذا التطبيع نفسه داخل المجتمعات المسلمة. ففي بلدان مثل إندونيسيا، وتركيا، ولبنان، وسوريا، لا يُنظر إلى التدخين غالبًا على أنه منكر، بل كجزء من الثقافة. والشيشة في لبنان طقس اجتماعي عادي. والشباب في جاكرتا، أو إسطنبول، أو دمشق، يرون السجائر أو الفيب شيئًا يفعله الجميع. فلا يُنظر إليه حتى على أنه إدمان، بل كجزء من البلوغ أو من الرجولة.

والأشد إيلامًا: أن بعض الناس الذين أنهوا لتوهم الصلاة في المسجد يقفون بعد ذلك مباشرة عند الباب ليدخنوا. وإذا نُوقشوا في ذلك، كان جوابهم في الغالب: يا أخي، الأمر فقط مكروه! والفيب والشيشة يُنظَر إليهما غالبًا كبدائل "خفيفة"، لكنهما في الحقيقة يسببان الإدمان، والضرر، ويدفعان إلى الاعتداء على الجسد الذي ائتمنك الله عليه. أما غاز الضحك والمواد المشابهة، فهي تؤذي الدماغ مباشرة، ويستعملها بعض الشباب بدافع الملل أو للهروب من واقعهم.

والمفارقة الكبرى في زماننا؟ أن الشباب يفضلون إنفاق أموالهم على الدخان، والبخار، والفراغ، بدل أن ينفقوها على العلم أو دروس القرآن. وأن آباء يقلقون على المستقبل الديني لأبنائهم، لكنهم في الوقت نفسه يسكتون عن كونهم مجرد مسترخين في مقهى شيشة. وكل هذا بينما الأمة تصرخ طلبًا للإصلاح، والوضوح، وتحمل المسؤولية. ويضاف إلى ذلك شكل جديد من الإدمان: **المشاهدة المتواصلة للمسلسلات، ودراما نتفليكس، والأنمي**. فما يبدأ بحلقة واحدة، يتحول إلى ليلة كاملة، ثم إلى موسم كامل، ثم إلى عادة تلتهم القلب. وتصبح الشخصيات الخيالية أكثر حضورًا في النفس من سيرة النبي ﷺ. وتصبح قصص الناس أحب إلى القلب من كلام الله.

والنتيجة واضحة: • صلاة تُؤجَّل دائمًا إلى آخر لحظة. • ومصحف يبقى مغلقًا.
• ورأس ممتلئ بالصور، لكن قلبًا فارغًا.

وقد لا يكون هذا النوع من الإدمان حرامًا ظاهرًا في كل حال، لكنه يطفئ النور الداخلي. فمحبة الله لا تختفي دفعة واحدة، بل تذبل ببطء تحت سيل الانشغال الدائم. وهذا بالضبط ما تفعله ثقافة الشاشات: تملأ عينيك وأذنيك حتى لا يبقى في القلب مكان للذكر، ولا للصمت، ولا لله. إن الإدمان ليس مجرد عادة. بل هو شكل حديث من أشكال العبادة الزائفة. إنه أن تُسلِّم وقتك، وراحتك، وشهواتك، وفي النهاية قلبك، لشيء غير الله. وكل وثنية، بأي صورة جاءت، لها ثمن.

40.2 الآيات القرآنية:

الآية الأولى: قال تعالى: ﴿**أَفَرَأَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ**﴾[465]

• يصف ابن عاشور هذه الآية بأنها القاع الذي تنتهي إليه حالة الانحطاط الروحي: حين يعبد الإنسان شهوته كأنها أوامر إلهية. فحتى مع وجود العلم قد يضل المرء إذا قدّم هواه على الوحي. وهذا هو جوهر الإدمان: العقل يعلم أن الأمر خطأ، لكن القلب قد أُغلِق.

• ويبين القرطبي أن هذا الإنسان يهين نفسه حين يرفع شهوته فوق سلطان الله. وختم القلب، والسمع، والبصر هو عقوبة لمن يصر على الذنب رغم الإنذارات.

[465] سورة الجاثية، آية (23).

• ويفسر الرازي ذلك بأنه عمى روحي ناتج عن أنانية متجذرة. فمن يتبع هواه بلا توبة يُترك لنفسه، وليس هناك ضلال أشد من أن يُترك الإنسان لنفسه[466].

الآية الثالثة: قال تعالى: ﴿**وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا ۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ**﴾[467]

• يسمي ابن عاشور هذه الآية وصفًا لحالة **الغفلة**. فهؤلاء ليسوا أغبياء، لكنهم يرفضون أن يتفكروا. لقد خدر إدمانهم على الدنيا والشهوات حواسهم الروحية.

• ويشبههم القرطبي بالأنعام لأنهم لا يستجيبون إلا للمحفزات الأولية: الطعام، والنوم، واللذة. ولا يستعملون عقولهم فيما خُلقت له، ولذلك صاروا أضل من الحيوان.

• ويرى الرازي أن هذه هي حال من أدمن الذنوب واللهو الدنيوي: يسمع الحق ولا يريد أن يقبله، ويرى الآيات ولا يستجيب. فقلبه صار مغلقًا أمام الهداية[468].

الآية الثالثة: قال تعالى: ﴿**وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ**﴾[469]

• يؤكد ابن عاشور أن اتباع الهوى خطر دائم على سلامة المسلم الروحية. ولا سيما من كان له تأثير على غيره؛ كالقادة، والآباء، والمعلمين، إذ إن ضلالهم ينعكس على غيرهم.

• ويبيّن القرطبي أن هذه الآية وردت في سياق نبي الله داود عليه السلام، لتذكّرنا بأن حتى الأتقياء ليسوا بمنأى عن الفتنة. وإن نسيان الآخرة هو بداية كثير من صور الإدمان.

• ويرى الرازي أن الهوى عدو داخلي. وخطورته أنه يأتي في صورة راحة، أو حرية، أو تعبير عن الذات، بينما هو في الحقيقة يجر الإنسان شيئًا فشيئًا بعيدًا عن الصراط المستقيم.[470]

---

[466] انظر: الجامع والتحرير ومفاتيح الغيب، تفسير سورة الجاثية.

[467] سورة الأعراف، آية (179).

[468] انظر: الجامع والتحرير ومفاتيح الغيب، تفسير سورة الأعراف.

[469] سورة ص، آية (26).

[470] انظر: الجامع والتحرير ومفاتيح الغيب، تفسير سورة ص.

40.3 التأمل في الحديث:

الحديث: قال النبي ﷺ: "**حُفَّتِ الجنةُ بالمكارِهِ، وحُفَّتِ النارُ بالشهواتِ**"[471].

التأمل: يبين النبي ﷺ هنا حقيقة عميقة: طريق الجنة ليس مفروشًا بالسهولة، بل بالصراع مع النفس والهوى. فالإدمانات، سواء كانت رقمية، أو جسدية، أو نفسية، تمنح إشباعًا مؤقتًا، لكنها تصرف صاحبها عن طريق الله. والمؤمن الحقيقي هو من يروض ميوله، لا من يتبعها.

المعنى العام للحديث: ما عند الله لا يُنال بالتمني، وإنما ببذل الجهد في الطاعة، والتغلب على شهوات النفس وحملها على ما يحبه الله ويرضاه. وفيه بيان لجوامع كلمه ﷺ وبديع بلاغته، وفيه الأمر بالإبتعاد عن الشهوات لأنها الطريق إلى النار والصبر على المكاره لأنها الطريق إلى الجنة.

40.4 الطبقة التأملية:

في الإسلام، الجسد ليس ملكًا مطلقًا لك تتصرف فيه كما تشاء. بل هو **أمانة** من الله عز وجل. كل نَفَس تتنفسه، وكل نبضة قلب تشعر بها، هي هبة. وكل هبة سيُسأل عنها العبد يوم القيامة. ومن يدخّن، أو يستعمل الفيب، أو الشيشة، أو غاز الضحك عن وعي، يدّعي الحرية، لكنه في الحقيقة يعتدي على أمانة. وقد قال النبي ﷺ: "**لَا ضَرَرَ وَلَا ضِرَارَ**"[472] وهنا أصل عظيم من أبواب الخير ولا سيما في المعاملات، وأن الشرع لا يقر الضرر ولا الإضرار. وقال أيضاً: "**لا تزول قدما عبد يوم القيامة، حتى يُسأل عن عمره فيم أفناه، وعن علمه، فيم فعل فيه، وعن ماله، من أين اكتسبه، وفيم أنفقه، وعن جسمه فيم أبلاه؟**"[473] وهنا إرشاد من النبي ﷺ لأمته إلى اغتنام الفرص في الحياة للعمل في الآخرة بملء الأوقات بالطاعات، لأنها عمر الإنسان في الدنيا وذخيرته في الآخرة، وأن لكل عبد وقفة للحساب بين يدي الله تعالى. وحين يدخن الشباب، أو يستعملون الفيب أو الشيشة، بل أحيانًا بعد الصلاة مباشرة أو عند باب المسجد، فهم يكشفون عن عدم فهمهم لجدية الإيمان وحرمة الصحة. وغالبًا ما يُهوَّن هذا السلوك بألفاظ فقهية: إنه فقط مكروه. وهنا تكمن المشكلة: نحن لا نستعمل اللغة الدينية لتعميق تقوانا، بل لتبرير رضا النفس عن ذاتها. إن مقاهي الشيشة أصبحت عند الكثير ملجأ. لكن بدل أن يجدوا فيها راحة، يجدون إدمانًا. وبدل الصفاء، يجدون ضبابًا. وبدل

---

[471] صحيح مسلم، حديث رقم (2822).

[472] سنن ابن ماجه، حديث رقم (2340).

[473] سنن الترمذي، حديث رقم (2417).

الأخوة، يجدون فراغًا روحيًا. بينما يقدم لنا الإسلام بدائل صحية: الذكر، والقرآن، والرياضة، والعلم، والأخوة الحقيقية.

وسائل عملية للعلاج:

التوعية في المساجد: ليس للشباب فقط، بل للآباء أيضًا. يجب أن يفهم الآباء أن هذا ليس عادة بريئة، بل ضرر روحي وجسدي.
برامج تطهير روحي: أن نعلم الشباب أن الراحة الحقيقية ليست في الدخان، بل في الصبر، والذكر، والتقوى. وتطهير الجسد يبدأ من القلب.
المتابعة الأبوية والتوجيه: على الآباء أن يقوموا بوضع الحدود، والتصفية، والتصحيح: بمحبة، لكن أيضًا بحزم. فالسهولة المفرطة، والخجل من التربية، عدوّان حقيقيان.
كسر ضغط المجتمع: تطبيع المعصية من أخطر آفات زماننا. يجب أن نتعلم أن نقول لا للموضات، حتى لو خالفنا الجماعة.
قيادات شجاعة: أئمة وعلماء لا يسكتون، بل يتكلمون بصدق، بلا قسوة، بل بحكمة وتعاطف.

وخلاصة الأمر: لا شيء في هذه الدنيا بلا ثمن. لا دخان الشيشة، ولا إعجابات المقاطع، ولا اللذة المؤقتة لعاداتنا. كل شيء له ثمن، وكل اختيار يُوزَن. وهذا الجسد الذي نحمله أمانة. والطريقة التي نحفظ بها شرف هذه الأمانة هي شكل من أشكال شكرنا لله.

40.5 الخاتمة:

الإدمان بكل صوره، سواء كان في المحفزات الرقمية، أو الألعاب، أو المواد الإباحية، أو التدخين، أو غاز الضحك، ليس مجرد مشكلة صحية، بل **بتر روحي**. إنه إدمان القلب، حيث ينفصل القلب عن الله ويلتصق بدنيا لا تشبع أبدًا. الإدمان هو وثنية عصرنا. لا لأن الناس يعبدون أصنامًا ظاهرة، بل لأنهم يمنحون وقتهم، ومحبتهم، وطاقتهم، واهتمامهم لما يصرفهم عن الله. والقرآن يعلمنا أن القلب، والسمع، والبصر، كلها مواضع مسؤولية. والإدمان يدمر هذا التوازن. فهو يجعل الروح صماء عن الحق، وعمياء عن الآيات، وبطيئة عن التوبة. وإذا أردنا أن تحيا أمتنا من جديد، **فعلينا أن:**
• نأخذ معركة الإدمان بجدية. • ونحصّن شبابنا عقلًا وقلبًا. • ونصلح أسرنا من آثار الأذى الرقمي.
• وفوق كل ذلك: نعيد الله إلى مركز حياتنا.

فالحرية ليست أن تفعل ما تشاء، بل أن تتحرر مما يبعدك عن الله. ومن عرف كيف يروّض نفسه، ويكبح شهوته، ويصل روحه بالقرآن من جديد، سيدرك أن السكينة الحقيقية لا تأتي من البكسلات، (برامج الشاشات للأجهزة الإلكترونية) بل من الذكر، والصبر، والعلم، والتقوى. قال تعالى: ﴿**وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ**﴾[474]

الفصل 41 (الهوية في الغرب):

كيف تحافظ على هويتك الإسلامية في مجتمع علماني؟

41.1 الملاحظة:

أنا شخصيًا ابنُ أبٍ بلجيكيٍّ ترك خلفيته المسيحية واتجه إلى الإلحاد، وأمٍّ جزائرية كانت مسلمة من الناحية الثقافية، لكنها لم تكن تعيش الإيمان عمليًا بعمق. نشأتُ في مدينة غنت، بين البلجيكيين، والأتراك، والمغاربة، وغيرهم من الفئات. في مرحلة المراهقة مررتُ بفترات كنتُ أحاول فيها أن أتكيّف مع كل مجموعة. مرةً أسير مع البلجيكيين، ثم مع الأتراك، ثم مع المغاربة... لكنني لم أشعر يومًا أنني أنتمي حقًا إلى مكان. كانت هويتي مشتتة، غير واضحة، مجرّد انعكاس للآخرين. إلى أن تعرّفت على الإسلام حقًا. لا من خلال الثقافة أو الأسرة، بل من خلال القرآن، والعلم، والوعي. وهناك فهمت: **هذا أنا**. ومنذ تلك اللحظة لم أعد تابعًا لغيري، بل أصبحت عبدًا لله. إنسانًا له اتجاه، وقناعة، وتوازن. وهذا بالضبط ما أراه اليوم عند كثير من طلابي. فهم عالقون بين **عوالم ثلاث:**

- ثقافة البيت، حيث يختلط الإسلام أحيانًا بالعادات والتقاليد.
- البيئة المدرسية الغربية، حيث يُنظر إلى الدين على أنه شيء قديم أو مثير للريبة.
- والتصورات عن الإسلام التي يلتقطونها من تيك توك، أو الأصدقاء، أو بعض المساجد، وغالبًا ما تكون متفرقة ومربكة. ومن دون هوية إسلامية راسخة، يصبح الشاب/ة مجرد انعكاس لما يتوقعه المجتمع منه. أما مع العلم، ومحبة الله، والارتباط العميق بالقرآن، فينشأ قوي: الثبات، والسكينة الداخلية، والاتجاه الواضح.

41.2 الآيات القرآنية:

الآية الأولى: قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا ٱدْخُلُوا فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً**﴾[475]

[474] سورة النازعات، آية (40_41).

[475] سورة البقرة، آية (208).

• يؤكد ابن عاشور أن هذا النداء موجَّه إلى مؤمنين يُخشى عليهم أن يختزلوا دينهم في عناصر ثقافية أو في التزام جزئي. فالدخول الكامل في الإسلام يعني: لا تجزئة للدين، ولا فصل بين الإيمان في البيت، أو في المدرسة، أو في الحياة العامة.

• ويشرح القرطبي أن هذه الآية تحذّر من "الإسلام الجزئي "، أي أن يأخذ الإنسان من الدين ما يناسبه في السياق الغربي ويترك ما يشق عليه أو ما لا يحظى بقبول اجتماعي.

• ويرى الرازي في الآية تحذيرًا من النفاق: أن يظهر الإنسان الإسلام، بينما يعيش في باطنه وفق منظومة قيم أخرى[476].

الآية الثانية: قال تعالى: ﴿**إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ**..﴾.[477]

• يذكر ابن عاشور أن هذه الآية تشير إلى أناس لا يربطون هويتهم بمحيطهم، بل يقولون: **ربنا الله،** ثم يثبتون على ذلك، حتى إن كان الثبات اجتماعيًا صعبًا أو مكلفًا.

• ويصف القرطبي هذه الاستقامة بأنها أعلى صور الالتزام: ليس فقط أن تعرف من أنت، بل أن تبقى على ذلك، مهما كان ضغط الجماعة أو فقدان المكانة أو السخرية.

• ويؤكد الرازي أن هذا الثبات نابع من قوة داخلية، ومن قناعة واضحة لا تتقلب مع الموضات أو الآراء. وهؤلاء ينالون طمأنينة من الملائكة، وتأييدًا من الله، وسكينة في الداخل.[478]

41.3 التأمل في الحديث:

الحديث: قال النبي ﷺ:"**يَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ، الصَّابِرُ فِيهِ عَلَى دِينِهِ كَالْقَابِضِ عَلَى الْجَمْرِ**".[479]

التأمل: هذه الكلمات النبوية تصف بدقة تجربة المسلمين في السياق العلماني. فالتمسك بالهوية الدينية قد يشعر الإنسان أحيانًا وكأنه يمسك نارًا بيده: يشعر بالضغط، وبالحكم عليه، وبسوء الفهم. لكن من يثبت، يُكتب عند الله من أهل الاستقامة، ويؤجر أجرًا عظيمًا.

---

[476] انظر: الجامع والتحرير ومفاتيح الغيب، تفسير سورة البقرة.

[477] سورة فصلت، آية (30).

[478] انظر: الجامع والتحرير ومفاتيح الغيب، تفسير سورة فصلت.

[479] سنن الترمذي، آية (2260).

المعنى العام للحديث: يصف حال المؤمنين في أوقات الفتن وكثرة المغريات والفساد، حيث يواجه المتمسك بدينه مشقة عظيمة ومعاناة نفسية واجتماعية تعادل الألم الشديد الذي يشعر به القابض على الجمر.

41.4 الطبقة التأملية:

في مجتمع أصبحت فيه الهوية مفهومًا سائلًا ومربكًا، يأتي الإسلام ليمنح الإنسان الثبات. فالإسلام ليس مجرد سمة ثقافية أو خانة في استمارة. بل هو مصدر اتجاه، ووضوح أخلاقي، وقوة داخلية. وما يحتاجه الشباب اليوم ليس اندماجًا سطحيًا، ولا ذوبانًا ثقافيًا، بل ترسخًا عميقًا في الإيمان. ليس السؤال: **كيف أتكيّف؟** بل: **كيف أبقى أنا، عبدًا لله، في هذا العالم؟** وهذا يتطلب تربية واعية تعلّم الأطفال من هم عباد الله، لا فقط ما يجوز لهم وما لا يجوز. ويتطلب تعليمًا يفتح المجال للهوية والرؤية الحياتية، بدل فرض الحياد كإيديولوجيا. كما يتطلب مرافقة روحية لا تكتفي بتعليم الأحكام، بل تربط الشباب بجمال الإيمان وقوته.

الهوية الإسلامية الراسخة تعني:

- **البداية من البيت:** يجب أن يعلّم الآباء أبناءهم أن هويتهم الأولى هي: **عبد الله**، لا جواز السفر ولا العِرق.
- **ربط الإيمان بالعزة:** علّموا الشباب أن كونهم مسلمين ليس عبئًا، بل شرفًا.
- **إتاحة مساحة للأسئلة:** دعوا الشباب يعبّرون عن شكواهم وتساؤلاتهم دون خجل، ورافقوهم بالعلم.
- **الظهور بهدوء وكرامة:** مارس دينك بسكينة ووقار، حتى في بيئة علمانية.
- **طلب الصحبة الصالحة:** الهوية القوية تنمو في البيئة الجيدة، ومع أصدقاء يسيرون في الطريق نفسه.

وحين يبني الشباب اعتزازًا داخليًا بهويتهم الإسلامية، لا اعتزازًا متكبرًا، بل اعتزازًا ثابتًا، فإنهم لا يعودون تابعين للغير، بل يصبحون بناة جسور. لا يعودون ضحايا لضغط الجماعة، بل قادة في الأخلاق.

41.5 الخاتمة:

الهوية الإسلامية ليست مجموع عادات ثقافية أو رموز ظاهرية. إنها علاقة حيّة بالله، تظهر في القناعة، والسلوك، والاتجاه. وفي مجتمع يحاول في كثير من الأحيان اختزال الدين في الفولكلور، أو جعله مجرد خيار شخصي بلا أثر اجتماعي، فإن التمسك بهذه الهوية ليس أمرًا بديهيًا، بل هو فعل استقامة، وشجاعة، ووعي.

والهوية الإسلامية تعني ألا تترك نفسك تُعرَّف بحسب اتجاهات العصر، أو ضغط الجماعة، أو توقعات المجتمع. بل أن يكون جوابك عن سؤال: **من أنا؟** منطلقًا من قولك: **أنا عبدٌ لله.** وهذا المرساة تمنح الإنسان

اتجاهًا وسط كل العواصف. فالأمر ليس أن تختار بين الشرق أو الغرب، أو بين البيت أو المدرسة، بل أن تظل وفيًّا للجوهر: **رَبُّنَا ٱللَّهُ**، ومَن أدرك ذلك بعمق، تعلّم أن يُبحر في الحياة دون أن يتشوّه. لا بأن يذوب في الأغلبية، بل بأن يثبت، فيكون منارة إيمان وسكينة واتجاه، لنفسه ولغيره. ولذلك فالهوية تحتاج إلى ثلاثة أمور:

1. **الوعي:** أن تعرف أن أفعالك وخياراتك تعود دائمًا إلى إيمانك.
2. **العزة بلا كِبر:** أن تثبت على قيمك الإسلامية دون أن تحتقر الآخرين.
3. **المسؤولية:** أن تدرك أن هويتك لا تحملك وحدك، بل تُسهم في تشكيل المجتمع الذي تعيش فيه.

فالهوية ليست شكلاً ترتديه، بل مرساة تحملك. ومن غرس هذه المرساة عميقًا في أرض القرآن والسنة، فلن تجرفه أمواج الشك، ولا الموضات، ولا ضغط الجماعة، بل يظل ثابتًا حتى يلقى الله.

الفصل 42 (الرأسمالية[480] والفردانية[481]) المال ووهم الأمان:

42.1 الملاحظة:

نعيش في عالم لم يعد فيه المال وسيلة، بل أصبح الغاية القصوى. كل شيء صار يُقاس بالثروة: المكانة، والكرامة، والنفوذ، وحتى الوصول إلى الصحة والتعليم. الفقير بالكاد يُحسب له حساب. أما الغني فيُعظَّم، ويُتبع، ويُقلَّد. وما يلفت النظر أن الفردانية تسير جنبًا إلى جنب مع هذا كله. فالناس أصبحوا أكثر تمركزًا حول أنفسهم: • نادرًا ما يُزار الوالدان،

- وصارت اللقاءات العائلية تُعتبر عبئًا،
- وحتى الجيران بالكاد يسلّم بعضهم على بعض.

في المدن الكبرى يعيش ملايين الناس متقاربين في المكان، لكنهم أبعد من بعضهم عاطفيًا من أي وقت مضى. قد تسكن في عمارة يعيش فيها 200 شخص ولا يعرف أي منهم الآخر. وهذا أدّى إلى مشاهد مؤلمة، مثل ذلك المثال الشهير في الصين، حيث مات رجل في الشارع ولم يتدخل أحد، لأن الأمر لا يعنيهم.
ملاحظة: هناك بالفعل حالات موثقة متعددة، منها حادثة الطفلة يوي يوي في فوشان، حيث تجاهلها المارة.

وفي القرى التقليدية نرى العكس: العائلات تعيش متقاربة، والناس يتقاسمون الطعام، ويرعون أبناء بعضهم، ويقفون إلى جانب بعضهم عند المرض أو الحاجة. نعم، لهذا الواقع أيضًا سلبياته، مثل الغيبة أو الضغط

[480] الرأسمالية: نظام اقتصادي يقوم على الملكية الخاصة لوسائل الإنتاج وخلق السلع والخدمات من أجل الربح.

[481] الفردانية: موقف أخلاقي وفلسفة سياسية أو نظرة اجتماعية تؤكد على القيمة المعنوية للفرد، تدعو الفردانية إلى ممارسة أهداف الفرد ورغباته لتكون قيمة مستقلة ومعتمداً على نفسه.

الاجتماعي، لكن فيه دفئًا إنسانيًا افتقدناه في حياة المدن الرأسمالية. لقد انتقلنا من عقلية الجماعة إلى فرط الفردانية. مَن نحن إلى أنا. من الأمة إلى صورة السيلفي. لقد ترسخت العقلية الرأسمالية عميقًا في قلوبنا وعقولنا: المال = أمان، والنجاح = ثروة.

يُربّى الأطفال منذ الصغر على أن يصبحوا شيئًا، والمقصود غالبًا: أن يكسبوا جيدًا، ويصنعوا مسيرة مهنية، ويبنون ممتلكات. وصارت الهوية مرتبطة بالشهادات، والألقاب، والعلامات الفاخرة، ووجهات السفر. لكن ماذا لو انهار الاقتصاد؟ ماذا لو اندلعت حرب أو خانت الصحة أصحاب الملايين؟ عندها ينهار كل شيء، لأن الأساس كان هشًّا. وفي الأثناء يعمل النظام بأقصى طاقته. الجميع يحاول أن يرفع نفسه على أكتاف غيره. الشركات المتعددة الجنسيات تحقق المليارات، بينما العمال في أنحاء العالم يتقاضون أجورًا زهيدة. وفي دول الخليج بُنيت ناطحات مذهلة على حساب عمّال مضطهدين تُساء معاملتهم. فالعبودية صارت تُسمّى عملًا، والإنسان صار قابلًا للاستبدال.

لقد وُضع الإنسان المعاصر في قفص ذهبي: يعمل أربعين سنة، ويدفع الضرائب على كل شيء تقريبًا؛ على الراتب، والطعام، والسكن، والوقود، والمعاملات البنكية، وحتى الموت تُفرض عليه أعباء. وفي بلجيكا نحن من أكثر البلدان ضريبة في العالم. وإن لم تدفع؟ تأتيك الحجوزات، والغرامات، وربما السجن. ومع ذلك يسمون هذا حرية. لكن مَن الذي يحكم هذا العالم فعلًا؟ ليس السياسيون الذين ننتخبهم. هؤلاء مجرد منفذين. القوة الحقيقية بيد عدد قليل من العائلات شديدة الثراء، والبنوك، وعمالقة التكنولوجيا، وأصحاب السلاح. فكّر في شركات مثل **Raytheon** و**Lockheed Martin** و**Northrop Grumman**، وهي من عمالقة صناعة السلاح. كل حرب بالنسبة لهم تعني أرباحًا. فالحروب لا تُشن دائمًا من أجل السلام، بل من أجل الموارد، أو السيطرة الاستراتيجية، أو الربح الاقتصادي البحت.

إنهم يملكون التكنولوجيا، والأسلحة النووية، ووسائل الاتصال، والإعلام. يخلقون الخوف ثم يبيعون الأمان. يزعزعون مناطق بأكملها ثم يرسلون قوات حفظ السلام، وكل ذلك ممول من أموال ضرائبنا.

كما أن اللوبيات الصهيونية[482] مثل **AIPAC** تؤثر علنًا في السياسة الخارجية للقوى العالمية. جرائم الحرب تُهوَّن، والإبادة الجماعية تُنكر أو يُسكت عنها، كما يحدث في غزة. والولايات المتحدة التي تتحدث عن حقوق الإنسان، هي نفسها التي تمد الأنظمة القامعة بمليارات الدولارات من السلاح.

[482] اللوبي الصهيوني: أو يسمى باللوبي المؤيد لإسرائيل، تعبير يسمح بوصف مجموعة من الأفراد والمؤسسات التي تعمل بنشاط على توجيه السياسة الخارجية الأمريكية بما يحقق مصالح إسرائيل.

أما عمالقة التقنية مثل **Apple** و**Meta** و**Microsoft** و**Google**، فهم يتحكمون فيما نراه، ونسمعه، ونصدقه. يجمعون بياناتنا، ويشكّلون رؤيتنا للعالم، ويحددون ما يظهر وما يُخفى. ومع ظهور الذكاء الاصطناعي أصبحت هذه السيطرة أكثر خفاءً واتساعًا. بل حتى رغباتنا يمكن توجيهها.

لقد أصبح العالم اليوم شبكة عنكبوت كبرى. نظن أننا أحرار، لكننا عالقون؛ في الديون، والضرائب، وضغط الإنجاز، والإدمان الرقمي. ومن الذي نسج هذه الشبكة؟ الأغنياء الكبار، والشركات العملاقة، وصناعات السلاح، وجماعات الضغط، والخوارزميات، والسياسيون الدمى. تستخدم القوى الكبرى الحروب لتزداد ثراءً، وتؤثر في الانتخابات، وتُبقي الشعوب أسيرة نظامٍ يتقاتل فيه الفقراء فيما بينهم بينما الأغنياء يضحكون.

ثم نتحدث بعد ذلك عن الديمقراطية؟ وعن الحرية؟ نحن نعيش في عالم تُخرجه رؤوس الأموال.
فراعنة العصر لا يلبسون التاج، بل البدل الرسمية. ومعابد اليوم ليست إلا البنوك والبورصات.
وأما نحن، فننحني أحيانًا من غير أن نشعر لأصنام لم يأذن بها الله.

42.2 الآيات القرآنية:

الآية الأولى: قال تعالى: ﴿**مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلۡعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتۡ بَيۡتٗاۖ وَإِنَّ أَوۡهَنَ ٱلۡبُيُوتِ لَبَيۡتُ ٱلۡعَنكَبُوتِۖ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ**﴾[483]

• يوضح ابن عاشور أن الله يستخدم هنا استعارة قوية: فالذين يضعون ثقتهم في أنظمة أو قوى من دون الله، مثل المال، أو الرأسمالية، أو القوى الدنيوية، إنما يبنون في الحقيقة على شيء هش كبيت العنكبوت. وما يبدو من بعيد متماسكًا، يتفكك بمجرد الملامسة.

• ويشير القرطبي إلى الطابع الأناني للعنكبوت: فهي تعيش في عزلة، وقد تأكل صغارها، وتنسج بيتها لمصلحتها الذاتية وحدها. وكذلك أهل النظام الرأسمالي كثيرًا ما يتصفون بالفردانية، والتنافسية، والاستعداد للتضحية بالآخرين من أجل التقدم الشخصي.

• ويذكر الرازي أن هذه الآية تمثيل قوي لمن يظن أن له قوة واستنادًا خارج الله. فالبنى السياسية، والاقتصادية، والعسكرية قد تبدو متينة، لكنها فارغة روحيًا، وهشة في بنيتها. كما يبين أن الآية لا تتحدث فقط عن الشرك الظاهر، بل أيضًا عن الأصنام الذهنية: الأشياء التي يطلب الناس فيها الأمان، مثل الوظيفة، والممتلكات، والتحالفات السياسية. لكن هذه البيوت خادعة، لأنه ما إن تأتي الأزمة حتى تتكشف حقيقتها[484].

---

[483] سورة العنكبوت، آية (41).

[484] انظر: الجامع والتحرير ومفاتيح الغيب، تفسير سورة العنكبوت.

فكما أن بيت العنكبوت لا يقوى أمام هبة ريح، فكذلك قد تنهار البنوك، وتندلع الحروب، وتسقط الأسواق، فيتبيّن أن الرأسمالية التي وُضع فيها الأمل لا تملك أن تنقذ أحدًا. وكما تصيد العنكبوت فريستها في شبكة لا تراها الذبابة، كذلك يُصاد الناس اليوم في أنظمة من الديون، والضرائب، وضغط الإنجاز، والإدمان الرقمي، من غير أن يشعروا. فالعنكبوت تصطاد الذباب، وإن كان للذباب عيون، لكنه لا يرى الفخ. وهكذا قد تكون لدى الإنسان **بصيرة ظاهرة**، لكنه لا يدرك أنه محاصر في حياة خالية من المعنى الروحي.

رمزية العنكبوت:

• العنكبوت يعيش وحده ← أنانية واعتماد على الذات بلا جماعة.

• العنكبوت قد يلتهم شريكه أو صغاره ← منافسة واستغلال في الاقتصاد الحديث.

• الشبكة تبدو قوية لكنها ضعيفة ← نجاح خارجي وفراغ داخلي.

• الشبكة غير مرئية للذبابة ← الرأسمالية تصطاد الناس دون أن يشعروا.

• العنكبوت ينسج في مواقع استراتيجية ← الأنظمة الرأسمالية تتسلل بذكاء إلى المدارس، والتطبيقات، والقوانين، وحتى المساحات الدينية.

الآية الثانية: قال تعالى: ﴿**ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞ وَزِينَةٞ وَتَفَاخُرُۢ بَيۡنَكُمۡ وَتَكَاثُرٞ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِ**﴾[485]

• يؤكد ابن عاشور على الطبيعة المؤقتة للدنيا. فكل ما يطارده الناس؛ من ثراء، وهيبة، وممتلكات... لا قيمة باقية له إذا لم يكن موصولًا بالآخرة.

• ويرى القرطبي أن هذه الآية تصف مراحل التعلق بالدنيا: من اللعب، إلى الانشغال، إلى الزينة، إلى التفاخر، إلى التكاثر في المال والولد. وهي تحذير من المادية.

• أما الرازي فيعتبرها تحليلًا لنزعات النفس البشرية: ميلها الفطري إلى المزيد. لكن الله يفتح أعيننا هنا على الوهم الكامن خلف هذه الدوافع.[486]

الآية الثالثة: قال تعالى: ﴿**أَلۡهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ حَتَّىٰ زُرۡتُمُ ٱلۡمَقَابِرَ**﴾[487]

---

[485] سورة الحديد، آية (20).

[486] انظر: الجامع والتحرير ومفاتيح الغيب، تفسير سورة الحديد.

[487] سورة التكاثر، آية (1_2).

• يذكر ابن عاشور أن هذه إدانة مباشرة للجشع. فكلمة ألهاكم تدل على أن هذا السعي وراء المزيد شغل الناس عن حقيقتهم، إلى أن جاءهم الموت فأيقظهم.

• ويقول القرطبي إن الناس يظلون يعدّون: أموالهم، ونجاحاتهم، وأبناءهم. لكن لا شيء من ذلك يدخل معهم القبر.

• ويرى الرازي أن الآية تسأل الإنسان عن معنى حياته. فكل نظام قائم على النمو المستمر والمزيد دائمًا هو طريق ضياع لا نهاية له.[488]

42.3 التأمل في الحديث:

الحديث الأول: قال النبي ﷺ: **"لَوْ كَانَ لِابْنِ آدَمَ وَادِيَانِ مِنْ مَالٍ، لَابْتَغَى وَادِيًا ثَالِثًا، وَلَا يَمْلَأُ جَوْفَ ابْنِ آدَمَ إِلَّا التُّرَابُ، وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ تَاب"[489].**

التأمل: يكشف هذا الحديث عن طبيعة الطمع العميقة في الإنسان. فحتى من ملك واديين من ذهب، يطمع في الثالث. والرأسمالية تمجّد هذا الميل: نمو، ربح، مزيد، أفضل بلا سقف. لكن المحطة الأخيرة الوحيدة هي التراب: القبر. والتحرر الحقيقي لا يكون بتكديس المزيد، بل بالتوبة، والرجوع، والقناعة.

المعنى العام للحديث: التحذير من الانشغال بالمال والفتنة به، وأن الإنسان بطبعه يميل إلى حب المال وفيه طمع ولا يشبع منه وليس له حد ينتهي إليه، وهنا إشارة إلى أن المؤمن ينبغي أن يكون أكبر همه العمل للآخرة، وألا يشغل بالدنيا وشهواتها، وفي الحديث ذم الحرص والشره.

الحديث الثاني: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **"لَوْ كَانَتِ الدُّنْيَا تَعْدِلُ عِنْدَ اللهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ، مَا سَقَى كَافِرًا مِنْهَا شَرْبَةَ مَاءٍ".[490]**

التأمل: يضع هذا الحديث هوسنا بالدنيا في حجمه الحقيقي. فما نعدّه كل شيء لا يساوي عند الله جناح بعوضة. ومع ذلك يُضحي الكثير بدينهم، وأخلاقهم، وأسرهم من أجل هذه الدنيا. الرأسمالية تجعل من الدنيا إلهًا، بينما يعلم المؤمن أن هذه الحياة مجرد ممر.

---

[488] انظر: الجامع والتحرير ومفاتيح الغيب، تفسير سورة التكاثر.

[489] صحيح البخاري، حديث رقم (6439).

[490] سنن الترمذي، حديث رقم (2320).

المعنى العام للحديث: الدنيا عند الله هينة دنيئة وحقيرة، ولا تساوي أي شيء، ولا تساوي حتى جناح ذبابة، ولو كانت تساوي عند الله أي شيء ما رزق الكافر ولا حتى سقاه شربة من ماء لأنه لا يستحقها.

الحديث الثالث: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: **"لَيْسَ الْغِنَى عَنْ كَثْرَةِ الْعَرَضِ، وَلَكِنَّ الْغِنَى غِنَى النَّفْسِ".**[491]

التأمل: الرأسمالية تقيس النجاح بما تملك. أما الإسلام فيقيسه بما أنت عليه. الغنى الحقيقي هو القناعة، والسكينة، والتوكل على الله، حتى مع قلة الوسائل. وفي عالم يمتلئ بالحسد، والضغط، والمقارنة، يأتي هذا الحديث صوتًا مضادًا: الاستقرار النفسي أغلى من الرفاه المادي.

المعنى العام للحديث: في هذا الحديث يبين النبي ﷺ المعنى الحقيقي للغنى الواجب على الإنسان، الاجتهاد في تحصيله، والذي يرفع درجاته في الدنيا والآخرة، وفي الحديث تصحيح النبي ﷺ للمفاهيم وتوضيحه للمعاني الشرعية التي تنفع المسلم في دينه ودنياه وآخرته.

42.4 الطبقة التأملية:

نحن نعيش في عالم يظن فيه الإنسان نفسه حرًّا، بينما هو في الحقيقة عالق في شبكة من السيطرة، والاستهلاك، والمنافسة. وكما أن الذبابة تدخل شبكة العنكبوت دون وعي، يتحرك الإنسان المعاصر نحو أفخاخ صُمّمت لتبقيه منشغلًا حتى الموت. والرأسمالية لا تمنح راحة، بل تمنح وهم النجاح. فكل شراء جديد، أو ترقية جديدة، أو استثمار جديد، يطلب المزيد: ساعات أكثر، وديونًا أكثر، وخوفًا أكبر من فقدان ما تملك. وقد سمّى الله هذه الحياة: **الدنيا**؛ أي الأدنى، والحقير، والزائل. ومع ذلك ضحّى الكثير من أجلها بأسرهم، وصلاتهم، وأرواحهم.

يشبّه القرآن الكريم هذا العالم ببيت العنكبوت: يبدو معقّدًا ومنسقًا، لكنه أوهى مما يظنه الناس. فالناس يبنون حياتهم على الربا، أو المكانة، أو الأسهم، أو الإعجابات، بينما هم في الحقيقة يبنون على رمال متحركة. والنتيجة: احتراق نفسي، ووحدة، وفراغ روحي.

نرى كيف يغتني الناس على حساب غيرهم، وكيف تُشعل الحروب من أجل الربح، وكيف يسكت القادة من أجل النفوذ، وكيف تُستخدم التكنولوجيا للسيطرة. فلا حرية بلا بوصلة أخلاقية. ولا قيمة لديمقراطية تُشترى بالمليارات. والدين يُسخر منه، إلا إذا كان يدر ربحًا. في هذا الزمن، تكون **القناعة**، و**التقوى**، و**العبادة** هي

[491] صحيح البخاري، حديث رقم (6446).

المقاومة الحقيقية. فالرجوع إلى البساطة، وإلى الجماعة، وإلى العدل، ليس ضعفًا، بل قوة. فالمسلم ليس مستهلكًا، بل عبد لله. وعزّه لا يكمن في الممتلكات، بل في صفاء القلب وعدله في العمل.

- قلّل من رغباتك: ليس كل ما يلمع يحمل بركة.
- استثمر في العمل لا في الصورة: ما يبقى هو صلاتك، وصدقتك، وكلماتك الطيبة.
- ابحث عن السكينة في الذكر والقرآن: لا في التمرير، أو المشاهدة المتواصلة، أو الشراء.
- أعد تعريف النجاح: ليس ما يقوله الناس عنك، بل ما يكتبه الله لك.

كما قال النبي ﷺ: "**من كانت الدنيا همه فرّق الله عليه أمره، وجعل فقره بين عينيه، ولم يأته من الدنيا إلا ما كُتب له. ومن كانت الآخرة نيته جمع الله له أمره، وجعل غناه في قلبه، وأتته الدنيا وهي راغمة**"[492].

42.5 الخاتمة:

لقد جعلت الرأسمالية من العالم سوقًا يُباع فيه كل شيء، حتى المبادئ، والأخلاق، والإنسانية. واستُبدلت الحرية بالاستهلاك، والجماعة بالمنافسة، والعبادة بالطموح الدنيوي. وفي هذا العالم يصعب أن تميّز بين الحر حقًا، ومن هو عبد أنيق المظهر. والقرآن يعلّمنا أن الغنى في ذاته ليس المشكلة، بل **محبة الغنى** هي المشكلة. ليس ما تملكه هو ما يهلكك، بل ما يملكك. والمسلم الحق لا يقيس النجاح باليورو، أو البيوت، أو الأسهم، بل بصفاء قلبه، وصدقه في معاملاته، وخدمته لله. وعلينا أن نعلّم أبناءنا أن المال وسيلة لا غاية. وأن البساطة قوة. وأن القناعة غنى. وأنه إذا أراد العالم أن يسجنك، فإن الله يفتح لك باب التحرر؛ في الصلاة، والعلم، والجماعة، والإخلاص. فمن اتخذ الله ربًا، لم يجعل من شيء ولا من أحد صنمًا. ومن فهم حقيقة الدنيا، بنى للآخرة. قال تعالى: ﴿**وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۖ وَلَلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ**﴾[493]

الفصل 43 (الاقتصاد الإسلامي) النزاهة والمساءلة:

43.1 الملاحظة:

نعيش في زمن يحمل فيه الكثير من المسلمين هويتهم الدينية في الظاهر؛ لحية، حجاب، عبارة إسلامية على الحائط، لكن ما إن يصل الأمر إلى المال حتى تختفي المبادئ عند الكثير. في مدننا يفتتح الناس محلات ليلية، ومقاهي، ومراكز مراهنات، ومقاهي شيشة، وغالبًا مع ديكور ديني: لوحة عليها سورة يس، أو

[492] سنن الترمذي حديث رقم (2465).

[493] سورة الأنعام، آية (32).

بسم الله عند المدخل، أو صورة للكعبة. وكأن هذه الرموز تجعل الحرام حلالًا فجأة. وفي الورشات تسمع أن الناس يفضّلون الذهاب إلى ميكانيكي غير مسلم بدلًا من مسلم، خوفًا من الغش. لماذا؟ لأنهم مرّوا بتجارب سيئة: تكاليف مخفية، إصلاحات ناقصة، أكاذيب. حتى في بيئة العمل ترى غياب الأمانة. عمّال يتقاضون أجورهم، لكنهم يمضون وقتهم على تيك توك، أو في التسوق الإلكتروني، أو مشاهدة المسلسلات. ثم يشتكون أن الله ضيّق عليهم الرزق. وغالبًا ما يبدأ الأمر منذ المدرسة: أطفال يغشّون، وينسخون الواجبات، ويخدعون غيرهم. مَن لم يتعلم الأمانة في الصغر، فلن يمارسها تلقائيًا في العمل أو التجارة حين يكبر. ثم هناك النظام نفسه: كثير من المسلمين يستفيدون من المزايا الاجتماعية مثل الرعاية الصحية، وإعانات البطالة، والسكن الاجتماعي، دون أن يساهموا فعلًا. عمل في الخفاء، وتهرب ضريبي، ووثائق مزورة بل هناك من يتعمد ألّا يعمل لسنوات طويلة، ويتحصن بالأعذار أو بشهادات عجز مزيفة. وفي المقابل يستخدم مال المجتمع الذي يدفعه الآخرون من ضرائبهم. والمفارقة أن بعض هؤلاء هم أنفسهم من يقفون في المسجد خمس مرات في اليوم. لكن حين يتعلق الأمر بالمال، يبدو أن الدين يدخل في إجازة. يبنون بيوتًا بالربا، ويفتتحون مشاريع بقروض محرمة، ويزوّرون الحقيقة، ويبررون ذلك بقولهم: الجميع يفعل ذلك.

بل الأسوأ من ذلك: أن بعضهم يعيش لعقود من النظام البلجيكي أو الأوروبي، دون أن يعمل عملًا حقيقيًا، ومع ذلك يسافر مرات عدة في السنة إلى بلده الأصلي. رفاهية على حساب الآخرين، بلا أخلاقيات عمل. ليست شيخوخة ولا عجزًا، بل كسلًا ممتدًا. وحين تصلهم رسالة من مؤسسة السكن الاجتماعي تسألهم: هل تملكون عقارًا في الخارج؟ يجيبون بلا تردد: لا. مع أنهم في الواقع يؤجرون عدة شقق أو أراضٍ في المغرب أو الجزائر أو تركيا. وفي الوقت نفسه، يجرؤ هؤلاء أنفسهم على اتهام مَن اشترى بيتًا واحدًا بعد سنوات من التردد عبر قرض عقاري بناءً على فتوى أوروبية. فيُلام ذلك الشخص، بينما من يسيء استخدام النظام عمدًا ويعيش من أموال غيره، يخرج وكأنه بريء. وهذا ليس مقتصرًا على أوروبا. ففي كثير من البلدان الإسلامية نرى أيضًا سلبية تجاه العمل والمسؤولية. بدل أن يأخذ الرجال المبادرة أو يبحثوا عن حلول، يجلس بعضهم حرفيًا بالساعات في الظل في الشارع بحجة الحر. مع أن لا شيء يمنعهم من التطوع، أو بدء تجارة صغيرة، أو الدراسة الذاتية. أحيانًا يصبح الكسل جزءًا متجذرًا من الثقافة، وكأنه أسلوب حياة مقبول. وفي الأثناء تبقى هذه المجتمعات فقيرة، تابعة، ومتأخرة بنيويًا.

هذه هي حقيقة مجتمع وُضع فيه المال والراحة فوق النزاهة. وما دام ذلك لا يتغير، فلن تكون هناك بركة ولا كرامة في حياتنا المالية. وأزمة الاقتصاد الإسلامي ليست مشكلة منفصلة، بل نسيج يمتد عبر **مستويات ثلاث:** الأسر، والمجتمعات، والمؤسسات.

على مستوى الأسرة: نرى كيف ينفلت السلوك الاستهلاكي. مسلمون يصلون خمس مرات، لكنهم في الوقت نفسه يهدرون أطنانًا من الطعام في الإفطارات، والأعراس، والفنادق الشاملة. المطاعم ترمي يوميًا كميات كبيرة من الطعام الحلال، بينما يموت أطفال في غزة وإفريقيا جوعًا. هذا ليس مجرد إسراف، بل مرض روحي، القلب تعوّد على الوفرة، ونسي الشكر والزهد. وفي المقابل نرى المشكلة المعاكسة: البخل. أناس يجمعون، ويكدسون، ويخفون ممتلكاتهم، لكنهم نادرًا ما يشاركون. يفضلون إنفاق المال على الرفاهية بدل الزكاة أو الصدقة. حتى داخل الأسرة يقع الظلم في المواريث: تُنسى البنات، وتُقصى الزوجات الثانية أو الثالثة، ويُحرم أولاد زيجات أخرى من حقوقهم. وهذا ليس مجرد مأساة عائلية، بل تصدع اجتماعي. فالقرآن علّمنا أن الميراث وسيلة لتوزيع الثروة حتى تدور ولا تُحتكر في يد نخبة. وحتى التعدد كانت له وظيفة اجتماعية شبيهة: نشر المال بدل تركيزه. أما اليوم فقد نُسي ذلك، وصار التعدد عند البعض ذريعة للشهوة بدل أن يكون نظامًا للعدالة الاجتماعية.

وعلى مستوى المجتمع: نرى كيف يتوسع التفاوت. حين تتراكم الثروة عند نخبة قليلة، يحدث التفكك الاجتماعي. ففي الجزائر مثلًا، تستأثر فئة صغيرة بثروة البلاد، بينما تعيش الأغلبية في الفقر. والنتيجة متوقعة: يلجأ الناس إلى القروض والربا، ثم يعجزون عن السداد. وينتهي الأمر إلى ديون، ويأس، ثم جريمة: سرقة، ودعارة، ومخدرات، وخمر. فتفقر الأحياء، وتهبط قيمة العقارات، وتتفكك الأسر، وتضطر الدولة لإنفاق الملايين على الشرطة والسجون. وهكذا ينهار الاقتصاد لا ماليًا فقط، بل أخلاقيًا واجتماعيًا أيضًا.

وهناك أيضًا مشكلة أخرى: غياب عقلية العمل. من خلال تجربتنا في الجمعية، نلاحظ أن كثيرًا من الناس يريدون الأخذ، لكنهم لا يريدون تحمل المسؤولية أو بذل الجهد. ينتظرون المساعدة، والدعم، والتبرعات، لكنهم يرفضون اتخاذ خطوات نحو الاستقلال والاستدامة. هذا السلوك يغذي التبعية، ويقضي على المبادرة، ويحرم الأمة من طاقتها. الإسلام يعلّم أن العمل عبادة، لكننا نرى في الواقع كثيرًا من الراحة الزائدة، والكسل، والسلبية. وهذا مرض صامت لا يقل تدميرًا عن الفساد أو الإسراف.

وعلى المستوى المؤسسي: نرى نقصًا فادحًا في النزاهة. مساجد تملك ملايين في الحساب، لكن بلا شفافية مالية. ومنظمات تجمع أموالًا، لكنها لا تقدم محاسبة علنية. وقادة يصرفون مال المجتمع على مشاريع استعراضية بدل الحاجات الحقيقية. والنتيجة: انعدام الثقة والانقسام. فحيث يدور المال بلا أمانة، تغيب البركة. وهكذا تتشكل دائرة مفرغة: إسراف في الأسفل، وكسل واعتماد في الوسط، وفساد في الأعلى. وفي أثناء ذلك كله، يقوّض المجتمع نفسه بنفسه أخلاقيًا واقتصاديًا.

وهذه الأنماط ليست خاصة بالعالم الإسلامي. ففي إندونيسيا، والفلبين، وغيرها شهدت السنوات الأخيرة احتجاجات واسعة لأن الفجوة بين الغني والفقير أصبحت لا تحتمل. والعوامل نفسها تتكرر: نخبة صغيرة تحتكر الثروة، وعامة الناس يغرقون في الديون، والفساد يصبح عاديًا، والشباب لا يرون مستقبلًا. والنتائج معروفة: مظاهرات، وإضرابات، وعنف، وعدم استقرار. وهذا يبين أن الحلول الإسلامية؛ كالزكاة، وتحريم الربا، والتجارة العادلة، والتوزيع عبر الميراث، ليست ترفًا، بل ضرورة لحفظ صحة المجتمعات. لكن توجد أيضًا أمثلة مضيئة. فالمشاريع مثل المزارع، والفيلات، والآبار التي تُدار بنزاهة، تثبت أن الاقتصاد الإسلامي يمكن أن يكون مستدامًا وشفافًا. وتحاول Gardens of the Sincere تجسيد هذا النموذج: لا أموال تضيع في ثقوب سوداء، بل هياكل شبيهة بالوقف تدر عائدًا يعود إلى المجتمع. هذه هي الرؤية الإسلامية: المال ليس غاية نهائية، بل وسيلة لنشر العدل، وتقوية الأسر، وبناء مجتمع سليم.

والإسلام يعلمنا أن الصدق والدخل الطيب لا يقلان أهمية عن الصلاة. فالصلاة تطهر القلب، لكن الصدق المالي يكشف إن كان هذا القلب صادقًا حقًا. فمن اتقى الله، لا بد أن تظهر تقواه عند الصندوق، وفي مكان العمل، وعند ورقة الضرائب.

43.2 الآيات القرآنية:

الآية الأولى: قال تعالى: ﴿**وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ**﴾[494]

• يؤكد ابن عاشور أن هذه الآيات تندد بالنفاق في المعاملات، وتبين أن العدالة في العلاقات المتبادلة أساس لا غنى عنه في المجتمع السليم.

• ويذكر القرطبي أن وعيد ويل يدل على عقوبة شديدة، وأن حتى صور الغش الصغيرة في التجارة تُدان بقوة.

• ويصف الرازي هذا السلوك بأنه مدمر اجتماعيًا، لأنه يزرع الشك ويفسد التعاون النزيه[495].

[494] سورة المطففين، آية (1_3).

[495] انظر: الجامع والتحرير ومفاتيح الغيب، تفسير سورة المطففين.

الآية الثانية: قال تعالى: ﴿**ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ مِنَ ٱلۡمَسِّ**﴾[496]

• يذكر ابن عاشور أن الربا مرض روحي يعكر ميزان الحق والباطل في النفس والمجتمع.

• ويقول القرطبي إن الربا يهدم العدالة الاجتماعية، لأنه يزيد الغني غنى والفقير فقرًا.

• ويرى الرازي أنه يفضي إلى قسوة روحية، فحتى مع الثراء الظاهر يبقى الداخل فارغًا.[497]

الآية الثالثة: قال تعالى: ﴿**وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ**﴾[498]

• يذكر ابن عاشور أن هذه الآية تدين الفساد المؤسسي، خصوصًا حين يُستخدم أصحاب السلطة أو القضاة في تمرير الظلم. فهي تضيف إلى السرقة ذنب استغلال النفوذ.

• ويشدد القرطبي على أن استخدام المال لرشوة القضاة من أعظم صور الفساد، لأنه يهدم الثقة في العدالة.

• ويفسر الرازي درع أخلاقي: فإذا شرع القادة الظلم، انهار المجتمع كله. فالفساد في القمة يفسد الجميع.[499]

الآية الرابعة: قال تعالى: ﴿**وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ**﴾[500]

• يؤكد ابن عاشور أن الله يختبر الإنسان بالمال، ومن لا يشارك ولا ينفق فقد رسب في الاختبار.
• ويشرح القرطبي أن حتى المال الحلال قد يصير وبالًا إذا لم يُؤدَّ حقه، أو أُهملت زكاته.
• ويذكر الرازي أن الثروة ليست غاية، بل وسيلة. فإذا غذّت الأنانية صارت عبئًا لا نعمة[501].

---

[496] سورة البقرة، آية (275).
[497] انظر: الجامع والتحرير ومفاتيح الغيب، تفسير سورة البقرة.
[498] سورة البقرة، آية (188).
[499] انظر: الجامع والتحرير ومفاتيح الغيب، تفسير سورة البقرة.
[500] سورة التوبة، آية (34).
[501] انظر: الجامع والتحرير ومفاتيح الغيب، تفسير سورة التوبة.

الآية الخامسة: قال تعالى: ﴿**كُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ**﴾[502]

• ابن عاشور الآية تقرر التوازن: التمتع بالحلال جائز، لكن الإفراط يقتل الشكر ويقود إلى قسوة القلب.

• ويرى القرطبي فيها نهيًا عامًا عن التبذير، سواء في الطعام، أو اللباس، أو المال. والإسراف عنده من علامات كفران النعمة.

• ويصل الرازي بين الإسراف والاستقرار الاجتماعي: فمن يستهلك أكثر من حاجته، يسهم في خلق الظلم وعدم التوازن.[503]

الآية السادسة: قال تعالى: ﴿**وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ**﴾[504]

• يسمي ابن عاشور أصلًا في النفقة، فالرعاية المالية تبدأ من الأسرة، وهي مسؤولية شرعية لا خيار شخصي.

• ويؤكد القرطبي أن الإنفاق يجب أن يكون "بالمعروف ": لا شحًا ولا تبذيرًا.

• ويرى الرازي أن من لا ينفق على أهله كما ينبغي، تنزع البركة من ماله. فالأسرة هي الدائرة الأولى للعدل[505].

الآية السابعة: قال تعالى: ﴿**هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ**﴾[506]

• يبين ابن عاشور أن هذه دعوة للحركة، والسعي، والتجارة، والاستكشاف. فلا ينتظر الإنسان رزقه في سلبية، بل يخرج في طلبه.

• ويربط القرطبي الآية بريادة الأعمال: السفر، والعمل، كلها عبادات إذا كانت حلالًا وبنية صادقة.
• ويؤكد الرازي أن الرزق لم يُوزع في مكان واحد، بل نُثر في الأرض ليتحرك الناس، ويتعلموا، ويتعاونوا.[507]

---

[502] سورة الأعراف، آية (31).

[503] انظر: الجامع والتحرير ومفاتيح الغيب، تفسير سورة الأعراف.

[504] سورة البقرة، آية (233).

[505] انظر: الجامع والتحرير ومفاتيح الغيب، تفسير سورة البقرة.

[506] سورة الملك، آية (15).

[507] انظر: الجامع والتحرير ومفاتيح الغيب، تفسير سورة الملك.

الآية الثامنة: قال تعالى: ﴿**وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ**﴾[508]

• يرى ابن عاشور في هذه الآية اعترافًا بأن التجارة والكسب مشروعان عظيمان، وقد يوازيان الجهاد إذا صحت النية.

• ويقول القرطبي إن الآية تظهر التوازن بين الدنيا والدين: فكلا الاقتصاد والجهاد يمكن أن يكون عبادة إذا كان في سبيل الله.

• ويذكر الرازي أن التجارة والعمل جهاد ضد الكسل والتبعية، وهو جهاد لحفظ الكرامة والاستقلال.[509]

الآية التاسعة: قال تعالى: ﴿**يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ**﴾[510]

• يؤكد ابن عاشور أن الآية تبين أن الميراث ليس أمرًا عشوائيًا، بل ترتيب إلهي يضمن دوران المال وانتشاره.

• ويقول القرطبي إن الظلم في المواريث من أعظم الذنوب، لأنه يكسر الأسرة والعدالة الاجتماعية معًا.

• ويشرح الرازي الحكمة من ذلك: أن قواعد الإرث توزع المال كي لا يبقى محصورًا عند فئة قليلة. فهو أداة ضد التفاوت.[511]

الآية العاشرة: قال تعالى: ﴿**وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ**﴾[512]

• يرى ابن عاشور أن هذه الآية خطاب مباشر للأغنياء وأهل القيادة كي يوزعوا الموارد بعدل. فالامتناع عن إعطاء الحقوق ظلم، والتبذير سلوك شيطاني.

• ويؤكد القرطبي أن الآية تجمع بين صلة الرحم، والصدقة، والمسؤولية الاجتماعية.

---

[508] سورة المزمل، آية (20).

[509] انظر: الجامع والتحرير ومفاتيح الغيب، تفسير سورة المزمل.

[510] سورة النساء، آية (11).

[511] انظر: الجامع والتحرير ومفاتيح الغيب، تفسير سورة النساء.

[512] سورة الإسراء، آية (26_27).

• ويربط الرازي ذلك بالسياسات العامة: فالمجتمع الذي يحتكر فيه المال أو يُهدر، يتحول إلى مجتمع من الفوضى واللامساواة.[513]

الآية الحادية عشر: قال تعالى: ﴿**كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ**﴾[514]

• يذكر ابن عاشور أن هذه الآية تمثل جوهر العدالة الاقتصادية في الإسلام: المال ينبغي أن يدور، لا أن يبقى حكرًا على نخبة.

• ويشدد القرطبي على أنها قاعدة أساسية في الزكاة، والغنائم، والهياكل الاقتصادية في الأمة، لمنع تكون الاحتكار.

• ويبين الرازي أن الله يحذر هنا من ترك الثروة في أيدي الأغنياء فقط، لأن النتيجة تكون فسادًا اجتماعيًا: فقر، وجريمة، وانتفاضات[515].

43.3 التأمل في الحديث:

الحديث الأول: قال النبي ﷺ: "**من غش فليس منا**"[516].
الحديث الثاني: قال النبي ﷺ: "**المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كل خير**"[517].

التأمل: هذان الحديثان يبرزان أهمية القوة الأخلاقية والقوة العملية معًا. فالغش يهدم أساس المجتمع، والضعف؛ في الخلق أو في المبادرة أو في القدرة على الإنتاج؛ يعوق النهوض. والإسلام يدعو المسلم إلى أن يكون قويًا، نزيهًا، فاعلًا، ومؤثرًا في سلوكه وفي عطائه للمجتمع.

المعنى العام للحديث: ليس على هدينا وطريقتنا ويُعد تحذيراً شديداً من كل صور الخداع والتدليس في المعاملات، الغش والخداع يجلب على المجتمع الويلات والبغضاء والتشاحن بين الناس. أما التآزر والقوة والمحبة والتماسك بين أفراد المجتمع يؤدي إلى أساس متين ومجتمع يسوده المحبة والألفة بين الناس.

---

[513] انظر: الجامع والتحرير ومفاتيح الغيب، تفسير سورة الإسراء.
[514] سورة الحشر، آية (7).
[515] انظر: الجامع والتحرير ومفاتيح الغيب، تفسير سورة الحشر.
[516] صحيح مسلم، حديث رقم (102).
[517] صحيح البخاري، حديث رقم (6026).

43.4 الطبقة التأملية:

يرسم القرآن تصورًا اقتصاديًا لا هو رأسمالي ولا شيوعي، بل طريقًا من العدالة، والاعتدال، والمسؤولية. فالمال الذي في أيدينا ليس ملكية مطلقة، بل **أمانة** من الله ﷻ. والصلاة تطهر القلب، لكن التعامل مع المال يكشف إن كان هذا القلب صادقًا فعلًا. وتعلمنا الآيات **ثلاث مواقف أساسية:** ألا نسرف، وأن نرعى من حولنا، وأن نجعل المال يدور بين الناس. فمن يأكل ويشرب بلا حدود، يدرّب قلبه على التعلق بالوفرة لا بالشكر. ومن يكنز بينما يهمل أسرته، أو الفقراء، أو المجتمع، يفقد بركة ماله. ومن يترك الثروة تتجمع في يد نخبة، يهيئ مجتمعه للفقر والجريمة والانفجار. وحتى في أحكام الميراث، وضع الإسلام نظامًا يمنع تركز الثروة في يد أسرة أو طبقة واحدة. فالميراث ليس شأنًا شخصيًا صرفًا، بل ترتيب إلهي يضمن إعادة توزيع المال. فحين يأخذ الأولاد، والآباء، والأقارب حقوقهم، ينتقل المال إلى دوائر متعددة في المجتمع، فتضعف الاحتكارات، وتقوى العدالة. وهذه ليست تحذيرات نظرية. نحن نرى اليوم كيف تقود اللامساواة إلى الاحتجاج والانهيار. فإذا احتكر القليلون الثروة، اتسع فقر الكثيرين. وإذا صار الاستهلاك بلا ضابط، مات الشكر. وإذا استقر الكسل والاعتماد، اختنقت المبادرة. والقرآن يبين لنا أن الاقتصاد ليس منفصلًا عن الروح، بل هو مرآة للنفس وللضمير. فالأمانة ليست مجرد فضيلة اجتماعية، بل فريضة إيمانية. كما أن قوة المؤمن لا تعني مجرد القوة البدنية، بل تشمل الاستقلال الاقتصادي، والإبداع، والمبادرة. فماذا يطلب منا هذا اليوم؟

الاعتدال والشكر: يجب أن نعلم الأسر والشباب أن يستهلكوا بوعي. فلا إسراف في الأعراس، ولا في الموائد المفتوحة، ولا في الفنادق الفاخرة، بل ثقافة بساطة وتقاسم.

المسؤولية داخل الأسرة: النفقة على الزوجة، والأولاد، والوالدين ليست رفاهية، بل عبادة. وأول دائرة للعدل تبدأ في البيت.

العمل والتجارة كعبادة: العمل ليس مجرد بقاء. إنه بناء للاستقلال، وإنشاء لمشاريع عادلة، وخلق لفرص للآخرين. لا تبقَ موظفًا فقط، بل طوّر رؤية ومبادرة.

دوران المال: يجب ألا يبقى المال في يد قلة. ويتحقق هذا بالزكاة، والميراث، والوقف، وبأن ندعم بعضنا في البيع والشراء، ونستثمر في مشاريع بعضنا، ونقوي مجتمعنا.

المسؤولية المؤسسية: على المساجد، والجمعيات، والمنظمات أن تكون شفافة. فالمال بلا محاسبة هو مال بلا بركة.

القرآن ليس كتاب نظريات اقتصادية بالمعنى الغربي. لا يقدم لنا جداول مالية أو نماذج سوقية، بل يمنحنا مبادئ: الزهد، والصدق، والتوزيع، والتكافل. وإذا طُبقت هذه المبادئ، نشأ اقتصاد لا ينتج الثروة فحسب، بل ينتج البركة، والعدل، والاستقرار.

ولذلك حان الوقت أن يتوقف المسلمون عن تقليد الأنظمة التي تجعلهم تابعين. نحن مدعوون إلى بناء هياكلنا الخاصة: تمويل حلال، ومشاريع وقف، وتعاونيات، ومؤسسات شفافة. وتحاول Gardens of the Sincere أن تكون مثالًا في ذلك: استثمارات في المزارع، وتمويل حلال، وآبار ماء لا تحقق عائدًا فحسب، بل تخدم المجتمع. هذه هي الرؤية القرآنية: المال وسيلة لا غاية.

نصائح للأمة اليوم:

1. عش ببساطة، وأنفق بسخاء، وكن شفافًا.
2. ابدأ مشاريع تخدم المجتمع، لا نفسك فقط.
3. اعمل بهياكل شبيهة بالوقف حتى يبقى المال متداولًا.
4. شجّع الشباب على الإبداع وريادة الأعمال، لا على التبعية والكسل.
5. اشتروا من بعضكم، واستهلكوا عند بعضكم، ليبقى المال داخل المجتمع.
6. انظر إلى العمل، والإنفاق، والاستثمار على أنها أعمال عبادة.

43.5 الخاتمة:

الاقتصاد الإسلامي ليس نظرية لتعظيم الأرباح، ولا تمجيدًا للفقر. إنه طريق من العدالة، والاعتدال، والبركة. فمن تعامل بصدق، وأنفق على أسرته، وجعل ماله متداولًا، واجتنب الإسراف، فإنه يسهم في بناء مجتمع قوي، عادل، ومتوازن. والقرآن يعلّمنا أن المال ليس هوية، بل أمانة. ومن أضاع هذه الأمانة أو أساء استعمالها، لم يضر نفسه فقط، بل أضر بالمجتمع كله. والحل ليس في تقليد الرأسمالية أو الشيوعية، بل في العودة إلى أصولنا: الزكاة، والميراث، والوقف، والتكافل، والعمل المنتج. والقرآن الكريم يُعلمنا أن المال امتحان. قد يرفعنا إذا استعملناه في العدل، وقد يكسرنا إذا استسلمنا للجشع. والاختيار بأيدينا.

إن الأمة لا تحتاج إلى مسلمين يعيشون على أنظمة الآخرين، بل إلى بُناة: أناس يعملون بصدق، ويبدعون، ويدعمون بعضهم، ويعيدون أرباحهم إلى المجتمع. عندها فقط يعود المال نعمة، لا نقمة.

الفصل 44 (وحدة الأُمّة) الفرقة مرض، والوحدة دواء:

44.1 الملاحظة:

يبلغ عدد المسلمين في العالم اليوم نحو ملياري مسلم، أي ما يقارب 25٪ من سكان العالم. ومع ذلك، فرغم هذا الحضور العددي الكبير، فإن قوتنا ممزقة ومبعثرة. نحن غير قادرين على إدخال الغذاء إلى غزة بشكل جماعي، فضلًا عن إيقاف الإبادة. وكثير من قادة العالم الإسلامي ضعفاء، أو مشترَون، أو خاضعون لمصالح قوى خارجية. وإن سياسة **فرّق تسد** القديمة ما تزال تُطبَّق علينا بنجاح إلى اليوم. لكن هذا التفرق لا يظهر فقط على المستوى العالمي، بل نلمسه أيضًا في مدننا. ففي غنت مثلًا، يوجد مسجدان لا يفصل بينهما إلا نهر، وكانا في الأصل جماعة واحدة، ثم انقسما. وفي كل مكان نرى النمط ذاته: كل عِرق، وكل تيار، يبني مسجده الخاص، وغالبًا مع ضعف في المحتوى والعمل الحقيقي. بل حتى في بلدان قليلة المسلمين، مثل فيتنام[518]، رأيت مسجدين على بُعد أمتار قليلة من بعضهما، لكنهما منفصلان بسبب اختلاف أيديولوجي. وفي مناطق أخرى من البلاد بالكاد تجد مسجدًا واحدًا. كما أن الخلافات الفكرية تزيد الهوة: طول اللحية، ونوع اللباس، والخلافات الصغيرة في الفقه، تتحول كلها إلى أسباب للبعد والاتهام بالضلال. وهكذا نُضيّع الأصل: عبادة الله معًا، وتحمل المسؤولية معًا، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر.

44.2 الآيات القرآنية:

الآية الأولى: قال تعالى: ﴿**وَأَطِيعُوا ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ**﴾[519]

• يؤكد ابن عاشور أن هذه الآية تحمل أمرًا استراتيجيًا: فالفرقة لا تضعف القلوب فقط، بل تُفقد الأُمّة قوتها ومكانتها في المجتمع.

• ويشير الرازي إلى أن الريح في التعبير العربي ترمز أيضًا إلى النصر والهيبة، وهذه تضيع حين يقع التنازع.

• ويقول القرطبي إن هذه الآية تحذير للأمة: فالصراعات السياسية والاجتماعية إذا خلت من النية الصحيحة جرّت الخسارة في الدنيا والدين[520].

---

[518] فيتنام: دولة اشتراكية تقع في شرق جنوب آسيا على شبه جزيرة الهند الصينية، عاصمتها هانوي، وتشتهر بمناظرها الطبيعية الخلابة وتاريخها العريق، واقتصادها النامي بقوة.

[519] سورة الأنفال، آية (46).

[520] انظر: الجامع والتحرير ومفاتيح الغيب، تفسير سورة الأنفال.

الآية الثانية: قال تعالى: ﴿**وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ**﴾[521]

• يصف القرطبي هذه الآية بأنها دستور الوحدة؛ فهي أمر مباشر من الله، ولذلك فهي واجبة لا اختيارية.

• ويشرح ابن عاشور أن الحبل استعارة لحقيقة مركزية يتشبث بها الجميع، مهما اختلفت ثقافاتهم وأصولهم.

• ويقول الرازي من ترك حبل الله وتعلّق بالقومية والطائفية والانقسام، صار سببًا في ضعف الأُمّة وانحطاطها.[522]

الآية الثالثة: قال تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ۚ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ**﴾[523].

• يوضح ابن عاشور أن هذه الآية تبين أن الكفار يجدون دائمًا وسائل ليدعم بعضهم بعضًا سياسيًا واقتصاديًا وعسكريًا، رغم اختلافاتهم. فإذا لم يفعل المسلمون مثل ذلك، ولم يتعاملوا فيما بينهم كأولياء وحلفاء، نشأت الفتنة: ضعف داخلي يقوّي العدو.

• ويقول القرطبي إن الفتنة المذكورة هنا ليست مجرد اضطراب ديني، بل تشمل الفوضى الاجتماعية والظلم والاضطهاد. فإذا بقيت الأُمّة متفرقة لا ينصر بعضها بعضًا، صارت لعبة في يد القوى الخارجية.

• ويشير الرازي إلى أن الآية تمنح الأُمّة تكليفًا اجتماعيًا وسياسيًا واضحًا: أن يكون بعضهم سندًا لبعض، وأن يبنوا نظامًا من الحماية المتبادلة. وترك ذلك يفضي حتمًا إلى **فساد كبير**؛ أي ظلم بنيوي وتدمير شامل[524].

44.3 التأمل في الحديث:

الحديث: قال النبي ﷺ: " **إن الْمُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا**".[525]

التأمل: البناء الذي لا تماسك بين أجزائه ينهار. وقوتنا إنما تأتي من التناصر والتقوية المتبادلة. فإذا واصلنا إضعاف بعضنا بعضًا، والانتقاد الجارح، والتمزيق، فإننا لا نفقد القوة السياسية فقط، بل نفقد البركة والوحدة الروحية أيضًا.

---

[521] سورة آل عمران، آية (103).

[522] انظر: الجامع والتحرير ومفاتيح الغيب، تفسير سورة آل عمران.

[523] سورة الأنفال، آية (73).

[524] انظر: الجامع والتحرير ومفاتيح الغيب، تفسير سورة الأنفال.

[525] صحيح مسلم، حديث رقم (2585).

44.4 الطبقة التأملية:

القرآن والسنة يبينان بوضوح تام أن التفرق ليس مسألة جانبية، بل مرض يشل الأُمّة كلها. فالمجتمع الذي يصلي لكنه يكفّر بعضه بعضًا أو يطعن بعضه في بعض، يفقد قوته. والمجتمع الذي يبني المساجد لكنه يقيم الجدران بين الأعراق أو التيارات، لا يبني أُمّة، بل يبني قرى متوازية منفصلة.

والوحدة لا تعني الذوبان الكامل أو إلغاء الفوارق، بل تعني الاشتراك في أصل جامع: عبادة الله، وتحمل المسؤولية، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر. هذا هو **حبل الله** الذي يجمعنا. وكل ما يُبنى خارج هذا الحبل؛ من قومية، أو تعصب مذهبي، أو افتخار جماعي؛ يؤدي إلى التمزق.

واليوم نرى كيف تشلنا الفرقة في أفعالنا. مليارا مسلم على الأرض، لكننا لا نستطيع إرسال قافلة غذاء إلى غزة بلا إذن دولي. ومجتمعات محلية فيها عشرات المساجد، لكنها بلا مشروع شبابي مشترك. وعائلات تنقسم إلى أعراق وفروع ومجموعات، مع أن القرآن يعلّمنا أن التنوع آية من آيات الله، لا ذريعة للتناحر.

والكفار لهم شبكاتهم وتحالفاتهم ومؤسساتهم، رغم اختلافاتهم الفكرية الكبرى. أما المسلمون، فيُتركون ليتفرقوا بسبب الأصل، أو التيار، أو مسائل صغيرة. والنتيجة هي ما أخبر الله به: **فتنة وفساد.**

ومن الأمثلة الواضحة على معنى **الأولياء** في القرآن ما نراه اليوم في الولايات المتحدة. فرغم الخلافات الداخلية الكثيرة، توجد ثقافة قوية من التعاون والدعم الاقتصادي. فالمواطنون يُشجَّعون على إنشاء المشاريع، وتُستقطب الكفاءات من أنحاء العالم، وتُتبادل المعرفة والابتكار. ومن يملك مهارات في تكنولوجيا المعلومات أو الهندسة من الهند أو بنغلاديش أو باكستان، وكثير منهم مسلمون، يجد فرصًا في كبرى شركات التقنية. كما أن الحركة الداخلية سهلة، فينتقل الناس بين الولايات للدراسة والعمل والتجارة، مما يقوي الاقتصاد والتعليم.

وأوروبا أخذت جزءًا من هذا النموذج عبر الاتحاد الأوروبي: خففت الحدود، وسهّلت التبادل، وربطت الاقتصادات ببعضها. فكانت النتيجة قوة جماعية أكبر مما كان يمكن لكل دولة أن تحققه بمفردها. والقرآن يقول إن الكفار **بعضهم أولياء بعض** فهم يقوّي بعضهم بعضًا رغم اختلافات اللغة والثقافة والتاريخ. فإذا لم يفعل المسلمون ذلك، وقعت الفتنة والفساد. والواقع يؤكد هذا: تفرقنا يضعفنا، وحدودنا تعيق المواهب، وبيروقراطيتنا تخنق المبادرة.

تخيل لو أن:

- أمة مسلمة تشارك خبراتها في التكنولوجيا والبرمجة.
- وأخرى توفر موادها الخام بطريقة عادلة وشفافة.

• وثالثة تتخصص في الهندسة أو الزراعة أو الصحة.
• والشباب ينتقلون بحرية بين هذه البلدان للدراسة والعمل والتجارة، بلا جدران من البيروقراطية أو العصبية العرقية.

هذا هو المعنى العملي لما أراده الله حين أمر أن نكون **أولياء** بعضنا لبعض: لا روحيًا فقط، بل اجتماعيًا، واقتصاديًا، واستراتيجيًا. ولو وُجد اتحاد إسلامي حقيقي يجعل التعاون أمرًا بنيويًا، لكانت الأُمّة أقوى، وأعدل، وأكثر استقلالًا عن القوى الخارجية.

وكان منهج النبي ﷺ دائمًا هو بناء الوحدة على أساس الإيمان والقيم، لا على أساس القبيلة أو النسب. فالمهاجرون والأنصار كانوا جماعتين مختلفتين تمامًا، لكن الإيمان جعلهما إخوة. ونحن اليوم نفعل العكس: لدينا الدين نفسه، ثم نمزقه على أساس الأعراق واللغات والشعارات.

وهذا يتطلب عقلية جديدة:
• **العودة إلى الأصل:** ولاؤنا الأول يجب أن يكون لله ورسوله ﷺ، لا للعرق أو التيار.
• **التعاون فوق الكِبر:** مدرسة واحدة قوية أو مسجد واحد نافع خير من عشر مؤسسات ضعيفة فارغة.
• **التربية على الوحدة:** يجب أن يتعلم الشباب أن اختلافات الفقه أو الثقافة لا تبرر العداوة.
• **التضامن العملي:** اشتروا من بعضكم، وادعموا مشاريع بعضكم، وصلّوا معًا، واعملوا معًا. فبناء الأُمّة يثبت أو ينهار بهذه الأعمال.

فالقوة الحقيقية لا تأتي من العدد، بل من التماسك. سهم واحد يُكسر بسهولة، لكن حزمة من السهام تبقى قوية. ويجب أن تُربينا روحانيتنا على أن الاختلافات تبقى ممكنة، لكننا مع ذلك جسد واحد. كما قال النبي ﷺ: "مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد... ".

44.5 الخاتمة:

إن تفرق الأُمّة ليس مشكلة صغيرة، بل من أهم أسباب ضعفها. لقد حذرنا الله ﷻ من أن النزاع يؤدي إلى ذهاب القوة والهيبة، وأمرنا أن نعتصم جميعًا بحبله. كما بيّن النبي ﷺ أننا بناء واحد، والبناء بلا تماسك ينهار.

ولذلك ينبغي أن نسأل أنفسنا: ما الذي يجمعنا حقًا؟ هل هو الأصل، والثقافة، والمصلحة الحزبية، أم هو القرآن والسنة فعلًا؟ ما دمنا نُفرّق بالصغائر، ستظل قوتنا تتبخر. لكن حين نجتمع على الجوهر، تنزل بركة أعظم من العدد والموارد. إن أُمّة اليوم تحتاج إلى قيادة، وتعاون، ورؤية، لكن قبل ذلك كله تحتاج إلى **أخوة**. والوحدة

الحقيقية تبدأ صغيرة: في بيوتنا، وفي مساجدنا، وفي مدننا. ومن هناك تمتد إلى العالم. فإذا هدمنا الجدران التي بيننا، أمكن للأُمّة أن تعود من جديد منارة قوة وعدل.

الفصل 45 (التعامل مع أتباع الديانات الأخرى) التوازن بين الثبات على الإيمان والعدل مع الآخر:

45.1 الملاحظة:

نعيش اليوم كمسلمين جنبًا إلى جنب مع أناس من ديانات وقناعات مختلفة. ففي الغرب يكون المسلمون غالبًا أقلية، بينما في مناطق أخرى كإفريقيا وآسيا يكون المسلمون هم الأكثرية، لكنهم يعيشون مع المسيحيين، والهندوس، والبوذيين، والملحدين. واليوم نرى طرفين متناقضين في التعامل مع غير المسلمين: هناك من ينسحب انسحابًا كاملًا، ويعزل نفسه، وينظر إلى كل غير مسلم على أنه عدو أو أدنى منزلة. وهناك من يفقد هويته الإسلامية، خوفًا من أن يُنظر إليه على أنه متطرف، أو رغبةً في أن يندمج تمامًا في المجتمع. كما أن السياسة تلعب دورًا مهمًا. فبسبب ما يقع في فلسطين أو سوريا أو غيرهما، ينظر بعض الناس إلى الآخر كله بوصفه عدوًا. وهذا قد يؤدي إلى الاستقطاب، والشك، وفقدان البوصلة الأخلاقية.

وقد نشأتُ أنا شخصيًا في بيت يضم ديانتين. وهذا منحني حساسية خاصة لبناء الجسور. ثم لاحقًا، بوصفي خبيرًا في الشأن الإسلامي في فلاندرز، كنت أتنقل بين المدارس لأعرّف بالإسلام ضمن إطار الحوار بين الأديان والرؤى الحياتية. وهناك تعلّمت أن كثيرًا من التصورات الخاطئة لا تأتي من الكراهية، بل من الجهل. وأن الشرح الصادق، والموقف المحترم، والحوار المفتوح، تكفي كثيرًا لفتح القلوب. ومن أجمل الأمثلة التاريخية التي كثيرًا ما أذكرها: **صحيفة المدينة** فقد وضع النبي ﷺ فيها دستورًا رائدًا، وكان أول نموذج في التاريخ للتعايش بين أصحاب الديانات المختلفة، قائمًا على مبادئ مثل: • حرية الدين.

• المسؤولية المشتركة عن حفظ السلم.

• المساواة في الحقوق بين المسلمين واليهود وغيرهم في المدينة،

• وتعريف جامع للأمة: **إنهم أمة واحدة من دون الناس** في إطار السكن والميثاق.

واليوم يزعم بعض الناس أن العيش في بلاد الكفر محرّم. لكن من المفارقات أن كثيرين منهم يبقون فيها لأجل المزايا الاقتصادية. كما أن الانتقال إلى بلاد المسلمين ليس دائمًا بديلًا عادلًا؛ ففي كثير من الحالات لا توجد مساواة حقيقية في المعاملة، كما في بعض البلدان التي لا يحصل فيها غير المواطنين على الحقوق نفسها. بينما في أوروبا مثلًا يتمتع المسلمون غالبًا بحقوق في التعليم، والأمن، وحرية التعبير، وهذه أمور لا ينبغي أن نغفل عنها.

45.2 الآيات القرآنية:

الآية الأولى: قال تعالى: ﴿**لَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ**﴾[526].

• يرى ابن عاشور أن هذه الآية تضع قاعدة أصيلة: ما دام الطرف الآخر لا يُظهر عداءً في الدين، فإن على المسلم أن يتعامل معه بالخير والعدل.
• ويشير القرطبي الآية لا تدعو إلى السذاجة، بل إلى سموّ أخلاقي؛ فالعدل خُلُق حتى مع غير المسلمين.
• أما الرازي فيقول إن لفظ **البر** هنا هو نفس اللفظ المستعمل في بر الوالدين، مما يدل على خير عميق وصادق، لا مجرد معاملة شكلية.[527]

الآية الثانية: قال تعالى: ﴿**وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ**﴾[528]

• يؤكد ابن عاشور أن الدعوة إلى الإسلام يجب أن تكون دائمًا باحترام وجمال، وأن هذه الآية ما تزال أساسًا صالحًا للحوار بين الأديان.
• ويذكر القرطبي أن المسلم، حتى في النقاشات الفكرية، لا يجوز له أن ينزلق إلى الإهانة أو الكِبر.
• ويشرح الرازي أن التركيز هنا على **الحكمة** و**حسن الخلق** في الخطاب.[529]

45.3 التأمل في الحديث:

الحديث: قال النبي ﷺ: "**مَنْ ظلم معاهداً، أو انتقصه، أو كلفه فوق طاقته، أو أخذ منه شيئاً بغير طيب نفس، فأنا حجيجه يَوْمَ الْقِيَامَةِ**"[530].

التأمل: جعل النبي ﷺ نفسه خصمًا لمن ظلم غير المسلم الذي له عهد أو حماية. وهذا يبيّن بوضوح الالتزام الأخلاقي في الإسلام: فحتى لو اختلف الآخر معنا في الاعتقاد، يبقى له حق الأمن، والاحترام، والعدل.

---

[526] سورة الممتحنة، آية (8).
[527] انظر: الجامع والتحرير ومفاتيح الغيب، تفسير سورة الممتحنة.
[528] سورة العنكبوت، آية (46).
[529] انظر: الجامع والتحرير ومفاتيح الغيب، تفسير سورة العنكبوت.
[530] سنن أبي داود، حديث رقم (3052).

المعنى العام للحديث: المعاهد: أي ذمياً من أهل الكتاب أو مستأمناً من المسلمين على نفسه وماله. انتقصه: أي نقص شيئاً من حقه، وأخذ منه أكثر مما هو مستحق. وحجيجه: أي خصمه. وفي الحديث الزجر عن الظلم، وبيان حقوق المعاهد، قبح الإسلام الظلم، ونهى عن فعله مع أي أحد من المسلمين أو غيرهم.

45.4 الطبقة التأملية:

يبين القرآن والسنة بوضوح أن التعامل مع أتباع الديانات الأخرى لا يقوم على الخوف أو العدوان، بل على العدل، والاحترام، والكرامة. فالنبي ﷺ نفسه بنى في المدينة مجتمعًا عاش فيه المسلمون واليهود وغيرهم تحت ميثاق واضح. ولم يكن منهجه قائمًا على الإقصاء، بل على إقامة بيئة يعرف فيها الجميع أن هذا مكان للحق والمسؤولية.

والآيات التي مرّت معنا تجعل ذلك عمليًا. فالله لا ينهانا عن الإحسان إلى من لا يقاتلنا، وهذا يعني أن المسلم ينبغي أن يكون مصدر ثقة ولطف لجاره، أو زميله، أو رفيقه في الدراسة، مهما كان دينه. والمجادلة لا تكون إلا **بالتي هي أحسن**، لا بالسباب ولا بالتعالي. والحديث الذي يقول فيه النبي ﷺ إنه يخاصم من ظلم الذمي، يبين أن العدل لا يتوقف عند حدود الجماعة المسلمة، بل يمتد إلى كل من يعيش في ظل مسؤوليتنا أو في محيطنا. وهذا يمنحنا ثلاث توجيهات واضحة:

أولًا: مسؤولية سلوكنا:

نحن نمثل الإسلام، شئنا أم أبينا. فالتاجر الصادق، والموظف الأمين، والطالب المهذب، هذه كلها أول صور الدعوة. وكثيرًا ما يكون القدوة أقوى من ألف كلمة.

ثانيًا: بناء الجسور بدل إقامة الجدران:

فالحوار بين الأديان، كما رأيت بنفسي في فلاندرز، لا يبدأ بالمناظرات العقدية العميقة، بل بالاستماع. فالتصورات الخاطئة تنشأ غالبًا من الجهل، لا من الحقد. وكلمة صادقة، أو ابتسامة، أو شرح بسيط، قد يفتح من القلوب ما لا تفتحه الخطب الحادة.

ثالثًا: الوحدة مع الحفاظ على الهوية:

لسنا بحاجة إلى إخفاء إيماننا حتى نتعايش. فالقرآن يعلّمنا أن نحافظ على هويتنا، وفي الوقت نفسه نكون عادلين مع الآخرين. فلا ذوبان، ولا انعزال، بل ثبات في الإيمان مع القدرة على أن نكون جسرًا للسلام والتعاون.

وحين يتبنى المسلمون هذا الميزان، يصبحون مصدر احترام، بدل أن يكونوا مصدر خوف. وتجنب الطرفين المتناقضين؛ لا العدائية، ولا ضياع الهوية؛ هو الطريق الذي يرشدنا إليه القرآن. وإذا استقمنا على هذا التوازن، فلن نكون سبب فتنة، بل مصدر أمان وأمل، للأمة وللمجتمع الذي نعيش فيه.

45.5 الخاتمة:

إن التعامل مع أتباع الديانات الأخرى هو اختبار حقيقي لإيماننا. ففي زمن تتزايد فيه مشاعر الخوف والعداء، يدعونا القرآن إلى العدل والاحترام. وفي وقت قد يدفعنا الخوف على الهوية إلى الانغلاق، تذكرنا السنة أن القوة الحقيقية تكمن في الثبات والانفتاح معًا. لقد أرانا النبي ﷺ أن المجتمع لا يقوى بالانعزال، بل يُبنى على الحق والمسؤولية. ونحن لا نفقد هويتنا حين نحسن أو نتعاون، بل نفقدها حين نحول الإسلام إلى مظاهر خارجية بلا روح ولا مضمون. إذن فالطريق إلى الأمام يقوم على موقفين متلازمين:

- الوفاء لله في العقيدة والمبادئ الأخلاقية،
- والعدل والاحترام تجاه المجتمع الذي نعيش فيه.

وعندها يصبح المسلمون في كل مكان ليسوا مصدر توتر، بل مصدر استقرار. وتلك هي الرسالة: أمة تحفظ هويتها الروحية، وفي الوقت نفسه تبني جسور الثقة والسلام مع سائر البشر.

الفصل 46 (العلم) مفتاح المسؤولية الدنيوية والنمو الديني:

46.1 الملاحظة:

لا يزال العلم واحدًا من أكبر مواطن التعثر في واقع الأمة المسلمة اليوم. فكلٌّ من العلم الشرعي والعلم الدنيوي يعاني في كثير من الأحيان من الضعف، ونادرًا ما نجدهما حاضرين في توازن حقيقي. كثير من الشباب، بل وحتى من الكبار، لا يعرفون القرآن إلا قليلًا. وكثيرون لا يدرون أصلًا عمّ يتحدث القرآن. لم يسبق لهم أن درسوا سورة كاملة دراسة تفسيرية، فضلًا عن فهم الترابط بين الآيات أو السياق التاريخي لنزولها. بعضهم يستطيع أن يتلو آيات معدودة، لكن من غير فهم لمعانيها. فيصبح الدين عندئذٍ شيئًا من الصوت، لا من البصيرة.

وفي زماننا هذا، استُبدل **العلم** في كثير من الأحيان بمقاطع سريعة ومحتوى مجتزأ: تيك توك سريع، ومقاطع إنستغرام لا تتجاوز ستين ثانية، وفيديوهات شعاراتية عن الحلال والحرام، أو خطابات عاطفية تحفيزية. كل

شيء يجب أن يكون قصيرًا، سريعًا، سطحيًا؛ أمّا العمق فغائب. وهكذا ينشأ جيل يعيش على وجبات خفيفة دينية، لكنه لم يذق يومًا وجبة علمية حقيقية. وفي الوقت نفسه، تظهر ثنائية مقلقة:

• فمن جهة، هناك مسلمون محافظون لا يكاد حديثهم يخرج عن الأحكام، والمنهيات، والواجبات. يذكرون الآيات والأحاديث بحرفيتها، وغالبًا من غير سياق، ولا فهم للمقاصد، ولا إدراك للجوهر الروحي. يناقشون التفاصيل، لكنهم يضيّعون الكل. فإذا سُئلوا عن محبة الله، أو التقوى، أو التزكية، عُدَّ ذلك عند بعضهم أمرًا ناعمًا أو غير ذي أهمية. لكن إذا سألت أحدهم: ماذا تعرف أنت بنفسك عن القرآن؟ أو أي سورة درستها بعمق؟ كثيرًا ما يسود الصمت. كلام كثير، وعلم قليل.

• ومن جهة أخرى، هناك مسلمون ليبراليون[531] يعيشون الدين باعتباره شعورًا. فالإسلام عندهم مناخ روحي، وهوية وجدانية، دون حاجة إلى نصوص أو ضوابط أو التزامات. وتُرى الأحكام عندهم شيئًا معيقًا، قديمًا، أو ثقافيًا. لكن هذه الروحانية من غير علم تكون غالبًا سائبة، بلا شكل ولا ضوابط، ومن ثم تكون عرضة للاضطراب والتبديل بحسب الأهواء.

والنتيجة؟ أمة من جهة تختنق بالقواعد بلا روح، ومن جهة أخرى تذوب في المشاعر بلا مرجعية. وكأننا نعيد ما وصفه القرآن في الأمم السابقة: اليهود الذين حفظوا الحرف وأضاعوا الروح، والنصارى الذين طلبوا الروح لكن بلا ضوابط وشريعة. غير أن القرآن يطلب منا شيئًا آخر: **علمًا مع هداية، وروحانية مع مسؤولية.**

وعلى المستوى الدنيوي أيضًا، هناك أزمة كبيرة. ففي الغرب، يحصل كثير من المسلمين على فرص عظيمة في التعليم العالي، لكن عددًا كبيرًا من الشباب يختارون بدل ذلك العمل السريع، أو الراحة، أو الاستقلال المالي القريب. أريد أن أكسب المال بسرعة. تبدو الدراسة عندهم شيئًا زائدًا، مملًا، مضيعة للوقت. وفي المقابل، هناك شباب في إفريقيا أو آسيا مستعدون لأن يعطوا كل شيء من أجل فرصة للدراسة. ففي بلدان مثل بنغلادش، كما سمعت من بعض الإخوة هناك، يوجد فائض من الطلبة المتحمسين، لكن فرص العمل قليلة. فيجلس بعض أصحاب الشهادات العليا في بيوتهم بلا عمل. والمفارقة مؤلمة: حيث توجد الفرص، يغيب الطموح. وحيث يوجد الطموح، تغيب الفرص. ومن المظاهر المقلقة أيضًا أن الناس يتخذون قرارات مصيرية من غير أي علم مسبق:

[531] ليبراليون: تعني حر وهي تشير سياسياً واجتماعياً إلى فلسفة تدعم الحريات الفردية، والمساواة، وحرية التعبير، وتقييد سلطة الحكومات، إضافة إلى الانفتاح على الأفكار الجديدة والتسامح مع الآراء المختلفة.

• يتزوجون وهم لا يعرفون ما يقوله الإسلام عن الزواج.
• يُنجبون الأطفال من غير أن يقرؤوا شيئًا عن التربية.
• يدخلون في التجارة أو الاستثمار من غير فقه ولا وعي أخلاقي.
• يتكلمون، ويتصرفون، وينشرون، ويقررون من غير دراسة، ولا رجوع إلى المصادر، ولا إدراك.

مع أن الإسلام يعلّمنا: **تعلّم قبل أن تقول أو تعمل.** فما هو العلم؟ ليس مجرد كتب أو شهادات، بل هو فهم ما يريده الله منك، وما يحتاجه الإنسان، وكيف تُنزّل ذلك تنزيلًا صحيحًا في زمانك وواقعك. علينا أن نكفّ عن أن نكون مجرد مستهلكين لأفكار غيرنا، ومنتجات غيرنا، وأنظمتهم. ينبغي أن نصبح منتجين، مع حفظ الإيمان. كما قلنا في فصول سابقة: على المسلم أن يسعى إلى الخير في الدنيا والخير في الآخرة معًا. ولكن كيف يتحقق ذلك من غير علم بكليهما؟

46.2 الآيات القرآنية:

الآية الأولى: قال تعالى: ﴿**قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ**﴾[532]

• يرى ابن عاشور أن هذه الآية أصل قرآني عظيم: فالعلم لا يميز بين الناس في المنزلة فحسب، بل في مستوى الوعي والبصيرة أيضًا. وصيغة السؤال هنا عنده استفهام تقريري، أي: لا يمكن أن يستوي من يعلم بمن لا يعلم. ويشرح أن **أولو الألباب** هم الذين يجمعون بين صفاء القلب وصواب العقل، فلا يعيشون الدين على مستوى الطقوس وحدها، بل على مستوى الفهم والتدبر.

• ويؤكد القرطبي أن الآية ليست مجرد ثناء على العلم، بل هي أيضًا تحميل للمسؤولية. فمن علم الحق لزمه أن يعمل به. ويستشهد بآيات أخرى تبين أن العلماء هم أشد الناس خشية لله، ويربطها بالعلم الشرعي: من غير معرفة بالحلال والحرام، والعقيدة، والعبادة، يبقى الإنسان عرضة للضلال. فالعلم شرط للهداية.

• أما الرازي، فيوضح أن **العلم** في هذه الآية ليس مجرد معلومات سطحية أو معارف جامدة، بل هو علم يثمر فهمًا، وعملًا، ووعيًا. ويربطها بالحاجة إلى الجمع بين العلم الشرعي والعلم العقلي أو الدنيوي؛ فالتوازن

[532] سورة الزمر، آية (9).

الحقيقي لا يتأتى إلا من جمع الاثنين معًا. ويرى فيها دعوة إلى الخروج من دائرة التقليد الأعمى إلى البحث والفهم والتحليل والتمييز[533].

هذه الآية تطرح سؤالًا بسيطًا وعظيمًا في آن: **"هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون؟"**
والجواب واضح لا يحتاج إلى كثير بيان: لا. في القرآن، العلم هو أساس كل شيء:

- فبغير علم لا إيمان راسخ،
- وبغير علم لا عبادة صحيحة،
- وبغير علم لا عدل،
- وبغير علم لا تعامل مسؤول مع الدنيا.

وتؤكد الآية أن العلم هو باب الوعي، وأن **أولي الألباب** وحدهم هم الذين ينتفعون بالتذكير حقًا؛ لا لأنهم أذكى من غيرهم مجرد ذكاء، بل لأن علمهم ينفذ إلى قلوبهم. وفي عالم امتلأ بالتضليل، والسطحية، والانفعال، تذكرنا هذه الآية بأن الأمة لن تستعيد عافيتها حتى تعود إلى **العلم المصحوب بالبصيرة، والتعلّم المقترن بالتواضع، والدراسة التي يراد بها القرب من الله والنفع للناس.**

الآية الثانية: قال تعالى: ﴿**إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ**﴾[534]

- يرى ابن عاشور أن الآية تدل على أن **الخشية الحقيقية** لا تكون إلا على أساس من العلم؛ لأن من عرف أسماء الله وصفاته، وعظمته، وقدرته، وآثار أمره ونهيه، امتلأ قلبه هيبةً وخشية. والعلماء هنا ليسوا فقط أصحاب المناصب الشرعية، بل كل من تأمل في آيات الله، وتفكر، ونظر، وسخّر علمه في عبادة الله.

- ويؤكد القرطبي أن الآية لا تعني أن غير العلماء لا يخشون الله البتة، بل معناها أن العلماء هم الذين يخشونه **على الوجه الأكمل**؛ لأن خشيتهم نابعة من معرفة واعية بعظمة الله، لا من مجرد العاطفة أو العادة. ويشير إلى أن العلم هنا يشمل العلم بالنصوص، والعلم بآيات الله في الكون.

- أما الرازي، فيبين أن الآية تفرق بين التدين السطحي والعبودية العميقة. فالعلم ليس نقيض العبادة، بل العبودية الكاملة لا تكتمل إلا إذا بنيت على بصيرة. ويقول ما معناه: **كلما ازداد الإنسان علمًا ازداد خشية، إلا إذا كان قلبه مريضًا**[535].

---

[533] انظر: الجامع والتحرير ومفاتيح الغيب، تفسير سورة الزمر.
[534] سورة فاطر، آية (28).
[535] انظر: الجامع والتحرير ومفاتيح الغيب، تفسير سورة فاطر.

ومع ذلك، فثمة أمر مهم ينبغي الانتباه إليه: ليس كل من عنده علم هو بالضرورة أكثر الناس خشية، كما أن قلة العلم لا تمنع وجود تقوى عظيمة. فأصحاب الكهف لم يكونوا علماء موسوعيين، ومع ذلك كانوا من أعظم الناس ثباتًا وإخلاصًا. وكذلك نجد في زماننا أناسًا بسطاء لا يعرفون كثيرًا من الفقه أو التفسير، ولكن قلوبهم حية، وألسنتهم عامرة بذكر الله، وأرواحهم متعلقة به. فماذا نتعلم من هذا؟

• ليس العلم وحده هو الذي يورث الخشية، ولكن **العلم الصحيح** إذا استُعمل كما ينبغي عمّق الخشية ورسّخها.
• قد يكون قليل العلم من أولياء الله، أو يكون بعض العلماء بعيدين عن الله إن خلا علمهم من الإخلاص والخشية. فالإسلام يكرم **العالِم** ويكرم **العابد**، لكن الأكمل هو من جمع بين الاثنين: **علمًا وإخلاصًا، وفهمًا واستسلامًا لله.**

46.3 التأمل في الحديث:

الحديث: قال النبي ﷺ: "**مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا، سَهَّلَ اللهُ لَهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ**"[536]
التأمل: يوضح هذا الحديث أن العلم ليس مجرد قيمة دنيوية، بل هو عبادة روحية متصلة مباشرة بالآخرة.
وقوله ﷺ: **سلك طريقًا** يشمل الطريق الحسي إلى مجلس علم أو شيخ، ويشمل كذلك الطريق العقلي والروحي: طريق السؤال، والحفظ، والفهم، والمدارسة. فالله يسهّل بطلب العلم طريق الجنة؛ لأن العلم:
• يهدي إلى عبادة صحيحة، • ويقي من الضلال،
• ويولد الخشية، • ويمنح الاستقرار في الأقوال والأعمال والقرارات.

وفي زماننا، صارت طرق العلم كثيرة جدًّا: كتب، دروس، منصات، محاضرات، مواد مرئية. لكن في المقابل، صار الحفاظ على النية الصادقة أصعب من قبل.
وهذا الحديث يذكرنا بأن **كل خطوة في طلب العلم**، حتى لو كانت مجرد فتح كتاب أو حضور درس، هي خطوة إلى الله إذا صحت النية.

المعنى العام للحديث: الحث على السعي في طلب العلم، وفيه: أن الله سبحانه وتعالى جعل العلماء حاملين لعلم الأنبياء لتكتمل المسيرة إلى أن يشاء الله رفع العلم، وفيه نقل أمانة العلم إلى طلابه، وهذا يستلزم من الطالب إكرام المعلم وتبجيله.

[536] سنن أبي داود، حديث رقم (3641).

46.4 الطبقة التأملية:

العلم في الإسلام ليس ترفًا، بل شرطًا من شروط الحياة السليمة. فبغير العلم لا تستطيع الأمة أن تعبد الله كما يريد، ولا أن تقيم العدل كما أمر، ولا أن تبني حضارةً ثابتة الأركان. وقد أوضح القرآن أن من يعلم لا يستوي مع من لا يعلم، وأن الخشية الحقيقية لله لا تنشأ إلا عن معرفة.

ومع ذلك، نعيش اليوم مفارقة مؤلمة: المسلمون كثيرون عددًا، لكن الجهل منتشر فيهم انتشارًا واسعًا. لدينا كتب، ومحاضرات، وفيديوهات أكثر من أي زمن مضى، لكن العمق أقل، والمثابرة أضعف. كثيرون يستهلكون مقاطع دينية مجتزأة كما يستهلكون الوجبات السريعة، دون أن يتذوقوا يومًا غذاء التفسير، والفقه، والتزكية. وهكذا ينشأ جيل سريع التأثر، سريع الانفعال، لكنه ضعيف البنية العلمية، لا يملك أساسًا يثبت عليه.

إن القرآن لم يُنزل ليكون مجرد ترتيل جميل في الجنائز، أو خلفية صوتية في الحياة اليومية. لقد نزل لكي يُفهم، ويُعاش، ويُطبَّق. وهذه من أكبر أمراض زماننا: أن يتحول القرآن إلى **صوت** بدل أن يبقى **رسالة**. والقرآن يخاطب الجميع: • المؤمن الذي يريد أن يزداد،

- والباحث الذي تحيط به الشكوك،
- والمنافق الذي ينبغي أن يرى نفسه في المرآة،
- وغير المؤمن الذي يطلب الحقيقة بصدق،
- والمظلوم، بل وحتى الظالم.

وهذه من معجزات هذا الكتاب: أنه يمسّ الجميع، لكن الذي ينتفع به حقًا هو من يتعامل معه على بصيرة. ولهذا يبقى أصدق نصح: **العودة إلى القرآن مع التفسير، والتدبر، والتوجيه الصحيح**. فمن ترك القرآن يتكلم، سمع نداء الله. وليس مصادفة أن أول ما نزل من الوحي كان: **اقرأ**. فلم يكن أول أمر: صلِّ، أو صم، بل كان أمرًا بالقراءة والطلب والفهم. وكأن الله يؤسس منذ اللحظة الأولى لحقيقة عظيمة: **العبادة بلا علم جوفاء، والعلم بلا عبادة باردٌ ميت**. لقد عرفت الحضارة الإسلامية عبر تاريخها توازنًا بديعًا بين **العلم** و**العمل**، وبين **الدين** و**المعرفة الدنيوية**. فكبار علمائنا لم يكونوا فقهاء فقط، بل كانوا أطباء، وفلكيين، ورياضيين، ومهندسين، وفلاسفة. كانوا يرون العلم بابًا من أبواب العبادة؛ فكل اكتشاف، وكل معادلة، وكل تجربة، يمكن أن تكون وسيلة لفهم آيات الله في الكون. لكننا فقدنا هذا التوازن إلى حد كبير. ولهذا تقتضي هذه المرحلة خطوات عملية واضحة:

•**العودة إلى القرآن والسنة بعمق:** لا بالاكتفاء بالتلاوة، بل بدراسة التفسير، والسياق، والتنزيل على الواقع.

• **الاستثمار في التعليم:** يجب أن تصبح المساجد، والمدارس، والجامعات، مراكز علم حي، لا مجرد أماكن للعبادة الشكلية.

• **الموازنة بين العلم الشرعي والعلم الدنيوي:** نحتاج إلى أئمة يفهمون التقنية، وإلى مهندسين يفهمون القرآن.

• **تشجيع الاستقلالية:** يجب أن يتعلم الشباب ألا يكونوا مجرد موظفين مستهلكين، بل مبادرين، ومبدعين، ورواد مشاريع نافعة للأمة.

• **إحياء ثقافة التعلّم:** على الآباء ألا يمنحوا أبناءهم الهواتف والثياب فقط، بل الكتب، والمرشدين، والطموح العلمي.

لقد علّمنا النبي ﷺ أن طلب العلم طريق إلى الجنة. وهذا يعني أن التعلّم نفسه عبادة. كل صفحة تُقرأ لله، وكل درس يُتلقّى بقصد خدمة دين الله ونفع الناس، هو خطوة في طريق القرب. ولن تستعيد الأمة عزتها حتى تتوقف عن العيش على الشذرات والانفعالات، وتبدأ ببناء جيل **يفكر، ويبحث، ويفهم، ويعمل**؛ جيل يحمل القرآن في يد، والعلم الدنيوي في يد، ويجعل الله غايته العليا.

46.5 الخاتمة:

لم يكن نزول كلمة **اقرأ** أولَ الوحي عبثًا؛ فقد أراد الله أن يبين أن الطريق إليه يبدأ بالعلم. لكن العلم لا يصير نافعًا إلا إذا اقترن بالعمل، وصدق النية، وتحمل المسؤولية. ولن تنهض أمتنا بالشعارات، ولا بالمشاعر العابرة، ولا بالمحتوى السريع السطحي، بل بالعلم الحقيقي الذي ينير القلوب ويبني المجتمعات. ولذلك يجب أن نرجع إلى القرآن بوصفه **هدايةً ورسالة**، لا مجرد صوت أو زينة. نحن بحاجة إلى جيل يفهم القرآن، ويطبق السنة، وفي الوقت نفسه يمتلك أدوات المعرفة الدنيوية ليقدم حلولًا في التقنية، والاقتصاد، والتربية، وسائر مجالات الحياة. فالقوة الحقيقية تكمن في اجتماع ثلاثة أمور: **العلم، والعمل، والتقوى**. فمن تعلم لله، وعمل بما تعلم، وسخّر ذلك لخدمة الناس والأمة، فقد قوى نفسه وقوّى الأمة معه. وعندها فقط لا نبقى أمةً متأخرة ضعيفة، بل نصبح أمةً تستعيد مكانتها بكرامة، وحكمة، ونور.

الفصل 47 (متساويان في القيمة، لا متماثلان) أدوار الرجال والنساء في القرآن:

47.1 الملاحظة:

لا تزال مكانة المرأة موضوعًا للنقاش في العالم كله، ليس فقط بين المسلمين وغير المسلمين، بل حتى داخل المجتمعات المسلمة نفسها. وما يلفت الانتباه أننا أمام طرفين متقابلين، يتجليان في جهتين مختلفتين من العالم: **الاضطهاد وسوء الاستعمال في المجتمعات التقليدية، والفردانية المنفلتة في السياقات الغربية.**

في البلدان المتخلفة: الدين ذريعة للقمع:

في بلدان مثل أفغانستان، وأجزاء من باكستان، وبعض مناطق إفريقيا والشرق الأوسط، ما تزال النساء يُمنعن بصورة منهجية من حقوقهن الأساسية: • يُمنع تعليم البنات أو يُقيد بشدة.

• تُحرم النساء من الدراسة، أو من تولي الوظائف العامة، بل وفي بعض الأماكن لا يُسمح لهن بالخروج من البيت دون وليٍّ ذكر.

• وهناك أماكن تُقصى فيها المرأة فعليًا من الحياة العامة، ويُبرَّر ذلك باسم الإسلام، مع أن هذه الممارسات أقرب إلى العادات منها إلى الدين.

ويستعمل بعض القادة، وبعض الحركات، بل وحتى بعض الآباء، اسم الله لمنع النساء من حقهن في العلم، أو العمل، أو الحركة. ويتجاهلون أن أول ما نزل في الإسلام كان دعوة إلى العلم، وأن النساء في زمن النبي ﷺ كنَّ معلمات، وتاجرات، ومشاركات في ميادين الخدمة والجهاد، من غير أن يفقدن أنوثتهن أو كرامتهن.

في الغرب: حرية بلا حدود، ولكن بثمن:

وفي الجهة الأخرى نرى في أوروبا، وفي السياق الغربي عمومًا، مشكلة مختلفة تمامًا. هنا أصبحت الحرية عند كثيرين بلا ضوابط، واختلّت بعض التوازنات الطبيعية والروحية:

• نساء يسافرن وحدهن أو مع صديقاتهن إلى وجهات سياحية، أحيانًا من غير وعي بالحدود الشرعية أو المسؤوليات الروحية.

• وسوق العمل صار عند بعضهن ساحة لإثبات الذات، حتى تغيب أحيانًا العناية بالعلاقات الزوجية، أو التربية، أو النمو الروحي.

• وشعار: أنا لا أحتاج إلى أحد يُمجِّد، فتغدو العلاقات أكثر سطحية، وتنهار الأسر في أحيان كثيرة. ومع أن هذه الحرية جاءت جزئيًا كرد فعل على قرون من القمع، إلا أنها أفرزت مشكلة أخرى: **فقدان التوازن**، حتى بات كثير من النساء، بل والرجال أيضًا، لا يدرون ما دورهم داخل الأسرة، أو المجتمع، أو أمام الله.

عالم من التناقضات:

فنحن نرى إذًا أنه في كثير من البلدان المسلمة التقليدية تُقهَر المرأة باسم الدين، وفي الغرب تُفصل أدوار المرأة عن الدين باسم الحرية. وفي الحالتين يختل الميزان:

• هناك: لا صوت، ولا حرية، ولا نمو.

• وهنا: لا وجهة، ولا حدود، ولا بنية مستقرة.

لكن القرآن يعلّمنا أن **الرجل والمرأة متساويان في القيمة، مختلفان في الخِلقة والمسؤولية.** هما شريكان لا خصمان، ومقياس التفاضل بينهما هو التقوى، والعلم، والعمل، لا الجنس ولا الموقع الاجتماعي.

47.2 الآيات القرآنية:

الآية الأولى: قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً**﴾[537]

• يؤكد ابن عاشور أن هذه الآية تبرز **التساوي بين الرجل والمرأة في الأصل الإنساني**؛ فقد خُلقا من نفس واحدة، فهما يشتركان في الكرامة الإنسانية ذاتها.

• ويشير القرطبي إلى أن الخطاب هنا موجه إلى **جميع الناس**، لا إلى المسلمين وحدهم، مما يدل على عالمية هذه الحقيقة.

• أما الرازي، فيبين أن هذا الأصل المشترك ينبغي أن يثمر **الاحترام المتبادل، وتحمل المسؤولية، والترابط**، لا التسلط ولا التنافس العدائي.[538]

الآية الثانية: قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ**﴾[539]

• يوضح ابن عاشور أن الاختلاف في الجنس أو النسب ليس أساسًا للتفاضل، بل إن **الكرامة الحقيقية عند الله بالتقوى**، ولذلك فالمرأة والرجل سواء في الفرص الروحية.

• ويشير القرطبي إلى أن الآية جاءت في سياق كسر **عصبية الجاهلية** القومية والقبلية والذكورية، فجعلت

---

[537] سورة النساء، آية (1).

[538] انظر: الجامع والتحرير ومفاتيح الغيب، تفسير سورة النساء.

[539] سورة الحجرات، آية (13).

معيار الشرف هو التقوى وحدها.

• أما الرازي، فيربط بين **التعارف** و**التقوى**، ويرى فيهما دعوة إلى التعاون ضمن التنوع، لا إلى الإقصاء والصراع.[540]

الآية الثالثة: قال تعالى: ﴿**إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ والقانتين والقانتات وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ والصابرين والصابرات والخاشعين والخاشعات والمتصدقين والمتصدقات وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ والحافظين فروجهم والحافظات والذاكرين الله كثيرا والذاكرات أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا**﴾[541]

• يعدّ ابن عاشور هذه الآية **تصحيحًا قويًا** لروح التهوين من شأن المرأة؛ إذ تثبت مساواتها الكاملة للرجل في المقام الروحي.

• ويؤكد القرطبي أن ذكر صفات الإيمان والطاعة **للرجال والنساء على السواء** في هذا النسق التفصيلي أمر لافت في القرآن، والمقصود به إظهار وزن المرأة الإيماني.

• ويذكر الرازي أن تركيب الآية يعلّمنا أن **الأعمال لا الجنس** هي التي تحدد منزلة العبد عند الله.[542]

وهذه الآيات مجتمعة تبين أن القرآن الكريم لا يرسم علاقة بين الرجل والمرأة على أساس الصراع أو التسوية الميكانيكية، بل يقدم نموذجًا **متوازنًا، متدرجًا، وروحيًا.** فهو يبدأ بوحدة الأصل، ثم يقرر تساوي القيمة الإنسانية والتفاضل بالتقوى، ثم يختم بالمساواة في باب المغفرة والأجر على أساس الإيمان والعمل لا على أساس النوع.

47.3 التأمل في الحديث:

حديث: قال النبي ﷺ: "**إِنَّمَا النِّسَاءُ شَقَائِقُ الرِّجَالِ**"[543]

التأمل: معنى هذا أن النساء يشتركن مع الرجال في **الأصل الإنساني والروحي**، وفي التكليف، وفي المسؤولية الأخلاقية، من غير أن يعني ذلك التطابق التام بينهما. فالإسلام يثبت **المساواة في القيمة والعبودية لله**، لكنه لا يفرض التماثل في كل شيء.

---

[540] انظر: الجامع والتحرير ومفاتيح الغيب، تفسير سورة الحجرات.

[541] سورة الأحزاب، آية (35).

[542] انظر: الجامع والتحرير ومفاتيح الغيب، تفسير سورة الأحزاب.

[543] سنن أبي داود، حديث رقم (236).

المعنى العام للحديث: أن النساء مثيلات الرجال ونظائرهم في الخلقة والطبيعة الإنسانية، وفي الأحكام الشرعية والتكاليف إلا ما استثناه الدليل الشرعي. قال تعالى: "**إني لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضكم من بعض**".[544]

وقال ابن القيم ما معناه: "المرأة مسؤولة عن نفسها كما الرجل، وما يقربها إلى الله ليس جنسها، بل تقواها".

أ. المرأة والعمل – ماذا يقول الإسلام؟

لم يمنع الإسلام المرأة من العمل ما دام ذلك في إطار الأخلاق والضوابط الشرعية. ومن الأمثلة:

• خديجة رضي الله عنها، زوج النبي ﷺ، كانت تاجرة معروفة، وكان مالها سببًا في نصرة الإسلام في بداياته.
• وفي عهد النبي ﷺ كانت هناك نساء يعملن في التمريض، والزراعة، ومداواة الجرحى، كما في حال رُفَيْدَة[545] وأم عطية[546] وغيرهما.
• وأكد القرطبي في تفسيره أن المرأة يجوز لها العمل ما لم يترتب عليه فساد أو تضييع لواجباتها الدينية والأسرية. لكن الإسلام في الوقت نفسه يحذر من أن يتحول العمل إلى ذريعة لإهمال البيت أو إفساد التوازن الأسري، وذلك في حق الرجل والمرأة معًا.

ب. سفر المرأة بين الفقه القديم والواقع المعاصر

ورد في حديث النبي ﷺ أنه قال: "**لا تسافر المرأة إلا مع ذي مَحرم...** "[547]

المعنى العام للحديث: للمرأة مكانة عظيمة في الإسلام، وقد رفع قدرها، وحافظ عليها وأمر برعايتها في كل الأحوال في الحضر والسفر، وفي هذا الحديث صورة من صور حفظ الإسلام للمرأة ورعايتها، ففيه أن درء المفاسد مقدم على جلب المصالح، وفيه النهي عن الخلوة بالمرأة الأجنبية.

---

[544] سورة آل عمران، آية (195).

[545] رُفيدة: رفيدة بنت سعد الأنصارية الأسلمية، (صحابية جليلة) تُعد أول ممرضة وطبيبة وميدانية في الإسلام، اشتهرت بعلاج جرحى الصحابة في ا لغزوات، وأسست أول مستشفى ميداني متنقل في التاريخ الإسلامي.

[546] أم عطية: نسيبة بنت الحارث صحابية جليلة، بايعت النبي ﷺ شاركت في 7 غزوات لتمريض الجرحى وإعداد الطعام، كانت مغسلة للأموات من النساء، عُرفت كفقيهة ومحدثة تفردت برواية أحاديث أحكام غسل الميت.

[547] صحيح البخاري، حديث رقم (3006).

السياق والفهم:

• كان سبب المنع في ذلك الزمان متعلقًا غالبًا **بالأمن والخطر**؛ فالطرق لم تكن آمنة، ولا الفنادق ولا وسائل الحماية متوفرة.

• ولهذا ذكر بعض العلماء المعاصرين، مثل يوسف القرضاوي، وسلمان العودة[548]، وغيرهما، أنه **إذا تحقق الأمن وكان الغرض مشروعًا ولم توجد مفسدة**، فقد يجوز سفر المرأة بلا محرم في بعض الصور.

• وذكر بعضهم أن روح النص متعلقة بالحفظ والصيانة، لا بالتضييق المجرد. فالمقصود من هذه الأحكام هو **الحماية والكرامة**، لا حبس المرأة أو تعطيل حياتها ظلمًا.

47.4 الطبقة التأملية:

إن علاقة الرجل بالمرأة من أكثر القضايا التي أسيء استعمالها، سواء من قِبل من يحرم المرأة من حقوقها باسم الدين، أو من قِبل من يرى كل فرق أو تنظيم بين الجنسين قمعًا وظلمًا. أما القرآن فيسلك طريقًا وسطًا: **العدل، والمساواة الروحية، والمسؤولية المتبادلة.**

في بعض الثقافات، كأجزاء من أفغانستان، أو الصومال، أو مناطق ريفية في آسيا وإفريقيا، تُمنع المرأة من الدراسة، أو السفر، أو العمل، ويُتذرع لذلك بالشريعة، بينما الحقيقة في كثير من الحالات أن الأمر أقرب إلى الهيمنة الثقافية منه إلى الدين. تُختزل المرأة إلى شيء تابع للرجل، في حين أن القرآن يتحدث عنها بوصفها **زوجًا**، أي شطرًا مكملًا، وبوصفها صاحبة تقوى، ومكلّفة بأعمالها ومسؤولة عن مصيرها. وفي المقابل، نرى في الغرب كيف صار مفهوم الحرية منفصلًا عن المسؤولية. تُدفع المرأة إلى الاستقلال الكامل، لكن هذا الاستقلال قد يقود أحيانًا إلى إنهاك نفسي، ووحدة، وتفكك في الروابط العائلية والروحية. كثيرات يحملن عبء أن يكنَّ كل شيء: ناجحات مهنيًا، كاملات في المظهر، حاضرات اجتماعيًا، قائمات بالبيت، مع محافظة على صورة مثالية لا تنتهي. وهذه ليست حرية حقيقية، بل صورة جديدة من العبودية: عبودية للمعايير، والموضات، والضغط الاجتماعي. إن الإسلام يعترف بالاختلافات بين الرجال والنساء، بيولوجيًا ونفسيًا، لكنه لا يجعل الحقوق والواجبات مبنية على دعوى التفوق، بل على **القدرات والأدوار والحكمة.**

[548] سلمان العودة: الشيخ سلمان بن فهد العودة، داعية إسلامي وأستاذ جامعي ومحاضر ومفكر سعودي، من أبرز مشايخ الصحوة في الثمانينيات والتسعينيات.

• فالمرأة يجوز لها أن تعمل، وتسافر، وتطلب العلم، وتملك المال، وتشارك في المجتمع، ما دام ذلك في إطار الحياء، والمسؤولية، والاتفاقات السليمة داخل الأسرة.

• كما أن الرجل مأمور بأن يؤدي دوره القيادي بعدل ورحمة، لا بظلم واستعلاء. وبدل النظر إلى الجنس الآخر بوصفه تهديدًا، يدعونا القرآن إلى أن ننمو معًا في طريق التقوى:﴿**وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ...** ﴾[549]

وهذه الولاية تبدأ في البيت، وتمتد إلى المجتمع، وتُثمر في الآخرة. ولن نستعيد التوازن بين الرجولة والأنوثة إلا إذا قرأنا القرآن الكريم بقلب مؤمن وعقل صافٍ؛ فعندها نفهم أن كلًا من الرجل والمرأة يسير في طريقه الخاص إلى الله، لكنهما يلتقيان في الغاية.

نصائح عملية:

اقرأ القرآن بعين نقية: لا بعدسة الثقافة ولا الأيديولوجيا، بل من خلال كلام الله نفسه.

ابدأ من الأسرة: فالشراكة تعني أن يدعم الرجل والمرأة بعضهما بعضًا في التقوى، والتربية، والمسؤولية.

التعليم ليس خيارًا بل فريضة: الرجال والنساء جميعًا محتاجون إلى العلم، لأنه أساس القيام بالواجبات.

الحرية بلا مسؤولية ناقصة: لا بد أن ترتبط الاختيارات بحدود الشريعة وحكمتها.

القيادة خدمة: الرجل لا يُرفع فوق المرأة في القيمة، بل يُحمَّل مسؤولية الرعاية والعدل.

احترام الفروق: الاختلافات البيولوجية والنفسية ليست مبررًا للظلم، بل أساسًا للتكامل.

47.5 الخاتمة:

لا يقدم القرآن نموذجًا صراعيًا بين الرجل والمرأة، بل نموذجًا تعاونيًا يُكرَّم فيه الجنسان ويُحمَّلان المسؤولية. فالله يوضح أن الذي يرفع الإنسان ليس جنسه، بل **تقواه، ووعيه بالله، وصدقه في العمل.** علينا أن نتحرر من طرفين متقابلين: • من جهة: **قمع المرأة** باسم الثقافة أو باسم فهم منحرف للدين.

• ومن جهة أخرى: **إنكار الفروق الفطرية** باسم مساواة مجردة تلغي الحكمة.

لقد عامل النبي ﷺ النساء باحترام، وشاورهن، وعلّمهن، ودافع عن حقوقهن، وأعطاهن مكانتهن الكريمة في البيت، والمجتمع، والدين. وفي المقابل، علّم الرجال أن يكونوا **قَوَّامِينَ** بمعنى الرعاية والخدمة والعدل، لا بمعنى الاستبداد والتسلط. ولا تزدهر أي أمة إلا إذا كفّ الرجل والمرأة عن التنافس المرضي، وبدآ **يتكاملان.** فإذا كان كلاهما يطلب الجنة، كلٌّ في طريقه الذي يرضي الله، دون تحقير للآخر، قامت الحياة على السكينة.

[549] سورة التوبة، آية (71).

فالإسلام لا يطلب من المرأة أن تصير رجلًا، ولا من الرجل أن يتخلى عن رجولته. إنما يطلب من كليهما أن يظلا أوفياء لفطرتهما، وأن يتعاونا في السير إلى الله. "**مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً**..."[550]فهذه هي غايتنا الأخيرة: لا الغلبة الدنيوية، بل لقاء الله، رجلًا كان العبد أو امرأة، عبدًا صادقًا مخلصًا.

الفصل 48 (الزنا والإغراء الجنسي) تطبيع الشهوة:

48.1 الملاحظة:

تطبيع الشهوة: الزنا كآفة عالمية

أينما سافرت، وأي بلد زرته، من إفريقيا إلى آسيا، ومن بروكسل إلى جاكرتا، يبقى هناك مشكل واحد يتكرر دائمًا: **الزنا**. لا بوصفه استثناءً، بل كمعيار اجتماعي. إنها ظاهرة عالمية تتجلى بأشكال مختلفة، لكنها تعود دائمًا إلى الجذر نفسه: **سقوط الحياء، وضياع الحدود، وغياب المسؤولية**.

عندما كنت شابًا، كان الشباب لا يزالون يشعرون بالخجل إذا خرج الشاب المسلم مع فتاة، أو العكس. أما اليوم، فقد تجاوزنا تلك المرحلة. ينشر الشباب علنًا على وسائل التواصل الاجتماعي أنهم في علاقة، من دون زواج، ويقوم مسلمون آخرون بالإعجاب بهذه الصور وكأن الأمر طبيعي. لقد وصل بنا الحال إلى أن بعض الطلاب في الصف يقولون لي بكل بساطة إن لديهم علاقة، من دون أدنى حرج.

ولم يعد الزنا مجرد أمر مُطبَّع، بل أصبح أيضًا **مُسَوَّقًا ومُؤَسَّسًا اقتصاديًا**. فصناعة الجمال في ازدهار. فتيات، وغالبًا في سن صغيرة، يُدفعن إلى ثقافة الصورة التي تُعلِّمهن أن قيمتهن تكمن في الانتباه والمظهر. الشفاه، والأنف، والبشرة، والشعر، والأظافر، كل شيء يجب أن يكون مثاليًا. والفلاتر صارت هي الواقع الجديد. وكذلك الشباب يتجهون بكثرة إلى النوادي الرياضية، ويتناولون المكملات، بل ويحقنون الهرمونات ليجعلوا أجسادهم أكثر جاذبية. لقد صار كل شيء يدور حول **الإغراء والجاذبية**. وإسطنبول لم تعد عند كثيرين وجهة روحية، بل صارت مكانًا لزراعة الشعر أو عمليات تجميل الأنف. الضغط الاجتماعي هائل. فالشباب ينشأون في عالم رقمي تُعرض فيه العورات والفتن على مدار الساعة. لم تعد الأبصار تُغضّ. الحدود تلاشت. الشهوة أصبحت الحاكم. والنتائج كارثية. مراكز الإجهاض ممتلئة، وبين روادها مسلمون أيضًا. نحن نعيش في عالم تُدار فيه الحياة بالرغبة، ويُؤخَّر فيه الزواج، أو يُعقَّد، أو يكاد يصبح مستحيلًا، بينما الزنا متاح في كل

[550] سورة النحل، آية (97).

زاوية، أو في كل تطبيق. وفي إفريقيا أيضًا هذه أزمة حقيقية. كثير من الشباب لا يملكون ثمن المخدرات، أو الكحول، أو الرفاهية. فصار متعتهم الوحيدة هي العلاقة الجنسية. لكن لا توجد هناك وسائل منع حمل متاحة، ولا مراكز إجهاض كما في أماكن أخرى. والنتيجة: أيتام، ونساء متروكات، وأسر محطمة. رجال لا يتحملون المسؤولية. الطفل يصبح حادثًا، ثم يُلقى به على الهامش. وبعد ذلك نأتي نحن كمنظمة بالمساعدات الغذائية، وكأننا نمسح الماء بينما الحنفية ما تزال مفتوحة. حتى في مدينة مثل جاكرتا، التي قد تظن من ظاهرها أن الدين يملأ الشارع، بالحجاب والمساجد، ترى أن الواقع من الداخل منهار. الزنا موجود في كل مكان. القوانين قد تكون موجودة، لكن الكوابح سقطت. وماذا عن الزواج بعد ذلك؟ كيف يمكن للإنسان أن يكون وفيًّا لشخص واحد لاحقًا، إذا كان قد عاش سنوات ينتقل من علاقة إلى أخرى، من دون مسؤولية ولا عمق؟ كيف يمكن أن توجد أمانة، إذا لم يعرف القلب العفة أصلًا؟ جوهر المشكلة هو هذا: **الزنا أصبح سهلًا، والزواج أصبح صعبًا.**

الزواج يحتاج مالًا، ويتطلب مسؤولية، ويحتاج موافقة واستعدادًا. أما الزنا فسريع، ومجاني، ومن دون التزامات، ومتاح في كل مكان. بل توجد تطبيقات خُلقت لهذا الغرض وحده. الأهل جعلوا الحلال صعبًا. والمجتمع جعل الحرام سهلًا. وهكذا تضعف الأمة في جذورها الأساسية. لا بسبب أعداء من الخارج فقط، بل بسبب **تدمير الشرف، والزواج، والعفة من الداخل.**

48.2 الآيات القرآنية:

الآية الأولى: قال تعالى: ﴿**قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُواْ فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ**﴾[551]

• يذكر ابن عاشور أن الله بدأ بالرجل لأن الرجل بطبيعته يتأثر أكثر بالمثيرات البصرية، وهذه غالبًا هي الخطوة الأولى نحو المعصية. فغض البصر حماية للقلب وبداية للتزكية.

• ويؤكد القرطبي أن **النظر هو مفتاح القلب**؛ فمن لم يضبط عينه، فتح باب الشهوة على نفسه. وهذه الآية تدل على أن الإسلام لا ينهى فقط عند الفعل، بل يقطع الطريق من بدايته: من العين.

• ويرى الرازي أن الأمر ليس بإغلاق العينين تمامًا، بل بخفضهما عن المحرم. فالإنسان يجوز له النظر عند الحاجة أو المعاملة، لكن يجب أن يمتنع عن النظرات الشهوانية.[552]

---

[551] سورة النور، آية (30).

[552] انظر: الجامع والتحرير ومفاتيح الغيب، تفسير سورة النور.

الآية الثانية: قال تعالى: ﴿**وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ..**﴾[553]

• يشير ابن عاشور إلى أن النساء قد يمِلن إلى إظهار الزينة بوصفها وسيلة جذب، والله يعترف بوجود هذا الميل لكنه يضع له حدودًا. فالآية تهدف إلى حماية المجتمع من إثارة الشهوة.

• ويذكر القرطبي أن الزنا يبدأ بالنظر، ويتغذى على الزينة، وينتهي بالفعل. ولذلك على المرأة ألا تُظهر زينتها علنًا إلا ما يظهر عادة بلا قصد، كالحاجات الظاهرة على بعض الأقوال.

• ويرى الرازي أن هذه الآية تؤكد أن المسؤولية مشتركة: الرجل مأمور بحفظ بصره، والمرأة مأمورة بحفظ زينتها. لكل منهما طبيعته، ولكل منهما تكليفه المناسب.[554]

الآية الثالثة: قال تعالى: ﴿**ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجْلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِاْئَةَ جَلْدَةٍ ۖ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۖ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ**﴾[555]

• يوضح ابن عاشور أن هذه الآية تُظهر خطورة الزنا، وأن العقوبة مقصود بها البعد الشرعي والأخلاقي معًا، لحماية المجتمع من الفاحشة المعلنة.

• ويشير القرطبي إلى شدة شروط الإثبات: أربعة شهود أو اعتراف، مما يدل على أن الإسلام شديد في حفظ الأخلاق، لكنه شديد الاحتياط في إقامة العقوبة.

• ويؤكد الرازي أن علنية العقوبة هنا تحمل بُعدًا مجتمعيًا، فهي رسالة تحذير تمنع تطبيع الفاحشة.[556]

الآية الرابعة: قال تعالى: ﴿**وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُواْ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُواْ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ**﴾[557]

• يؤكد ابن عاشور أن هذه الآية تحمي أعراض الناس من التهم الباطلة، وأن هذه العقوبة الشديدة تحفظ المجتمع من الشائعات والإهانات.

• ويبين القرطبي أن اشتراط أربعة شهود مقصود به سد باب الفوضى والفضيحة والاتهامات العامة. وعمليًا، هذا الشرط شبه متعذر، مما يدل على أن الله يريد أن يحمي المجتمع من نشر الزنا أو جعله مادة عامة.

---

[553] سورة النور، آية (31).

[554] انظر: الجامع والتحرير ومفاتيح الغيب، تفسير سورة النور.

[555] سورة النور، آية (2).

[556] انظر: الجامع والتحرير ومفاتيح الغيب، تفسير سورة النور.

[557] سورة النور، آية (4).

• ويقول الرازي إن هذا الحكم ليس لتشجيع الستر على الفاحشة من حيث المبدأ، بل لبناء جدار حماية أخلاقي يمنع الانهيار المجتمعي بسبب التهم العلنية[558].

الآية الخامسة: قال تعالى: ﴿**إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ**﴾[559]

"• يشرح ابن عاشور أن الفاحشة هنا تشمل إشاعة الزنا والانحلال الأخلاقي في المجتمع. فالله لا يحذر فقط من الفاعل، بل حتى من الذي يروّج للفاحشة أو يساهم في تطبيعها.

• ويؤكد القرطبي أن المجتمع إذا فقد الحياء، سقطت حمايته الأخلاقية. ولهذا جعل الله شروط الإثبات صعبة جدًا، حتى لا تصبح الفاحشة أمرًا عامًا أو مسليًا إعلاميًا.

• ويذكر الرازي أن العقوبة في الدنيا والآخرة معًا تدل على أن **تطبيع المعصية** لا يفسد الفرد فقط، بل يهدد المجتمع كله[560].

الآية السادسة: قال تعالى: ﴿**وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا**﴾[561]

• يبيّن ابن عاشور أن التعبير بـ لا تقربوا يدل على أن **كل الطرق المؤدية إلى الزنا ممنوعة** أيضًا: الخلوة، والإثارة، واللباس الفاتن، والعلاقات غير المنضبطة، وغير ذلك. فالنهي هنا استباقي.

• ويؤكد القرطبي أن الزنا ليس معصية فردية فقط، بل خيانة للبنية الأخلاقية والاجتماعية. فهو يهدم الأسر ويكسر الثقة، ولو تم برضا الطرفين.

• ويرى الرازي أن وصفه بالفاحشة وسوء السبيل يدل على أن طريقه قد يبدو ممتعًا وسهلًا في أوله، لكن عاقبته مرة ومؤذية وطويلة الأثر[562].

الآية السابعة: قال تعالى: ﴿**وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ**﴾[563]

---

[558] انظر: الجامع والتحرير ومفاتيح الغيب، تفسير سورة النور.

[559] سورة النور، آية (19).

[560] انظر: الجامع والتحرير ومفاتيح الغيب، تفسير سورة النور.

[561] سورة الإسراء، آية (32).

[562] انظر: الجامع والتحرير ومفاتيح الغيب، تفسير سورة الإسراء.

[563] سورة المؤمنون، آية (5_7).

• يذكر ابن عاشور أن هذه الآيات تقرر بوضوح أن الرغبة الجنسية أمر يعترف به الإسلام، لكن إشباعها لا يكون إلا في إطار الزواج المشروع. وما عدا ذلك فهو تعدٍّ يخلّف ضررًا لا محالة.
• ويشير القرطبي إلى أن هذه هي **قاعدة العفة:** كل ممارسة جنسية خارج الزواج محرمة. بل حتى العين والفكر قد يقودان إلى المعصية إذا تُركا بلا ضبط.
• ويؤكد الرازي أن من طلب الإشباع خارج الحلال فقد تجاوز حدًا إلهيًا، وتصرف بطريقة تفسد المجتمع. فالحاجة مشروعة، لكن الطريق يجب أن يكون مشروعًا أيضًا.[564]

48.3 التأمل في الحديث:

الحديث: **قال النبي ﷺ: "لَا يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَا يَسْرِقُ السَّارِقُ حِينَ يَسْرِقُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ"[565]**

التأمل: هذا الحديث يبين خطورة الزنا: فحين يقدم الإنسان على هذه المعصية عن وعي، ومن غير توبة، يبتعد الإيمان الحي عن قلبه في تلك اللحظة. ليس معنى ذلك أنه يخرج من الإسلام بالكلية، لكن علاقته بالله تُقطع أو تضعف بشدة أثناء الفعل.

• يشرح الإمام النووي[566] أن المقصود هنا **حال الإيمان:** فمرتكب هذه الكبيرة يتصرف وكأنه لا يستحضر رؤية الله له، ولا عظمته، ولا حسابه.
• ويذكر ابن حجر أن الإيمان حينها يكون كالسحابة فوق الرأس، ثم يعود إذا تاب العبد ورجع.

وهذا يوضح لنا أن المعاصي الكبرى، ومنها الزنا، تُحدث **انفصالًا روحيًا مؤقتًا:** يظلم القلب، ويخفت الضمير، وتستولي الشهوة على النفس. وفي زمننا هذا، الحديث شديد الصلة بالواقع:

• الزنا لم يعد يُرى عند كثيرين كجريمة عظيمة. • بل يُسمّى حبًا، أو حرية، أو رومانسية.
• والشباب يطبعونه عبر المسلسلات، والتطبيقات، والمؤثرين.

---

[564] انظر: الجامع والتحرير ومفاتيح الغيب، تفسير سورة المؤمنون.

[565] صحيح البخاري، حديث رقم (6782).

[566] النووي: محيي الدين أبو زكريا بن شرف النووي، فقيه ومحدث ميلم، يُعتبر من أبرز علماء المذهب الشافعي وأئمة أهل السنة والجماعة، سوري الأصل، تفرغ للعبادة والعلم، وتميز بالزهد والورع والتقوى.

لكن النبي ﷺ يوقظنا: **في تلك اللحظة أنت لا تعيش حقيقة الإيمان**. وهذا وحده كافٍ ليوقظ القلب. فالإيمان ليس بطاقة هوية، بل رابطة حية مع الله يجب أن تُحمى.

المعنى العام للحديث: أن الإيمان يزيد بالطاعات وينقص بالمعاصي، وفيه تعظيم أمر الزنا والسرقة، وشرب الخمور وأخذ أموال الناس بغير حق. وأن المؤمن قد تقع منه كبيرة من الكبائر ولكنه حال اتيانها وارتكابها لا يتصف بصفة الإيمان، بل إن الإيمان يُنتزع منه وهو يرتكب الكبيرة. حيث يذهب نور الإيمان ويبقى صاحبه في ظلمة.

48.4 الطبقة التأملية:

نحن نعيش في زمن لم تعد فيه الفتنة استثناء، بل صارت حضورًا دائمًا. الزنا لم يعد محصورًا في زوايا معتمة من المجتمع، بل صار في هواتفنا، وفي أحاديثنا، وفي الموضة، وفي التطبيقات، يُقدَّم على أنه حرية، وحب، وتعبير عن الذات. والقرآن يعلّمنا أن الله يعلم طبيعة الإنسان. الرجل غالبًا يتأثر بالصورة والنظر، لذلك بدأ الله بأمر الرجال بغض البصر. والمرأة قد تميل إلى إظهار الزينة طلبًا للانتباه، لذلك أمرها الله بالستر والعفاف. وليس ذلك قمعًا، بل **صيانة وكرامة وحماية**. كما أن اشتراط أربعة شهود في اتهام الزنا يكاد يكون متعذرًا عمليًا. وهذا ليس عبثًا، بل هو حماية إلهية للأعراض. فالله لا يريد أن تتحول المجتمعات إلى ساحات فضائح، ولا أن تُجعل الفواحش موضوعًا علنيًا متداولًا. فحين تصبح الفاحشة علنية ومألوفة، يكون ذلك من علامات الانهيار الأخلاقي.

وقد شدد ابن عاشور وغيره من أهل العلم على أن هذه الأحكام لا تقتصر على الجانب القضائي، بل تحمل **رسالة مجتمعية:** إذا صار الزنا علنيًا ومعتادًا، وإذا زال الحياء، فإن المجتمع يتجه نحو السقوط.

لكن العالم اليوم يقلب هذا الميزان. ما حرمه الله صار عاديًا. وما أمر الله به صار يُستهزأ به. نحن نعيش في ثقافة مفرطة في الإثارة الجنسية، يتشكل فيها الشباب بما يرونه ويسمعونه، لا بما يتعلمونه من دينهم.

نرى هذا بوضوح:

• شبابًا يُربَّون على مطاردة كل امرأة. • وفتيات يُعلَّمن أن قيمتهن في جمالهن وعدد متابعيهن.
• وآباء يعطون أبناءهم كل شيء إلا الحدود الأخلاقية. • ومعلمين بلا سلطة تربوية.
• وأئمة يسكتون خوفًا من الانتقاد أو الملاحقة.

إذا لم نُعلِّم أبناءنا خطر الزنا، فستتولى وسائل التواصل، والموسيقى، ونتفليكس، والأصدقاء، هذه المهمة، لكن بالرسالة المعاكسة تمامًا. والنتائج مدمرة: قلوب مكسورة، حمل غير مرغوب، إدمان، اكتئاب، تأخير للزواج، فقدان للثقة في العلاقات، وأمة منهكة نفسيًا وروحيًا. نحن بحاجة إلى العودة إلى **ثقافة العفة**، وإلى **تيسير الزواج**، وإلى **تعليم المسؤولية**، وإلى **تقوية التقوى**. يجب أن نعلّم أبناءنا أن ضبط النفس قوة، وأن الحب الحقيقي ينتظر ويصون، وأن الزواج ليس عبئًا ولا رفاهية، بل حماية وبركة.

يجب أن يُيَسَّر الزواج، ويُصعَّب الزنا.

ونحن كأولياء أمور، ومعلمين، وقادة، ومربين نتحمل في ذلك مسؤولية عظيمة. ما دام الحرام أسهل من الحلال، فسيبقى الزنا أمرًا طبيعيًا عند كثيرين. وشرف أبنائنا يستحق أن نقاتل من أجله.

48.5 الخاتمة:

الزنا ليس زلة فردية فقط، بل **أزمة مجتمعية**. وفي عالم يقوم على الإشباع الفوري، يصبح حفظ العفة نوعًا من التمرد الروحي، ورفضًا لثقافة تجعل الجسد سلعة، وتعيد الإنسان إلى مستوى الرغبة المجردة.

لقد وضع القرآن حدودًا، لا ليقمع الإنسان، بل ليحميه. وكل مجتمع يتجاهل هذه الحدود سيدفع الثمن: تتفكك الأسر، وتموت الثقة، وتصبح العلاقات سطحية، وتُصاب الأرواح بالخراب. ولا يمكن للأمة أن تكون قوية ما دامت قلوبها ممزقة، وأسرها ضعيفة، وأخلاقها سائلة متبدلة. نحن بحاجة إلى إعادة بناء الشرف، وتيسير الزواج، ونشر الوعي بعواقب الزنا، وتربية جيل يخاف الله في السر قبل العلن. مَن حفظ نفسه، حفظ شرفه، وروحه، ومستقبله. قال تعالى: ﴿**وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِيَ ٱلْمَأْوَىٰ**﴾[567]

الفصل 49 (الحجاب) والرؤية القرآنية للعالم:

49.1 الملاحظة:

الحجاب واحد من أكثر رموز الإسلام إثارة للجدل وتحميلًا بالمعاني. ففي أوروبا، كان في الجيل الأول يُفرض كثيرًا من طرف الأسرة أو المجتمع، لا بوصفه اختيارًا دينيًا واعيًا، بل كمعيار ثقافي. وكانت النتيجة ردَّ فعل معاكسًا: فبمجرد أن شعرت كثير من النساء بشيء من الاستقلال، خلعن الحجاب جماعيًا بوصفه رمزًا للتحرر والانعتاق. اليوم نرى بعض الشابات يعدن إلى الحجاب فعلاً، لكن هذه المرة لأن الدولة نفسها تريد

[567] سورة النازعات، آية (40_41).

منعه عنهن. وهكذا صار الحجاب شكلًا من أشكال المقاومة الهوياتية. لكن هذا بدوره يطرح أسئلة مهمة: أيُّ حجاب نرتديه اليوم؟ حجاب بكل الألوان والأشكال، مع مساحيق التجميل، والجينز الضيق، والإكسسوارات العصرية. هنا تضيع الأبعاد الروحية، ويغدو الحجاب أحيانًا قطعة موضة أو مجرد موقف رمزي، ونادرًا ما يبقى فعلًا من أفعال التقوى. وفي إفريقيا نرى ظاهرة أخرى: فكثير من النساء يرتدين الحجاب كامتداد للشعر، حرفيًا. فالخمار هناك يؤدي وظيفة جمالية أو عرفية، وليس بالضرورة وظيفة دينية واعية. وكذلك في بلدان مثل إندونيسيا، قد يكون الحجاب عادة ثقافية أكثر من كونه التزامًا قرآنيًا أو وعيًا تعبديًا. بل قد لا تعرف المرأة لماذا تلبسه أصلًا، سوى أن الجميع يفعل ذلك. وفي المقابل، يبقى الرجال في كثير من الأحيان خارج دائرة هذا النقاش، مع أن عليهم هم أيضًا لباسًا شرعيًا وآدابًا ظاهرة. ففي الصيف نرى كثيرًا من الرجال المسلمين يلبسون سراويل قصيرة فوق الركبة، أو قمصانًا ضيقة، أو حتى يمشون بصدور عارية، مع أن الشريعة ترفض ذلك بوضوح. وكثير منهم يعتني بلحيته أو بصلاته، لكنه يهمل أحكام العورة وما يجب ستره.

إن الإسلام يطلب من الرجل والمرأة معًا **الحياء، والوقار، والوعي بكيفية الظهور في المجال العام**. وليس ذلك من باب التضييق، بل من باب احترام كرامة الإنسان وتحقيق الانسجام الاجتماعي. لقد صار الحجاب اليوم أشياء كثيرة في وقت واحد: رمزًا للمقاومة، والدين، والثقافة، والجمال، والقهر، والتحرر. لكن ماذا يقول القرآن فعلًا؟ وما هي ظروف النزول؟ وكيف نستعيد المعنى الروحي للحجاب في عالم طغت فيه المظاهر على الحقائق؟

49.2 الآيات القرآنية:

الآية الأولى: قال تعالى: ﴿**وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ**...﴾[568]

• يشرح ابن عاشور أن **الخمار** هو الغطاء الذي كانت النساء يلبسنه أصلًا على رؤوسهن، لكنهن لم يكنّ يستعملنه الاستعمال الصحيح، إذ كانت الصدور تبقى مكشوفة. فجاءت الآية لتأمر بإرخاء ذلك الخمار على الجيب والصدر. فالحجاب هنا ليس اختراع لباس جديد، بل **تصحيح لطريقة استعمال لباس موجود**. والغاية منه الحياء والحماية، لا التضييق.

• ويعدّ القرطبي هذه الآية الأساس في لباس المرأة المسلمة، ويتكلم بإسهاب عن الزينة المقصودة، كالشعر والعنق والأذنين ونحو ذلك. ويقرر أن المرأة لا تُظهر من زينتها إلا ما تعذر إخفاؤه أو جرت الحاجة إليه،

[568] سورة النور، آية (31).

كالكفين والوجه عند بعض السلف. والخمار عنده يجب أن يستر أعلى الجسد والصدر استتارًا واضحًا.
• ويؤكد الرازي أن الآية بدأت **بغض البصر قبل أمر اللباس**، وهذا يدل على أن الطهارة الباطنية تسبق المظهر الخارجي. فالمقصود ليس إخفاء المرأة عن المجتمع، بل تنظيم العلاقات الاجتماعية على أساس الاحترام بدل الشهوة[569].

تدل هذه الآية على أن الله أمر المرأة بالحجاب على وجه يستر الشعر والصدر معًا. كما أنها تُظهر بوضوح أن اللباس مرتبط بالسلوك: غض البصر، وحفظ الفرج، وضبط الزينة. فالحجاب ليس مجرد عادة ثقافية، بل **أمر قرآني ذو مقصد روحي عميق**: حفظ الكرامة، وصيانة الباطن، وصون شرف المرأة.

الآية الثانية: قال تعالى: ﴿**يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ ۗ ..**﴾[570]

• يصف ابن عاشور **الجلابيب** بأنها أثواب واسعة تلقى فوق الرأس والجسد، وكانت النساء يستعملنها. والأمر هنا أن تُرخى هذه الجلابيب وتُدنى بحيث تُظهر المرأة في هيئة معروفة بالعفة والإيمان، فيكون ذلك سببًا لاحترامها وعدم إيذائها.
• ويذكر القرطبي أن هذا اللباس ليس فقط لحجب النظر، بل لحماية المرأة كذلك من التعرّض والمضايقة. فاللباس هنا ليس شأنًا شخصيًا محضًا، بل يحمل رسالة اجتماعية: أنا لا أطلب لفت الانتباه الشهواني.
• ويشير الرازي إلى أن الله ذكر هنا حكمة نفسية واجتماعية: فاللباس يؤثر في نظرة الناس إليك، وفي طريقة تعاملهم معك. ولذلك كان الحجاب وسيلة للحد من التهيج الجنسي للمرأة. كما يلفت إلى أن الرجال أيضًا مأمورون بوقار اللباس، لأن العفة ليست مطلوبة من النساء وحدهن.[571]

تبيّن هذه الآية أن للباس وظيفة وقائية واجتماعية. فالحجاب والجلباب ليسا لإذلال المرأة، بل لإظهار وقارها وعفتها. فالآية تقرأ الواقع الاجتماعي وتقدّم له جوابًا قرآنيًا: **الكرامة فوق الشهوة.**

49.3 التأمل في الحديث:

الحديث: **قال النبي ﷺ: "الْمَرْأَةُ عَوْرَةٌ، فَإِذَا خَرَجَتْ اسْتَشْرَفَهَا الشَّيْطَانُ"**[572]

---

[569] انظر: الجامع والتحرير ومفاتيح الغيب، تفسير سورة النور.
[570] سورة الأحزاب، آية (59).
[571] انظر: الجامع والتحرير ومفاتيح الغيب، تفسير سورة الأحزاب.
[572] سنن الترمذي، حديث رقم (1173).

التأمل: هذا الحديث يبين أن المرأة في أصلها **موضع صيانة وستر وحرمة**، وأنها تستحق الحماية والاحترام. ويشرح ابن عاشور أن المقصود ليس الاحتقار ولا القمع، بل التنبيه إلى أن الشيطان يعمل من خلال الشهوات، والنظرات، والكلمات المثيرة، ولذلك جاءت النصوص لحفظ الكرامة، لا لسلبها.

المعنى العام للحديث: النساء حبائل الشيطان وأوثق مصادره، فإذا خرجن نصبهن شبكة يصيد بها الرجال فيغريهم ليوقعهم في الزنا فأُمرن بعدم الخروج إغلاقاً لإغواء الشيطان وإفساده. وفي الحديث حث على أن تلزم المرأة بيتها ولا تخرج إلا عند الحاجة والضرورة، وأنها بتلك الحالة تنال أعظم أجر لها وخير ثواب، يجازيها الله عز وجل به عن خروجها من بيتها.

49.4 الطبقة التأملية:

الحجاب اليوم من أكثر الشعائر التي أُسيء فهمها. فكثير من الناس خارج الإسلام يرونه علامة على القهر أو التخلف أو السيطرة الذكورية. بينما هو في حقيقته **فعل طاعة لله، واختيار روحي، وتعبير مرئي عن الهوية**. وفي الواقع العملي نلاحظ ثلاث اتجاهات تشوّه معناه:

أولًا: **الحجاب المفروض:** من قبل العائلة أو الثقافة. وهذا نادرًا ما يولّد عمقًا روحيًا، لأن الإكراه يولّد غالبًا الرفض أو التمرد. والقرآن في خطابه يوجّه التكليف إلى المرأة نفسها، لا إلى الأب ولا الأخ. فهي المسؤولة أمام الله، وهي التي تختار بوعي.

ثانيًا: **الحجاب التفاعلي أو الاحتجاجي:** الذي يُلبس كردّ فعل على دولة تريد منعه. وهذا قد يوقظ الوعي فعلاً، لكنه يحمل خطرًا آخر: أن يتحول الحجاب إلى مجرد رمز سياسي أو هوياتي، بينما يتراجع معناه التعبدي.

ثالثًا: **فقدان المعنى:** حين يُلبس الحجاب مع لباس ضيق، أو زينة صارخة، أو سلوك يناقض أصل الحياء. عندها يتحول إلى إكسسوار، لا إلى علامة عبودية.

لكن القرآن يعلّمنا أن الحجاب ليس عبئًا ثقافيًا، بل **علامة كرامة وقناعة**، تختار المرأة أن تحملها طاعةً لربها. إنه وسيلة لإظهار الصلة بالله في المظهر، لا لإخفاء المرأة أو تعطيلها. ومن المهم كذلك أن نتحدث عن **الميزان:** فليس للمرأة وحدها لباس شرعي. الرجل أيضًا مأمور بستر عورته، وغض بصره، وترك اللباس المثير أو الكاشف أو الملتصق على وجه يوقع في الفتنة. فإذا ذُكرت المرأة بالحياء، فالرجل كذلك مطالب بالانضباط

والوقار. إذن فجوهر الحجاب لا يكمن في القماش وحده، بل في **الروح، والنية، والمسؤولية**. إنه اختيار يجعل الباطن ظاهرًا، وإذا حُمل بوعي صار مصدر قوة ووقار.

الحجاب كهوية وبوصلة أخلاقية:

الحجاب ليس فقط حكمًا شرعيًا، بل أيضًا **إعلان هوية**. ففي عالم تُقيَّم فيه المرأة غالبًا على أساس مظهرها، يقدم الحجاب بديلًا قويًا يقول: أنا أكثر من جسد. قيمتي في طاعتي لله، لا في إعجاب الناس. ولهذا يشكّل الحجاب عند كثير من النساء مرساةً داخلية:

- يذكّرها من تكون: **أمةٌ لله**، لا أمة للموضة ولا لأذواق الناس.
- يربطها بالأمة: فحين تلبس الحجاب، تكون ظاهرة كمسلمة، وتمثل شيئًا أكبر من ذاتها الفردية.
- يحميها من التشييء: فبدل أن تُرى كجسد يُستهلك، تُرى كإنسانة وروح ورسالة.

وفي زمن تُفتّت فيه هوية المرأة بين معايير الجمال، وضغط المجتمع، والأيديولوجيات، والإعلانات، يأتي الحجاب ليعيد بناء المعنى على أساس واضح: **التقوى، والحياء، والوفاء لله.**

49.5 الخاتمة:

الحجاب ليس رمزًا للاضطهاد، بل **مرآة لقناعة داخلية**. ولا تُعطى له قيمته بالإكراه ولا بمجرد التحدي السياسي، بل حين يُلبس بوصفه اختيارًا واعيًا في طاعة الله. فإذا لُبس بعلم، ووقار، وعفة، ارتفع فوق كل الجدالات الثقافية والسياسية. وفي الوقت نفسه، علينا أن نقرّ بأن رسالة الحياء واللباس الكريم لا تخص النساء وحدهن. فالرجال كذلك مسؤولون عن سلوكهم، ولباسهم، وطريقة تعاملهم مع الآخرين. الإسلام يبني هذا الباب على **التكامل والتبادلية**: كلا الجنسين مأموران بغض البصر، وكبح الكبر، وحمل الهوية بكرامة. ولهذا لا ينبغي أن يقتصر النقاش حول الحجاب على القماش والأحكام الشكلية، بل يجب أن يعود إلى **الروح والمسؤولية**. فالحجاب دعوة إلى عبادة الله بقناعة، وإلى حماية النفس من الفراغ، وإلى تذكير المجتمع بأن الهوية لا تصبح قوة إلا إذا كانت موصولة بالإيمان.

جاء الإسلام لحماية المرأة وحفظ حقوقها، فالكثير من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية تحدثت عن المرأة، وما ذلك الحديث إلا لأهميتها، ومكانتها الرفيعة في الإسلام، أعطى المرأة حقوقها ما لها وما عليها بنتاً وزوجة وأختاً وأماً... وما من شريعة حفظت حقوق المرأة إلا الشريعة الإسلامية.

الفصل50 LGBTQ (المثلية) بين الرحمة والوعي بالحدود:

50.1 الملاحظة:

في زمننا الحاضر، يواجه المسلمون في أنحاء العالم موضوع LGBTQ، وبخاصة في المجتمعات الغربية التي تمّ فيها تطبيعه بشكل كامل تقريبًا. فما كان في الماضي من المحرّمات الاجتماعية أو من المواضيع المسكوت عنها، أصبح اليوم علامة هوية تُروَّج في المدارس، ووسائل الإعلام، بل وحتى في رسوم الأطفال. فالأطفال في سن مبكرة يتعلمون أن الحب بين الجنس نفسه أمر طبيعي، أو أن تغيير الجنس أمر مشروع ومقبول. وفي أعمار متزايدة الصغر، يتعرض الأطفال لمعلومات وصور تُحدث اضطرابًا في فهمهم لتطورهم الفطري. وكأولياء أمور مسلمين، يجد الإنسان نفسه في كثير من الأحيان عاجزًا أمام مجتمع لا يكتفي بالسماح بهذا، بل يقدّمه على أنه فضيلة. لكن المشكلة لا تأتي فقط من الخارج. فحتى داخل المجتمع المسلم، يوجد عدد متزايد من الشباب الذين يصارعون مشاعر متعلقة بالانجذاب الجنسي أو الهوية الجندرية. بعض الشباب يظهر عليهم منذ الصغر سلوك يغلب عليه الطابع الأنثوي أو الذكوري بصورة لافتة، وهو أمر كان معروفًا أيضًا في زمن النبي ﷺ. وآخرون يذهبون أبعد من ذلك، فيعرّفون أنفسهم بأنهم مثليون أو مثليات.

وهنا يبرز السؤال المؤلم: ماذا يفعل الأب أو الأم إذا قال الابن: أبي، أنا مَثلي؟
في كثير من الأسر المسلمة، سواء في الغرب أو في بلدان العالم الثالث، تكون أول ردة فعل هي الطرد، والغضب، والعنف، أو القطيعة الكاملة. بينما نرى في معاصٍ أخرى، مثل التدخين، أو الفيب، أو حتى الزنا، تعاملًا أكثر لينًا، خاصة إذا كان الأمر متعلقًا بالذكور. وهذه الازدواجية في المعايير موجعة جدًا، وغالبًا ما تقود هؤلاء الشباب إلى مزيد من البعد: فيسقط بعضهم في الاكتئاب، أو الإدمان، أو يتركون الإسلام بالكلية.

50.2 الآيات القرآنية:

الآية الأولى: قال تعالى: ﴿**وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ**﴾[573]

• يبرز ابن عاشور أن القضية هنا ليست مجرد فعل فردي، بل **فساد جماعي** وتطبيع لمعصية تُفسد البنية الاجتماعية.

[573] سورة الأعراف، آية (80_81).

• ويرى القرطبي أن هذه المعصية وُصفت بأنها فاحشة غير مسبوقة، ويربطها بالفساد المجتمعي العام.
• أما الرازي فيركّز على بُعد **التمرد الأخلاقي والكبرياء** في قوم لوط، لا على الفعل الجنسي وحده.[574]

الآية الثانية: قال تعالى: ﴿**أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ**﴾[575]

تُظهر هذه الآيات أن العلاقات الجنسية في الإسلام منظَّمة ضمن إطار روحي وأخلاقي واجتماعي يقوم على التكامل بين الرجل والمرأة. فالقرآن يرفض الممارسات الجنسية التي تخرج عن هذا الإطار، لا بسبب الفعل وحده، بل بسبب ما يترتب عليه من آثار على النفس، والأسرة، والمجتمع. ومع ذلك، يبقى الخطاب القرآني قائمًا على **الدعوة إلى التوبة والتصحيح والرحمة**، لا على الكراهية العمياء.
لقد نظم الإسلام العلاقات الجنسية وهذبها ووضع لها أبواب مفتوحة وذلك بالحلال، وهناك الأبواب المغلقة التي تدخل في الحرام، والمطلوب من العبد أن يدخل من الأبواب التي تدعو للحلال وعدم الوقوع في المعصية.

• يذكر ابن عاشور أن الآية تؤكد **الفطرة التي خُلق عليها الإنسان** كأساس للعلاقة الجنسية السليمة.
• ويرى القرطبي أن الآية إدانة واضحة لترك النظام الطبيعي الذي أقامه الله.
• ويشرح الرازي **عادون** لا يدل فقط على مخالفة جنسية، بل على تعدٍّ لحدود الله وتمرد روحي وأخلاقي[576].

الآية الثالثة: قال تعالى: ﴿**وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا**﴾[577]

• يركز ابن عاشور على **الطابع الشامل لهذا التكريم:** فهو يشمل جميع بني آدم، بغض النظر عن الإيمان، أو اللون، أو الجنس، أو حتى الذنوب. وهذا التكريم قائم على الصورة الإنسانية، والعقل، والاختيار، وإمكان الارتقاء الروحي. ولذلك لا يجوز نزع الإنسانية عن أحد بسبب سلوكه أو اضطرابه.
• ويبيّن القرطبي أن هذا التكريم له أبعاد متعددة: تكريم جسدي، ووظيفي، وأخلاقي. وهو يسبق حتى الطاعة الدينية، مما يعني أن كل إنسان له أصل من الكرامة لا يجوز سحقه.
• أما الرازي فيؤكد أن هذه الآية تثبت مكانة الإنسان فوق كثير من المخلوقات، وأن هذه الكرامة تعني أنه لا

[574] انظر: الجامع والتحرير ومفاتيح الغيب، تفسير سورة الأعراف.
[575] سورة الشعراء، آية (165_166).
[576] انظر: الجامع والتحرير ومفاتيح الغيب، تفسير سورة الشعراء.
[577] سورة الإسراء، آية (70).

يجوز إهانته أو سحقه، حتى عند وقوعه في ذنب كبير. فالإنسان ما دام يملك قابلية التوبة والتعلم والرجوع، فلا يجوز أن يُدفن معنويًا وهو لا يزال قادرًا على العودة.[578]

هذه الآية شديدة الأهمية في سياق الحديث عن LGBTQ. فبينما يبادر بعض الناس إلى الاشمئزاز أو الطرد أو العنف، تذكّرنا هذه الآية أن العلاقة الأصلية بين البشر تقوم على **الكرامة والاحترام**، حتى عند وجود المعصية. وبعض الآباء في الغرب يطردون أبناءهم من البيت بمجرد أن يعترف الابن أو البنت بوجود ميول مثلية أو اضطراب هوية. وفي إفريقيا أو آسيا قد يصل الأمر إلى الضرب، أو النبذ، أو حتى ما يسمى بغسل العار. لكن ماذا تكون النتيجة؟ كثير من هؤلاء الشباب يسقطون في الاكتئاب، أو يتجهون إلى المخدرات، أو يتركون الإسلام بالكامل. ومع ذلك يقول الله: ﴿**وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ آدَمَ**﴾ وهذه الكرامة لا تزول بذنب واحد. فكما أننا لا نطرد الابن من البيت إذا وقع في الزنا، فكذلك لا يجوز أن نسحق الابن أو البنت بسبب هذا الصراع الداخلي. نعم، تبقى المعصية معصية، لكن **باب الرجوع يجب أن يظل مفتوحًا**. كما ينبغي أن ننتبه إلى أن ليس كل من يعاني من هذه المشاعر قد خرج من الإسلام، أو تبنّى خطابًا "تقدميًا ". فكثير منهم ما زالوا يصلّون ويصومون ويحاولون أن يفهموا كيف يتعاملون مع ما يشعرون به. هؤلاء يحتاجون إلى **مرافقة وتوجيه**، لا إلى النبذ.

50.3 التأمل في الحديث:

الحديث الأول: عن ابن عباس رضي الله عنه قال: **"لَعَنَ رَسُولُ ٱللَّهِ ﷺ ٱلْمُخَنَّثِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ، وَٱلْمُتَرَجِّلَاتِ مِنَ ٱلنِّسَاءِ"**[579]

التأمل: يوضح ابن حجر العسقلاني أن هذا اللعن متوجه إلى **التشبه المتعمد** بدافع التمرد أو الموضة أو الرغبة في قلب الأدوار، وليس إلى من يمرّ بحالة اضطراب طبيعي أو ضعف نفسي أو صراع داخلي. وكذلك يفرّق النووي بين من يتكلف هذا السلوك اختيارًا، وبين من يظهر عليه شيء من ذلك بطبع أو عارض يحتاج إلى علاج وتوجيه.

المعنى العام للحديث: جبل الله سبحانه وتعالى الرجال على خلقة وطباع تتمايز عن جبلة وخلقة النساء، وهذه خلقة الله، لا تبديل لخلقته، وفي الحديث لعن مَن يحاول أن يغير خلقته ويخرج عنها، فلا ينبغي للرجال التشبه

[578] انظر: الجامع والتحرير ومفاتيح الغيب، تفسير سورة الإسراء.

[579] صحيح البخاري، حديث رقم (5886).

بالنساء في اللباس والزينة وكذا الأخلاق والأفعال الخاصة بالنساء، ولا يجوز للنساء التشبه بالرجال فيما كان ذلك للرجال خاصة، فهذا يستوجب الطرد من رحمة الله تعالى.

الحديث الثاني: قال النبي ﷺ: "**ارْحَمُوا مَنْ فِي الْأَرْضِ يَرْحَمْكُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ**"[580]
التأمل: يستدل كثير من العلماء والمربين بهذا الحديث على أن **التصحيح في الإسلام يبدأ بالرحمة**، حتى عند التعامل مع الكبائر. فالإقصاء بلا توجيه غالبًا ما يؤدي إلى ضرر أكبر، لا إلى إصلاح.

وقد قرر ابن القيم والنووي وغيرهما أن الإنسان لا يكون آثمًا لمجرد وجود المشاعر أو الميل إذا لم يختر الفعل المحرم ولم يستسلم له. بل قد يكون صبره على ذلك وتركه الحرام **سببًا للأجر عند الله.**
المعنى العام للحديث: الحث على التراحم بين الناس وعلى صلة الأرحام، وفيه التحذير الشديد من قطع الأرحام بين الناس.

50.4 الطبقة التأملية:

إن التعامل مع موضوع LGBTQ داخل المجتمع المسلم، خصوصًا في الغرب، يحتاج إلى منهج عميق ومتوازن. فمن جهة، يجب أن نبقى واضحين في مبادئنا العقدية والأخلاقية: **الأفعال المثلية محرمة في الإسلام**، كما تُحرَّم سائر الفواحش والكبائر. لكن من جهة أخرى، لا يجوز أن نختزل الإنسان في معصيته، ولا أن ننزع عنه إنسانيته وحقه في الرعاية والتوجيه والرحمة. فالقرآن يذكر قصة قوم لوط بلغة شديدة، لكنه يضعها ضمن سياق أوسع من **التمرد العلني، والانحلال الجماعي، ومجابهة الوحي.** وما يغيب عن كثيرين أن إدانة الفعل لا تعني الحكم النهائي على كل من يعاني من مشاعر صعبة. بل إن من يعيش هذا الصراع ويحاول أن يثبت على الإيمان قد يكون أقرب إلى الله من غيره، لأنه يجاهد نفسه ولا يتبع هواه. وفي الوقت نفسه، لا يمكن تجاهل الواقع النفسي والاجتماعي. فالأطفال اليوم ينشؤون في بيئة تُقدَّم فيها هذه الأفكار لا كاحتمالات، بل كقيم إيجابية يجب الاحتفاء بها. وهذا يخلق اضطرابًا حقيقيًا، خاصة عند من هم في طور بناء الهوية. وإذا لم يجد الشاب أو الشابة مكانًا آمنًا داخل أسرته أو مجتمعه يسأل فيه، ويفهم، ويعبّر، فسوف يبحث عن الإجابة في أماكن أخرى، وغالبًا في أماكن تقوده بعيدًا عن الفطرة والإيمان. ولهذا فالعنف، والإهانة، والطرد، ليست حلولًا إسلامية. النبي ﷺ لم يكن إذا رأى مبتلىً أو عاصيًا أغلق في وجهه الباب. بل كانت رحمته هي الطريق الذي يعود به الناس إلى الله. والقاعدة التي نحتاجها هنا واضحة:

[580] سنن أبي داود، حديث رقم (4941).

نرفض الفعل، لكن لا نلغي الإنسان. نحافظ على الحدود، لكن لا نغلق باب الرحمة. ومن هنا، فالمجتمع المسلم اليوم يحتاج إلى **أمور عملية:**

بيان الموقف الإسلامي بوضوح، من غير خوف ولا مجاملة، ولكن أيضًا من غير قسوة ولا تحقير.
تهيئة بيئات آمنة للشباب الذين يعانون من هذا الصراع، بحيث يجدون من يسمعهم قبل أن يجدوا من يستغلهم.
توفير مرافقة علمية ونفسية وروحية تجمع بين الإيمان والفهم، لا بين التشدد والسطحية.
التمييز بين الفعل والهوية، وبين المعصية والإنسان، وبين الميل والاختيار.

كما ينبغي أن نسائل أنفسنا بصراحة: لماذا يهرب كثير من الشباب من مجتمعاتهم حين يواجهون مثل هذه الأسئلة؟ لماذا لا يجدون في بيوتنا ومساجدنا إلا إما الصمت، أو الانفجار، أو التبسيط المخل؟ وكيف نلومهم إذا وجدوا هوية بديلة في الخارج، بينما نحن لم نقدم لهم داخل الأمة حضنًا آمنًا ولا لغةً صادقة؟

وفي النهاية، فإن هذا الملف يجب أن يدفعنا إلى **الاستثمار في التربية والعلاقة مع الأبناء**، وفي بناء بيوت تُطرح فيها الأسئلة بصراحة، وتُربّى فيها النفوس على الفطرة، ويُفهم فيها الدين على أنه نور ورحمة وهداية، لا فقط قائمة من الصدمات والعقوبات.

50.5 الخاتمة:

إن موضوع LGBTQ يفرض على المسلم أن يكون في الوقت نفسه **ثابتًا على المبدأ، رحيمًا في الخطاب، حكيمًا في المعالجة**. فالقرآن لا يترك شكًا في تحريم الأفعال المثلية، كما يظهر من قصة قوم لوط. والسنة تؤكد الحدود الأخلاقية كذلك. لكن في المقابل، يأمرنا ديننا أيضًا بالرحمة، والرعاية، والهداية، والعدل، حتى مع من يخطئ أو يصارع نفسه. فنحن بحاجة **إلى مجتمع:**

- يعرف كيف يضع الحدود دون أن يزرع الكراهية،
- ويقدّم العون للشباب الذين يمرون بصراعات داخلية،
- ويفتح أبواب الحوار دون أن يذوب في النسبية،
- ويربي أبناءه على الوضوح والمحبة والثبات الروحي، حتى يكونوا أقدر على مواجهة اضطرابات زمانهم.

إن شباب المسلمين يعيشون اليوم وسط عالم مليء بالضغوط، والإغراءات، والتأثيرات الفكرية والإعلامية. وإذا نحن لم نرشدهم بالعلم، والدفء، والوضوح، فسوف يتلقفهم غيرنا ويمنحهم هوية ومسارًا قد يكون أبعد ما يكون عن الفطرة وعن الله. فلنعد إذن إلى جوهر ديننا: **الحكمة، والطهارة، والرحمة، والحق.** ولنظل نرى الناس على أنهم من بني آدم الذين كرّمهم الله، حتى إذا أخطأوا، وحتى إذا تاهوا، وحتى إذا أرادوا أن يرجعوا. فالذي ينطق بالحق برحمة، يفتح القلوب.

الفصل 51 (البيئة وحقوق الحيوان) خلافة الإنسان: المسؤولية تجاه الأرض:

51.1 الملاحظة:

مَن يسافر في إفريقيا أو آسيا أو الشرق الأوسط، كثيرًا ما يصطدم بمشهد مقلق: نفايات ملقاة في كل مكان في الشوارع، وأكياس بلاستيكية تتطاير مع الريح، وقمامة مشتعلة على أطراف القرى، وكلاب وقطط ضالة تبحث بخوف بين الأنقاض. وكأن أحدًا لم يعد ينزعج من ذلك. كل شيء يُرمى في الخارج ببساطة: بقايا الطعام، الحفاضات، القوارير، العلب المعدنية وغيرها، ويبدو أن الحرق هو الخيار الأسهل. أما انبعاثات ثاني أكسيد الكربون الناتجة عن آلاف الدراجات النارية والسيارات القديمة، فليست أصلًا موضوعًا للنقاش، إذ لا تكاد توجد بنية تحتية أو سياسات حكومية قادرة على معالجة الأمر بشكل مختلف. ومع ذلك، فإن هذا المشهد يلامس الإنسان في العمق. ليس فقط من الناحية الجمالية، بل بالأخص من الناحية الأخلاقية: كيف انفصلنا، نحن البشر، إلى هذا الحد عن مسؤوليتنا تجاه الأرض وتجاه من يسكنها؟

في الكثير من هذه البلدان تُترك الحيوانات تمامًا لمصيرها. الكلاب تتجول جائعة، والقطط تُطرد، والحيوانات المريضة تموت في الشوارع. ولكن من يستطيع أن يلوم الناس كثيرًا، إذا كان البشر أنفسهم لا يملكون أحيانًا حق الوصول إلى أبسط أشكال الرعاية الصحية؟

أما في الغرب، فالوضع مختلف، لكن الضمير ليس بالضرورة أنقى. فهناك أنظمة لمعالجة النفايات، لكنك ترى في الوقت نفسه الرمي العشوائي، والإفراط في الاستهلاك، والكسل المريح: الناس يفضلون استخدام السيارة لمسافة كيلومتر واحد فقط، ويأكلون اللحم يوميًا من دون تفكير، ويشترون كل أسبوع ملابس جديدة من سلاسل الأزياء السريعة التي تستنزف الأرض. الإفراط هناك منظّم ومخفي، لكن الضرر لا يزال حقيقيًا.

لقد أصبح الوعي البيئي اليوم يُصنَّف وكأنه ينتمي إلى المعسكر النشطوي، وكأن العناية بالأرض خيار أيديولوجي، بينما هو في الحقيقة أمر قرآني ونبوي.

51.2 آيات قرآنية:

الآية الأولى: قال تعالى: ﴿**وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً**﴾[581]

• يؤكد ابن عاشور أن لفظ *الخليفة* لا يشير فقط إلى آدم عليه السلام كفرد، بل إلى الإنسانية جمعاء. وهذا يقتضي مسؤولية أخلاقية في التعامل بالعدل مع ما ائتمن الله الإنسان عليه، ومن ذلك البيئة أيضًا.

• ويذكر القرطبي سبعة معانٍ لكلمة *الخليفة*، من بينها القائمون على عمارة الأرض، ويشير إلى أهمية إقامة من يحفظ الخلق ولا يفسده. ويرى أن هذه الآية دليل على أن رعاية الأرض مهمة دينية.

• أما الرازي فيتأمل سبب تعجب الملائكة، إذ الإنسان قد يخطئ ويُفسد. لكن جواب الله يدل على أن الإنسان قادر أيضًا على الارتقاء إلى أعلى درجات الأخلاق، وحين يمارس العناية والعدل في دوره على الأرض.[582]

الآية الثانية: قال تعالى: ﴿**وَلَا تُسْرِفُوا ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ**﴾[583]

• يؤكد ابن عاشور أن الإسراف لا يقتصر على الطعام أو اللباس، بل يشمل كل الموارد، بما فيها الثروات الطبيعية. فالإفراط في الاستهلاك وتبذير ما خلقه الله ممنوع، وله أثر روحي مفسد.

• ويرى القرطبي أن هذه الآية دليل على أن التبذير، بأي صورة كان، محرم. وينقل أقوالًا عن الصحابة والتابعين في التبذير في ماء الوضوء، أو الطعام، أو الإفراط في استعمال المال.

• ويربط الرازي الإسراف بالكبر واللامبالاة بنعم الله، ويرى أن التبذير علامة على قلب لا يعرف الشكر ولا يشعر بالمسؤولية.[584]

الآية الثالثة: قال تعالى: ﴿**وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم**﴾[585]

يشير ابن عاشور أن الآية ترفع من شأن الحيوانات: فهي *أمم* كما أن البشر أمم. وهذا يعني أن لها نظامها الخاص، ومصالحها، وترابطها الداخلي. وحقوقها إذًا ليست اختيارية، بل متجذرة في كونها من خلق الله.

---

[581] سورة البقرة، آية (30).

[582] انظر: الجامع والتحرير ومفاتيح الغيب، تفسير سورة البقرة.

[583] سورة الأعراف، آية (31).

[584] انظر: الجامع والتحرير ومفاتيح الغيب، تفسير سورة الأعراف.

[585] سورة الأنعام، آية (38).

•ويقرر القرطبي أن هذه الآية تدل على أن الحيوانات تعيش بنظام منظم كما يعيش الإنسان، ويستنبط منها حكمًا فقهيًا: وهو تحريم تعذيب الحيوانات أو قتلها أو إهمالها بلا حاجة.

•أما الرازي فيتأمل في أن جميع المخلوقات يدبرها الله، وأن إدراك هذه الحقيقة ينبغي أن يقود إلى الرحمة لا إلى التسلط. ويرى في الآية دعوة إلى التواضع أمام سائر أشكال الحياة.

إن القرآن يذكّرنا بأننا مستخلفون في الأرض ولسنا مُلّاكًا مطلقين لها. فالتبذير منهيّ عنه، والحيوانات أمم كاملة لها حق في الرعاية والاحترام. سواء تعلق الأمر بالنفايات الملقاة في الشوارع، أو بإيذاء الحيوانات، أو بالإفراط في الاستهلاك، فإن من واجبنا أن نتعامل بوعي ومسؤولية مع خلق الله سبحانه وتعالى. فالوعي البيئي ليس موضة غربية، بل قيمة أصيلة في الإسلام.

51.3 تأمل في الحديث:

الحديث الأول: قال النبي ﷺ: "**مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَغْرِسُ غَرْسًا أَوْ يَزْرَعُ زَرْعًا فَيَأْكُلُ مِنْهُ إِنْسَانٌ أَوْ دَابَّةٌ أَوْ طَيْرٌ إِلَّا كَانَ لَهُ بِهِ صَدَقَةٌ**"[586]

المعنى العام للحديث: ينبه النبي ﷺ على فضل الغرس والزرع، بيان فضل الزراعة، والعمل بالحرث. وفيه الحض على عمارة الأرض ليعيش الإنسان بنفسه أو مَن يأتي بعده ممن يؤجر فيه.

الحديث الثاني: قال النبي ﷺ: "**دَخَلَتِ امْرَأَةٌ النَّارَ فِي هِرَّةٍ رَبَطَتْهَا، فَلَا هِيَ أَطْعَمَتْهَا، وَلَا هِيَ تَرَكَتْهَا تَأْكُلُ مِنْ خَشَاشِ الْأَرْضِ**"[587].

المعنى العام للحديث: التحذير من تعذيب الحيوان، والحث على الإحسان إليه، والتنفير من الإساءة إلى البهائم والحيوان،

الحديث الثالث: قال النبي ﷺ: "**بينما رجل يمشي بطريق اشتد عليه العطش فوجد بئراً فنزل فيها فشرب ثم خرج فإذا كلب يلهث يأكل الثرى من العطش فقال الرجل: لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذي بلغ بي فنزل البئر فملأ خفه ماء ثم أمسكه بفيه حتى رقي فسقى الكلب فشكر الله له فغفر له، فقالوا: يا رسول الله إن لنا في البهائم لأجراً؟ فقال: في كل ذات كبد رطبة أجر**"[588].

المعنى العام للحديث: أمر الله عز وجل بالرحمة لجميع المخلوقات وجعل الإسلام دين الرحمة والإحسان، ومن

---

[586] صحيح البخاري، حديث رقم (2320).

[587] صحيح مسلم، حديث رقم (2619).

[588] صحيح البخاري، حديث رقم (2466).

شدة عنايته بهذا المبدأ العظيم، فإنه أمر بالإحسان لكل شيء حتى للحيوان، ووعد على ذلك بالأجر الجزيل. إذا حصلت المغفرة بسبب سقي الكلب فسقي بني آدم أعظم أجراً. وفيه فضل سقيا الماء وكونه من أعظم القربات.

الحديث الثالث: قال النبي ﷺ: **"كان على الطريق غصن شجرة يؤذي الناس، فأماطها رجل فدخل الجنة".**[589]

المعنى العام للحديث: حض الإسلام على أفعال الخير، والعمل الصالح الذي يعود على المسلمين بالنفع، مع الوصية برفع الضرر والأذى عنهم وخاصة في البيئة المحيطة بهم. فيه الترغيب في إماطة الأذى عن الطريق، وتفضيل الله تعالى بالأجر الكبير على العمل اليسير.

التأمل:

في هذه الأحاديث روحانية عميقة: غرس شجرة عبادة، وإهمال حيوان معصية. إن العناية الإسلامية بالبيئة ليست مفهومًا غربيًا حديثًا، بل هي متجذرة بعمق في السنة النبوية.

51.4 الطبقة التأملية:

إن القرآن الكريم والسنة النبوية يعلّماننا أن العناية بالأرض ليست ترفًا، بل واجبًا. فنحن لسنا أصحابًا مطلقين، بل خلفاء على ما خلقه الله. وهذا يعني أن كل تصرف، من استعمال الماء إلى التعامل مع الحيوان، هو جزء من عبوديتنا لله.

من يغرس شجرة يكتب لنفسه صدقة تمتد عبر السنين. ومن يطعم حيوانًا، لا يكرم مخلوقًا فحسب، بل يكرم خالق ذلك المخلوق. ومن يُسرف أو يهمل أو يفسد، فإنه يخون دوره كخليفة ويؤذي خلق الله.

إن المشكلات البيئية الحالية، من جبال النفايات إلى تلوث الهواء إلى إساءة معاملة الحيوانات، ليست مجرد مشكلات اجتماعية أو بيئية، بل أمراض أخلاقية وروحية. إنها تكشف إلى أي مدى ابتعد الإنسان أحيانًا عن مهمته كعبد لله وكمستخلف في الأرض.

توجيهات عملية:

- **الاستهلاك الواعي:** اشترِ ما تحتاجه، لا ما تشتهيه. وتجنّب إهدار الطعام والماء والطاقة.
- **العناية بالحيوانات:** عاملها باعتبارها أممًا لها حقوق. فلا إيذاء بغير ضرورة، ولا إهمال.
- **التخضير الفعّال:** غرس الأشجار والنباتات ليس أمرًا ثانويًا، بل هو صورة من صور الصدقة الجارية ما دام

[589] سنن ابن ماجه، حديث رقم (3682).

فيها نفع للحياة.

• **احترام الخلق:** تجنب التلوث، وإحراق القمامة بعبث، والرمي العشوائي. فهذه ليست ذنوبًا صغيرة، بل علامات على ضعف الشكر للخالق.

• **التعليم والتوعية:** علّم الأطفال أن فرز النفايات، والعناية بالحيوانات، والاقتصاد في الماء، كلها أعمال من العبادة. فالإسلام ليس دينًا يُهمل الخلق، بل دين يذكّرنا بأن كل ذرة تراب وكل قطرة ماء هي أمانة من الله. فمن احترم الأرض فقد احترم ربها، ومن دمّرها فقد أظهر جحوده لنعمه.

51.5 الخاتمة:

إن الإسلام يعلّمنا أن العناية بالبيئة ليست أمرًا هامشيًا، بل جزءًا من الإيمان نفسه. فغرس شجرة، والمحافظة على نظافة الماء، وإطعام حيوان، والاقتصاد في الاستهلاك، كلها أشكال من العبادة. أما من يُسرف أو يلوّث أو يُهمل، فإنه يُظهر جحوده تجاه خلق الله ويفقد البركة في حياته.

لقد وصفنا القرآن بأننا *خلفاء* في الأرض: ممثلون لأمر الله فيها نحمل المسؤولية، ولسنا مالكين نتصرف فيها على هوانا. ولذلك فإن تعاملنا مع النفايات والطاقة والطعام والحيوانات ليس مجرد نشاط بيئي، بل مرآة لإيماننا. ومستقبل الأمة مرتبط بكيفية تعاملنا مع الأرض. فمجتمع يلوث بيئته ويهمل حيواناته لا يمكن أن يكون قائدًا روحيًا للبشرية. أما المجتمع الذي يجسد الطهارة، والاعتدال، واحترام الخلق، فسيعود حاملًا للنور. إن العناية بالبيئة ليست خيارًا، بل اختبار. ومن ينجح في هذا الاختبار يثبت شكره لله، ويترك الأرض أمانةً للأجيال القادمة.

من الكلمة إلى العمل (خاتمة الكتاب):

إنّ القرآن الكريم ليس مجرد كتاب عادي. إنّه هداية. وبوصلة للحياة. ونور في الظلمات لمن تاه الطريق. ومن قرأ كتاب الله قراءة صحيحة، وفهمه، وطبّقه، وتدبّره، سيدرك أنّ القرآن يصوغ رؤية كونية تمسّ كل أبعاد الحياة: من باطن القلب إلى بناء المجتمع. وهذا بالضبط ما أراد هذا الكتاب أن يبرزه: فالقرآن ليس فقط سلوى روحية، بل هو أيضًا مخطط عملي للإصلاح، على المستوى الفردي والجماعي.

لقد بدأنا هذا الكتاب من منطلق واضح: **كل شيء يبدأ بالقرآن.** لكن القرآن ليس مجموعة متفرقة من الكلمات. بل هو نظام متكامل من المعاني، قائم على أركان الدين، وعلى البناء الروحي والنفسي، وعلى الأسرة، وعلى المجتمع. وهذه الركائز الأربع تمثل نموًّا طبيعيًا: من الداخل إلى الخارج، ومن الذات إلى المجتمع.

فإذا كان الفرد ضعيفًا، غارقًا في الإدمان، أو في اضطراب داخلي، أو في جهل بدينه، فكيف يمكننا أن نتحدث عن أمة قوية؟ وإذا كانت الأسرة تتفكك، وإذا كنا لا نفهم أدوارنا كآباء أو أبناء، فأي مجتمع نبني؟ وإذا كانت جماعاتنا تغرق في ممارسات ثقافية تتصادم مع القرآن، فكيف نزعم أننا نتبع الكتاب؟

من نور إلى نور

يقول الله تعالى: ﴿**اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ... نُورٌ عَلَى نُورٍ**﴾[590]

كل إنسان يحمل في داخله نورًا فطريًا، هو **الفطرة**، الاستعداد الخِلقي للخير. لكن هذا النور الداخلي قد يبهت، أو يُحجب، أو ينطفئ بسبب الذنوب، أو الجراح النفسية، أو التربية المختلة، أو البيئة الفاسدة. وجاء القرآن ليعيد لذلك النور إشراقه. فعندما يتصل نور الإنسان الداخلي، أي العقل والنفس السليمة، بنور الوحي، ينشأ **نور على نور**: بصيرة واضحة، وقوة أخلاقية، وسكينة روحية.

وكما قال ابن القيم: "**يمتلك الإنسان شمعة، ولكن من دون زيت تنطفئ. والقرآن هو زيت الروح.** "

لقد كانت رسالتنا من خلال هذا الكتاب أن نوقظ هذا النور. فبعض الناس لا يزال عنده مجرد شعلة صغيرة، وبعضهم يكاد نوره أن يخبو. لكن بالقرآن، وبالعلم، وبتجديد الصلة بالله، يمكن لتلك الشعلة أن تصبح منارة، لنفسه ولغيره. ولهذا نقول في **Gardens of the Sincere**: إن الحل يبدأ بإعادة الارتباط بالقرآن، ولكن مع **الفهم، والتدبر، والعمل**. لا مجرد تلاوة، بل تأمل. لا مجرد إعجاب، بل تطبيق.

لذلك نستثمر في ثلاثة مستويات:

1. **الوقف والاستدامة**: الأراضي، والمزارع، والاكتفاء الذاتي. فالاستقلال شرط من شروط العزة.
2. **التعليم والمعرفة**: الكتب، والمحاضرات، والجامعات. فالشعب الذي لا يفهم، لن يقود.
3. **تغيير العقليات**: عبر القرآن. فلا ثورة بلا إصلاح في طريقة التفكير.

نحن نؤمن أنه إذا اجتهد كل مسلم، رغم عيوبه وأخطائه، في طاعة الله، فإن الأمة ستزداد قوة. حينها فقط يمكننا أن نغيّر الواقع. وحتى أمرٌ مفجع مثل الإبادة في غزة، لن نقف أمامه عاجزين، بل سنقابله بتأثير حقيقي. ولدينا في نبينا الحبيب ﷺ المثال الأعلى: رجل بلا سلطة دنيوية، ولا ثروة، ولا جيش، لكنه امتلك **كتابًا، وإيمانًا، ورؤية**. وفي ثلاثٍ وعشرين سنة غيّر العالم: غيّر طريقة تفكير الناس، وأكلهم، وكلامهم، وطهارتهم، ومعاملاتهم، وإيمانهم. وطريقه هو طريقنا. وذلك الطريق يبدأ بالقرآن.

[590] سورة النور، آية (35).

محيط من المعرفة:

أما بالنسبة لي شخصيًا، فقد كان هذا الكتاب رحلة. رحلة في القرآن. وكلما تعلّمت أكثر، ازددت يقينًا بمدى قلّة ما أعلم. وكما يقول العلماء: "**من حصل العلم حقًا، ازداد تواضعًا.** "فالقرآن كالمحيط. أما الحفظ فهو السطح. وأما اللآلئ... فلا تُنال إلا بالغوص. وليس كل غائص يجد اللؤلؤة نفسها. فكل من يغوص يخرج بشيء فريد. فمرّة يجد درسًا في الصبر، ومرة يجد دعوة إلى الجهاد، ومرة يجد تذكيرًا بالمحبة، ومرة يجد تحذيرًا من الكبر. فالقرآن يخاطب البشرية كلها: المسلم وغير المسلم، المؤمن والمتردد، الصغير والكبير. فبعضهم يرى نفسه فيه، وبعضهم يرى خطأه. لكن من أصغى حقًا، لا بد أن يتأثر. ولهذا أكرر دائمًا:
ارجعوا إلى القرآن، لا باعتباره لحنًا، بل باعتباره **دليلًا**. ارجعوا إليه مع التفسير، والشرح، والتدبر.

مسؤوليتنا المشتركة:

إن الأمة اليوم تواجه تحديات هائلة. وإذا كانت هناك سورة واحدة تختصر الحياة كلها، فهي **سورة العصر**:

﴿**وَالْعَصْرِ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ**﴾

هذه الآيات الثلاث تمثل خريطة طريق للنجاح في الدنيا والآخرة:

الإيمان – وهو الجذر. **العمل الصالح** – وهو الثمرة. **التواصي بالحق** – وهو المسؤولية المجتمعية.

التواصي بالصبر – وهو الثبات رغم الصعوبات.

قال الإمام الشافعي: "**لو ما أنزل الله على خلقه حجة إلا هذه السورة لكفتهم.** "وذلك لأن الخسران يهددنا دائمًا: خسران الوقت، وخسران المعنى، وخسران الهوية. لكن من حافظ على هذه الأربع متوازنة، فلن يكون من الخاسرين حقًا.

الخاتمة:

كان هذا الكتاب محاولةً لملامسة القلوب، وفتح العيون، وتقريب القرآن من النفوس. ولا يستطيع أي إنسان أن يحيط بكمال كلام الله، ولذلك فهذا العمل ليس نهاية المطاف، بل مجرد بداية.

القرآن هدى لا يَبلى. لقد خاطب الجيل الأول من المسلمين في مكة والمدينة، وهو يخاطبنا اليوم في عالم التكنولوجيا، والوفرة، والاضطراب. وسيظل يخاطب الناس إلى قيام الساعة. وما علينا إلا ألّا نكتفي بقراءة رسالته، بل أن نفهمها، ونعيشها، ونورثها للأجيال القادمة.

وما رأيناه في هذه الصفحات هو أن القرآن يوجّهنا في أربعة ميادين حاسمة: في علاقتنا بالله، وفي تزكية قلوبنا، وفي علاقاتنا مع الوالدين، والزواج، والأسرة، وفي دورنا داخل المجتمع. وهذه جميعًا تشكّل لبنات حياة راسخة الجذور في الإيمان، وقادرة في الوقت نفسه على أن تكون ذات صلة بعالم سريع التغير.

نسأل الله أن تكون هذه الصفحات مفتاحًا لمزيد من التأمل، وطلب العلم، وقبل ذلك كله لتعميق صلتنا بالله. لأن الهدف الحقيقي ليس أن نحمل كتابًا قد أُتمّت قراءته بين أيدينا، بل أن نحمل الكتاب المعيش في قلوبنا.

نسأل الله أن يغفر لنا تقصيرنا، وأن يهدينا إلى الصراط المستقيم، وأن يطهّر قلوبنا، ويصلح علاقاتنا، ويجعلنا من عباده الذين يساهمون في إقامة مجتمع عادل. ونسأله سبحانه أن يجمعنا في جنات النعيم، تحت ظل عرشه، في صحبة الأنبياء، والصدّيقين، والشهداء، والصالحين.

الخاتمة: الرؤية القرآنية للعالم في حيّز التطبيق:

القرآن ليس كتابًا يُقرأ فحسب، بل هو بوصلة حيّة. إن رؤيته للعالم لا تطلب الفهم فقط، بل التطبيق أيضًا. فمن فهم القرآن ولم يعش به، امتلك علمًا بلا هداية. إن تحدّي عصرنا ليس نقص المعلومات، بل نقص التحوّل. ولذلك يجب أن تتجلّى الرؤية القرآنية للعالم في مدارسنا، واقتصادنا، وأسرنا، وأعمالنا.

التعليم أساس البناء:

كل نهضة تبدأ بالعلم. فالقرآن يرفع العلم إلى مرتبة العبادة، ويعلّم أن العلم الحقيقي يزكّي القلب ويرفع المجتمع. ولهذا ينبغي ألا يقتصر تعليمنا على نقل المعلومات، بل يجب أن يصوغ الأرواح، ويعلّم الشباب أن يفكروا ويشعروا ويتصرفوا بوعي قرآني. وهذا أيضًا هو هدف **Gardens of the Sincere**: المساهمة في بناء المدارس، والجامعات، ومراكز المعرفة التي يسير فيها الإيمان والعلم والأخلاق جنبًا إلى جنب. حيث لا يتعلّم الشباب فقط كيف ينجحون في الحياة، بل كيف يعيشون حياة ذات معنى. وكما تشكّل الجيل الأول من المسلمين في مدرسة النبي ﷺ، نريد نحن أيضًا أن نعيد إنارة القلوب بعلم يقود إلى المسؤولية.

الاقتصاد والمسؤولية:

يعلّمنا القرآن أن المال ابتلاء وليس غاية. فالزكاة، والصدقة، والوقف، هي أسس اقتصاد عادل تكون فيه التضامن والثقة في المركز. وتسعى منظمتنا، **Gardens of the Sincere**، إلى إحياء هذا النموذج

القرآني من جديد عبر مشاريع مستدامة، والزراعة، ومصادر المياه، والتعليم، والاستقلال الاقتصادي. فنحن لا نبني الآبار والمساجد فحسب، بل نقيم أيضًا أنظمة وقف تولّد دخلًا دائمًا للأجيال القادمة. وإلى جانب ذلك، نعمل على تطوير **بنك حلال** ونظام **تمويل أخلاقي**، حتى يحصل المسلمون في أنحاء العالم على قروض بلا ربا، واستثمارات عادلة، واقتصاد قائم على البركة بدلًا من الربا. إن رسالتنا ليست مجرد صدقة، بل تغيير بنيوي حقيقي، حتى لا تبقى الفاقة تُقاوَم مرة بعد مرة، بل تزول من جذورها.

النضال بالإيمان والحكمة:

يدعونا القرآن إلى الوقوف في وجه الظلم، ولكن بعلم، وحكمة، وصبر. إن النضال – بمعناه القرآني – ليس صراخًا، بل خدمة؛ وليس مجرد احتجاج، بل بناء. وتريد **Gardens of the Sincere** أن تحوّل هذا النضال إلى عمل مستدام: عبر المؤتمرات، والمنشورات، والحملات المجتمعية، والتعاون مع المساجد والمدارس. نريد أن نكون صوتًا للعدالة، والرحمة، والمعرفة، من خلال كتابة الكتب، وتنظيم الدورات، وإلهام الشباب المسلم في العالم كله نحو تغيير إيجابي. فكل عمل، مهما بدا صغيرًا، يمكن أن ينشر النور إذا انطلق من الإخلاص والتوكل على الله.

دعوة إلى المسؤولية:

إن الرؤية القرآنية للعالم ليست نظرية، بل رسالة حياة. إنها تطلب منا أن نبني مجتمعات تُقاد بالعلم، وتُحمَل بالعدل، وتُحييها محبة الله. وتريد **Gardens of the Sincere** أن تكون حلقة عملية في هذا المسار: بين الإيمان والاقتصاد، وبين التعليم والعمل، وبين الروحانية والمسؤولية. نريد أن نُسهم في صناعة جيل لا يكون معتمدًا على المساعدة، بل قادرًا على تقديمها، جيل لا يكتفي بالكلام عن التغيير، بل يجسّده في الواقع.

نسأل الله أن يجعلنا من عباده الذين لا يكتفون بتلاوة القرآن، بل يُحيونه في أعمالهم، وفي اقتصادهم، وفي تعليمهم، وفي مجتمعاتهم. ونسأله سبحانه أن يتقبل أعمالنا، ويطهّر نياتنا، وأن يجمعنا في جنات الفردوس، تحت ظل عرشه، مع النبي ﷺ، والصديقين، والشهداء، والصالحين.

الملاحق

مسرد المصطلحات المهمة

المصطلح	المعنى
الله	الإله الحق الواحد في الإسلام، خالق كل شيء.
القرآن	الكتاب المقدس في الإسلام، كلام الله المنزل على النبي محمد ﷺ.
السنة	طريقة حياة النبي محمد ﷺ، وأقواله، وإقراراته.
الحديث	الروايات المنقولة عن أقوال النبي ﷺ وأفعاله.
التفسير	شرح القرآن الكريم وبيان معانيه.
العبادة	كل ما يُتقرَّب به إلى الله من أعمال تعبدية وطاعات.
الإيمان	التصديق القلبي، والإقرار باللسان، والعمل بالجوارح.
الإسلام	الاستسلام لله بالعبادة والطاعة، وترك الشرك.
التقوى	استشعار مراقبة الله، وخشيته، واجتناب معصيته.
الشريعة	الأحكام الإسلامية المستمدة من القرآن والسنة.
أركان الإسلام	الأسس الخمسة للإسلام: الشهادة، الصلاة، الزكاة، الصوم، الحج.
الشهادة	قول: ‘‘لا إله إلا الله، ومحمد رسول الله. ’’
الصلاة	العبادة المفروضة التي تؤدى خمس مرات في اليوم.
الزكاة	الصدقة الواجبة على من بلغ النصاب 2.5% .
الصوم	الامتناع عن المفطرات، خاصة في شهر رمضان.
الحج	الحج إلى مكة، وهو واجب مرة واحدة في العمر لمن استطاع إليه سبيلًا.
الدنيا	الحياة الدنيوية المؤقتة، في مقابل الآخرة.
الآخرة	الحياة بعد الموت.
القدر	التقدير الإلهي؛ الإيمان بأن كل شيء مقدر من الله بحكمة.
الأمة	جماعة المسلمين في العالم كله.
الصبر	الثبات والتحمل في الشدائد.
الشكر	الامتنان لله على نعمه.
النفس	الروح أو الأنا، وغالبًا ما ترتبط بالميول التي تحتاج إلى تهذيب وضبط.
الجنة	دار النعيم، وثواب المؤمنين في الآخرة.

المعنى	المصطلح
النار، دار العقاب للكافرين والعصاة.	**جهنم**
الإيمان بوحدانية الله المطلقة.	**التوحيد**
جعل شركاء لله، وهو أعظم الذنوب في الإسلام.	**الشرك**
الإحداث في أمور الدين، وغالبًا ما يعد أمرًا مذمومًا.	**البدعة**
ما أباحته الشريعة الإسلامية.	**الحلال**
ما حرمته الشريعة الإسلامية.	**الحرام**
مؤسسة خيرية إسلامية؛ مال منقول أو غير منقول يُحبس في سبيل الخير.	**الوقف**
أهل العلم في العلوم الشرعية الإسلامية.	**العلماء**
الدعوة إلى الإسلام وتبليغ رسالته.	**الدعوة**
الطبيعة الأصلية التي خلق الله الإنسان عليها، والمهيأة لمعرفة الله والإقرار به.	**الفطرة**

قائمة المصادر:

هذا الكتاب قائم على مصادر كلاسيكية وحديثة تُعد في التراث الإسلامي مصادر أصيلة وموثوقة وذات اعتبار. ويعكس الجمع بين تفسير القرآن، ومجموعات الحديث، والأدب الأخلاقي والاجتماعي، تكامل الإيمان والعقل والواقع الذي بُني عليه هذا العمل.

القرآن والتفسير

- **القرآن الكريم** النص العربي والترجمة الهولندية.
- **تفسير ابن كثير** إسماعيل بن عمر بن كثير، القرن الرابع عشر
- **تفسير القرطبي** محمد بن أحمد القرطبي، القرن الثالث عشر
- **تفسير الرازي** فخر الدين الرازي، القرن الثاني عشر
- **تفسير ابن عاشور** محمد الطاهر ابن عاشور، القرن العشرون
- **تفسير الألوسي** شهاب الدين الألوسي، القرن التاسع عشر
- **تفسير البغوي** الحسين بن مسعود البغوي، القرن الثاني عشر
- **تفسير السعدي** عبد الرحمن السعدي، القرن العشرون
- **تفسير البيضاوي** ناصر الدين البيضاوي، القرن الثالث عشر
- **المحرر الوجيز** ابن عطية، القرن الثاني عشر
- **التحرير والتنوير** ابن عاشور، النسخة الكاملة

مجموعات الحديث

- **صحيح البخاري**
- **صحيح مسلم**
- **سنن أبي داود**
- **سنن الترمذي**
- **سنن النسائي**
- **مسند أحمد بن حنبل**
- **رياض الصالحين** – الإمام النووي

علم الكلام والأخلاق الكلاسيكية

- **إحياء علوم الدين** – الإمام الغزالي
- **مدارج السالكين** – ابن القيم
- **الفوائد** – ابن القيم
- **معجم مقاييس اللغة** – ابن فارس للتحليل اللغوي
- **المقاصد الشرعية** – الشاطبي

مؤلفات ومراجع حديثة

- **في ظلال القرآن** – سيد قطب
- **تفسير المنار** – محمد عبده ورشيد رضا
- **Qur'anic Worldview** – البروفيسور مالك بدري
- **The Study Qur'an** – تحرير: سيد حسين نصر بالإنجليزية، عمل أكاديمي
- **Introduction to the Qur'an** – م. عبد الحليم
- **The Message of the Qur'an** – محمد أسد

مصادر اجتماعية ونفسية

- **Islam tussen cultuur en religie** – طارق رمضان
- **Reclaiming the Mosque** – جاسم عودة
- **Spiritual Purification in Islam** – الإمام الحداد ترجمة
- **The Fragile Vessels** – محمد الجبالي حول دور المرأة في الإسلام
- **دراسات متنوعة من Pew Research وUNICEF** حول الزواج، والتربية، وLGBTQ+، والبلدان النامية

ولأجل تنظيم بعض النصوص، وإعادة صياغتها، وصقلها، تم استخدام أدوات اصطناعية حديثة استخدامًا محدودًا، مع بقاء المراجعة النهائية كاملة بيد المؤلف.